

تاريخ عذرا العربيا

في فرنسا وسويسرا واطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الامير شيكيبا اسلا

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وقفه الله لما رضاء

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

ثالث عشر وازا العربيا

في فرنسا وسويسرا واطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الامير شيكيب ارسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه

— 306 —

دار الكتب العلمية

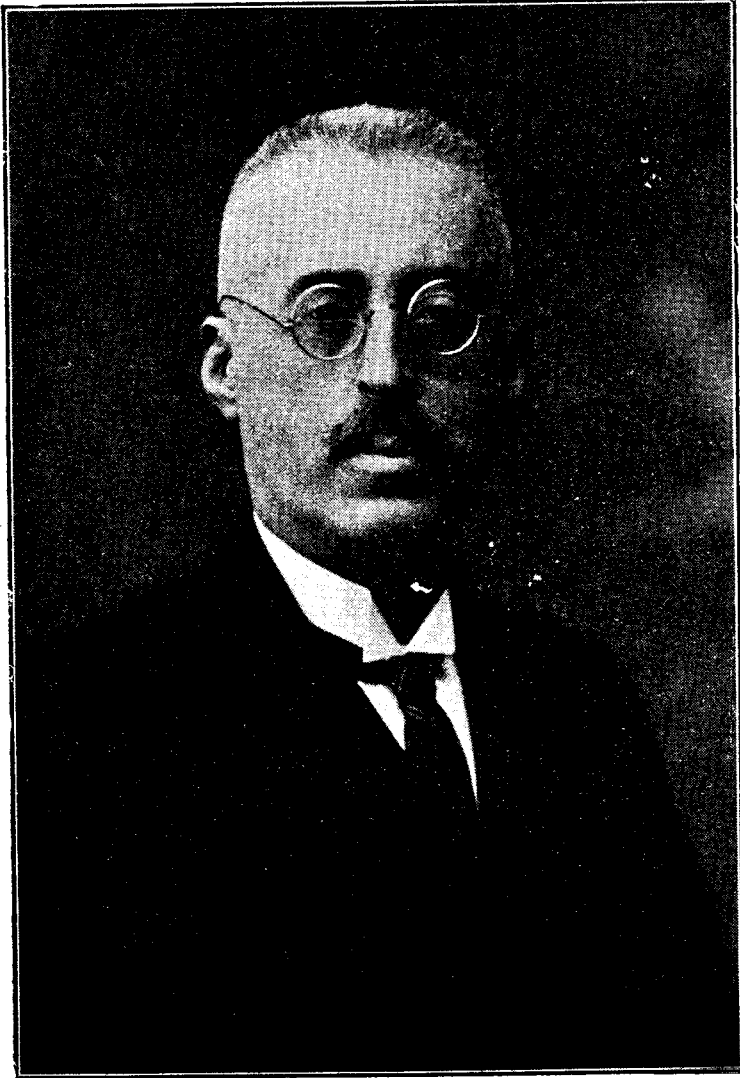
بيروت - لبنان



مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com



نحن لا نصور الكتب وإنما نعيد إتاحتها وتجميعها على شكل أرشيف



عطوفة الامير شكيب أرسلان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا إليك نفرح من مداحص القدم ، وبك نستعصم في ما يجري به القلم .
ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك باري النسم ومفيض النعم ، وباسط
الوجود على العدم ، شهادة نعددها للنجاة اذا اشتدت النعم ، وتتقى بها النار ذات الضرم .
ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا الى توحيدك من بين الأمم ، وسلطان
من طهر الأرض من عبادة الصنم ، المنزل عليه كلامك الموصوف بالقدم ، البعث بالآيات
الباهرة والحكم . اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم ، وأصحابه
حملة الكتاب وليوث الكتائب في المزدحم ، الذين أشرفت شموسهم في الشرق
والغرب فأماطت الظلم وأنارت الظلم ، وسلم يارب كثيراً
وبعد فانه مما يجب أن يخذ في الصدور قبل السطور ، وأن يكتب على الحدق
قبل الورق ، ان حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموها ، ورقى الأقوام
وسموها ، وانه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة
بنفسها الا اذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها ، متذكرة لأوليائها ومبادئها ، مقيدة
لوقائعها . مسلسلة لانسابها حاشدة لاحسابها خازنة لأدائها ، مما لا يقوم به الا علم
التاريخ الذي هو الواصل بين الماضي والمستقبل ، والرابط بين الآنف والمستأنف . وانه
لا جدال في كون الأمة العربية التي تتحفز لتنباع وتستوفز لتمد طائل الباع ، لم تكن
لتحدث نفسها بالنهوض الذي جعلته نصب نواظرها والاتحاد الذي سيرته شغل
خواطرها لو لم تكن رقت من رئاسة الممالك فيما غير هاتيك الدرجات العالية ، وطالمت
من تاريخها تلك الصفحات المتلالية جعلت الحاضر منها ينجل أن يقصر عن شأو
الغابر ويستطار أن يعلم أباه سيداً في الأوائل وهو عبد في الأواخر ، فكان اذاً تاريخ
العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون اليه من معال ، ووسيلتهم فيما يندفعون الى تحقيقه

من آمال. ولعمري ان هذا التاريخ المجيد وان سقته سيول المحابر واخضرت له أعواد المنابر، وسبقت فيه تأليف استولى أصحابها على الأمد إخراجا، ولعت فيه كتب لو لاحت لكنت بروجاً ولو نضدت لكنت أبراجا، لا تزال فيه نواقص بادية العوار ومعالم طامسة الآثار. ومظان متوارية غامضة، ومعلومات قاعدة غير ناهضة، تحتاج إلى هم بعيدة من الأفواج الآتية ليثيروا من دفائنها، والى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينثلوا من كنائها. وان من أخص ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنه من أجد ماضيهم وألع ما لعت فيه مواضعهم هو الدور الذي كان لهم في القارة الأوربية خارجا عن الأندلس، وذلك كفتوحاتهم في ديار فرنسة وإيطالية وسويسرة وما كانوا يقولون له الأرض الكبيرة، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التي رفعوا فوقها أعلامهم حقبا طويلة، وأثروا فيها آثاراً كثيرة أئيرة. فان هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولاً، بل ان كثيراً من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيراً ولا قليلاً. والحال انه من أقدس فتوحاتهم مجداً وأوعر مغازيهم غوراً ونجداً، وأدل أعمالهم على ما أوتوه من علو الهمم ومضاء العزائم. وما كان غالباً على أخلاقهم يومئذ من احتقار الطوائع واستصغار العظام. فلهدا خصصت بهذا الموضوع كتاباً مستقلاً أسميته « الخبيثة المنسية في مقام العرب بجبال الالب والبلاد الافرنسية » وجمعت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابي الذي أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم « الحلة السنديسية في الرحلة الاندلسية » وسيكون فيما أحزر أربعة أو خمسة أجزاء ان لم يكن أكثر

هذا وقد رأيت أن أزوج هذا الكتاب باسم الملك العربي الصميم منزعاً ونسباً، ذؤابة بيت الرسول الكريم وحسبك بذلك شرفاً وطهرراً وأماً وأباً، الذي وقف نفسه الأية على خدمة أمته العربية عاملاً لهضتها بعد ربضتها، ومجاهداً في ربوتها بعد كبوتها فيصل بن الحسين ملك العراق والرافدين، أطال الله أيامه ونصر أعلامه وسدد آراءه وأحكامه، وأبلغه من مجد العرب مرامه. وذلك بالاتفاق مع أخويه الامامين الهمامين

الماهين العادلين ملكي الجزيرة العربية في هذا العصر، المكتوب له فيه باذن الله التمكن
والنصر، الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب مملكة اليمن السعيدة ، والملك عبد
العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود صاحب الدولة العربية السعودية، أيدهم الله جميعاً
لتأييد هذه الأمة وصيانة ذمارها، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها
وإقالة عثارها، حتى يعود أمرها كما بدا وترجع أيام عزها جُديداً، وما ذلك على الله بعزيز
جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢
شكيب أرسلان

ملحق

قد كنت حررت هذه المقدمة منذ أشهر قلائل والملك فيصل في الحياة والأمة العربية
تستمد حياتها السياسية من حياته، وتبنى معظم آمالها على أصيل آرائه ومنصور راياته،
وقبل أن يوشر طبع هذا الكتاب اختار الله هذا العربي الكبير لجواره، وكانت بموته
الفادحة التي لم يرزأ العرب بمثلها، وقامت نوادبهم وسالت مدامعهم في كل غور ونجد من
أجلها، فلم نشأ أن نغير شيئاً من مقدمة هذا الكتاب بل أبقيناه متوجاً باسمه كما لو كان
في الحياة إذ أننا لا نزال نعد فيصلاً حياً في القلوب والخواطر وان غاب بوجهه الكريم
عن النواظر لا سيما ان المرحوم كان قد سمع بنجر هذا التأليف وسألني ، واحسرتاه عليه
اذ كان مؤخرراً في برن ، عنه وعن مباحثه وعمما أمكنني الاطلاع عليه من آثار العرب
في القرى السويسرية التي كان انتهى الى سماعه أنني ذهبت إليها ونقبت فيها. وكان مهتماً
بهذا الموضوع مرتاحاً الى نشر هذا الكتاب كما كان مرتاحاً الى نشر كل أثر عربي .
وما كان فيصل رحمه الله إلا رماً للقضية العربية والرمز لا يموت عند قومه . فاذا
كان فيصل قد مات فلن يموت تذكاره ولا تتمحى آثاره. ولنا نعم العزاء في جلالة ولده
المعظم الملك غازي الأول الذي ترتقب من هلاله بدرأ نامياً ، ونرجو من كرم الحق
تعالى أن يجعله فيصلاً ثانياً . آمين

شكيب أرسلان

جنيف ١٤ جادى الثانية ١٣٥٢

كلمة بين يدي رحلتى

لتتبع الآثار العربية في الأقطار الغربية

ليس بمجيب أن يكون مثلى مغرماً بالأندلس وآثار العرب فيها وفيما جاورها من الأصقاع الأوربية ، فإن كل عربى صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالى همهم مع إخوانه ويترك من ذلك تراثاً خالداً لأعقابهم . ولعمري ان آثار العرب فى الأندلس هى غرة شادخة وهمة شاذخة فى تاريخ الأمة العربية . بل نقول ولا نخشى مغالطاً انها من أنفس ما أثمره العرب ، بل من أنفس ما أثمره البشر فى الأرض . فلا غرو أن يعجب بها العربى وينقب عنها ويشد الرحال اليها ويأخذ العبرة اللازمة منها ، فليست هى الآيه الناطقة والبينة القاطعة على مجدنا الماضى وعلى ما قدرنا أن نعمله فى سالف الحقب فحسب ، بل هى الحجة الملزمة والآية المعجزة المفحمة على جدارتنا بالاستقلال التام ، وكفايتنا اذا ملكنا الاستقلال أن نحسن الاضطلاع بالأحكام . وهى أيضاً الدلالة على أننا نقدر أن نعمل فى الأعصر المستأنفة ما عملناه فى الأعصر السالفة اذا تركنا الأجانب وشأنا

كنت اذاً منذ ريمان شبابى وغضاضة اهابى مولماً بمحضارة الأندلس العربية وآثارها، مشغوفاً بتاريخها وأخبارها حتى أنى منذ أربع وثلاثين سنة وهى مدة يضح أن تسمى دهرآ نقلت من الافرنسية الى العربية رواية الكاتب الأشهر شاتوبريان السمة بأخر بنى سراج ، وذيلت تلك الرواية المترجمة بتاريخ الأندلس استخلصته من الكتب العربية والأوربية ، وأجلت معظم قدام البحث فيه عن سقوط مملكة غرناطة وجلاء العرب الأخير عن تلك الجزيرة لأن هذه الحقبة من ذلك التاريخ كادت تكون فى عصرنا مجهولة، وقد صادف ظهور هذا الكتاب مبدأ النهضة العربية فكان

له في النواحي رنة نواح، وسال له من المآقي مدمع سفاح، وتجددت تذكارات أشجان
وبلغ التأثير من قلوب جميع الذين قرأوه أنهم كانوا يتلونهُ المرة بعد المرة شفاء لما في
صدورهم، أشبه بالثكلي التي لا يشفى ما بها سوى ذرف دموعها ولطم خدودها وتلمس
آثار مفقودها، وكانت بازدياد النهضة العربية تزداد الرغبة في هذا المقام وتشرئب الى
الأندلس الأعناق وتتحلب على ذكرها الشفاء، فأعدت من سنين قلائل طبع الرواية
المذكورة «آخر بني سراج» مع ذيلها، وأضفت اليهما تاريخاً قديماً عن سقوط غرناطة
عُثرت عليه في مدينة مونيخ عاصمة بافاريا يسمى «أخبار العصر في انقضاء دولة
بني نصر» لمؤلف لم يذكر اسمه فيه، لكنه يرجح كثيراً مما لحظنا من كلامه أنه كان
ممن حضر الوقائع بنفسه أو ممن عاصر أهلها، لأنه يسرد أخبارها سرد من شاهدها
بالعيان، أو من روى عن من شاهدها، وأظن المقرئ عند ما كتب نصح الطيب كان
مطلعاً على ذلك الكتاب، لأنني رأيت في كتاب «أخبار العصر» هذا جملاً كثيرة رأيتها
في النصح بحروفها. نعم أعدت طبع كتابي ذاك عن الأندلس مضموماً اليه هذا الكتاب
الذي عُثرت عليه في مونيخ غُفلاً من اسم مؤلفه ومعه أربعة مراسيم سلطانية من
السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس الذي
سلم غرناطة الى الملك فرديناند والملسكة ايزابلا، وكان طبعي لهذه الكتب منذ ثمان
سنوات بمطبعة النار الشهيرة بمصر

ولكن كل هذا لم يقع غاتي ولم يشف ما بي من أمر الأندلس، وبقيت بعد معرفتها
بالقلم متشوقاً الى مشاهدتها بالعيان والتجوال فيها بالقدم، استزادة من معرفة أخبارها
واقصاف آثارها ووفاء بواجب ازديارها. وما زلت أحدث نفسي برحلة أقوم بها في
تلك الديار التي ترك لنا عنها آباؤنا أجمل تذكّار وتعوقني العوائق عنها وتعترضني الأشغال
من دونها وأنا أخشى أن توافيني المنية قبل تحقيق هذه الأمنية الى أن يسر الله هذه
الرحلة منذ ثلاث سنوات والأمور مثل النفوس مرهونة بالآجال. وكنت موطناً

النفس على السفر الى الأندلس في ربيع سنة ١٣٤٨ وفق سنة ١٩٣٠ جئت شؤون وطرات طواري اقتضت أن تراجع جمعية الأمم في جنيف مراجعات مستمرة قضت على بأن لا أفارق جنيف في تلك الآونة بحيث انه أقبل الصيف يسحب من ذيله ، وجاء الحر هاجما برجله وخيله ، فأخذ بعض الإخوان يشيرون على بتأخير الرحلة الى الشتاء التالي أو الى الربيع الذي وراءه ذهابا الى أن السياحة في أسبانية لا تلائم في أيام القيظ لا سيما القطعة الأندلسية التي أنا قاصدها . فلم يكن ذلك ليغير من نيتي ولا ليرخي من مشدود طيتي ، لأنني لم أبرح في هذه المسألة منذ ثلاثين سنة أمتى بها النفس ، وكلما حدا سائق بدا عائق ، ونحن نعتمد على التأخير والتسويق ونعلل النفس بشتاء وصيف وربيع وخريف ، وقد عرفنا أكثر البلاد الأوروبية ولم تبق مدينة فيها الا دخلناها وربما بدل المرة الواحدة مرارا ، وقتلنا أحوالها درسا واختبارا ، ولم يبق من أوربة ما لم نعرفه سوى الاصقاع الإسكندنافية في الشمال والبلاد الأسبانية في الجنوب . فأما الأولى فانه يجوز لثلاثنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها ، ولكن الأندلس التي نحن اليها منذ نعومة الأظفار ونقرأ عنها بل نؤلف الأسفار ، فانه لا يجوز لثلاثنا أن يتأخر عن السفر اليها ونحن لا تزال انشاء أسفار بين الأقطار . وعليه انتهزنا هذه الفرصة واغتنمنا من وقتنا هذه الخلسة قاصدين الى الأندلس عن طريق فرنسة التي حصلنا على رخصة المرور بها أياما معدودات . وذلك أنه لما كان الغرض الأصلي من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلوا وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغربية كان لا بد لنا أولاً من زيارة فرنسة التي كانت للعرب فيها جولة ، بل كانت لهم في جنوبها دولة وصوله ، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجية بعد أن عصفت ببلاد القوط والحلاقة والباشكنس وغيرهم من أمم الغرب التي خفضوا دعائمها وتقضوا مراثيها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها . وها أنا ذا أحدث عن سياحتي :

في ١٨ يونيو قبل الظهر من سنة ١٩٣٠ فصلت من لوزان قاصداً الى باريس فوصلت الى تلك العاصمة ليلاً . وكان قد عرف بقدمي شابان من نخبة أدباء المغاربة السيد احمد بلا فريج من ذوائب بيوتات الأندلسيين في رباط الفتح، والسيد محمد الفاسي من آل الجد الفهريين الأندلسيين من أعيان فاس . فالتزمت من القطار حتى وجدتني أممي في المحطة وركبنا معاً الى فندق أورليان بالاس في شارع برون « Boulevard Brune » وتحدثت اليهما في موضوع رحلتي وكان ذلك قبل ميعة عطلة الدروس التي كانا يريدان بعدها السفر الى وطنهما فاتفقنا على أن يوافيانني الى بحريط ليرافقاني في بعض هذه السياحة، وبعد ذلك بأيام قلائل مرّاً على بالفعل إذ أنا في فندق رومة في عاصمة الأسبانيول . وكان في اليوم التالي من وصولي الى باريس أقبل علينا أولادنا الطلبة السوريون وأنسنا بلقائهم واجتمعنا مع فئة من نخبتهم في المطعم العربي الذي بقرب الجامع . وبعدها ذهبت أنا والسيدان محمد الفاسي وأحمد بلا فريج الى مكتبة غوتنر المتخصصة بالكتب الشرقية حيث اشترت بعض كتب عربية أكثرها يتعلق بالأندلس . وصادف أني لدى نزولي في أورليان بالاس وجدت صديقي الحميم حسين رؤوف بك بطل الدارعة حميدية الشهير ورئيس نظار أنقرة سابقاً وناظر البحرية العثمانية من قبل، فسرت بلقائه كثيراً لأن آخر العهد بيننا كان في الاستانة سنة ١٩٢٤ وكذلك جاء لزيارتي هناك رحى بك الذي كان والياً لأزمير أيام الحرب الكبرى وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقي في تركيا وهو من أعز إخواني وإخوان ابن عمي الأمير أمين مصطفى أرسلان، فكانت لي بغير ميعة فرحة عظيمة بالاجتماع بهذين الخليلين اللذين طال عهدى بلقائهما وذهبنا الى المطعم العربي فأوصينا على مطاعم مغربية، وسمعنا من شجي ألحان الموسيقى العربية ولا سيما الألحان الأندلسية، وسمعنا أجمل سمر وكانت ليلة كلها سحر . وبعد إقامة خمسة أيام بباريز

ركبت القطار الحديدى الى تولوز « طلويزة » وجاء لوداعى الى المحطة جمهور من شبان العرب يباريز وهتفوا فى المحطة : فليحى العرب

ووصلت الى طلويزة بعد مسيرة ثمانى ساعات بالقطار ونزلت فى فندق قريب من محطتها اسمه « ترمينوس (١) » وفى اليوم التالى قصدت قرقشونة (٢) التى فيها الآثار الشهيرة فزرت البلدة والقلعة وصعدت الى الأسوار وجولت فى تلك الحصون نحواً من ساعتين، ورجعت فى المساء الى طلويزة، والمسافة بالقطار بين هاتين البلديتين لا تزيد على ساعتين

﴿ الكلام على طلويزة وقرقشونة ﴾

رأيت مناسباً ابتداء الكلام على فرنسة العربية قبل الانتقال الى اسبانية العربية وذلك بناء على كونى بدأت رحلتى من فرنسة . ولما كان غرضى من هذه الرحلة هو استقصاء آثار العرب وأخبارهم أينما كانوا وحلوا من القارة الأوربية توخيت أن لا أخرج عن هذا الصدد الا نادراً مما يقتضيه سياق البحث . فلو كنت زرت الأندلس مبتدئاً من المكان الذى دخل منه العرب أى من الجنوب لكان الترتيب يقضى علىَّ بأن أبدأ ببجل طارق فالجزيرة الخضراء فشريش فاشيلية فقرطبة فطليطلة . وهلم جراً نحو الشمال، وأن أنتهى بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون الى جبال الألب بين ايطالية وفرنسة وسويسرة . وهكذا كان ينبى أن أفعل لو كنت حراً أن أسكن فى هذه الأيام وطنى سورية فكان السفر منها الى الأندلس على الطريق الذى سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار وهى طريق المغرب . ولكن الغربة التى تطوحنا بها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوربة وأن نقصد الأندلس

(1) Terminus

(2) Carcassonne

من شمالها لا من جنوبيها أى من حيث نحن مقيمون الآن ومن حيث انتهى العرب في فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها . ولما كان المقصود هو كما قلنا من استقراء آثار السلف وتأثر خطواتهم حيث دل عليها التاريخ وأثبتها الأثر من قارة أوروبا بدون تعيد بمكان معين وبدون التزام ما شاهدناه من هذه الأماكن بالعين بل باطراد الكلام على ما شاهدناه الى ما لم نشاهده مما جاوره ودخل تحت حكمه ، أى . جميع ما قيل ان أقدم العرب وطئته من هذه البلدان في حملتهم الأولى على الغرب ، لم يكن لنا بد من أن نتناول طلوزة وقرقشونة وأربونة ونيم وأفينيون وليون . وليست هذه فقط بل جميع البلاد التي احتلوها من جنوبي فرنسا وما صاقب ذلك من شمالي ايطالية، وما نواح ذلك من جبال الالب العالية الواقعة اليوم بين هذه الممالك الثلاث :
فرنسة وايطالية وسويسرة ، الى حدود بحيرة كونستانزة من ألمانيا

فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم «تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا» وايطاليا وجزائر البحر المتوسط» هو في الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التي نحن بسبيلها لأنها هي خاتمة مطاف العرب في أوروبا وفتاحة ما أفاضوا اليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس . واذا لحظت أنى قد بدأت بالرحلة وتاريخ حملة العرب على أوروبا من هذه الجهة كان لك أن تقول انى جعلت أولاً ما كان ينبغي أن يكون آخراً، فان هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول . باعتبار ترتيب سياحتي التي بدأت فيها من الشمال الى الجنوب فرأيت أنا أولاً ما فتحوه هم أخيراً ورأيت آخراً ما احتلوه هم أولاً .

وبالجملة فموضوع هذا الكتاب هو أيام العرب، في فرنسا وفي شمالي ايطالية وقلب سويسرة . وهو أول تأليف عربي مستقل في هذا الموضوع

طلوزة TOULOUSE

كانت طلوزة في قديم الدهر حارات متفرقة ولم تأخذ شكل مدينة الا في أيام الرومانيين ، ومن ثم صارت قاعدة مملكة التكتوزاجيين (١) ومركز علم وصناعة ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه . وبعد أن سقطت سلطنة رومة صارت طلوزة عاصمة ملوك القوط، وبقيت دار مملكتهم من سنة ٤١٩ للمسيح الى سنة ٥٠٨ وكانت حينئذ قاعدة بلاد أ كيتانية المنضمة الى أسبانية . وسنة ٧٧٨ صارت كوتية مستقلة واشتهر من أمراءها الكونت ريموند الرابع ولم تنضم الى مملكة فرنسا إلا سنة ١٢٧١ للمسيح (٢) . ففي القرن الخامس كانت دار ملك القوط وفي القرن السابع والثامن كانت مركز دوقية أ كيتانية ، وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر صارت قاعدة كوتية طلوزة . ولما شن العرب الغارة على فرنسا كانت طلوزة من المدن التي قصدوها لكنهم لم يتمكنوا منها كما تمكنوا من أربونة وقرقشونة وغيرها .

وقد كانت غارة العرب على طلوزة في أيام امارة السمع بن مالك الخولاني على الأندلس وذلك لمضى إحدى عشرة سنة على دخول العرب الى اسبانية كما سيأتي عند الكلام على غارات العرب في جنوب فرنسا

(١) وهم جيل من الفولوا ولا نعلم Valces Tectosages هل هم الذين أشار اليهم صاحب نفع الطيب في أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشلولقات . وفي صبح الأعشى يذكر الشبوتقات ويقول إنهم ملكوا الأندلس وبلاد الافرنجة معاً وإن القوط خرجوا عليهم .

قرقشونة CARCASSONNE

مدينة على نهر الأود Aude وقناة الجنوب وهي قسمان: الأول الذي فيه القلعة وهو مبنى على متن رابية مشرفة على القسم الثاني وفيه بعض بيوت وشوارع ضيقة وكيسة معروفة بكنيسة سان نازير Saint-Nazaire من بناء القرن الحادى عشر . وجميع أبنية هذا القسم العالى لا تزال كما كانت فى القرون الوسطى ، وليس مثلها فى كل فرنسة فى هذا الباب ، ولهذا هى مقصد السياح من كل فج . والقسم الثانى هو الذى على شاطئ النهر ويسمى قرقشونة الجديدة، وهى جديدة بالنسبة الى قرقشونة القديمة التى على الرابية . ولكن هى فى الحقيقة من زمن لويس التاسع ملك فرنسة ، أى القديس لويس الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر (١) . وأما تاريخ العرب فيها فالشهور أنهم اقتتحوها فى سنة ٧١٣ للمسيح وأنها بقيت فى أيديهم الى سنة ٧٥٩ على ما استقرأه عند الكلام على غارات العرب فى جنوبى فرنسة

مبدأ غارات العرب على فرنسة

وما اعتمدنا عليه من الروايات عنها

أهم كتاب وضع فى هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الفرنسى الشهير المسيو «رينو» (٢) الذى عاش فى الثلثين الأولين من القرن الماضى . وكتابه يسمى

(١) هو الذى قام بالحرب الصليبية وغزا مصر ، ووقع فى الأسر واعتقل فى دار ابن لقمان وقيل فيه :

وقل لهم ان أزمعوا عودةً لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

(٢) Reinaud واسمه جوزيف رينو ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧

« غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواى ويمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » (١)

فان جميع المؤرخين الاوروبيين ذكروا غارات العرب على فرنسا بعد استيلائهم على اسبانية وأجمعوا على أن شارل مارتيل الذى يسميه العرب قارله هو الذى أوقف أوروبا فى وقعة « بواتيه » الشهيرة من الوقوع تحت سلطة العرب ، وأنه لولا انهزام العرب فى تلك المعركة لكانوا استولوا على أوروبا كلها وربما كانت بأجمعها قد دخلت فى الاسلام . ولا تقدر أن نحصى ما جاء فى كتب الاوروبيين من فرنسيس وألمان وانكليز واسبانيول وطلبان فى هذا الموضوع ، ولا نجدزوما لهذا الاستقصاء بعد أن قرره فى الجملة وأجمع عليه مؤرخوهم وأيدت ذلك توارينخنا العربية . وانما

Invasion Des Sarrazins En France et De France
en Savoie , en Piémont et dans La Suisse (١)

Pendant les huitième, neuvième et dixième siècles de notre ère .
D'après Les auteurs Chrétiens et Mahométans .

Par M . Reinaud

Membre de L'institut (Académie royale des inscriptions et belles -
lettres) , conservateur - adjoint des manuscrits orientaux de la
Bibliothèque Royale , etc

وهو يعبر عن المسلمين بلفظة « سارازين » التى قيل انها أطلقت على العرب لكونهم غالباً سمر الألوان أشبه بالحنطة السمراء التى يقال لها « سارازين » وقيل بل هى محرفة عن « سرا كنو » التى هى المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن Scharaka أى شرقى أو « شراقة » أى شرقيين بالجمع . وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سرا كنو ؟ أى مسلم

كان غرضنا في هذا الكتاب استقصاء جزئيات هذه الغارات العربية الى قلب أوروبا والإحاطة بما يتسنى لنا من تفاصيلها . ولم نجد في هذا الباب كتاباً أوعى من كتاب المسيورينو المذكور لأنه وضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ولأن واضعه هو من أشهر المحققين في المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها في الكتب اللاتينية القديمة بما جاء في الكتب العربية . وإنك لتجده لا يروى رواية ولا خبراً إلا ذكر في الحاشية مأخذ تلك الرواية أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلف والجزء والصفحة وأحياناً خزانة الكتب التي فيها ذلك المؤلف . وقد يورد النصوص بعينها لاسيما إذا كانت من التواريخ التي وضعت في عصر تلك الفتوحات . وكما أنه يستعمل هذه الدقة في الاستشهاد من كتب الإفرنجية فإنه يستعمل الدقة نفسها في الاستشهاد من كتب العرب ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا في تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه ، كما أننا اعتمدنا في تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالي إيطاليا ومن أهالي سويسرة عليه أيضاً وعلى مؤلف آخر من أهالي سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيلمر (١) سنأتي بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيورينو وسنقابل جميع رواياتهم بما لدينا من التواريخ العربية الشهيرة

قال المسيورينو في مقدمة كتابه :

جاء وقت كانت فيه فرنسة عرضة لغارات شعب أجنبي كان قد استولى على أسبانية وبلدان أخرى مجاورة لها ، وجاء بدين جديد ولسان جديد وأوضاع جديدة

Der Einfall der Sarazenen in der Schaweiz um die mitte des x . (١)
Yahrhenderts , Von Dr

Ferdinand Keller

Mitteilungen der antiquarischen Gesellschaft in Zürich

غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر تأليف الدكتور فرديناند كيلمر
من مطبوعات جمعية الآثار القديمة في زوريخ

فأصبحت المسألة مسألة هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التي لما تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الانسان من دين ووطن وأوضاع أم لا؟ وكان الناس يتساءلون عن كنه هذه الوقائع التي ترتب عليها احتلال ذلك الشعب لقسم من بلادنا ومن أية جهة وتمت ، وأية أحوال أحاطت بها ، وهل كان المفزيون كلهم من العرب أم كانوا من أمم شتى؟ وما كانت نتائج هذه الغارات المتكررة كثيراً؟ وهل بقي في البلاد منها آثار أم لا؟

ولقد جرى البحث أكثر من مرة عن هذه القضية ولكن لم يعن أحد فيما يظهر لنا بأن يضع لهذا الموضوع تأليفاً خاصاً يحيط بجميع الوقائع التي نحن بصددنا ويستنبط منها نتائج عامة (١) ولا شك في أن تأليفاً وافياً بهذا الغرض ينبغي له الجمع بين الروايات الأوربية المسيحية والروايات العربية الاسلامية ليعرف قول الغالب وقول المغلوب معاً .

ومن مدة طويلة كان الناس في أوربة قد لحظوا أن روايات مؤرخي أوربة المسيحية عن هذه الوقائع لم تكن كافية ، وان الزمن الذي قد حصلت فيه هذه الحوادث وأغار فيه العرب على فرنسة هو أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سواداً . ففي سنة ٧١٢ عند ما بدأت هذه الحملات على فرنسة كانت هذه البلاد مقسمة بين افرنج الشمال الذين كانوا يملكون « نوستريا » (٢) و « اوسترازيا » (٣)

(١) على أن رينو يستدرك هنا بقوله انه سبقه فيه مؤرخان أحدهما صاحب « خلاصة تاريخية لحروب المسلمين في بلاد الغال » والآخر صاحب « التاريخ العام للقرون الوسطى » قال :

Nous devons cependant faire mention du « précis historique des Guerres des Sarrazins dans les Gaules » par M . B . . . N . C . F . Paris 1810; et de « l'histoire générale du moyen - âge ,, Par M . Desmichels, Paris 1831, T . II

(٢) Neustrie بلاد واقعة بين نهر اللوار وبريتانيا الافرنسية وبحر المانش ونهر الموز

(٣) Austrasie في شرقي فرنسة قاعدتها متر

و « بورغونيا »^(١) وبين افرنج الجنوب الذين كانوا يملكون « ا كيتانية »^(٢) من نهر اللوار الى جبال البيرانه، وبين بقايا القوط الغربيين^(٣) الذين كان بقى في ايديهم قسم من مقاطعة « لانغدوق »^(٤) وقسم من مقاطعة « بروفانس »^(٥) وكانت الفوضى قد وقعت في الحكومة والمجتمع فلذلك لم تأتأنا إلا معلومات ضئيلة عن ذلك العهد. ولم تبدأ الأخبار التاريخية تنجلي الا في أيام « بين » ابن « شارل مارتل » وفي أيام شارلمان بن بين . ولكن في ذلك الوقت كان المسلمون قد نكصوا الى الورااء . ثم عاد جوّ فرنسا فاربدا ثانية في زمان أولاد لويس الحليم « Le Débonnaire » ووجد العرب غاراتهم على فرنسا أيام كان النورمنديون من جهة والمجار من جهة أخرى يشنون مثلها ويميثون في الأرض مفسدين

ولا نقدر أن نقول ان تواريخ العرب عن تلك الحوادث كانت مستوفية الشروط ، فان المؤلفين الذين كتبوا عنها جاءوا بعدها بزمن فلم يعاصروها ، إلا أن يكون ثمة مؤرخون لم تصل إلينا كتبهم . فقد ذكر العرب أن لموسى بن نصير تاريخاً ألفه حفيده ، وان لأحد الشعراء قصيدة في تاريخ طارق بن زياد نظمها بعد عهده بقرنين . ولكن هذه الكتب التي كتبت بعد الحوادث بمدة غير قصيرة لم تكن مستوفية شروط التحقيق . وأكثر الأحيان يروى أصحابها روايات شفوية

(١) Bourgogne مقاطعة ذات شأن في شرق فرنسا قاعدتها ديجون كانت مملكة مستقلة ثم

صارت دوقية كبيرة وكانت تجاذب ملك فرنسا الجبل ولم تخضع تماماً للتاج الا سنة ١٤٧٧

(٢) Aquitaine مقاطعة من بلاد الغال القديمة تقع على ضفاف الغارون اليوم

(٣) Visigoths القوط الغربيون سنة ٤١٢ مسيحية زحفوا على بلاد الغال واستولوا عليها
وسنة ٤١٨ جعلوا طلوزة قاعدة ملكهم

(٤) Languedoc ولاية من جنوبي فرنسا قاعدتها طلوزة أوتولوز

(٥) Provence كانت مملكة مستقلة لها ملوك ثم أكناد . ثم استلحقها الفرنسيين في زمان

كارلس الثامن وهي الآن تشتمل على بلاد الالب السفلى ومصاب الرون ومقاطعة القار وفوكلوز

عن أفواه الرواة^(١) وغير خاف أن العرب كانوا في ذلك الدور، دور الحماسة والمجد، لا يفكرون إلا في اعلاء شأن دينهم. فكان لا يهمهم شئ بقدر الشعر والضرب في اليهودية الخيال

إذاً حكاية العرب لوقائع غارات العرب على فرنسة كانت متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع المسيحي، كما ان منها ما لم يتعرض العرب للبحث عنه أصلاً ولقد كان في أيدي العرب وسائل لمعرفة أحوال فرنسة الداخلية وما جاورها، لأنهم عدا احتلالهم مدة مديدة جانباً منها كانت صلاتهم مع هذه البلاد مستمرة، وكانت السفراء تختلف بين الفريقين الفينة بعد الفينة، فقد ذكر السعودي انه في نواحي سنة ٩٣٩ مسيحية توجه إلى قرطبة مطران جيرون من كتالونية وكان اسمه « غودمار » Godmar وذلك في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وألف لولده الحكم المشهور بحبه للعلم تاريخاً لبلاد فرنسة من زمن كلوفيس إلى ذلك العهد^(٢) وكانت

(١) يقول رينو في حاشية هذه الجملة مايلي : ولاقول شيئاً عن تاريخ « فتح العرب لاسبانية مرتين » لأبي القاسم طريف بن طارق أحد الذين حضروا الوقائع، فان هذا التاريخ مفتل وضمه في القرن السادس عشر للمسيح ميكال دولونا Miguel de Luna ترجمان الملك فيليب الثاني (٢) قال رينو في الحاشية على هذه الجملة : « ان اسم غودمار واسم جيرون وجميع هذا البحث قد تناورها الحذف والتبديل في أكثر نسخ مروج الذهب للسعودي التي في الخزنة الملكية (في باريز) وإنما اعتمدنا على نسخة كانت تخص المسيو شولز » اه

قلت : وجدنا في مروج الذهب للسعودي طبعة مصر التي طبعت بالطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هجرية سرد هذه الرواية كما يلي : وجدت في كتاب وقع الى الفسطاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهدها غومار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الافرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولي عهد أبيه عبدالرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت، في عهده : يأمر المؤمنين إن أول ملوك افرنجة « قلووزيه » وكان مجوسياً فنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت . ثم ولي بعده ابنه لذريق . ثم ولي بعده قركان بن دفشرت . ثم ولي بعده ابنه تتين . ثم ولي بعده نازلة بن تتين وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة . وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس . وقد توافق أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الافرنجة بسببهم ،

كتالونية أيام شارلمان خاضعة لملكة فرنسة وكان مطران جيرون يعترف بسيادة لويس دورمير Louis - d'Outremer وعليه نعتقد أن تاريخ فرنسة هذا الذى قال المسعودى انه عثر على نسخة منه فى مصر تاريخ صحيح . ولكن مع الأسف لم نعلم عن هذا التاريخ شيئاً الا هذا القليل الذى رواه منه المسعودى (١)

ومما كان يشق جداً على العرب كثرة الأسماء الأعجمية من أسماء الرجال والبقاع التى كانت تعرض لهم وكانت مجهولة عندهم . ولم يكن من المألوف عندهم وضع

وصار لتريق بن نازلة صاحب ملكهم فلك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر . وهو الذى أقبل الى طرطوشة فحاصرها . ثم ولى بعده ابنه نازلة وهو الذى تهادى مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان . وكان محمد يخاطب بالإمام . وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر . ثم ولى بعده ابنه لتريق ستة أعوام . ثم وثب عليه قائد الافرنجة المسمى برشة وملك افرنجية فأقام فى ملكهم ثمانى سنين ، وهو الذى صالح الجوس عن بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنج اليهم . ثم ولى بعده نازلة بن بفربرت أربع سنين . ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر . ثم ولى بعده لتريق بن نازلة وهو ملك افرنجية الى هذا الوقت وهو ستة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . واستوت مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب ما نعى الينا من خبره اه

قلت : فى الأسماء تحريف كثير عن الأصل ، فأما « قلووزيه » فهو كلوفيس ، هذا ظاهر . وأما أن له ولداً اسمه « لتريق » فهذا الاسم بدون شك هو هنا خطأ من النسخ ، إذ أنه لم يكن لكلوفيس أو قلووزيه ولد يقال له لتريق Rodrigue وإنما كان له ولد اسمه « كلودومير » Clodomir ولعل العرب لفظوها « قلدميز » فجاء النسخ للكتاب وقلبوها الى لتريق . وأما « دفشرت » بن كلوفيس فهو تحريف أيضاً وأصله بدون شك « شيلديرت » Childebert لأنه اسم أحد أولاد كلوفيس . وأما « تين » فهو تحريف أيضاً وأصله « تيرى » Thierry اسم أحد أبناء كلوفيس الذى كان له أربعة أولاد ، هؤلاء الثلاثة ، والرابع هو (كلوتير) Clotaire فأما نازلة فنظنه مجرد خطأ من النسخ وربما كان أصل اللفظة « كلوتره » أو « كلاتره » ولم يحسنوا قراءتها وقلبوها راءها زايأ فابتعدت جداً عن أصلها . وأما قول المسعودى عن مؤلف هذا الكتاب انه غومار مطران زهرة من مدن الافرنجة ، فقد تحققنا أن أصل اسمه غودمار وانه من جيرون ، وأنه كان أسقفاً على « سيريه » Ceret من مدن « روسيون » Roussillon التى هى اليوم من مدن ولاية البيرانه الشرقية من فرنسة . فزهرة تحريف عن « سيريه » أو « سره »

(١) غير موجود هذا التاريخ بالفرنسية ولا بالاسبانية

الحركات . ثم كان نساخهم كثيرى السقط فى التنقيط فتبعد اللفظة عن أصلها بعداً يجعلها مجهولة تماماً (١)

وقد كان مما يفيد فى هذا الباب المسكوكات التى كان يضربها الفاتحون . إلا أن العرب فى إسبانية وفرنسة لم يكونوا إلى القرن العاشر يعرفون سوى مسكوكات قرطبة . فأما مسكوكات ما قبل هذا التاريخ فلم يكن فيها شئ سوى آيات قرآنية ولم يكن فيها ذكر ملك ولا أمير

فمن أجل هذا كان من الصعب جداً معرفة أخبار العرب فى الأدوار الأولى من استيلائهم على إسبانية . وأصعب منه معرفة أخبار استيلائهم على ما استولوا عليه من فرنسة

ومن الكتب النفيسة فى هذا الموضوع تاريخ « استيلاء العرب على إسبانية » الذى ظهر بالاسبانيولية فى السنوات الأخيرة لمؤلفه « كوند » Conde الذى كان لديه كتب عربية كثيرة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فاستقى بدون شك من منابع غزيرة إلا أنه لم ينتدح له أن ينقح كتابه كما يجب وربما كان هو نفسه غير ماهر فى التمحيص (٢) . وهناك تأليف آخر لم يطلع عليه كوند وهو مجموعة رسائل مفيدة فى إيضاح

(١) هذا شأن الفريقين سواء العرب أو الأفرنج عند ما يخوض كل فريق فى لغة الفريق الآخر . فليس تحريف « شيلدبرت » إلى « دفصرت » إلا من قبيل تحريف ابن رشد إلى « افرويس »
(٢) اسم الكتاب Historia de la dominacion de los Arabes en Espana

ذكر رينو أنه ظهر ترجمتان لهذا الكتاب بالفرنسية إحداهما ترجمة ملخصة بقلم المسيو أوديفره Audiffret فى كتابه عن تحقيق تواريخ السنين، والثانية بقلم المسيو « دومارليس » De Marlés قلت : ونحن عندنا ترجمة دومارليس مع حواشيتها وستنقل فى بعض الأماكن عنها . ولكن كتاب كوند هذا — والاسبانيول يقولون له « كوندى » — موصوف بعدم الضبط وكثرة الخطأ . وأكثر من أمحى عليه بالخططة المستشرق دوزى الهولاندى الذى يعده الأوربيون أفضل مؤلف عن الأندلس قرا ودرى . وقال قديره Kodeira المستشرق الاسبانيولى الذى يقال انه من أصل عربى : انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندى هذا

تاريخ اسبانية أيام العرب بقلم « فوستينو بوربون » الذى اطلع على المخطوطات العربية التى فى خزانه الاسكوريال وكان معظم همه تخطئة « تاريخ اسبانية » تأليف « ماسدو » Masdeu

وفى كتاب فوستينو بوربون هذا شواهد عربية محرفة الا أنه عنده بصر بالنقد وانك لتجد فى كلامه على جيوش العرب الفاتحين واختلاف أصولها الذى أدى الى تنازعها تدقيقات لا يعرفها كوند .

انا نحن لم نكن فى هذا التأليف لنجهل المشكلات التى ستعترضنا فى طريقنا لكننا برغم ذلك وجدنا فى استطاعتنا اضافة معلومات جيدة الى ما تقرر فى هذا الباب الى حد الآن . وفى الغزوات العربية التى لم نجد لها أثر رواية الا فى كتب الاوربيين أمكننا أن نصل الى أبعد مما وصل اليه « موراتورى » (١) والدون « بوكه » (٢)

ولقد اتبعنا فى عملنا هذا الطريقة الآتية وهى أن نمحص عن الوقائع شهادات المعاصرين أو الذين كانوا فى العهد أقرب من غيرهم اليها . ومهما قيل عن النقصان الذى فى روايات المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى ذلك العهد فاننا قد وجدنا فيها ما يستحق كثيراً من الاعتبار بحيث اذا تطابقت مع روايات العرب جزمنا بأن الحقيقة هى هناك . وأما ان لم تطابق روايات هؤلاء روايات أولئك فاننا ننقل حينئذ ما قاله كل من الفريقين ونبدى رأينا فى ترجيح الأقرب الى العقل . وأما المنايع التى لم نقدر أن نصل اليها فقد نبهنا عليها وأشرنا الى أما كتبها وذلك كبعض وقائع رواها كوندى نقلا عن كتب العرب فقد كان الأحسن أن ننقل تلك النصوص بعينها ولكننا لم نظفر بها

(١) Muratori واسمه لودوفيكو اتونيو مؤرخ آنارى طليانى توفى سنة ١٧٥٠

(٢) Don Bouquet اسمه مارتين : راهب بنديكتينى مؤرخ بجاعة مشهور ولد فى (آميين)

Amiens بفرنسة وتوفى سنة ١٧٥٤

وفي آخر كتابنا هذا نذكر الشعوب التي انضمت الى العرب وأوشكت بالاتحاد مع العرب أن تخضع أوربة كلها لشريعة القرآن . فنحن نطلق على الجميع اسم « سارازين » وهي لفظة لم يجزم الى الآن في وجه اشتقاقها ، أو لفظ « المور » أي المغاربة . وذلك لأن العرب جاءوا أولاً الى المغرب ومنه دخلوا الى اسبانية فسموا من أجل هذا مغاربة . وليعلم أنه في أثناء ما كان المسلمون يكتسحون أراضي فرنسة ويحتاحون شمالي ايطالية وبلاد سويسرة كانت منهم عصائب حاكمة في صقلية وجنوبي ايطالية . ولم يكن لغارات هؤلاء صلة بغارات أولئك ولكن كان لها تأثير بعضها في بعض مما لم تفتنا الإشارة اليه

ثم انه في جميع البلاد التي احتلها العرب طويلاً أو قصيراً كانت بقيت لهم آثار وسرت عنهم أخبار ، فهنا كنت ترى قلعة كانوا يمتصمون بها عندما يحتاحون تلك الأرض ، وهناك كانت مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسماً على المارين ، وهناك كهف في واد كانوا يضعون فيه الفنائم ، وعلى تلك الجبال أبراج متناوحة كانوا يتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم ، وهلم جراً . فالآثار والأخبار التي لا ترتكز على دليل وثيق من ذلك العصر نفسه لم تعرض لها .

ومثل ذلك فعلنا بالقصص التي قصها الرواة الذين لم يعاصروا تلك الحوادث والتي هي أقرب الى أن تكون من عمل خيالات القصاص المولعين بأخبار الحماسة والمفرمين بأحاديث المجد والرئاسة

ففي القصص التي ترويه الرواة عندنا أغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخي ذلك الوقت مثل تلميذهم المسلمين « السارازين » بلفظة « باين » Payens أي وثنيين . وذلك ان المسيحيين كان من عادتهم أن يسموا جميع الأمم السالفة للنصرانية « وثنيين » وجميع الأمم التي حاربها الافرنسيس وثنيين . ومن جملة هؤلاء حسوا المسلمين ! ولهذا فقد عزوا الى هؤلاء آثاراً ومباني وهياكل كانت في الحقيقة هي

من عمل غيرهم وليسوا منها في قبيل ولا دير
وكذلك لما كانت شهرة شارلمان قد غلبت شهرة الجميع فان القصاص نسبوا الى
أيامه حوادث وقعت من قبله وحوادث أخرى وقعت من بعده . فالوقائع التي
جرت في زمان شارل مارتل جعلوها في زمان شارلمان وما زالوا ينسبون الى أيام
شارلمان غزوات جميع الافرنج في بلاد المسلمين الى القرن العاشر بل الى آخر القرن
الحدادي عشر أي الزمن الذي استصرخ فيه مسلمو الأندلس يوسف بن تاشفين ملك
المرابطين . فتأمل

ومن هذا النمط تعتمد بعض القصاص والزجالين أن ينحلوا أجداد ممدوحهم
فضل تحرير البلاد وطرد الأعداء . وذلك مثل قصيدة غيلوم ذى الانف
الأصلم الذي ينسب اليه الشاعر اجلاء العرب عن تولوز ونيم واورانج وغيرها من
مدن فرنسة

ثم انه كان المجار قد جاءوا من شرقي أوربة وعاثوا في نواحي فرنسة ، فاختلط على
الناس ما عاثة المجار بما عاثة العرب ، بحيث كثيراً ما كان أولئك القصاص يسمون
المجار « سارازين » ويسمون الفاندال « سارازين » وممن قال بذلك الأب
« لوكوانت » P. Lecoinge مؤلف التاريخ الاكليريكي في فرنسة والدون
« ماييون » Mabillon والأب « باجي » Pagi والدون « فاسيت » Vaissette
والدون « بوكه » Bouquet والحقيقة انه لم يوجد دليل واحد من رواية مرجعها
الى القرن الثامن يدل على كون الفاندال اجتاحوا فرنسة في ذلك العصر . وقد يقال
ان هذه الأقاويل وردت في تواريخ القديس « دنيس » Saint - Denis الشهيرة
التي هي الحجة الكبرى عند آبائنا . ولكن تواريخ القديس كتبت في أواسط القرن
الثاني عشر وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت .
ولم يزل التاريخ لم يحص ولم ينفصل عن الاقاصيص الى القرن السابع عشر

ولنعد الى موضوع كتابنا هذا فنقول: ليست المسئلة مسألة اجتياح بعض مقاطعات محدودة بل قد بقى جانب كبير من فرنسة ميداناً لجيوش العرب مدة طويلة . ثم تجاوزوا منها الى « سافواى » و « بيمونت » و « سويسرة » واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة، وذلك من خليج « سان ترويس » الى بحيرة « كونستازة » ومن نهر الرون وجبل « جورا » الى سهول جبل « فرات » و « لومبارديه » ومما لاجدال فيه أن تذكر الغزوات العربية في هذه الديار لم يكن بدون تأثير في الحملات الصليبية وفي هذه الحركة العامة التي اندرأت بها أوربة على آسية وافريقية ووضعت أصحاب الانجيل في وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة

لقد فسحنا بهذا الكتاب مجالاً للباحثين في هذا الموضوع بحيث يمكن من يأتى بعدنا أن يأتوا بمعلومات جديدة عنه . ولما كانت الشقة بعيدة بين زمن هذه الوقائع والزمان الحاضر فقد بقيت في كتابنا مواضع كثيرة مفتقرة الى الجلاء . ومع هذا فان كنا قد قدرنا أن نلقى بعض الشعاع على هذا القسم الذى هو أغمض قسم من تاريخ فرنسة فلا يكون ذهب عناؤنا سدى

ولقد قسمنا كتابنا هذا الى أربعة أقسام : الأول ما يتعلق بحملات العرب الزاحفين من الأندلس مخترقين جبال البيرانه ^(١) الى أن طردهم « بين » القصير من « ناربون » وكل « اللاندوق » سنة ٧٥٩ مسيحية . الثانى ما يتعلق بفارات العرب برأً وبحراً على « پروفانس » فى نواحي ٨٨٩ . الثالث ذكر توغل المسلمين من پروفانس الى « دوفيني » و « سافواى » و « بيمونت » وسويسرة . الرابع شكل هذه الغزوات والنتائج التى ترتبت عليها .

انتهى ملخصاً كلام المستشرق الافرنسى رينو فى مقدمة كتابه ثم شرع رينو فى سرد الوقائع فقال تحت عنوان « القسم الأول فى حملات

(١) العرب يقولون جبال البرانس

العرب الأولى على فرنسا الى عهد اخراجهم من أربونة والاندوق سنة ٧٥٩ مسيحية :
لما وصف أحد مؤرخي العرب كيفية فتح أبناء ملته لاسبانية روى عن محمد (ص)
الكلمات الآتية : « زُوِيَتْ لِي مَسَارِقُ الْأَرْضِ وَمَعَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

وقد كاد يكون هذا هو الواقع . وجاء زمن ظن الناس فيه أن جميع الربع العامر
سيعنون لراية النبي . فانه مامضت سنوات قلائل حتى ضرب الاسلام بجراحه على العراق
وفارس والشام ومصر وافريقية الى سيف الاوقيانوس الاطلنטיكي . ثم من افريقية
اغار العرب على اسبانية وما زالوا يجوسون خلال البلاد الى أن بلغوا فرنسا وصارت
جميع قارة أوربة تحت خطر استيلائهم . ثم من الجهة الاخرى تجاوزوا سيحون
وجيحون وما زالوا يفتحون البلدان حتى ظن أنه لن يقف في وجههم شيء إلا ان

(١) ذكر رينو في الحاشية أن هذا الحديث ورد في تاريخ اسبانية للمقرى وقال ان منه مخطوطاً
في الخزنة الملكية وانه عبارة عن مجموع في عدة أجزاء قد ألفه صاحبه في أوائل القرن السابع
عشر ونقل عن كتب لم تصل الينا . وقد ظهر أن المؤرخ كوندى الأسباني لم يطالع على هذا
الكتاب . اهـ

قلت : هذا الكتاب هو « فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب » للعلامة احمد بن محمد بن احمد القرى المغربي النلساني المالكي الأشعري رحمه الله .
وهو من أشهر كتب الأدب والتاريخ في العربية . ألفه صاحبه في سنة ١٠٣٧ هـ ، وذلك في
الشام حيث كان قد أتى عصا التسيار بعد أن حج البيت الحرام وزار المسجد الأقصى . وقد ذكر
في مقدمة الكتاب أن له بالشام تعلقاً من وجوه عديدة : أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام . ثانيها
ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام . ثالثها ان غالب أهل الأندلس هم من عرب الشام الذين اتخذوا
بالاندلس وطناً مستأنفاً . رابعها ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسبواها باسمها الشهبها بها في القصر
والنهر والدوح والزهر النخ

أما حديث « زُوِيَتْ لِي مَسَارِقُ الْأَرْضِ وَمَعَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » فقد رواه مسلم وأحمد والنسائي وهو مروى عن أبي الربيع العنكي وقتيبة
ابن سعيد عن حماد بن زيد (واللفظ لقتيبة) : حدثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء

كان من الحدود الطبيعية التي للكورة الارضية
وكان مركز هذه السلطنة التي لانهاية لها هو في سورية بمدينة دمشق القديمة
وكانت الرئاسة الروحية والديوية في الخلفاء بني أمية . وكان الخليفة يومئذ هو
الوليد^(١)

وكان العرب قد وجدوا في افريقية أمة تسكن جبال الاطلس اسمها البربر
اشتهرت بصعوبة المراس وبجبال الحرية والاستقلال وقاتلت القرطاجنيين والرومانين من
دونها . وكان بعض هؤلاء البربر يهوداً وبعضهم نصارى وبعضهم وثنيين . وكان لهؤلاء البربر
لسان خاص بهم . ومنهم من كان يتكلم بلغة تقرب من العربي والعبري والفينيقي^(٢)
فسواء كان هؤلاء البربر بقايا شعوب جاءت من أرض كنعان وفينيقية^(٣) أو كانوا

عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ
مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبَاغُ مُلْكُهَا مَازَوَى لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَزْبِينَ
الْأَحْمَرَ وَالْأَيْضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ (وعلى رواية
أخرى : بسنة عامّة) وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ
وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمَّتِكَ
أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ
بِيضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَاقِطَارِهَا (أو قال : مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا) حَتَّى
يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » اه

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان

(٢) استند رينو في ذلك على الجريدة الآسيوية الجديدة نقلا عن مقدمة ابن خلدون والأصح أن
يكون ابن خلدون تكلم عن ذلك في تاريخه الخاص بالبربر وهو أحسن تاريخ لهذه الأمة . وقد
ترجم الى الافرنسية بقلم البارون « دوسلان » De Slane وأعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت
إشراف « بول كازانوا » من أساتيد مدرسة فرنسا Collège de France وهو جزآن
(٣) استشهد رينو على هذه الرواية بكلام بروكوب Procope في تاريخ حروب الفندال

قد رحلوا من اليمن فرارا من وجه الاحابيش الذين كانوا قد استولوا على بلاد اليمن^(١) فهذا التشابه في اللغة كان عاملا كبيرا في استقرار دولة العرب في افريقية واعان البربر العرب في فتوحاتهم ومغازيهم . وأضف الى ذلك كون العرب والبربر متشابهين أيضا في البداوة وسكنى الوبر وشطف العيش وطلب النجمة وحب القتال وشن الغارات

خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد

فما رسخت أقدام العرب في افريقية حتى فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين افريقية واوربة . وكان ذلك سنة ٧١٠م وأمير افريقية من قبل الخليفة هو موسى ابن نصير من أهل الحجاز، ولد في زمان عمر بن الخطاب ورضع مع اللبن الغرام بالغزو جباً في نشر عقيدة التوحيد^(٢) . وكان عمره يوم قام بهذه الغزوات ثمانين سنة . ولكن كانت فيه همه الشبان تتوقد نارها لم يفتر منها شيء . وكانت اسبانيا تحت

وتاريخ لوبو Lebeau الافرنسي الذي ألف تاريخ دولة بيزنطية Hisoire du Bas - empire

(١) استشهد رينو بكلام ابن خادون وتاريخ أهالي افريقية الشمالية الذي وضعته لجنة من أكاديمية الآثار السكانية والآداب بفرنسة ونشر سنة ١٨٣٥ . وبغير ذلك

(٢) ولد موسى بن نصير اللخمي بالولاء السكنى بأبي عبدالرحمن في سنة ١٩ للهجرة في خلافة عمر رضى الله عنه . قال ابن خالكان انه كان عاقلا كريماً شجاعاً نقيماً وكان من التابعين روى عن تميم الدارى . وكانت ولاية موسى على افريقية سنة ٨٩ بأمر الخليفة الوليد بن عبدالملك وهو الذي أداخ البربر بعد حروب شديدة، وبعد أن دوخ المغرب كله الى السوس الأقصى استعمل مولاة طارق بن زياد البربرى على طنجة وترك عنده ١٩ ألف فارس من البربر بالعدد الكاملة وكانوا أسلخوا وحسن اسلامهم وترك عندهم بعض العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية أى بلاد تونس اليوم ، وقد أطاعته كل بلاد المغرب ، وعند ذلك أرسل الى طارق بنزوا الأندلس . وسيأتي خبر موسى وطارق وغزواتهما مفصلاً في باطن هذا الجزء ثم في الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لاسبانية وكانت وفاة موسى سنة ٩٨ بوادى القرى من الحجاز وعمره ٧٩ سنة فالصحيح أنه لما فتح الأندلس كان ابن ٧٣ سنة

حكّم القوط وكان الأمير عليها لذريق^(١) . وكان يتبعها من أرض فرنسة مقاطعة «روسيون»^(٢) وقسم من «اللانغدوق»^(٣) من (بروفنس)^(٤) وكانت في اسبانية حواضر حافلة بالمعمران زاهرة، إلا أن روح الانتفاض كان كامناً في النفوس، وفساد الاخلاق كان قد تغلغل في جسم الأمة فلم يكن عجباً أن تسقط مملكة كهذه ولو عظيمة في ظاهرها بيد عدد قليل من المتدينين الأحامس الذين يسوقهم الى الحرب حب الفناء، فضلاً عما يمتقدونه من انهم مرسلون من الله لهداية البشر فحرب موسى التجربة الاولى يبعث براز أجازهم الى طريفة^(٥) فعاثوا ونهبوا ولم يصادفوا مقاومة فاشتد بذلك عزم موسى . وفي السنة التالية (٧١١) جرد تجريدة جديدة اثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر عقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله ، واحتز رأس لذريق وبعث

(١) Rodrigue رودريغ والعرب تقول لذريق آخر ملوك القوط باسبانية كان أبوه دوق قرطبة فنصب عليه غيطة ملك البلاد وسمل عينه فثار لذريق على غيطة وقاتله وهزمه واستوى على عرش اسبانية مكانه . فاتفق أولاد غيطة مع الكونت يليان والى سبته واستجدوا العرب وأجاز طارق بن زياد الى الأندلس وهزم لذريق وجوعه بالقرب من شريش كما سيأتي الكلام عليه في الأجزاء التالية . وقتل لذريق في المعركة وأخذ العرب رأسه . وقيل بل غاب ولم يدر أين وقع وإنما وجد المسلمون فرسه الأبيض وهذه رواية « أخبار مجموعة »

(٢) Roussillon هي المقاطعة المسماة باليرانة الشرقية استولت عليها فرنسة سنة ١٦٥٩ قاعدتها (بريبيان) Perpignan

(٣) Languedoc هي المقاطعة الواقعة الى الشمال من روسيون وقاعدتها تولوز وكان استيلاء فرنسة عليها سنة ١٢٧١

(٤) Provence هي مقاطعة عظيمة في جنوبي فرنسة تضم جبال الالب السفلى ومصاب نهر الرون وبلاد القار والفوكلوز وقد تقدم التعريف بها

(٥) Tarifa والعرب يقولون طريف مرسى في جنوبي الأندلس بازاء جبل طارق الى الغرب ، سمي كذلك باسم أبي زرعة طريف بن مالك النخعي من جماعة موسى بن نصير كما سيأتي الكلام عليه في الجزء التالي

به الى الخليفة ^(١) في دمشق . وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة وماتقة
وطليطلة . وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب في القلوب
أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواء أضعم
منه عسكره . وطارق بن زياد ^(٢) هو الذي سمي باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق .

(١) هذا على إحدى الروايات وقيل إن لتريق لم يوجد بعد المعركة لاجياً ولا ميتاً .
(٢) ذكر ابن عذارى المراكشي صاحب « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب »
نسب طارق بن زياد فقال : هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولفو بن ورغوم بن بزغاسن بن
ولهاص بن يطومت بن نزاو ، فهو نفزي ، ذكر أنه من سبي البربر وكان مولى موسى بن نصير .
ونال : في سنة ٩٢ من الهجرة خرج طارق الى الأندلس وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر
ورهائهم الذين ترك موسى عنده وكان قد أخذهم حسان (أى حسان بن النعمان أمير افريقية لعهد
عبد الملك بن مروان) من المغرب الأوسط قبله . وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى
في سنة ٨٥ وفي هذا التاريخ تم اسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها
المشركون الى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات . اه وسند ذكر عن طارق ما هو أوسع من هذا
في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب . وأما ان طارقاً أطعم عسكره من لحم أسرى العدو فقد ذكر
رينو في حاشية كتابه أن راوى هذا الخبر هو ابن القوطية في كتابه « فتح المسلمين للأندلس » قال
رينو : وقد عاش ابن القوطية في النصف الثاني من القرن العاشر للمسيح . وقيل له ابن القوطية
لانه من ذراري ملوك القوط باسبانية اه

قلت : قيل له ابن القوطية نسبة إلى جدته ابنة « وبه » ابن « غيطشة » ملك اسبانية الذي
انتزع لتريق منه الملك وانضم بسبب ذلك أولاد غيطشة الى العرب . هذه رواية ابن خلكان
قال : وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرتباس ، فتزوجها
في الشام عيسى بن مزاحم من موالى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وسافر معها الى الأندلس ،
وجاءت القوطية بكتاب من الخليفة الى عامله على الأندلس فكف عمها عنها وأصفاها مما كان لها قبله
ورعى حرمتها وطالت حياتها الى أيام الأمير عبد الرحمن الداخل فكانت تدخل عليه وتفضي حاجتها
وغلغ اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم . ذكر ذلك في كتاب الاحتفال في أعلام الرجال
تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عفيف . انتهى ملخصاً . وابن القوطية المؤرخ هو أبو بكر محمد بن
عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسي الأشبيلي الاصل القرطبي المولد والدار

فالمسلمون المؤمنون كانوا يرون هذا الجهاد مما يزيد سواد المسلمين ويضمن لهم الجنة ،
والمسلمون الذين لم يكونوا يفكرون في أمر الآخرة قد رأوا في الأندلس قطراً خصباً
فياًضاً بالخيرات فيه كل ما تشهى الأنفس وتلد الأعين . فاجتمعت اذاً في هذا الفتح
مقاصد الدنيا والأخرى وانتظم فيه الاحتساب مع الاكتساب . ومما لا نزاع فيه أنه
قد كان من أهم أسباب فوز طارق في الأندلس عضد اليهود الذين كانوا كثيرين في
اسبانية وكان المسيحيون يغلظون في معاملتهم ويعدون عليهم أنفسهم فلما أقبل
العرب وجدوا فيهم إخواناً يأخذون بثأرهم^(١) وينفسون من خناقهم

أما في فتح الطيب فيقول انها سارة بنت « المند » كبير أولاد غيطشة ، بسط عمها ارطباش يده
على ضياعها فأنشأت سارة مركباً حصينا في اشيلية وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام
حتى تزلت بسقلان من ساحلها ، ثم قصدت باب الخليفة هشام بدمشق ، فأنتهت خبرها وشكت
ظلامتها من عمها واحتجت بالعهد المتعقد لايها واخوته على الخليفة الوليد ، فأوصلها هشام الى نفسه
وأعجبه صورتها وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله على افرقية بانصافها من عمها
ارطباش ، فأنفذ لها الكتاب بذلك الى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمه فتم لها ذلك وأنكحها
الخليفة عيسى بن مزاحم فابنتى بها في الشام . ثم قدم بها الى الأندلس وولد له منها ولداه ابراهيم
واسحاق فأدركا الشرف المؤثل والرئاسة باشيلية . انتهى ملخصاً

(١) ذكر دوزى R. Dozy المستشرق الهولاندى الشهير في الجزء الثانى من تاريخه لدولة
المسلمين في اسبانية علا كثيرة لسرعة فتح العرب لتلك البلاد سندكرها في مكانها ، الا أننا نعمل
منها هنا بقضية اليهود التى قد أشار اليها رينو في كتابه . فقال دوزى : ان رجال الدين
الكاثوليكي كانوا يرهقون اليهود عسراً وبيالفون في اينائهم . قال المؤرخ الافرنسى المشهور
ميشله Michelet كان الناس في القرون الوسطى كلما سألوا : لا ذا هذا العالم الذى ينبغي أن يكون
الثل الاعلى من الفراديس في ظل الكنيسة نراه اقلب جحيا ؟ أجابتهم الكنيسة : « لان هذا
من غضب الله الذى يرى أن قلة ربنا لا يزالون وافرين »

فبدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة ٦١٦ في أيام الملك « سيسبوت » Sisebut . وقرر اعطاء
اليهود مهلة سنة ليتصرفوا فان لم يتصرفوا في خلال تلك السنة نقوا الى خارج اسبانية وضبطت
أملاكهم وجلد كل منهم مائة جلدة . فنصر منهم تسعون ألفاً من مجرد الرعب . ولكن المنتصرين
كما لا يخفى لبثوا يختنون أولادهم سرا ويدينون بدين موسى . فقرر جمع الاساقفة الرابع المتعقد

فلما بلغ موسى بن نصير ما فتحه الله على يد طارق هاج أشد هياج للأخذ
بنصيبه من هذا الفتح وأقبل بجيش من العرب والبربر^(١) ومعه واحد من
أصحاب محمد عمره مائة سنة وكثير من أبناء الصحابة^(٢). وقد اتتحي موسى طريقاً

في طليطلة تركهم أخيراً وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لاجل تنشئتهم في النصرانية . ثم في المحرم
السادس في طليطلة قرر الاساقفة أنه لا يؤذن بمبايعة ملك على اسبانية الا على شرط انفاذ قرارات
المجامع الاسقفية بحق اليهود . وبرغم هذا كله بقي يهود في تلك البلاد كثيرون ، ولكن استمر
المسيحيون يعذبونهم نحواً من ثمانين سنة الى أن فرغت جعبة اصطبارهم فأجمعوا الثورة بمظاهرة
يهود البربر في افريقية ، ووعدهم دؤلاً بالاجازة الى الاندلس لاجل نجاتهم . وكان ذلك في زمن
الملك « اجيكا » Egica الذي بلغه هذا الخبر فجمع الاساقفة وبعد أن استوتقوا من صحة الخبر
قرروا استبعاد اليهود بأجمعهم وضبط جميع أملاكهم . ومن الغريب أنه قضى على بعض اليهود
بأن يكونوا عبيداً لمن كانوا عبيداً ، وقرر أن يؤخذ أولادهم من بعد بلوغ سن السابعة وينشأوا
في النصرانية ولم يكن يؤذن بزواج اليهودي من اليهودية ، بل كان لا بد لليهودي بعد أن صار
عبداً من أن يتزوج بأمة مسيحية . وكان لا بد لليهودية من أن تتزوج بعبد مسيحي الخ

فلما جاء المسلمون وفتحوا اسبانية كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من
الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم فنشقوا نسيم الفرج ، لذلك كانوا
هم والارقاء وجميع الضعفاء من أعظم أنصار الاسلام . انتهى ملخصاً

(١) جاء في فتح الطيب نقلاً عن الرازي أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس في رجب سنة

٩٣ واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى وكان موسى في عشرة آلاف

(٢) جاء في الفتح : زعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة اسمه
المنيذر . قال : ودخلها من التابعين (الذين صحبوا من صحب النبي صلى الله عليه وسلم) ثلاثة :
الامير موسى بن نصير ، وعلى بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل ان ثالثهم انما
هو حنش الصنعاني ، صنعاء الشام ، (قرية كانت على باب دمشق دون المزة) وانهم قفلوا عنها
بقول موسى . وأهل سرقطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم
مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه اه . وقيل ان التابعين الذين دخلوا الاندلس أربعة
بأبي عبد الرحمن الجيلي الانصاري وخمسهم بعضهم بجيان أبي جبلة مولى نبي عبد الدار كان في ديوان
مصر فأرسله عمر بن عبد العزيز الى افريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها . وكان روى

غير الطريق التي سلكها مولاه طارق وفتح بلداناً أخرى مثل ماردة^(١) وسرقسطة^(٢) وكان أكثر جنده من الفرسان وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفة

عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وغزا مع موسى بن نصير وانهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة (هي حصن Carcassonne في جنوبي فرنسا) اه. وقال ابن الأبار في التكملة: حيوة بن رجاء التميمي، ذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه وأنه من جملة التابعين. قاله ابن بشكوال. وقال ياقوت في معجمه عند ذكر صنعاء الشام: وحش بن عبد الله الصنعائي - صنعاء الشام - سمع فضالة بن عبيد، روى عنه خالد بن معدان والحلاج أبو كبير وعامر بن يحيى العامري. قال ابن الفرضي عداه في المصريين، وهو تابعي كبير ثقة، ودخل الأندلس. قال: وهو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد بن قينان بن ثعلبة بن عبد الله بن تامر السبأى وهو الصنعائي يكنى أبا رشيد (بفتح الباء) كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، وقدم مصر بعد قتل علي، وغزا المغرب مع رويغ ابن ثابت والأندلس مع موسى بن نصير (الى أن يقول) ومات بأفريقية وولده بمصر. وقيل مات بمصر. وقيل بسرقسطة، وقبره بها معروف، كل ذلك عن ابن الفرضي. اه. وأما المنيزر الصحابي فقد جاء في النسخ أن ابن حبيب لم ينسبه وإنما ذكره ابن عبد البر (الأندلسي) في الصحابة، وقال انه المنيزر الأفريقي. وروى عنه أبو عبد الرحمن الجيلي. قال: حدثنا المنيزر الأفريقي، وكان سكن أفريقية، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول: «من قال رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً فأنا الزعيم له فلا تخذن بيده فلا دخلنه الجنة» رواه ابن عبد البر بسنده اليه

(١) Mérida من ولاية بطايوس والى الشرق منها وهي بلدة من بناء أغسطس الروماني استولى عليها العرب نحواً من ٥١٥ سنة، وسيأتي ذكرها في الجزء الآتي من الحلقة

(٢) أصل اسمها عند الايبيريين «سالدوبة» وقد سميت سرقسطة. في زمان الرومانيين باسم الامبراطور أغسطس فهي Cesar-Augusta أى سيزار أوغسطة وقد حرقها العرب الى سرقسطة وكان يقال لها الثغر الأعلى لأنها قاعدة الحدود بين العرب والافرنجة، وكان القوط استولوا عليها سنة ٤٧٦ وحاصرها الافرنج (الافرنسيون) في زمان أخفاد كاونيس فعجزوا عنها، ولما استولى العرب على اسبانية كانت من القواعد الكبار، وحصرها شارلمان في أيام عبد الرحمن الداخل وعجز عنها واسترجعها الاسبانول سنة ١١١٨ كما سيأتي الكلام عليه، بعد حصار استمر تسعة أشهر وحرب استمرت خمس سنوات. دخل اليها محرر هذه السطور سنة ١٩٣٠ في أواخر

من حملة الارزاق بالبغال . وان مؤرخى العرب متفقون على أن موسى بن نصير وصل بفزواته الى فرنسة ، وأنه في « ناربون »^(١) وجد في احدى الكنائس سبعة تماثيل فضية منقوشة ، وكذلك في قرقشونة عرضت لمطامعه في كنيسة « سانت مارى » سبعة أعمدة كبار هائلة من الفضة^(٢)

وكان العرب يطلقون على فرنسة اسم « الأرض الكبيرة » ويعنون بها جميع الأرض الواقعة بين جبال البيرانه (التي يقول لها العرب البرانس) وجبال الألب والاقويانوس ونهر البام ومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق في الحقيقة على فرنسة

يونيو وشاهد أهم آثارها ومن جملتها قصر الجعفرية المنسوب الى أبى جعفر أحمد ، بناه في أواسط القرن الحادى عشر للمسيح ، ولا يزال الجامع الذى فيه محفوظاً . ومما شاهدناه فيها كنيسة « السيو » التى بنيت على اقاض الجامع الاعظم . وبقي الاسبانول يشتغلون بها من سنة ١١١٩ الى سنة ١٥٢٠ فجاءت من أفخم كنائس أوربة . ولها باب من الجهة الشمالية الشرقية لا تزال عليه الصنعة العربية والزليج الذى تمتاز به قصور العرب . وفي هذه الكنيسة قبة بالنحاس الاصر من صنع المهندس العربى الذى كان يقال له الرامى ، بنيت سنة ١٤٩٨ وفيها من الزخرف شئ كثير يحار له العقل . وفي سرقسطة كنائس كثيرة بديعة غير هذه وقصور وجسر على نهر « ايره » يصل بين البلدة والربض Rabal ويلفظون الربض « رابال » وهو لفظ غريب ، ولكن له أصل فى العربى ، وقد سمعت أناساً من تيف ومن هذيل يقبلون الضاد لأمأ ، وذكرت ذلك فى رحلتى الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف . هذا وسكان سرقسطة اليوم ١١٠ آلاف نسمة

(١) Narbonne والعرب يقولون لها أربونة كانت قاعدة ثغورهم الشمالية مدة نصف قرن ، وهى مدينة على مسافة قريبة من البحر يمر بها جدول من نهر الاود ، وقد دخلتها سنة ١٩٣٠ فى أوائل سبتمبر وأنا قافل من الاندلس ، ورأيتها تشبه كثيراً المدن العربية فى ضيق أزقتها وازدحام بيوتها ، ورأيت فيها الاشجار التى تكثر فى البلاد العربية كالتين والصبير والرمان وما أشبه ذلك . وفيها زقاق منسوب الى السمح Zama وهو السمح بن مالك الحولانى . وعدد سكانها الآن لا يزيد على ٣٠ ألف نسمة

(٢) فى الصفحة ١٣٠ من نفع الطيب الجزء الاول الطبعة الازهرية يقول : قال بعضهم ان بين قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة « سنت مريه » وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراءوت مثلها ، لا يحيط الانسان بذراعيه على واحد منها مع طول مفرد

في زمن شارل مارتل (١) وابنه بين (٢) ولا سيما في زمان شارلمان (٣) . وكانت الأمم التي في هذه المملكة تتكلم بعدة لغات كما يقول مؤرخو العرب

(١) Charles Martel أى كارل المطرقة ، والعرب يقول « قارله » ابن « باين دريستال » ولد سنة ٦٨٩ واتهمه أبوه بقتل أخيه « غريموالد » فحبسه في « كولونييه » ولما مات أبوه سنة ٧١٤ صار هو حاجب الملك مكان أبيه بمساعدة الاوسترازين وقهر النوسترين في عدة وقائع واستبد بأمر الملك شيلبريك الثانى ، ثم بأمر « تيرى » الرابع ، ولم يبق لأحد منهما من الملك سوى الاسم، وحارب الصكصون والبافارين وتقلب عليهم، وهزم أولاد دوق اكينتانية، إلا أن هذا لما رأى العرب فتحوا بلاده استصرخ قارله ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فحشد لقتال العرب عصاب الاوسترازين والألمان، وتقلب على الأمير عبد الرحمن الغافقى في وقعة بواتيه سنة ٧٣٢ ومن بعدها لقب بالمطرقة أو الصاقور . وأجم الأوربيون على أن هذه الواقعة هى التي أقتدت أوربة والنصرانية من الاسلام . ثم طرد العرب من « نيم » وغيرها ، لكنه لم يقدر على طردهم من أربونة أو ناربون . وكانت وفاته سنة ٧٤١ وقد ترك من الولد « بين الفصير » و « كرلومان » و « غرينون » و « رى » و « برنار » و « جيروم » فاقسم المملكة الأولان فيما بينهما وصار « رى » مطراناً على مدينة روان Rouen

(٢) Pepin le Bref بين الفصير ابن قارله، حارب الصكصون والبافارين وأمير اكينتانية . وفي سنة ٧٥١ يوج ملكا على الفرنج Les Trancs وهو أول الدولة الكارلوفنجية Carlovingienne وكانت مبايعته بعضد الكنيسة. وترك من الولد شارلمان Charlemagne و كارلومان Carloman ومات سنة ٧٦٨ وهو الذى استرد أربونة وقرقشونة من أيدي العرب (٣) هو كبير ولد بين الفصير، كانت ولادته في نوستريا سنة ٧٤٢ وتولى الملك هو وأخوه كارلومان الى أن مات هذا سنة ٧٧١ فاهرد شارلمان بالملك وحارب الاكينتانيين واللومباردين وقهرهم وأخذ ملك لومباردية أسيراً ، وحارب الصكصونيين والبافارين والتورنجيين والسلاف والآفارين والبايمركيين، ودوخهم جميعاً . ولكن أشد حروبه كانت مع الصكصونيين اذ جرد عليهم ٣٣ تجريدة ولم يبرح حتى أدخلهم في الطاعة وفي النصرانية معاً ، وكانوا من أشد أعدائها فبث فيهم الدعاة والمبشرين حتى تصروا قاطبة . وبلغت جيوشه شرقى أوربة ، وانتزع من يد روم القسطنطينية سواحل دالماسيا (اليوم في يوغوسلافيا) وبلدان البانوب ، وهكذا دخل في حوزته كل ما كان يسمى بأوربة المسيحية . وتوجه البابا لاون الثالث امبراطوراً على الغرب في سنة ٨٠٠ وجدد به السلطنة الرومانية . وكان عدا غرامه بالفتوحات مجتهداً في تنظيم ادارة رعيته وتوزيع العدالة بينها ، وفي تهذيب الأهالى وتعليمهم وايداب الثوار منهم ، فهو أعظم ملوك الغرب في القرون الوسطى ،

وقد كان أشد ما بهت له المسيحيون. أو اتند أنهم كانوا يرون أعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد . وكانت طريقهم في الفتح أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا على سكانه في ما لهم ولا في دينهم، وإنما كانوا يحولون جانباً من الكنائس إلى جوامع ويفنمون ما فيها من النفائس، ويضعون أيديهم على الأراضي التي نزع أهلها وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة . وكانت الجزية التي يضربونها على الأهالي متفاوتة بحسب الاحوال وربما أخذوا من الأهالي رهائن ليستوثقوا منهم . فأما البلاد التي لم تخضع لهم الا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال . وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم

وقد ذكر مؤرخو العرب في عرض الكلام على الفتوحات العربية في فرنسة أنه قد كان مقصد موسى بن نصير رحمه الله المعاد الى دمشق حضرة الخلافة عن طريق المانيا ماراً بالقسطنطينية وبآسية الصغرى ، بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الاسلامية ، يخدم مواصلات بعضها مع بعض . أما مؤرخو المسيحيين فلم يذكروا شيئاً عن دخول موسى الى أرض فرنسة . ولعل زحفة

خطب وده نيقوفور ملك الروم وهارون الرشيد خليفة العرب وأدارة المغرب وغيرهم من الملوك المعاصرين

وقاتل شارلمان العرب قتالاً مستمراً، برأً وبحراً، وأجلاهم عن جزيرتي كورسيكا وسردانية ، واسترجع منهم بلاد كتالونية وأراغون الى سرقطة. وذلك بمساعدة اسباينول آستوريا وناباره . ولكنه لم يتمكن من فتح سرقطة . وبينما هو قافل عنها دمه الباشكنس في « رونسفالس » فاستأصلوا ساقه جيشه وقتل في ذلك اليوم « رولان » Roland أحد الأبطال الذين رافقوا شارلمان في تلك الحملة ، وهو الذي وضعت له الأفاصيص في فرنسة وتغنت بوقائمه شعراؤهم وزجالوهم، أشبه بمترة عندنا . وقيل ان العرب هم الذين هزموا جيش شارلمان في البيرانه وظاهرهم الباشكنس

موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة مر بها كخطفة البازى ورجع . ومما لا مشاحة فيه أن النصرانية كانت يومئذ تحت أشد الأخطار . وان الانسان ليرتجف رعباً عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحلّ بأوربة لو لم يقع الخلف من أول الأمر بين العرب الغالين « اه كلام رينو ملخصاً

وقد استشهد رينو هنا بكلام المقرئ فوجب أن ننقل قول المقرئ في هذا الصدد جاء في الصفحة ١٢٩ من الجزء الأول من نفع الطيب ما يأتي ببعض اختصار : كانت نفس موسى بن نصير تزعج الى جليقية (وهى ما يسميه الافرنج Galicie غاليسيا وقاعدتها مدينة كان العرب يسمونها سانت ياكو Santiago ويقول لها الافرنج Saint - Jacques De Compostelle) فيبينها هو يعمل في ذلك ويُعيد له اذا أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوغول فيها ، فسأه ذلك وقطع به عن ارادته ، اذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب الى وقت ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه في الدخول اليها ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك (هو في الافرنجية Luque) فأقام هناك وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز . وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسوه حطوا به ونزلوه قاطنين . فاتسع نطاق الاسلام بأرض الأندلس . وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الأمل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى فى القبول وكتب اليه يوبخه وألزم رسوله ازعاجه . فانقلع حينئذ من مدينة «لك» بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومضياً جميعاً ، وقفل معها الرسولان مغيث وأبو نصر

حتى احتلوا اشبيلية . فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امانة الأندلس وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر . وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه . وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنة ، وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر . وحمل موسى الغنائم والسبي وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة (سيأتي ذكر ذلك كله في محله من الجزء الآتي) منوهاً بها ومعها من الجواهر ما لا يقدر قدره وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته أسف على ما لحقه من الازعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد افرنجية ويقطم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس في الشام ، متخذاً مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيماً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحراً . وقيل انه أوغل في أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هي : « يابني اسماعيل انتهم فارجعوا » فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الالمنى كبير . فشاور أصحابه في الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية اه

وجاء في نفح الطيب بعد ذلك بصفحتين ما يأتي : وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي هي : ارجعوا يابني اسماعيل الخ - مامعناه : (وان سأتم لم ترجعوا فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض^(١)) اه

(١) قصة الكتابة العربية هذه أشبه بأن تكون ملفقة أو محرفة عن قصة أخرى . والحقيقة أن عدم تحقيق موسى بن نصير مقصده العظيم ذلك من اختراق أوروبا من الغرب الى الشرق وهوذه الى دمشق عن طريق القسطنطينية لم يكن عن قراءته في الصخر كتابة عربية أو سريانية ، فالذي يقوم بتلك الأعمال الكبيرة الحارقة للعادة لا يكون ممن يعمل فيه الوسواس لكتابة كهذه يجوز - ان صح خبرها - أن تكون كتابة محدثة نقرأها الا فرنج أنفسهم ليدخلوا الوهل على قلوب العرب بعد أن رأوهم أو غلوا في بلادهم وصمموا أن يصلوا الى غايتها . وانما لم يتمكن موسى بن نصير

وقال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير الى الأندلس ما يلي :

« نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، فوافوا خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز الى الأندلس ، وتلقاه طارق فاتقاد واتبع . ويقال ان موسى لما سار الى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل طارق وتم الفتح وتوغل في الأندلس الى برشلونة في جهة المشرق ، وأربونة في الجوف ، وصمم قادس في الغرب . ودوخ أقطارها وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز الى الشام ودروب الأندلس ودروبه ، ويغوص اليه ما بينهما من

من اكمال مشروعه بسبب الحاح الخليفة الوليد عليه في القدوم الى دمشق ليصف منه على حقيقة خبر الأندلس وافرنيجة ويشافيه في عمل عظيم كهذا لا تكفي المكتبة من بعيد في تدبيره . وقد يكون الوليد خاف على المسلمين أن تأكلهم القاصية أو تنزل بهم داهية ، وأنت تعلم أن موسى بن نصير لما اتصل به يليان كوت سبنة وشوقه الى غزو الأندلس انتقاماً من المالك لدريق الذي كان اغتصب ابنة يليان على ما سيأتي خبره في الجزء التالي ، وكتب موسى الى الوليد يخبره بما دعاه اليه يليان ويستأذنه في اقتحام الأندلس كان جواب الوليد أن : خضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنها ولا تفرر بالمسلمين في بحر شديد الأحوال . فراجع موسى بأنه ليس ببحر زخار وانما هو خليج منه يمين للنظر ما خلفه . فكتب اليه الخليفة : وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه

فاذا كان الخليفة لم يسمح لموسى بعبور بحر الزقاق وهو خليج ضيق عرضه ١٤ كيلو متراً الا بعد مراجعات متعددة فكيف يسمح له باختراق أوروبا من اسبانية الى فرنسة الى ايطالية الى بلاد البلقان الى القسطنطينية الى آسية الصغرى بدون أن يتروى في الأمر ويروزه مائة مرة قبل أن يقدم عليه ، فقد كانوا في اشفاق دائم على جيوش المسلمين أن يتقطعوا عن مراكز الخلافة وتحمل بهم نائبة وسترى فيما بعد أن الأندلس كانت امتلائت بالمسلمين ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لا يزال يفكر في اخراج المسلمين منها وإعادةهم الى افريقية خوفاً عليهم لاقطاعها عن بلاد الاسلام . ولقد صح خوفه من بعد ثمانمائة سنة . فالخليفة الوليد باستقدامه موسى بن نصير اليه كان قد وقف المشروع حتى يتروى فيه ، ولكن ما وصل موسى الى دمشق حتى مات الوليد وخلفه سليمان أخوه وكان حاقداً على موسى فنكبه تارك النكبة الشنيعة وجازاه على فتوحاته جزاء سنار ، وعطل ذلك المشروع بمقدمه واقتياده الى هواه دون المصلحة العامة . وسترى في كلام ابن خلدون أن استخدام الوليد لموسى لم يكن الا من خوفه على المسلمين

بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم الى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق . ونعى الخبر الى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى تفرير بالمسلمين، فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسرَّ الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده . ففتَّ ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها. واستعمل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار امارة. واحتلَّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل الى المشرق سنة ست بعدها، بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر. يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي . وولى على افريقية ابنه عبد الله ، واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب ، فكان صاحب القيروان ناظرآ في الجميع . وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولى الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه . واثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان . وكان خيرآ فاضلاً وافتتح في ولايته مدناً كثيرة . وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري . وكان سبب غضب سليمان على موسى أنه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وصل أشرفها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد، ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من سليمان يثبته، فأسرع موسى باللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع اليه ما معه من الذخائر والأموال، ففاظ ذلك سليمان ، وأساء مكافأته حين أفضى الأمر اليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع . وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك . اه

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني : ارتدَّت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحراالى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هناك حينئذ استقر الاسلام

بالمغرب وأذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة . اه

وقال ابن عذارى المراكشي في «المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب» ما يلي :
وفي سنة ٩٦ توفى الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة وولى الخلافة سليمان
فغضب على موسى غضباً عظيماً وأمر عليه فأوقف في يوم شديد الحر، في الشمس، وكان
رجلاً بادناً ذا نسمة، فوقف حتى سقط مغشياً عليه، وقال له سليمان : كتبت اليك فلم
تنظر كتابي هلمّ مائة ألف دينار . فقال : يا أمير المؤمنين : قد أخذتم ما كان معي من
الأموال فمن أين لي مائة ألف ؟ فقال سليمان : لا بد من مائتي ألف . فاعتذر . فقال :
لا بد من ثلاثمائة ألف دينار وأمر بتعذيبه وعزم على قتله . فاستجار يزيد بن المهلب
وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال : يؤدي ما عنده . وقيل ان موسى
افتدى من سليمان بألف ألف دينار . ذكر ذلك ابن حبيب وغيره . ثم ان يزيد بن
المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له : يا أبا عبد الرحمن في كم تعتد أنت وأهل
بيتك من الموالى والخدم أم أتكونون في ألف ؟ فقال : نعم وألف وألف . قال : فلم
ألقيت بيدك الى التهلكة ؟ أفلا أمت في قرار عزك وموضع سلطانك ؟ فقال : والله لو
أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئاً، ولكني آثرت الله عز وجل ولم أر الخروج
عن الطاعة . اه

قلت : لم يكن يزيد بن المهلب بالذي يجهل فضل الطاعة للخليفة وشناعة شق
العصا، ولكنه قال لموسى هذا الكلام لما أثار من غيظه عمل خليفة كسليان بن
عبد الملك برجل عظيم خدم الإسلام ما لم يخدمه أحد مثل موسى بن نصير . فقد كافأه
بمالا يكافأ به مجرم . وهو في الحقيقة لا من أعظم رجال الإسلام فقط بل من أعظم
رجال العالم . وحسبك أنه هو الذي دوخ البربر المشهورين بشدة البأس وصعوبة المراس
بعد أن أشعلوا ثورات ، لا ينادى وليدها ولا يحصى عديدها ، وبعد أن ارتدوا عن
الإسلام اثنتي عشرة مرة . فلم يستقر إسلامهم الا على يد موسى بن نصير . وحسبك

أنه دخل الأندلس واستتم فتحها واستصفي ممالكها وهو ابن ٧٥ سنة وكان جميع جيشه هو وطارق لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل . ولو أن قائداً معه ثلثمائة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأئخن فيها ما أحاطه موسى وأئخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تجموج حوالبه كالأبجر الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفوفاً لهمته بل حدثه نفسه التي قل مثلها في نفوس البشر، في بعد الهمة، أن يوغل في أرض الافرنج ويمطف منها الى الشرق حتى ينفذمن القسطنطينية .

وقرأت في تاريخ « دول الاسلام » للامام الذهبي أن موسى بن نصير توفي في وادي القرى عن ٧٨ عاماً ، وأنه كان يقول : لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية

ودوى ابن عذارى أنه أقام على المغرب والأندلس أميراً نحواً من ١٨ سنة ومما ذكر في وفاته أنه حج مع الخليفة سليمان فلما وصلا الى المدينة قال موسى لأصحابه : ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكركه المشرق والمغرب . وبالفعل كان موسى الرجل الذي ملأ اسمه المشرق والمغرب وكان في الرجولية كالصخرة التي تنحط عنها السيول

هذا ولم يكتفِ سليمان بنكبة موسى في شخصه حتى نكب جميع أولاده . فأمر محمد بن يزيد أمير افرريقية بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بني موسى ، فسجنه محمد وعذبه ثم قتله .

وأما عبد العزيز بن موسى فقد رويت في أسباب قتله روايات كثيرة، أقربها الى العقل أنه لما بلغه ما حل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع طاعة بني مروان، فجاء أمر سليمان الى وجوه العرب بالأندلس بقتله، فقتلوه وحمل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعا بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه (١) .

(١) جاء في كتاب « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة الضبي ترجمة عبد العزيز ابن موسى بن نصير قال : كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها سنة ٩٥ فأقام واليها الى أن كتب سليمان بن عبد الملك الى الجند هناك فقتلوه وأتوه برأسه . كذا قال سعيد بن يونس . وكان قتله فيما قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في سنة ٩٩ وقال : ان الجند

قال ابن عذاري : « فكان فعل سليمان هذا بموسى من هفوات سليمان التي لم تزل تنقم عليه »

قلت : من هفوات ابن عذاري أن يعبر عن أعمال سليمان هذه بلفظة هفوات . وهي في الواقع من الجرائم التي لا تغفر . ولكن مما لا يجوز أن ننساه أن موسى بن نصير أخذته الغيرة مما وفق اليه طارق بن زياد من الفتوح ، وأهانته ، بعد أن تلاقيا في الأندلس . وكان هذا العمل الصغير غير متناسب مع كبراة نفس موسى وعلوهمته ولم يخلُ من تأثير في قضية نكبته لأن طارقاً شكاً الى الخليفة ما فعله به وظهره في ذلك مغيث الرومي رسول الوليد الى الأندلس . قال صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم » وهو من أقدم ما كتب من تواريخ الأندلس يظهر أن صاحبه حرره (١) في عهد الحكم

اجتمعوا على قتله لأمر تمهوها منه وبلغتهم عنه فثاروا به وقتلوه وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وانه لما احضر بين يدي سليمان حضر موسى بن نصير فقال له سليمان : أعرف هذا ؟ قال : نعم أعرفه صواماً قواماً فعليه لعنة الله ان كان الذي قتله خيراً منه اه
(١) قد أورد دوزي المستشرق الهولاندى المتخصص بتاريخ الأندلس عن كتاب « أخبار مجموعة » هذا بحثاً مدقّقاً كعادته في المقدمة التي وضعها بالفرنسية على كتاب « المغرب في أخبار المغرب » لابن عذاري المراكشى فقال دوزي ما محمله :

« ان العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ في القرنين الأولين من استيلائهم على اسبانية وذلك لأن العرب كانوا يعتمدون كثيراً على الروايات الشفهية وان قوة ذاكرتهم لعجبية فليس في الأمم أمة تضاهيهم في حفظ ما يفظونه من وقائع وسنين وأعلام وأنساب وذلك بدون ضياع ولا تحريف الا مالا بال له . فلم يكن بهم حاجة اذاً الى كتب مدونة . وكان التاريخ في جميع الأفواه يتناقله الأبناء عن الآباء . ثم ان الذين كانوا يشتغلون بالكتابة كان عددهم نزرأ جداً وكانوا اذا كتبوا اختاروا التأليف في الديانة وكانت التأليف في غير الديانة مكروهة . ولهذا ندرت الكتابة في التاريخ في الصدر من أيام أمراء بني أمية بالأندلس . ومع هذا فقد وجدت شذرات تاريخية من ذلك العهد ملحقة بتاريخ ابن القوطية وعليها هذا الاسم التالي : أخبار مجموعة في افتتاح الأندلس وذكر من وليها من الأمراء الى دخول عبد الرحمن بن معاوية وتغابه غايها وملكه فيها هو وولده والحروب الكائنة في ذلك بينهم . ومن تأمل في هذا الاسم علم أنه موضوع الكتاب وشك في أن يكون هو اسمه . لهذا قد كنت ظننت أن « أخبار مجموعة » هو « الكتاب الثاني »

المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - : انه لما دخل موسى الأندلس كان ذلك سنة ثلاث

الا أتى رأيت ابن الخطيب ينقل في كتابه عن الصميل بن حاتم فصلا عن الخرائطي لم أجد في مخطوط « أخبار مجموعة » الذي في خزانة باريز . فعدلت عن هذا الرأي . والذي يدور عليه الكلام في أخبار مجموعة هو كيفية فتح العرب للأندلس ثم الحروب الأهلية التي وقعت بينهم الى زمان عبد الرحمن الداخل ومن عهده الى زمان عبد الرحمن الثالث وهناك ينتهي الكتاب . ويظهر أن المؤلف عاش الى ما بعد سنة ٣٥٠ لأنه يذكر أن عبد الرحمن الثالث ملك مدة خمسين سنة . بل أظن أن المؤلف عاش بعد ذلك بكثير لا في أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث ولا في زمن المنصور ابن أبي عامر بل في القرن الحادي عشر للمسيح لأنه عندما ذكر كيف فكر عمر بن عبد العزيز في قتل المسلمين من الأندلس هتف قائلاً : « وليت الله كان أبقاء حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله » وغير ممكن أن يكون كاتب شاهد لفتوحات الحكم الثاني وفتوحات المنصور ابن أبي عامر ويقول هذا الكلام وهو كلام جدير بالعربي الذي شاهد حوادث الأندلس في عهد تفقير العرب فيها كالقرن الحادي عشر للمسيح (أي بداية الأربعمائة للهجرة) الذي كاد فيه الاذقنس السادس يستولى على جميع ديار المسامين في الجزيرة الأندلسية ، ولكن يوجد في هذا الكتاب فصل لا يمكن أن يكون قد كتب الا في القرن العاشر المسيحي وهو الذي يقول فيه : أخبرنا محمد ابن الوليد . وهو رجل محدث ترجمه الحميدي مات سنة ٣٠٩ . ثم انه يقول في مكان آخر انه سمع رواية فرار عبد الرحمن الداخل عن فم أحد معاصري هذا الأمير ؟ وهو تناقض غريب اذ ينبغي أن يكون سمع من فم رجل عاش في القرن الثامن . وعبارته هذه هي : أخبرني من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدء حديث هربه قال الخ. فلاجل التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ينبغي أن يكون بعض هذا الكتاب كتب في أواخر القرن الثامن وأن النسخة المحفوظة في مكتبة باريز قد اشتملت على فصول كتبها بعض رجال القرن الحادي عشر فهو بالحقيقة مجموعة تواريخ لا تاريخ واحد ومما يجدر بالذكر أن كل من تأمل في هذا الكتاب يرى مؤلفيه من أنصار دولة بني أمية اه

قلت : يجوز أن يكون في هذا الكتاب روايات مجموعة لعدة رواة منهم من تقدم ومنهم من تأخر ولكن تشاؤم مؤلف الكتاب بمصير الأندلس لا أراه بسبب كون التشاؤم عاش في القرن الحادي عشر للمسيح أو الرابع للهجرة ، بل يجوز أن يكون قد عاش أيام الفتوحات والطوائل ويبقى متشائماً وذلك لاستمرار الفتن بين مسلمي الأندلس بدون انقطاع ولأن الشيطان ألقى بينهم روقه فأطاعوه وهذا مع نقل حملهم وكثرة عدوهم واتصال الأندلس بالأرض الكبيرة أي أوربة ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين خطر هذا المقام من بداية الأمر والعامل بشغوف بصيرته يدرك طرفاً من خرائط القيب، وصدور الأمور مؤذونات بأعجازها . وسنذكر فيما يلي من الأجزاء خلاصة ما قاله دوزي عن تواريخ الأندلس العربية .

وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفاً - وهذا خلاف الرواية التي نقلها المقرئ وهي أنه دخلها بعشرة آلاف - وقد بلغه ما صنع طارق فحسده فلما نزل الجزيرة قيل له : اسلك طريقه . قال : ما كنت لأسلك طريقه ، فقال له العلوغ الأدلاء : نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله . فامتلاً بذلك سروراً ، فكان فعل طارق قد غمّه ، فساروا به الى مدينة شذونة فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم اليه ، ثم سار الى مدينة قرمونة ^(١) فقدم اليها العلوغ الذين معه وهي مدينة ليس في الأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترحى بقتال أو حصار . وقد قيل له حين دعا اليه ليست تؤخذ الا باللطف ، فقدّم اليها علوجاً ممن قد آمنه واستأمن اليه مثل يليان ولعلمهم أصحاب يليان ، فأتوهم على حال الافلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم فلما دخلوها بعث اليهم الخيل ليلاً وفتحوا لهم باب قرطبة - من أبواب قرمونة - فوثبوا على أحراسه ودخل المسلمون قرمونة . ومضى موسى الى اشبيلية وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا وأعجبها بنيانًا وآثارًا ، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غاب القوطيون حولوا السلطان الى طليطلة ، وبق شرف الرومانيين ونقمهم ودينهم ورئاستهم في دنياهم باشبيلية ، فأتاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهراً . ثم ان الله فتحها وهرب العلوغ الى مدينة باجة فضمّ موسى يهودها ومضى الى مدينة ماردة . وكانت أيضاً دار بعض ملوك الأندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوت الوصف ، فحصرها وقد كان أهلها خرجوا اليه وزحمهم دفعة ، نقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر ، قتالا شديداً . فلما رأى خروجهم اليه أبصر فيها حفراً كانت مقاطع للصخر فأكن فيها الرجال والخيل ليلاً ، فلما أصبح زحف اليهم فخرجوا اليه كهيئة خروجهم بالأمس ، فركبهم المسلمون وخرج عليهم الكمين وقتلوا قتلاً ذريعاً ونجا من نجا منهم الى المدينة . وهي مدينة حصينة لها سور لم يبنِ الناس مثله ، فثبت

(١) مدينة مبنية على متن أكمة عالية تنحط عنها الأرض من جميع جهاتها وحولها سهول فيح الى مسافة بعيدة قد زرتها سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الأندلس وشاهدت آثارها وحصونها المهتمة وهي من عمل اشبيلية

عليهم يقاتلهم أشهر حتى عمل دبابه فذب المسلمون تحتها الى برج من أبراجها فنقبوا
صخره فلما نزعوا صخره أفضوا في داخله الى الصماء التي يقال لها «اللاشه ماشه»
بلسان أهل الأندلس، فنتبت عنها معاولهم وفؤوسهم. فبينما هم يضربون فيها إذ استفاق
عليهم العلوج فاستشهد المسلمون تحت الدبابه فسمى بذلك البرج «برج الشهداء» الى اليوم.
وما أقل من يعرف هذا. وكان فتحه لها في رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر.
فلما كان من أمر الشهداء ما كان، قال العلوج: قد كسرناه فان كان يوماً مجيئاً الى
الصلح فاليوم فاطلبوه اليه. فخرجوا اليه فألقوه أبيض اللحية فراوضوه على شيء لم
يوافقه ثم رجعوا. فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا اليه ليراوضوه فاذا هو قد شبب لحيته
بالحناء، فألقوه أحمر اللحية، فمجبوا وقال قائلهم: أظنه يأكل ولد آدم أو ما هذا الذي
رأيناه بالأمس. ثم خرجوا اليه يوم الفطر فاذا اللحية سوداء فرجعوا الى أهل مدينتهم
فقالوا: يا حماقي انما قاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشبيون (١) قد صار
ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً، اذهبوا فأعطوه ما سأل. فصالحوه على أن جميع
أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهارين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها
له. ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وتسعين. ثم ان عمج أهل اشبيلية تحيلوا
على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبله ومدينة يقال لها باجة وقتلوا من
بها من المسلمين - قتل فيها ثمانون رجلاً - فقدم فلهم على موسى بن نصير بماردة فلما
فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش الى اشبيلية فافتتحها ورجع. ثم مضى
موسى من ماردة في عقب شوال يريد طليطلة. وبلغ طارقاً اقباله فخرج معظماً له متلقياً
فلقبه بكورة طليطلة، فلما رآه نزل اليه، فوضع موسى السوط على رأسه وونبه فيما كان
من خلاف رأيه، ثم سار به الى مدينة طليطلة، ثم قال له: أحضرنى بما أصبت وبالماندة (٢)
فأتاه بها وقد اقتلع رجلاً كسرهما من أرجلها فقال له: أين هذه الرجل؟ فقال: اني لا

(١) ماورد في كتب اللغة فعل «تشب» بمعنى جعل نفسه شاباً ويظهر أن الكاتب قاسها

على فعل «تشبخ» أي صار شيخاً

(٢) سنأتى بغير هذه المائدة التي أصابوها بطليطلة في الجزء القادم عند الكلام على فتح طليطلة

علم لي، كذلك أصبتها . فأمر بالرجل فعمل لها من ذهب وعمل لها سفظ من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومدائنها . اه
ولم يرد في « أخبار مجموعة » أن موسى دخل بلاد افرنجية . ومقتضى كلام صاحب هذا التاريخ أن هذا حصل من بعده فانه يذكر بعد ولاية موسى بن نصير ولاية ابنه عبد العزيز، ولا يذكر ان مقتل عبد العزيز كان بإشارة من سليمان بن عبد الملك كما ذكر كثير من المؤرخين ، ولا يقول ان عبد العزيز بن موسى خرج عن الطاعة بعد ما بلغه ما فعل الخليفة بأبيه، بل بالعكس هو يقول انه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على افرنجية بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزباد بن النابغة اللذين قتلاه ، وان يقفلهما اليه مع من شركهما في قتله من وجوه الناس

الولاية على الأندلس بعد موسى بن نصير

وهو يذكر أن أهل الأندلس ولوا عليهم بعد عبد العزيز والياً صالحاً كان يؤمهم في صلاتهم هو أيوب بن حبيب اللخمي^(١) ابن اخت موسى بن نصير . وتولى بعده الحر بن عبد الله الثقفي . ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تولى السمح ابن مالك الخولاني، وأمره الخليفة بأن يخمس الأراضي ويخرج منها ما كان عنوة خمساً لله من أرضها وعقارها ويقر القرى في أيدي غنمها بعد أن يأخذ الخمس، وأمره بأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهاها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : ولت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .
وهذه العبارة تدل على أن عقلاء المسلمين ، من أول الفتح وفي أيام عنجبية

(١) هو الذي بنى « قلعة أيوب » والاسبانيول يقولون Calatayoud وهى مدينة مررنا عليها في طريقنا من سرقسطة الى مجريط

العرب بالأندلس وأيام كانت قرطبة عاصمة فيها مليون ونصف من السكان وكان في الأندلس من عز الاسلام ما كان ، لم يزالوا يستشعرون خطر المقام بتلك البلاد نظراً لانقطاعها عن بلاد الاسلام وللكثرة فتن العرب بعضهم مع بعض وقتن العرب مع البربر وغير ذلك .

هذا وبعد السمح بن مالك الخولاني تولى عنبسة بن سحيم الكلبي ، ثم يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم عثمان بن أبي سعيد الخثعمي ، ثم حذيفة بن الاحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكناني ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي استشهد في واقعة بلاط الشهداء (١) ثم عبد الملك بن قطن المحاربي القرشي (٢) .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس اه

وذكر المؤرخ (كوندي) الاسبانيولى أن الحر الثقفي هو الذي تجاوز حدود الأندلس الى بلاد افرنجة ونواحى أربونة وسبي وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقال : ان غزو الحر لافرنجة وصرف قوته الى الجهاد فى بلاد الغال كانا من الأسباب التى سهلت للمسيحيين المنتجحين الى جبال آستوريا الاجتماع على العصيان

(١) هى واقعة بواتيه الشهيرة

(٢) فى الجزء الخامس من صبح الأعشى ورد ترتيب أمراء الأندلس كما يلى : موسى بن نصير أقام بالأندلس سنتين واستخلف عليها ابنه عبد العزيز ، ثم وليها بعد قتله عبد العزيز بن عبد الرحمن القيسى سنتين وثلاثة أشهر ، ثم وليها السمح بن مالك الخولاني سنتين وتسعة أشهر ، ثم وليها عنبسة ابن سحيم الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر ، ثم وليها يحيى بن مسلمة سنتين وستة أشهر ، ثم وليها حذيفة بن الأحوص القيسى سنة واحدة ، ثم وليها عثمان بن أبى نعة الخثعمي خمسة أشهر ، ثم وليها الهيثم بن عبيد خمسة أشهر ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي سنتين وثمانية أشهر ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى أربع سنين ، ثم وليها عقبة بن الحجاج خمس سنين ، وشهرين ، ثم وليها مفلح ابن بشر القيسى أحد عشر شهراً ، ثم وليها حسام بن ضرار الكلبي سنتين ، ثم وليها ثوابة الجذامى سنة واحدة ، ثم وليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى تسع سنين وتسعة أشهر ، وكانت دولة بنى أمية بالأندلس . انتهى

وقد جاء فى الحاشية فى الطبعة الأميرية من الكتاب تصحيح لهذا الترتيب من ذلك أن أول وال بعد عبد العزيز هو أيوب بن حبيب اللخمي كما فى فتح الطب والعبير

وزرع نواة المقاومة ووضع أساس دولة مسيحية في اسبانية محل الدولة التي كانت قد بادت . وقد انضم الى هذا السبب سبب آخر أراد الله به تيسير أمرهم هو سخط الناس على ادارة الحرّة، وتبرّم الدهاء بمسفه ، المسلمون والمسيحيون في ذلك سواء . فان الحرّ كان قد آسف الخاصة والقواد والأمرء وصاروا إلبًا عليه، وكانت الأهالي في غاليسيا وليون والجبال الأشتورية حديثة العهد بالخضوع للعرب ، فثقل عليهم الظلم أكثر مما ثقل على الذين أطاعوا من قبل . وظهر في ذلك الوقت رجل استفاد من هذه الأحوال الروحية في الشعب وجمع شمل بقايا حزب المقاومة وثار به ، وهو ييلاي^(١) أول ملك للاسبانيول بعد دخول العرب للاندلس اه

وذكر صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وأخبار أمرائها والحروب الواقعة بينهم » أن عبيد الله بن الجحباب بن الحارث ، مولى بنى سلول من قيس ، عندما ولاه الخليفة مصر أقرّ بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبة بن الحجاج السلولى الأندلس فدخلها سنة ١١٠ وافتتح الأرض حتى بلغ اربونة

ثم ذكر أنه لما وقعت الواقعة بين العسكر الشامى وعبد الملك بن قطن أمير الأندلس في خبر سيأتي ذكره في الجزء الآتى، وقتل الشاميون عبد الملك وصلبوه في قرطبة، كان ابناه في نواحي اربونة . قال صاحب « أخبار مجموعة » : فلما بلغ ابيه ما كان حشدا من أقصى اربونة وراجعا أهل البلد والبربر، وسيوفهم تقطر من دماء البربر، فرضيت البربر أن تنال ثارها من أهل الشام^(٢) فاذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى . فأقبل

(١) Pélage

(٢) وذلك أن عبد الملك بن قطن كان قاتل البربر الثأرين عليه، بأهل الشام، وهزمهم وأوقع بهم وأخذ ثأر العرب الذين كان البربر قد أخرجوهم من جليقية واسترقة وشمالى الأندلس . ولكن لم تستقر القلبة للعرب حتى عادوا الى أحقادهم القديمة وثار الجند الشامى بسيد الملك وقتلوه واضطر ولداه قطن وأمية أن يرجعا الى البربر ويستعيناهم على العرب . وقد جاء نسب عبد الملك بن قطن في بغية المنس هكنا : عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن حجوان بن عمر بن حبيب بن عمرو بن شيان بن محارب بن فهراهمرى أمير الأندلس ولها سنة ١١٥ بعد عبد الرحمن العكى من قبل عبدة بن عبد الرحمن القيسى الأمير بافريقية وقتل بالاندلس سنة ١٢٥

قطن وأمية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب، وأقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب اربونة، فأقبلوا في مائة ألف أو يزيدون اه
ومن هنا يعلم القاري ما كان من بال العرب بأربونة منذ خيم الإسلام بعقرتها
وما كان من وفرة جيوشهم فيها لأجل الرباط وسداد الثغور

رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسا

نعود الى كلام المستشرق « رينو » في موضوع غارات العرب على جنوبي فرنسا فهو يذكر ان قطن العرب المستمرة المصطلمة، بعضهم مع بعض، قد نفست من خناق المسيحيين في الاندلس وفرنجة. ويقول: ان معظم اهتمام الخلفاء كان وقتئذ توجه الى الاستيلاء على القسطنطينية التي كانوا أغزوها جيشاً عدته مائة وعشرون ألف مقاتل وأسطولا عدده ألف وثمانمائة سفينة. ولا شك ان سموهم الى فتح شرقي أوربة شغلهم عن الزحف على غربي أوربة. ولكنه يقول: ان مؤرخي العرب ذكروا مع ذلك بعض غارات على « اللانغدوق » في أيام ولاية الحر الثقفي سنة ٧١٨ مسيحية.

وقد أيد هذه الرواية « ايزيدور » اسقف « باجة »^(١) وهو من المؤرخين الذين عاشوا في ذلك العصر، و« لثريق شيمينيس » مطران طليطلة^(٢) وقالوا: ان العرب زحفوا الى الامام حتى وصلوا الى مدينة « نيم » ولم يجدوا مقاومة ورجعوا بالغنائم والسبي الكثير.

قال رينو: ولم تكن مقاطعات جنوبي فرنسا لتقدر أن تقف في وجه العرب المندققين عليها من جبال البيرانه، وكان الحكم للدولة المعروفة بدولة « الكسالي »^(٣) اذ ذاك، وكانت بلاد اللانغدوق يقال لها « القوطية » Gotie

(١) قال رينو في الحاشية انه نقل روايات ايزيدور الباجي عن مخطوطات متعددة
(٢) لثريق شيمينيس: كتب في القرن الثالث عشر للمسيح. واعتمد على كتب العرب. قال رينو ان تاريخه مطبوع بالعربي واللاتيني في ليدن
(٣) Fainéants هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على أواخر ملوك الدولة الميروفنجية الذين

بسبب طول مقام القوط بها . وقد يقال لها أيضاً « سيبتيانية » أى « السبعية »
لاشتمالها على المدن السبع : اربونة، ونيم، واقد، وبيزيه، ولوديف، وقرقشونة، وماقلونه^(١)
وكانت من جملة مملكة « اود » دوق اكينتانيه^(٢) وكان هذا يدعى انه من ذرية
الملك كلوفيس^(٣) وبهذا السبب كان من أبناء عم ملوك فرنسا الشمالية فكان يكره
بطبيعة الحال حجاب القصر الذين قد استولوا على الامور واستبدوا بها من دون
الملوك ولم يبق لهم هم الا فى توطيد سلطتهم وسلطة جنس الفرنج^(٤) فى تلك المملكة
مما ثنى أعتهم عن صدّ العرب الموحدين على جنوبي فرنسا

فصارت بلاد اللانفدوق والبروفانس متروكة لاهلها الغالين^(٥) وكان هؤلاء
شعباً مركباً من أعقاب الرومانيين القدماء ومن القوط . وكانت لكل من الفريقين
عادات خاصة وشرائع يمتاز بها . فلم يكن من واق لجنوبي فرنسا فى ذلك الوقت أحسن
من وقوع بأس العرب فيما بينهم . وذلك ان حكومة اسانية العربية كان مرجعها
القيروان فى افريقية ، وحكومة افريقية كانت عائدة الى دمشق دار الخلافة . فلم يكن
من الممكن أن تكون سلطة موزعة الى هذا الحد، وأن تتعدد مراكزها كل هذا التعدد
وأن يستتب بها النظام ، وأن تقيم على الطاعة رجالات نشأوا فى ظلال السيوف . ثم
ان النزاع كان وقع بين العرب والبربر، وبين المسلمين وغير المسلمين من الجيوش الفاتحة
ولما كانت أراضي المسيحيين التى دخلت فى حوزة الفاتحين قد صارت الى ايدى عدد

سلموا الأحكام لحجاب القصر تسليم خلفاء قرطبة بعد الحكم المستنصر الى المنصور بن أبى عامر ثم
الى أولاده من بعده . وقد استمرت هذه الحالة فى فرنسا من عهد « تيرى » الثالث (سنة ٦٧٥)
الى عهد « شيلدريك » الثالث (٧٥٢)

(١) Narbone, Nime, Agde, Beziers, Lodève. Carcassonne et maguelone

(٢) Eudes duc D'itquitaine

(٣) Clovis أول ملوك فرنسا هذا الذى يسميه السعوى قلوويه

(٤) Les Francs الفرائك وهم من السلالة الجرمانية تغلبوا على فرنسا فنسبت اليهم وتسمت

بهم ثم ان العرب تلفظوا بها « الفرنج » أو « الافرنج » وغلبت هذه اللفظة على كل الأوربيين

(٥) Gaulois نسبة الى بلاد الغال. والفرنسيس يقولون الغول

من ذوى الأَطَاع، وحرَم كثير من المستحقين، الفء الذى يستحقونه، أدَّى ذلك النزاع أخيراً الى القتال وسالت السماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض. وهناك سبب آخر كان به أعظم الفرج لفرنسة نفس من خناقها وأرخی من رباقتها وهو انتقاض عصابة من مسيحي اسبانية فيهم شماس وصعوبة مراس ثاروا بالعرب ثورة الضوارى ، وأبوا الا الدفاع عن دينهم ووطنهم، فلجأوا الى جبال آستورية (١) وغاليسية (٢) ونابار (٣) وهناك بدأوا بمقاومة لم تضع عصاها الا باجلاء المسلمين أجمع عن تلك البلاد وكان الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز اطلع على مآذب من الخلل الى موقف العرب بالاندلس، فأنفذ اليها السمع بن مالك الخولانى أميراً، وعهد اليه باصلاح الامور ورم الثغور . وكان السمع مدبراً حكيماً وقائداً باسلاً وسائساً حازماً، ذا دربة بتمشية الأمور، فرتق الفتوق ووازن بين الدخل والخرج وأنصف الجند فى الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الأراضى وعهد بما بقى منها الى وكلاء من ذوى الأمانة ورد ريعها الى بيت المال . وكان الخليفة قد أمر السمع بأن يقدم له بياناً عن البلدان المفتوحة وما فيها من النفوس والجبليات، ليبرم فى أمر الاندلس رأياً، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الاسلام، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين فى تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكر فى اجلاء مسيحي اسبانية وجنوبى فرنسة الى افريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة، الا أن السمع طمأن مخاوف الخليفة قائلاً له: ان الاسلام ينمو ويتشعب وتمتد شوارخه بسرعة فى اسبانية، وانه لا يبعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد . روى ذلك بعض مؤرخى العرب وأسفوا من كون السمع بن مالك الخولانى لم يعمل برأى الخليفة فى هذا الموضوع (٤) انتهى

(١) Asturies والعرب يقولون اشتوريش

(٢) Galice غاليسية وأكثر ما يقول العرب جليقية

(٣) Navarre والعرب تقول نبره ونابار والاسبانيول يقولون ناباره

(٤) قال رينو فى الحاشية : ان من جملة هؤلاء الذين سفهوا رأي السمع هذا ابن القوطية

ولتقابل الآن كلام رينو وكلام من نقل عنهم من مؤرخي الاسبانيرل والافريج
بكلام العرب لتزداد الحقائق وضوحاً فنقول :

نقل المقرئ في النسخ عن ابن حيان مايلي :

قالوا ان موسى اصطليح مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته على رسمه
وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه وسار موسى خلفه في جيوشه فارتقى الى الثغر الأعلى
وافتح سرقسطة وأعمالها وأوغل في البلاد، وطارق أمامه، لايمران بموضع الافتح
عليهما وغنمهما الله تعالى مافيه. وقد أتى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما
أحد الا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق
للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس من أقام على سلمه
ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين الى افرنجة
ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادي « ردونة ^(١) » فكان
أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض المعجم. وقد دوخت بموت طارق.
وسرايه بلد افرنجة، فلكت مدينتي برشلونة ^(٢) وأربونة ^(٣) وصخرة « اينيون ^(٤) » .
وحصن « لودون ^(٥) » على وادي ردونة، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جداً .

(١) نهر الرون Rhone وهكذا لفظ اسمه اليوم ولكن أصل اسمه هو « رودانوس »
باللاتيني ومنه قال العرب « ردونه » كما كان الافرنج يقولون له في أيام قدومهم الى تلك الديار .
وهذا النهر يخرج في سويسرة وينصب في بحيرة ليان ثم يخرج منها عند جنيف ويدخل أرض فرنسة
ويتصب الى البحر المتوسط وطول مجراه ٨١٢ كيلو متراً

(٢) Barcelone قاعدة كتالونيا وأكبر مدينة في اسبانية وارقاها وسيأتي عليها الكلام
فيما يأتي

(٣) Narbonne

(٤) Avignon والعرب تقول « اينيون » لأنها تجبل الفاء باء وربما قالت « اينيون »
بالفاء الموحدة . وصخرة اينيون هي المكان الذي بنى عليه نصر البابوات الذين جعلوا اقامتهم
بافينيون من سنة ١٣٠٩ الى سنة ١٣٧٧

(٥) Lyon ثالث مدينة في فرنسة في عدد السكان. وأصل اسمها « لودونوم » يمر بها نهر
الرون والساوون ويقسمها الى ثلاثة أقسام وهي من أعظم المدن الصناعية في أوربة . وقد بنى ليون

وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً وقيل ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً . ولما أوغل المسلمون الى اربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالأرض الكبيرة وازعج لانبساطهم فحشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم . فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة ايبنيون فلم يجد بها أحداً وقد عسكر المسلمون قدأمنه فيما بين الأجل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرة لاعيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالاً شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بحصاتها، فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجال، وتعذر عليه المقام وخامرهم ذعر وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلا الى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي ردونة شكها بالرجال فصيرها ثغراً بين بلده والمسلمين وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس انتهى

ان كلام ابن حيان هذا يجمل خبر غزوات العرب لافرنجة أو فرنسة من أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد الى زمان عبد الرحمن الناقق . ومنه يعرف أن غزو العرب لافرنجة يرجع الى أول الفتح الأندلسي، وان كان مؤرخو الافرنج لا يذكرون مغازي العرب لفرنسة الا من بعد ولاية السمع بن مالك الخولاني . وأما المؤرخان المسيحيان ايزيدور الباجي وشيمينس مطران طليطلة، وأولهما عاصر زمان الفتح، فانهما يذكran غارات للعرب على فرنسة في زمان الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي أمير الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ثار به الجند وقتلوه حسبما تقدم الكلام عليه

والذي في نفع الطيب نقلا عن ابن خلدون أن محمد بن يزيد عامل الخليفة سليمان ابن عبد الملك على افرنجية لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الحر بن

الوالي الروماني لوسيو موناتيووس سنة ٤١ قبل المسيح وصارت عاصمة بلاد الغال في زمان أغسطس ولا تزال من أمهات مدن فرنسة

عبد الرحمن الثقفي أميراً على الأندلس . وفي صفحة ١٤٠ من نفتح الطيب من الجزء الأول الطبعة الأزهرية يذكر أمراء الأندلس على النسق الآتي :

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير . ثم الأمير موسى بن نصير ، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة . ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وسريه اشبيلية . ثم أيوب بن حبيب اللخمي ، وسريه قرطبة . وكل من يأتي بعده فسريه قرطبة والزهراء والزاهرة بجانيها الى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينبه عليه . ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ثم السمع بن مالك الخولاني . ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . ثم عنبسة بن سحيم الكلبي . ثم عنزة بن عبد الله الفهري . ثم يحيى بن سلمة الكلبي . ثم عثمان ابن أبي نسة الخثعمي . ثم حذيفة بن الأحوص القيسي . ثم الهيثم بن عبيد الكلابي . ثم محمد بن عبد الله الأشجعي . ثم عبد الملك بن قطن الفهري . ثم بلج بن بشر ابن عياض القشيري . ثم ثعلبة بن سلامة العاملي . ثم أبو الخطاب بن ضرار الكلبي . ثم ثوابة بن سلامة الجذامي . ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري . قال : وههنا انتهى الولاية الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة أفراداً عددهم عشرون فيما ذكره ابن سعيد ولم يتعدوا في السمة لفظ الأمير . قال ابن حيان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من لتريق سلطان الأندلس النصراني وهو يوم الأحد لحس خلون من شوال سنة ٩٢ الى يوم المهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سريه الملك قرطبة وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ١٣٨ ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى

وأما ابن عذارى في « البيان المغرب » فيذكر في الجزء الاول أن محمد بن يزيد أمير إفريقية استعمل على الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسي ، وكانت الأندلس إذ ذاك الى والى إفريقية كما كان أيضاً والى إفريقية من قبل والى مصر . ثم قال : سنة ٩٩ توفى سليمان بن عبد الملك واستخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يوم وفاته فاستعمل على إفريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم . قال : واستعمل اسماعيل بن أبي المهاجر على الأندلس السمع بن مالك الخولاني . ثم ذكر

ابن عذارى أنه عند ولاية بشر بن صفوان على إفريقية ولي الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي . ثم ذكر أنه عند ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على إفريقية تولى عثمان ابن أبي نسعة على الأندلس، ثم من بعده حذيفة بن الأحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عبيد الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله النافقى الذى استشهد ببلاد الشهداء . ثم ذكر امارة عبد الملك بن قطن على الأندلس ، ثم ولاية بلج بعد مقتل عبد الملك ، ثم ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي ، ثم ولاية أبي الخطار الكلبي ، ثم ولاية ثوابة بن سلامة الذى ثار على أبي الخطار وهزمه ، ثم ولاية يوسف الفهري آخر أمراء الأندلس الذى دخل فى زمانه عبد الرحمن بن معاوية الأموى الى تلك البلاد

وأما صاحب « أخبار مجموعة فى تاريخ أمراء الأندلس » فذكر بعد امارة عبد العزيز بن موسى بن نصير امارة أيوب بن حبيب اللخمي، كان يؤم أهل الأندلس فى صلاتهم وكان رجلاً صالحاً، فولوه أمرهم بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو ابن عمه عبد العزيز . وجاء بعده الحر بن عبد الله الثقفى ^(١) (ولم يقل الحر بن عبد الرحمن الثقفى) ثم ذكر انه لم يستقر بالحرّ القرار حتى ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد والى إفريقية (ولم يقل محمد بن يزيد) وولاها اسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الأصبصار والآفاق يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه . فأتى وفد إفريقية بخرابها وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغراً فكان ما فضل بعد اعطيات الأجناد وفرائض الناس يتقل الى الخليفة . فلما وفدوا بخراب إفريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا حلف الثمانية ونكل اسمعيل بن عبيد الله

(١) وبعض المؤرخين يسمونه الحر بن عبد الرحمن القيسى وهو واحد لان الثقفى قيسى وثيف من بطون هوازن. وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

مولى بنى مخزوم ، ونكل بنسكوله السمع بن مالك الخولاني . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمهما الى نفسه فاختر منهما صلاحاً وفضلاً . فلما ولى عمر ولى اسماعيل افريقية وولى السمع بن مالك الأندلس وأمره أن يحمس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة ، حساً لله من أرضها وعقارها ، ويقر القرى في أيدي غنمها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأمهارها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لا تقطاعهم عن المسلمين وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله . فقدمها السمع سنة مائة فوضع يداً في السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفي اخراج البعوث . وبني القنطرة وذلك انه كتب الى عمر يستشيريه ويعلمه ان مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة « فان أمرني أمير المؤمنين بينان سور المدينة فملت فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم » فيقال والله أعلم ان عمر رحمه الله أمر بينان القنطرة بصخر السور وأن يبني السور باللبن اذ لا يجده صخرأ فوضع يداً فبنى القنطرة في سنة احدى ومائة

ثم هلك عمر رحمه الله ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أبا حنظلة بن صفوان افريقية ، فعزل بشر السمع بن مالك وولى عنبسة بن سحيم الكلبي ، ثم تابعت ولاية الاندلس بعد عنبسة . فوليا يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم وليها بعد يحيى عثمان ابن أبي تسمية الخثعمي ، ثم وليها بعد عثمان حذيفة بن الأحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكناني ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وعلى يديه استشهد أهالي بلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهيم عبد الرحمن . وولى عبد الملك بن قطن المحاربي محارب فهر من قریش ، وولايته الاولى نحو من ستة أشهر ، لم تطل . وكان من وصفنا من الولاية يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الاندلس (الى أن يقول) : ان هشام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله ابن الجحباب بن الحارث مولى بنى سلول من قيس وجعل اليه أمر افريقية والاندلس

فأقر بشر بن صفوان على إفريقية وولى عقبة بن الحجاج الأندلس. (ثم قال) :
فدخل الأندلس (أى عقبة بن الحجاج) سنة عشر ومائه فأقام عليها سنين وافتتح
للأرض حتى بلغ اربونة ، وافتتح « جليقية ^(١) » و « البة ^(٢) » و « بنلونة ^(٣) »
ولم يبق بجليقية قرية لم تفتتح غير الصخرة فانه لاذ بها ملك يقال له « بلاى » فدخلها
فى ثلثمائة راجل ، فلم يزالوا يقاتلونه ويفاورونه حتى مات أصحابه جوعاً وترامت طائفة
منهم الى الطاعة فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلاً ليست معهم عشر نسوة
فما يقال انما كان عيشهم بالسل ، ولاذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالسل معهم
جياج ^(٤) والنحل عندهم فى خروق الصخرة ، احترزوا وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم
وقالوا : ثلاثون علجاً ماعسى أن يكون أمرهم ؟ واحتقروهم . ثم بلغ أمرهم الى أمر عظيم
سند كره اذا بلغنا موضعه ان شاء الله اه

ثم ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان عقبة بن الحجاج بقى أميراً على الأندلس
الى سنة ١٢١ اذ ثارت البربر فى إفريقية ودخلوا طنجة وقتلوا واليها عمر بن عبد الله
المرادى ، وشغل صاحب إفريقية بشر بن صفوان بهذه الثورة ، فوثب عبد الملك بن قطن
المحاربى على عقبة بن الحجاج ، فخلعه ولا أدرى أقتله أم أخرجه ؟ فملكها بقية ٢١ و ٢٢
و ٢٣ حتى دخل بلج بن بشر القشيري ثم الكعبي بأهل الشام . وقد وصفنا سبب
دخوله فى أحاديث تأتى بعد هذا

(١) جليقية أوغاليسية : يحدها من الشمال والغرب بحر الاوقيانوس ، ومن الجنوب البرتغال ، ومن
الشرق بلاد ليون وجبال أستوريش ، وفيها لقى العرب أشد المقاومة . وكان انضمام هذه البلاد الى
مملكة قشتالة سنة ١٠٧٣ لكنها بقيت حافظة استقلالها الداخلى الى زمان فرديناند وايزابلا ، ففى
عهد هذا اندمجت فى بقية اسبانية . والاسبانيول يكتبون اسمها هكذا Galicia

(٢) Alava احدى مقاطعات شمالى اسبانية واقعة فى جنوبي اليرانه أهلها من الباشكنس
(٣) العرب كانوا يسون نافار بنبلونة وأحياناً نبرونة وقد يقولون لها نبرة . وهذه اللفظة
بنبلونة Pampeluna اسم مدينة فى نافار فيها قلعة

(٤) الجيج - بضم فسكون وبكسر فسكون - حيث تعسل النحل . قال فى لسان العرب : اذا كان غير
مصنوع والجمع أجيج وجوج وجباح . وقيل : هى مواضع النحل فى الجبل

ثم ذكر ما معناه : انه بعد موت بلج القشيري تولى الأندلس ثعلبة بن سلمة
العالمي ، وجار في سياسته ، وذهب وفد من الأندلس الى حنظلة بن صفوان أمير
افريقية يشكون ما هم فيه ، فأرسل عليهم والياً أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي ،
فأصلح الأمور ورضى به الشاميون والبلديون ، وكان رجلاً من خيار الناس
وأنزله أهل الشام في الكور . وبقي أبو الخطار أربع سنين وستة أشهر الى أن دخل
الأندلس الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن . وشمر هو الذي قتل الامام الحسين
ابن علي رضي الله عنه ، وقتله بعد ذلك المختار بالكوفة ، فارتحل ولد الشمر عن الكوفة
الى الجزيرة ، ثم ارتحلوا الى الأندلس مع جند قنسرين ، ورأس الصميل بالأندلس ودانت
له قيس فيها واقتتل مع أبي الخطار ونهزم هذا ، وتولى ثوبان بن سلمة الجذامي ، ثم مات
سنة ١٢٩ وتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري . وفي أيامه
اشتدت العداوة بين قيس واليمن ، فأنحازت مضر وريعة الى يوسف ومعه الصميل ،
 واجتمعت بين الأندلس حميرها وكندتها ومدحجها وقضاعتها تحت لواء أبي الخطار .
وكانت بين الفريقين أشد حرب عرفها العرب بعضهم مع بعض . قال صاحب
« أخبار مجموعة » : وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الاسلام بالأندلس الا
أن يحفظه الله .

ومن كلام هذا المؤرخ الذي كتب هذا التاريخ في أيام الحكم المستنصر يظهر
انهم كانوا يخشون على اسلام الأندلس البوار ، لا من جهة انقطاع مسلمي الاندلس
من وراء البحر فقط ، بل من جهة الفتنة التي لا يفترواها فيما بينهم . ولقد وقع ما كانوا
منه يحدرون ، فما كان زوالهم من هناك بحرب الاسبانيول فحسب بل كان أقوى عامل
على زوالهم من الأندلس شدة عداوة بعضهم لبعض ، وهو مرض الفرقة الذي راقفهم
الى الساعة الأخيرة من ملكهم هناك (١)

(١) كان لم يبق للعرب في كل الأندلس الا مدينة غرناطة وكان الطاغيتان فرديناند وايزابلا
آخذين منهم بالحق الذي يقطع الانفاس وقد أقاما وعساكرهما بمسكن من الحجر بدلا من الخيام
ايندانا بأنهما لن يقلما عنها . وكان أهل غرناطة مع ذلك يقاوتون الاسبانيول في النهار ثم يعودون

رجع الحديث الى حرب القيسية واليمنية

ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان ابن حريث ^(١) وأبا الخطار زحفا الى يوسف والصميل ^(٢) بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية « شقندة » ^(٣) وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صلاوا الصبح فقطاعوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحميت الشمس . ثم تداعوا الى البراز فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت . ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ولم يكن في الاسلام صبر مثله الا ما يذكر من صفين ^(٤) . ولم يكن القوم بالكثير لاهؤلاء . ولا هؤلاء وانما كانوا خيار الفريقين ، وكانوا متقاربين ، الا ان اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعجب بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض ، بالقسي والجماب ، ويحجى بعضهم التراب على بعض ، اذ قال الصميل ليوسف : ماوقفنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم في غفلة قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة . فرد اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب سوقه ، فأخرجهم منهم نحواً من أربعائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق فخرج الجزارون بسكاكينهم فجاءوا الى قوم موتى وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لاصلاة خوف ولا أمن ، فجرّدهم وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً أخياراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث

مساء فيقتلون في البلدة بعضهم مع بعض ، حارة غرناطة مع حارة البيازين . راجع كتابنا « آخر نبى سراج » مع ذيله . واذا أراد الله شيئاً هياً أسبابه

(١) يحيى بن حريث على وزن أمير: كان أميراً بكورة رية وبها سكنى أهل الاردن

(٢) الصميل على وزن أمير

(٣) الاسبانول يكتبونها Xecunde

(٤) حرب صفين بين علي ومعاوية هي التي أخرت سير الاسلام الى الامام بعد أن كان أوشك أن يشمل الأرض . ولقد اضطر معاوية بسببها أن يهادن الروم . قال البلاذري في « فتوح البلدان » ان معاوية صالح الروم على أن يؤدي اليهم مالا . وحرب القيسية واليمنية في الاندلس كانت الثلثة التي اقتنع منها الاسبان والافرنج على العرب حتى نكس هؤلاء الى الوراء وما زالوا

لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيّب ودخل تحت سرير الرحي التي بموضع بيع الخشب . فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس عليّ فوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث . فدلّ عليه فأخرج وقتلا جميعاً . وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها . فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟ فقتلا ، وأسر منهم بشر كثير . ثم أتى بالأسرى وقعد الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة ، وهي اليوم موضع مسجد الجامع ، فضرب أوساط سبعين منهم . فلما رأى ذلك أبو عطاء بن حمد المرّي قام إليه فقال له : أبا جوشن أغمد سيفك أو أرجع سيفك . قال له : أقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك . فجلس ولم يغمد السيف . ثم قام إليه فقال له : يا عرابي ، والله إن تقتلنا إلا بنداوة صفين لتكفنّ أولادعون بدعوة شامية . فأغمد سيفه وأمن الناس على يدي أبي عطاء بعد بلاء عظيم ، فيقال والله أعلم : إن تلك الواقعة توجد في بعض العلم أنها قاطعة الأرحام ^(١) . وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومائة ، قال : فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الأندلس سنة اثنتين وثلاثين ثم سنة ثلاث ، فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر عالج يقال له بلاي ، قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من الصخرة ^(٢) وغاب على كورة « واستورس » ^(٣) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل « استورقة » ^(٤) زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابه ^(٥)

ينكصون إلى أن عادوا من حيث أتوا وأكروا كما أرموا وانطوى من هناك بساطهم الطويل العريض وكان وعد الله مائياً

(١) قرأت في كتاب « تاريخ مسلمي اسبانية » لدوزي المستشرق الهولاندي الذي يمهده الأوربيون أفضل مؤرخ لدولة العرب في اسبانية كلاماً معناه أن بعض قيس اليمين وبعض اليمين قيس هو أشد من بعض العرب للامم الاعجمية . فتأمل

(٢) يقال لها صخرة Aguilار « اغيلار »

(٣) Asturias

(٤) استورقة : من بلاد ليون في شمال اسبانية ، والاسبانيول يكتبونها Astorga

(٥) أي إن هذه الفتنة بين العرب وبعضهم مع بعض اهتبل الاسبانيول فيها الغرة فأخرجوا المسلمين

فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخروج، وقتل من قتل وصار فلهم الى خلف الجبل الى « استورقة » حتى استجكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها وانضم الناس الى ماوراء الدرب الآخر والى « قورية (١) » و « ماردة (٢) » في سنة ست وثلاثين واشتد الجوع فخرج أهل الاندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت اجازتهم من واد بكورة « شدونة (٣) » يقال له وادي « برباط (٤) » فتلك السنون تسمى سنى برباط فخف سكان الاندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم اه

هذا ما اخترنا تلخيصه وتمحيصه من أخبار الامراء الذين تعاقبوا على الاندلس والذين كانوا يفتزون افرنجة أو فرنسة . ولنصف اليهم ما ذكره ابن عميرة صاحب « بنية المتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس » (٥) فهو يذكر الحر بن عبد الرحمن القيسي ويقول انه عزل بمنبسة بن سحيم الكلبي ، ويقول ان عنبسة تولى الأندلس سنة ١٠٦ . من قبل بشر بن صفوان امير افريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل ١٠٩

واما ابن خلدون فيذكر أن ولاية عنبسة بن سحيم كانت من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل افريقية ، لا بشر بن صفوان ، وان بشر بن صفوان كان والياً على افريقية

من جليقية . وهكذا تأسست الدولة الاسبانية الاولى بعد الفتح العربي وما زالت تشتد وتمتد حتى

أخرجت المسلمين من كل اسبانية

Coria (١)

Merida (٢) من بلاد بطليوس في غرب الاندلس

Sidonia (٣)

(٤) بقرب طرف الاغر Trafalgar وتكتب بالاسبانية بولي Barbate

(٥) اخذ بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي له تاريخ بغية المتمس وصل فيه الى أوائل دولة الموحدين وذكر واقعة الارك الشهيرة التي أدال الله فيها للمسلمين على الاذغش الملقب بالانبراطور

وتاريخها ٩ شعبان ٥٩١

وقت مقتل عنيسة . ولما بلغه الخبر أرسل مكانه والياً على الأندلس يحيى بن مسلمة الكلبى . ويقول ابن خلدون : ان استشهدا عنيسة كان فى أرض الفرنجة سنة ١٠٧ . وبين ابن خلدون وصاحب « أخبار مجموعة » اختلاف فى الأسماء ، لعله من تصحيف النساخ . فى نفع الطيب نقلاً عن ابن خلدون يذكر « الهيثم بن عبيد الكلابى » - وهكذا فى صبح الأعشى - وفى « أخبار مجموعة » الهيثم بن عفير الكنانى . ثم ان صاحب « أخبار مجموعة » يذكر بعد الهيثم ولاية عبد الرحمن الغافق بلا فاصل ، على حين أن ابن خلدون يذكر بعد الهيثم محمد بن عبد الله الأشجى . ولعل صاحب أخبار مجموعة أهمله لقصر مدته لأنه لم يلبث الا شهرين

وأما ابن عذارى فيذكر فى « المغرب » أن بشر بن صفوان تولى افريقية مرتين وفى الثانية منهما ولى على الأندلس عنيسة بن سحيم . ثم يقول انه سنة ١٠٧ ولى على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبى . ومن هنا يعرف أن مقتل عنيسة بن سحيم بأرض افرنجة غازياً كان سنة ١٠٧ وهذه هى رواية ابن عميرة وابن خلدون أيضاً . والمستشرق رينو^(١) يقول انه قتل سنة ٧٢٥ مسيحية . والمؤرخ كوندى الاسبانولى يجعل قتله سنة ١٠٦ هجرية الموافقة ٧٢٤ مسيحية

ولنرجع الى تاريخ رينو عن غارات العرب على فرنسة فهو يقول : ان السمع بن مالك الخولانى الذى تولى الأندلس فى خلافة عمر بن عبد العزيز بعد أن سكن الدهاء وأصلح الأمور فى الداخل أعمل همته فى الجهاد ليستأنف المسلمون الحرارة الأولى وليجدد عزائمهم بعد الالتياء ويمقد صرائعهم بعد الاتسكات قال : وكان ذلك سنة ٧٢١ مسيحية ، فى خلافة يزيد بن عبد الملك ، وكان مضى على فتح العرب للاندلس احدى عشرة سنة لا غير . فأجاز السمع الى بلاد فرنسة ، تفيض بجيوشه أقطارها ، وزعم مؤرخو الافرنجة المعاصرون أن العرب جاءوا ومعهم نسائهم

(١) استشهد رينو على هذه الرواية بتاريخ دير « مواساك » Abbaye de Moissac الذى فى مجموعة « مؤرخى بلاد العال » Recueil Des Historiens des Gaules للدون « بوكيه » Don Bouquet الراهب البنديكى المشهور فى علم التاريخ ولد فى « آميان » سنة ١٦٨٥ وتوفى سنة ١٧٥٤ واستشهد بمجموع آخر اسمه مجموع « موزاتورى » Recueil de Muratori

وأولادهم لأنهم كانوا على نية الاستقرار في البلاد . قالوا وكان الفقراء والمهاويج يأتون من جزيرة العرب والشام ومصر وأفريقية ومعهم عائلاتهم لأجل سد مفارمهم بالفتوحات وارتداد الرزق من وراء الغارات

قال رينو : ولم يزل السماح يتقدم بجيشه الى أن صار امام أربونة فحصرها ولم يلبث أن فتحها وقتل رجالها وسبي نساءها وذرائعها . وكانت أربونة بمصاقتها للبحر وسهولة الوصول اليها بالسفن من اسبانية ثم بمنعها الطبيعية من جهة البر تصلح أن تكون مسلحة للعرب في أرض افرنجة . فزاد السماح في تحكيم حصونها ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها

الكلام على مدينة أربونة Narbonne

كانت زيارتي لأربونة بعد أن قفلت من الأندلس، لا كما كانت زيارتي لطلوزة وقرقشونة، أي قبل أن دخلت اليها . وأربونة هي كما لا يخفى المدينة التي توجهت اليها همة العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة . وذلك لكونها على كئيب من البحر ولسهولة التوصل اليها من الأندلس على الماء ، وكونها لذلك العهد أهم حاضرة افرنسية في جوار اسبانية، فكان العرب اذا أفاضوا من جبال البيرانه ناحرين الشمال يجدون أربونة هي المدينة الأولى التي تستقبلهم

وموقع أربونة هو على ارتفاع ١٠ أمتار فقط عن سطح البحر الملح، وعلى مسافة ١٤ كيلومترا منه الى الشرق . ونهر الأود يمر بالقرب منها، والسهول التي بينها وبين البحر هي متكونة من الرواسب التي أبقاها هذا النهر بجريه من آلاف وآلاف من السنين وهي الآن مدينة من الدرجة الثالثة، لا يزيد عدد أهلها على ٣٠ ألفاً. ومناخها شبيه بمناخ المدن العربية أي انها لطيفة الشتاء نادرة الثلج حارة القيظ لولا نسبات لطاف تهب عليها أحيانا من جهة البحر فتخفف من حرارتها . وفي مدة تزيد على نصف السنة تعصف الرياح في أربونة من الشمال الغربي، وتسفي التراب وتكدر صفو المزاج، ولكنها تفيد في تنشيف ماحول أربونة من المستنقعات . وأكثر حاصلات أربونة من الكرم

وفيهما جميع أشجار البلاد الحارة وقد شاهدت فيها التين والزيتون والصبير
ويجر بأربونة جدول اسمه «رويين»^(١) مشتق من قناة الجنوب المستمدة من الأود
وأربونة من أقدم مدن الأرض عثروا فيها على آثار الآدميين، من العصر الحجري، وعلى
قبور مما قبل التاريخ . وفي أواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح أغار الساتيون على
أربونة واستقروا بها . وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونانيين الذين كانوا يترددون
الى سواحل بروفانس والكاتالان

وقد جعل الجليل المسمى « بالفولسك »^(٢) مدينة أربونة حاضرة لهم . وجاء
الرومانيون سنة ١٢١ قبل المسيح فافتتحوها وصارت في أيامهم مركزا تجارياً عظيماً
تضارع مرسيلية . وكان الولاية الرومانيون يقيمون بها ، وكانت لها امتيازات لمهدم
عريضة ، وبلغ عدد أهلها مائة ألف نسمة في ذلك العصر . وسنة ١٤١٣ استولى
عليها القوط وتزوج فيها ملكهم ادولف بالأميرة « بلاسيدة غاله »^(٣) اخت الامبراطور
الروماني ، وكانت لزنافه فيها حفلة عظيمة . ثم استولى على أربونة « غونديبود »^(٤) ملك
البرغونديين^(٥) ، لكنه لم يتمتع بها طويلاً ، وعادت للقوط ، وثبت هؤلاء فيها
برغم غارات الفرنج عليها

نقلنا هذه الخلاصة عن « دليل أربونة »^(٦) ولنذكر ما جاء في هذا الدليل
بشأن العرب ، قال : في أوائل القرن الثامن للمسيح ظهر العرب على « سبتيمانية »

La Robine (١)

Volsques (٢)

Placida - Galla (٣)

Gondebaud (٤)

(٥) Burgundes شعب جرمانى أغار على بلاد الغال سنة ٤٠٦ للمسيح واستوطن
وادى الرون أو ردونة وأخذ بالثقافة اللاتينية وامتزج بالغالين . وقد تزوج كالوفيس ملك فرنسا
بأبنة غونديبود ملك البورغوند أو البورغون هؤلاء . وكان العرب يقولون لهم البرجان

(٦) اسمه Narbonne Historique et Archéologique

وافتح « زاما »^(١) أربونة سنة ٧١٩ بعد حصار استمر ثمانية وعشرين يوماً فقتل الرجال وسبي النساء والأطفال . ثم نظر « زاما » الى أهمية أربونة الجغرافية فحصنها وشحنها بالميرة . وهكذا تمكن العرب فيها من صد غارة شارل مارتل الذي حاصر أربونة سنة ٧٣٢ بعد أن هزم العرب في معركة بواتيه . ثم ان « بين » القصير حاصر أربونة سنة ٧٥٢ ونكص عنها ، ولم يتمكن منها سوى شارلمان سنة ٧٥٩ وذلك بعد أن حاصرها مدة سبع سنوات . فان الأهالي الذين في البلدة كانوا ملوا هذا الحصار الطويل فتأروا بالحامية العربية وذبحوها . وعاد العرب سنة ٧٩٢ فحاصروا أربونة ، فبعث شارلمان لئيجدها بعثاً عدته عشرون ألف مقاتل ، عقد لواءه للفارس المشهور غليوم^(٢) وتلاقى الجمعان بقرب أربونة ، فاستأصل العرب جيش الافرنج ولم يبق من هؤلاء الا غليوم وثلاثة عشر من رفاقه ، وسلم أنف غليوم في المعركة ولقب من ذلك اليوم بذى الأنف القصير . الا أنه أحرز مجد قتل عبد الملك أمير الجيش العربي بيده . فأما أربونة فبرغم انكسار الافرنج ذلك اليوم لم تسقط في أيدي العرب انتهى ماجاء في دليل أربونة . وهذا غير مطابق لما في تواريخ العرب . انظر الى ما جاء في نفع الطيب في هذا الصدد ، قال : « كان هشام (ابن عبد الرحمن الداخل الأموي) يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقافته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بمقائدهم . فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه أو أنصف منه ولم يستعمله بعد . ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا^(٣) . وفي أيامه

(١) السمع بن مالك الخولاني أمير الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز . وفي أربونة

اليوم شارع باسم السمع Rue, de Zama

(٢) Guillaume au court nez

(٣) قد بلغ هذا الكلام عن سيدنا مالك رضى الله عنه الأمير هشاماً الأموي صاحب الأندلس . فال الى مذهبه في الفقه ، وحمل عليه أهل الأندلس ، وكانوا من قبل يتفقون على مذهب سيدنا الأوزاعي رضى الله عنه . وقد استوفينا الكلام على ذلك في الكتاب الذي حررناه عن الأوزاعي وهو الآن تحت الطبع

فتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية^(١) من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها الى باب قصره بقرطبة وبنى منه المسجد الذى قدام باب الجنان ونضات منه فضلة بقيت مكومة . وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له. وقصد الى بلاد الحرب غازياً، وقصد «البة»^(٢) والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين . وبعث المساكر الى جليقية مع يوسف بن بخت، فلقى «ابن منده»^(٣) وهزمه، وأخن في العدو. وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث^(٤) لغزاة العدو، فباغ البة والقلاع فأخن في نواحيها. ثم بعثه في المساكر سنة سبع وسبعين الى أربونة وجرندة^(٥) فأخن فيها ووطى أرض برطانية^(٦).

(١) العرب كانوا يسون بالجلالة أهالى غاليسيا في شمالي اسبانية وأهالى جنوى فرنسة أحياناً

(٢) Alava وقد تقدم ذكرها

(٣) لا أعلم ان كان هذا هو الاسم الحقيقى أو كان محرفاً عن «برموده» Bermude وهو ملك كان في جليقية نزل في آخر الأمر عن الملك للاذقش لأنه كان أضع به منه . اننا لم نقرأ اسم ملك ولا أمير اسباني اسمه «ابن منده» وتحريف الرب اسماء الافرنج وتحريف الافرنج اسماء العرب بحر لا يلجج فيه

(٤) المؤرخ الاسبانولى كوندى يذكر أن الأمير «شاماً» أرسل جيشاً الى جبال الاشتوريش Asturias عدته ٣٩ ألف مقاتل بقيادة عبد الواحد بن مغيث لا عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث . وقد ذكرنا أن المحققين لا يمدحون تاريخ كوندى ولا يثقون بسيل تلغته

(٥) Gironde هي إحدى مقاطعات فرنسة الجنوبية الغربية ، يحدها اليوم من الشمال شارانت Charente السفلى ، ومن الغرب خليج غامسقونيا ، ومن الجنوب مقاطعة اللاند Landes ومن الشرق مقاطعة لودغارون Lot - et - Garonne ومقاطعة دوردون Dordogne

(٦) مقاطعة عظيمة من غربى فرنسة Bretagne أهلها من الجنس الساتى ولغتهم غير الافرنسية يحد برطانية من الشمال بحر المانش ، ومن الغرب والجنوب الغربى البحر المحيط ، ومن الجنوب الشرقى «بواتو» ومن الشرق «انجو» و «ماين» ومن الشمال بلاد نورمانديا . وكانت برطانية مستقلة في القديم تولاهها ٣٥ أميراً وما استلحقها فرنسة الا في أيام فرنسوا الأول سنة ١٥٣٥ ولا تزال فيها بقايا عصبية تنزع الى الاستقلال عن فرنسة . والأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية برطانية الافرنسية بل امبرطانية السكتلانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد التي قبلها جرندة

وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم. ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى بلاد جليقية ، فاتتهى الى «استرقة»^(١) فجمع له ملك الجلائقة واستمد بملك الباشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه وأتبعه عبد الملك ، وكان هشام قد بعث بالجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بمبد الملك وأخذوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين اه

فمن هنا يظهر أن العرب عادوا فافتتحوا أربونة في زمان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، ولكن الرواية عن الفتح التام والاستقرار تضعف بقول المقرئ في النسخ: «ثم بعثه في العساكر الى أربونة، وجرندة فأخضع فيها» فإذا كان قد تم له فتحها فلا محل لغزوها ثانية مرة والأشخان فيها. وقد جاء ذكر الأمير هشام في العملة الإسلامية لهوتسا وباسيت ورفاقها، ولم يذكروا أنه فتح أربونة وإنما قالوا أنه أغزى مراراً الجيوش الإسلامية بلاد النصراري وجنوبي فرنسة، ووصلت جيوشه إلى «استرقة» و«أوياده»^(٢) من المملكة التي أسسها بقايا ملوك المسيحيين في اسبانية ، ممن لم يخضعوا للعرب، من أعقاب بلاي^(٣)

التي هي في جنوبي فرنسة وقاعدتها بوردو بل جرندة التي هي من مقاطعات كتالونيا أي جرندة التابعة لبرشلونة والتي يقال لها اليوم جيرونه ، فان اسمها الروماني القديم جرندة Gerunda وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب . نبتى الى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسي الفهرى وقال لي انه لم يزل بفاس الى الآن عائلة من الأندلس يقال لها عائلة الجرندى نبغ منها علماء أعلام مثل أبى العباس أحمد بن على بن عبد الرحمن الجرندى الأندلسى التوفى بفاس سنة ١١٢٥ ترجمه القادري في نشر الثاني، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الانفاس . ولا شك في أن العرب سكنوا جرندة الكتالونية طويلا ولكنهم لم يسكنوا جرندة التي عاصمتها بوردو ولا عرفوها الا في الغزوات عابري سبيل . روى لي محمد الفاسي أن المستشرق الاسباني قديره Codera كتب فصلا خاصاً عن فتح العرب للندن الثلاث: برشلونة وجرندة وأربونة ، يتلخص منه أن العرب فتحوا جرندة عند ما فتحوا الأندلس، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ثم عادوا ففتحوها ثم أخرجوا منها نهائياً سنة ٨٠٠

(١) Astorga من بلاد ليون في شمالي اسبانية

(٢) Oviedo وابن حوقل يسميها أوييط

(٣) Pélage أول من ملك على فل الاسبانيول وأسس دولتهم المستقلة بعد فتح العرب

للاندلس وسندكر خبره وخبر أعقابه تفصيلا في الجزء الثاني

وغزا جيرونة^(١) وأربونة . ولم يرد في الانسيكوبيديا الاسلامية أنه فتح أربونة
أما المؤرخ الاسبانيولى كوندى فانه يذكر غزوات الأمير هشام فى جليقية
بالجيش الذى أرسله تحت قيادة الحاجب عبد الواحد بن مغيث ، وغزواته فى نواحي
البيرايه بالجيش الذى أرسله تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك، ويقول: ان عبد الله هذا فتح
جيرونة سنة ٧٩٣ وفقى ١٧٧. وبعد أن فاز بفتح هذه البلدة زحف صوب الشمال فعبر
البيرايه وفتح أربونة وذبح أهلها واكتسح أقطارها ، ووصل إلى قرقشونة حيث
تجمعت لصدده أمراء البلاد قاطبة، وناجزته الحرب بين قرقشونة وأربونة، فظهر المسلمون
فى هذه المعركة ، وانهمزم المسيحيون انهزاما غير تام ، يدل على ذلك أن عبد الله قفل
راجعا إلى الاندلس بعد تلك الطائفة . وقيل : ان سبب قفوله هو خونه أنه بطول
القتال يفقد الفنائم الوفيرة التى كان غنمها . وقالوا: ان هشاما جعل هذه الاموال فى
بناء جامع قرطبة . ثم ان الامير ولى عبد الله بن عبد الملك سرقسطة، وسرح عبد الكريم
ابن الحاجب عبد الواحد إلى جليقية فعاث ودمر ، ولكنه سقط فى كين دبره له
الاذفش ، وهلك فيه أكثر عسكره وقواده ومنهم يوسف قائد الفرسان
وأما المستشرق رينو فى كتابه « غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على
سافواى وييمونت وسويسرة » فانه يذكر ما رواه مؤرخو العرب عن هذه الغزاة وما
تابمهم فيه لدرىق شيمينيس ، ويروى قصة أحمال التراب التى حملها اسارى المسيحيين
المساكين على ظهورهم وبالعجلات من مسافة مائتى مرحلة، ويقول ان مؤرخى العرب
زعموا سقوط أربونة تلك النوبة فى أيديهم، ولكنه يستبعد هذا الأمر بسبب كون
المؤرخين المسيحيين لم يذكروا ذلك ولو بمناسبة دخول المسيحيين ثانية إلى أربونة . ثم
يقول ان النورى الذى روى خبر هذه الغزاة يعرض تفصيل لم يصرح بأن جيوش
العرب استوت على أربونة فى هذه الغزاة واستقرت فيها^(٢) ، وسند كبقية هذا

(١) Gironna من بلاد الكاتالان تابعة لبرشلونة

(٢) قال المسعودى فى مروج الذهب بعد أن روى واقعة سمورة على جيش عبد الرحمن الناصر

البحث فيما يأتي عند الكلام على غزوات بني أمية في فرنسا

ما نصه : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة . ومدينة أربونة خرجت من أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها، مما كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة افراغة على نهر عظيم ثم لاردة. انتهى

ثم ذكر دوزي الهولاندى، ادرى من حزر تاريخ عرب الأندلس من الاوربيين، وذلك في الجزء الثالث من « تاريخ الاسلام في اسبانية » انه بعد ثورة « ييلاي » جرت حوادث أخذت بأيدي الأستوريين، وهى أن مسلمي شمالى اسبانية كان أكثرهم من البربر فناروا على العرب ووقعت بين الفريقين الوقائع، وظهر البربر في البداية على العرب، ثم عاد هؤلاء فأخذوا بالنار وغلظوا على البربر فأجأوهم الى الجلاء راجعين الى افريقية، وعلى تقيمة ذلك حصلت مجاعة شديدة استمرت نحواً من خمس سنوات متوالية، فلم يبق من البربر هناك الا النزر . وخلت الديار تقريباً من المسلمين فنار الأستوريون تحت قيادة الأذفنش صهر « ييلاي » وذلك سنة ٧٥١ مسيحية، وذبحوا من بقى من المسلمين، ولم يبق منهم أحد في « براغة » ولعل براغة هذه هى التى يسميها السعوى افراغة (لأن القاء يلقظها الأسبان باء) Braga ولا في « بورتو » Porto ولا في « فيزو » Viseu . وأصبح جميع الساحل الى مصب نهر « دورو » أى الوادى الجوفى Duero خالياً من المسلمين . ثم انكشف المسلمون عن « استرقة » Astorga و « ليون » Léon و « سمورة » Zamoura و « دجنة » Diesma و « طلمنكا » Talamanqua فاستقروا في « قورية » و « ماردة » Merida وأما من جهة الشرق فجلا المسلمون عن « سردانة » Serdana و « سمينكه » Simankas و « سيقويه » Segovia و « ايليه » Avila و « أوقه » Oca و « ميرانده » Miranda على نهر « ابره » Ebra . وصارت ثغور الإسلام « قويمرة » Coimbra وقورية و « طلييرة » Talavera و « طليطة » Tudela و « نبلونة » Pampelona

رجع الحديث الى السمح بن مالك الخولاني

وغارات العرب على فرنسا

قال رينو :

وبعد أن انتهى السمح من أمر أربونة ، وشجن المدن المجاورة لها بالمقاتلة ، زحف نحو
طلوزة (١) وكانت وقتئذ عاصمة اكيثانية (٢) فشد « اود » دوق اكيثانية كل ما قدر
على حشده من الجنود ، وخف لصد العرب عن المدينة ، بينما كانوا قد أخذوا بمخنقها
واستعملوا المنجنيقات وسائر آلات الحصار في قتالها إلى أن أوشك أهلها أن يسلموها .
وإذا باود قد أقبل بجيش يسد الفضاء حتى قال مؤرخو العرب ان العثير المتطاير من
زحف أقدامهم كان يغطي عين الشمس من كثرتهم ، فتلا السمح لعسكره الآية القرآنية :
(ان ينصركم الله فلا غالب لكم) ولما تدانى الجمعان خيل أن الجبال تلاقى بعضها
ببعض ، وكانت المعركة من أهول ما تصوره العقل ، وكان السمح يظهر في كل مكان وسيفه
ينطف دما وهو يشدد عساكره بقوله وبفعله . وكان كالفحل الهائج لا يرد رأسه شيء
أو كالأسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد في وجهه ، فهاهو إلا أن أصابته طعنة
خر بها صريعا عن جواده . فلما رآوه المسلمون مجذلا (٣) فت في أعضادهم ونكصوا على
أعقابهم ، وتركوا قتلاهم بالعراء ورجعوا إلى الورا . وكانت هذه الواقعة في شهر مايو من
سنة ٧٢١ وطاح فيها عدد من فرسان المسلمين المغاوير الذين شهدوا الفتوحات السابقة .
ولقد تولى قيادة الجيش ، بعد قتل السمح وتقهقر العرب ، عبد الرحمن (الغافقي) وعاد
به إلى الأندلس (٤)

Toulouse (١)

Aquitaine (٢)

(٣) جاء في « بنية المتمس في تاريخ رجل الأندلس » لابن عميرة الضبي ما يلي في حرف
السين : السمح بن مالك الخولاني ثم الحياوي ؟ أمير الأندلس استشهد في قتال الروم بالأندلس في
ذي الحجة يوم التروية سنة ١٠٣

(٤) استشهد رينو هنا بكوندى الاسبانولي وايزيدور الباجي وانستاز الكتي صاحب ترجمة

ولما شاع خبر هذه الواقعة دبّت الحاسة في قلوب أهالي اللاندوق والبيرانه وهبوا نخلع طاعة العرب وحميت أنوفهم ، إلا أن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين في أربونة ، وكانت قد جاءتهم نجدات من الأندلس فعادوا يشنون الغارات منها على البلاد المجاورة ، وأضت جيوشهم تتقدم من كل مكان وتجر بجرائم الطاعة أنوف السكان وكان الرهبان والقسيسون في ذلك الوقت هم أصحاب الكلمة العليا ، وكانت الكنائس والأديار ملأى بالنفائس والذخائر ، فلم يكن من العجب أن تتوجه همه العرب قبل كل شيء إلى اجتياح هذه المعابد وصب البلاء على الرهبان . ولم يكن من العجب أن يكون هذا القسم من تاربخنا ملآن بقصص تدمير العرب للأديار والسيبع ، لأن الذين كانوا يكتبون اذ ذاك انما كانوا من الرهبان والا كاييريكين ، فكان معظم كلامهم الحديث عما حلَّ بأديارهم وتقديمها على ديارهم

فقد جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير « جوسل »^(١) بقرب « بيزيه »^(٢) ودير القديس « بوزيل »^(٣) بقرب « نيم »^(٤) ودير « صنجيل »^(٥) بقرب « آرل »^(٦) . والدير المشهور بالثروة المسمى بدير الترتيل^(٧) بقرب « آغيمورت »^(٨) وكان يسمى كذلك لأن الرهبان كانوا ألزموا أنفسهم فيه النشيد الدائم بتسبيح الرب ، وذلك على أنه كلما تعبت طائفة خلقتها طائفة في الترتيل فلا ينقطع الترتيل من الدير لا ليلاً ولا نهاراً . فدهم العرب هذه الأديار كلها بغتة ، منحدرين عليها انحدار العقبان ، بحيث لم يقدر الرهايين الذين فيها

حياة البابا غريغوار الثاني ومجموعة مواساك التي فيها كتاب مؤرخي فرنسا

Jaucels (١)

Beziers (٢)

Saint-Bausile (٣)

Nimes (٤)

Saint-Gilles (٥)

Arles (٦)

Psalmodie (٧)

Aiguemortes (٨)

الآن يخلصوا ، نجياً برقابهم ويبيع ذخائر القديسين التي كانت عندهم (١) ، وكان العرب أول ما يعمدون الى الأجراس والنواقيس فيكسرونها (٢) وكانت بمض عصائب من أهالي البلاد تقاتل العرب في الاحاين ، وكان هؤلاء لا يسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال

ثم انه في سنة ٧٢٤ تولى امارة الأندلس عنبة (ابن سحيم الكلبى) (٣) واجتاز جبال البيرانية بجيش جرار ، وأوغل في البلاد ، وفتح قرقشونة وأوقع بمن وجد فيها ، ثم فتح نيم واخذ من أهلها رهان أرسلهم الى برشلونة (٤) وقد كانت فتوحات عنبة بحسب رأى ايزيدور الباجى فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ، ولذلك تضاعف في أيام عنبة خراج بلاد الغال . وقيل ان عنبة نفسه قد زاد الخراج على الأهالى ، ولا يظهر أن ذلك صحيح . وإنما ازداد الخراج بتوفيره وبحسن تديره . ثم ان عنبة وقع قتيلاً في احدى الوقائع سنة ٧٢٥ خلفه في القيادة « حديرة » وجاءت الى هذا نجدات من الأندلس ، وعادت ربح الاسلام فعصفت ببلاد النصرانية من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخى العرب . فالسبتيانية الى حدود الرون و« الالبيجوا » (٥) و« الرورغ » (٦) و« الحيفودان » (٧) و« اليبيلاي » (٨) صارت ميداناً لغارات العرب وشملها الخراب من كل جهة . وما لم يؤخذ بالحديد سلطوا عليه النار الى حد أن كثيرين

(١) استشهد رينو على ذلك بتاريخ نيم تأليف مينار Menard

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن الزورى

(٣) جاء في بنية الملتس في « تاريخ رجال أهل الأندلس » لاحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة مايلي :
عنبة بن سحيم الكلبى كان أمير الأندلس في سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير افريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل سنة تسع . والله أعلم

(٤) نقل رينو هذا الخبر من مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » عن تاريخ مواساك Moissac

Albigois (٥)

Rouergue (٦)

Gevaudan (٧)

Velay (٨)

من الغزاة أنفسهم أكبروا هذا الميث الزائد في تلك البلاد . فانهم لم يكونوا يعفون عن شئ سوى الجواهر النفيسة والسلاح والخيل وكل ما يزدادون به قوة على قوة وأكثر ما شمل الخراب مقاطعة « روديس »^(١) فقد احتل العرب فيها حصناً يظنه بعضهم حصن « روكريف »^(٢) والآخرون حصن « بالاغيه »^(٣) وأخذوا يحتاجون جواره ولا يلقون مناهضاً ولا عرقاً نابضاً . وقد بقيت عندنا عن تلك النوازل شهادة رجل كان يقال له « دادون »^(٤) عندما زحف العرب خرج بسلاحه ومعه جماعة مسلحون من أهل وطنه، فجاء العرب الى بيته ولم يجدوا فيه سوى أمه فأخذوها من جملة السبي، وعادوا الى الحصن الذي كانوا تبوأوه، فجاء دادون بسلاحه ومعه رفاقه ، ووقفوا أمام باب الحصن ، وطلب دادون تسليم أمه وقال انه ليس يبارح حتى ينقذها فأجابه واحد من العرب : إن شئت أن ترد عليك أمك فادفع الينا الجواد الذي أنت راكبه والا فاننا نذبح أمك أمام عينيك . فأجاب دادون وقد كاد الغضب يخرج من عقله : افعلوا بأمي ما تريدون فلا أسلم جوادى . عند ذلك جاء البربرى بأمر دادون وقطع رأسها وألقاه من فوق الحصن إلى ما بين يدي ذلك المسكين . فعندما شاهد دادون رأس والدته كادت نفسه ترهق من الألم وأخذ ينتحب ويصيح : يا للأخذ بالثأر . ولكنه لم يكن يقدر أن يدخل الى الحصن . فذهب وقد خولط في عقله وانقطع عن الناس، وأقام على ضفاف وادي « دوردون »^(٥) في المكان الذي بنى فيه فيما بعد الدير المسمى بدير « كونك »^(٦)

وقد استشهد رينو على هذه الحادثة بقصيدة « ارمولس نيجلوس »^(٧) التي

Rhodés (١)

Roqueprive (٢)

Balaguer (٣)

Dadon (٤)

Dourdon (٥)

Conques (٦)

Ermoldus Nigellus (٧)

نشرها في موراتوري^(١) ثم اللون بوكيه^(٢) في مجموعة مؤرخي بلاد الغال، ثم
المسيو بيرتس^(٣) في تاريخ الجرمانيين. وقد جاءت هذه الحادثة في البيت
المائتين والسبعة من قصيدة « نيجلوس » وليس يوجد في القصيدة ولا في تاريخ
دير « كونك » ما يدل على السنة التي أغار فيها العرب على « زورغ » ولكن
إذا عرفنا أن دادون مات في أواخر القرن الثامن علمنا الزمن الذي وقعت فيه هذه
الحادثة. فأما دير « كونك » فقد بق قائماً الى زمان الثورة الفرنسية

ولندكر حادثاً آخر يدل على ما بلغت من الفجائع تلك الغارات التي كان جانب
عظيم من فرنسة مرزحاً لها، وهذا الحادث وقع في دير « موناستييه^(٤) » في جهات
« فيلي^(٥) » فقد كان المسلمون اجتاحوا مقاطعات « بوي^(٦) » و « كليرمون^(٧) »
وكنيسة « بريود^(٨) » ثم أشرفوا على دير « موناستييه » فجمع القديس « شافر^(٩) »
رئيس الدير رهبانه، وأمرهم بأن ينسحبوا الى الحراج المجاورة، وبأخذوا معهم الاعلاق
النفيسة والذخائر التي في الدير ويتواروا في البرية، الى أن يتأذن الله بالفرج وبأوقات
أحسن فيعودوا فيها الى متبوتهم الأول. أما هو أي القديس المذكور فقد أجمع أن
يبقى في الدير مهما كان البرابرة يريدون أن يفعلوا به، فان أمكنه أن يردهم الى
الصراط المستقيم فذاك، وإلا فان قتلوه فيكون تردى بالأحمر من أبواب الشهادة.
فأخذ الرهبان يبكون ويستغيثون راجين منه أن يذهب معهم الى البرية ويطلب النجاة

Muratori (١)

Bouquet (٢)

Pertz (٣)

Monastier (٤)

Velay (٥)

Puy (٦)

Clermont (٧)

Brioude (٨)

(٩) Saint Chaffre وكان يقال له أيضاً Saint Theofroi

كما يطلبون أو أن يتركهم يموتون معه . فأصرَّ القديس على كلامه وقال لهم إن اتقاء الخطر ضروري لا سيما إذا كان في السلامة فائدة للكنيسة . وضرب لهم مثلاً مسألة الرسول بولس الذي كان اليهود أعداؤه يقتصون أثره في دمشق للاقتصاص منه، ففر منهم وزل ليلاً في زنبيل تدلى به من عن سور المدينة وخاص نجياً . وكذلك بطرس رئيس الحواريين كان قد أجمع الفرار من وجه نيرون لو لم يكن سبق في إرادة الله توقيف خطواته . ثم قال لهم القديس : أما أنا فإني لست بذهاب من هذا الدير ، فإن من واجبات الراعي أحياناً أن يضحي بنفسه في سبيل خلاص رعيته ، وأتى إن سال دمي هذه المرة فربما يسكن بانفجاره الغضب الإلهي الأثر بدون شك من خطايا البشر فلما رأى الرهايين تصميم القديس هذا لم تسعهم إلا طاعته ، وبعد أن سمعوا القداس وأخذوا معهم النفائس التي في الدير خرجوا إلى البرية، وتغلغلوا في الغابات ، ولكن انسلَّ منهم اثنان فصعدوا فوق رابية مشرفة على الدير ليشهدوا ما عساه أن يقع فيه . ولم يلبث العرب أن حضروا فوجدوا القديس « شافر » عاكفاً على الصلاة في زاوية من الدير، فلم يأبهوا له، وإنما أخذوا يطوفون في الدير أملاً بالعثور على شيء يغمونه، وكان مرادهم أن يتقفوا الرهبان وأن يأخذوا منهم أحدثهم سنّاً وأقواهم بنيةً ليبيعوهم في سوق النخاسين بالأندلس . فلما علموا أن الرهبان قد فرّوا بأسرهم وأنه لم يبق في الدير شيء من النفائس التي كانت تحذتهم أنفسهم بها استشاطوا غضباً وانهاوا على القديس بضرب مبرح

وكان في ذلك اليوم عند البرابرة عيد يقدمون فيه ضحية لله، ولم يقل المؤرخ الذي نقل عنه هذه القصة ما شكل تلك الضحية ؟ ولكنه يقول إنهم كانوا في ذلك العيد يشربون الخمر ويطنزون ، مما يدل على أن العصابة التي أغارت على كورة « فيلاي » لم تكن عصابة مسلمة، ولكن عصابة بربرية لا يزال أهلها غائضين في لجج الوثنية . فلما رآهم القديس قد اتبندوا مكاناً للقيام بشعائر عيدهم جاء إليهم ونصح لهم بأنهم بدلاً من عبادة الشياطين يكون أولى بهم أن يعبدوا خالق الأكوان الذي لولاه لم يكن شيء في هذه الدنيا ، فلم يكن هذا الكلام ليقع منهم موقع القبول بل زادهم سخطاً

وجاء أحدهم فرماه بمحجر فسقط على الأرض مغشياً عليه . ثم أراد البرابرة أن يحرقوا
الدير ويدكوه الى الحضيض ، ولكن يقول المؤرخ أنهم بينهم يهيمون بأن يفعلوا سلط الله
عليهم زيجاً صرصراً عاتية وصواعق محرقة فاركنوا الى الفرار ، وتركوا الدير . ثم مات
القديس بعد أيام قلائل من أثر الضرب ، بعد أن عاد الرهبان إلى ديرهم . ولا يزال
الكنيسة تحتفل بعيد القديس « شافر » في ١٩ أكتوبر من كل سنة . وأما الدير
للمذكور فقد بقى قائماً الى زمان الثورة الفرنسية الكبرى

ونظن أنه في ذلك العهد كانت قد وقعت غارة العرب على مقاطعة « دوفيني »^(١)
وعلى مدينة « ليون »^(٢) وعلى بلاد « برغونيا »^(٣) وقد ذكر أحد مؤرخي العرب
هذه الغزوات قائلاً : إن الله قد قذف الرعب في قلوب الكفار فلم يكن واحد منهم
يقف في وجه المسلمين إلا لطلب الأمان . ولم يزل المسلمون يتقدمون في البلاد ويؤمنون
العباد الى أن وصلوا الى وادي « الرون » وهناك ابتعدوا عن السواحل وأوغلوا
الى الداخل

وقد نقل رينو هذا الكلام عن القرى . ولكن إن كان الكلام الذي نقله هنا
هو الوارد في النسخ فان العبارة التي اطلعنا عليها هي هذه نقلاً عن ابن حيان : إن موسى
اصطاح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته ، على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في
أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى وافتتح « سرقسطة » وأعمالها
وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما وغنمهما الله تعالى مافيه .
وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح . وموسى
يجي على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه . فلما
صفا القطر كله وطأ من نفوس من أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام

(١) Dauphiné مقاطعة من فرنسا قاعدتها « غرينوبل » تألف منها الآن ولايات « الازير »

و « البروم » و « الالب » العليا

(٢) مدينة ليون الشهيرة وقد تقدم ذكرها

(٣) تقدم ذكرها أيضاً

لتمييز ذلك وقتاً، وأمضى المسلمين إلى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا. واتهوا، حتى اتهوا إلى وادي «ردونة» فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم. وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلاد افرنجة فملكّت مدينتي «برشلونة» و«أربونة» وصخرة «آيينيون» وحصن «لودون» على «وادي ردونة» فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جداً . انتهى

فهذه العبارة قد تقدم نقلنا لها في الكلام عن موسى بن نصير وطارق .
رجع الى كلام ريتو . قال :

ولا نعلم في الحقيقة الأمكنة التي أشرف عليها العرب ذلك اليوم الا بأخبار الاجتياح الذي وقع فيها، فانه في نواحي « فيين ^(١) » على ضفاف « الرون » أصبحت الكنائس والأديار كلها دكاً، و « ليون » التي يسميها العرب « لودون » رأيت أيضاً تخريباً أعظم كنائسها. وكذلك شمل العيث « ماسون ^(٢) » و « شالون ^(٣) » وكذلك « بون ^(٤) » حل فيها من العيث ما لا يوصف. ووصل العرب الى مدينة « أوتون ^(٥) » وأحرقوا كنيسة « سان ^(٦) نازير » وكنيسة « سان جان ^(٧) » ودير « سان ^(٨) مرتين ». وكذلك نهبوا دير « سين ^(٩) أندوش » في « صوليو ^(١٠) » وكذلك

(١) Vienne مدينة على وادي « الرون » تبعد ثمانين كيلو متراً عن «غرينوبل» الى الشمال الغربي

(٢) مدينة Maçon من مقاطعة الصاوون واللوار على مسافة ٤٤١ كيلومتراً الى الجنوب من باريز

(٣) قصبة Chalon على نهر الصاوون، على ٥٨ كيلو متراً من ماسون وهي غير مدينة شالون على اللارن

(٤) مدينة Bon على ٣٨ كيلو متراً الى الجنوب الشرق من « ديجون »

(٥) مدينة Autun على مسافة ١٠٦ كيلو مترات الى الشمال الغربي من ماسون

(٦) Saint-Nazaire

(٧) Saint-Gean

(٨) Saint-Martin

(٩) Saint-Andoche

(١٠) Saulieu قصبة من ساحل الذهب من ولاية سيمور Semur

دمر العرب دير « بيز^(١) » بقرب « ديجون^(٢) ». وقد استشهد « رينو » على هذه الحوادث بتاريخ « مواسك » من مجموعة مؤرخي بلاد النبال وبتاريخ « الدون^(٣) بلانشيه » المسمى بتاريخ برغونيا وبتاريخ « غاليا كريستيانيا^(٤) » ويذهب بعضهم إلى أن غارات العرب قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا ، وقالوا إنهم بثوا سراياهم إلى جهات نهر « اللوار » وأخرى بقرب « نيفير^(٥) » وأخرى إلى مقاطعة « فرانش^(٦) كونتى »

وقالوا إن دير « سان^(٧) كولومبان » قد دكه العرب في تلك الغزوة ، وأنهم قتلوا أكثر الرهايين والقسيسين الذين صادفهم في « بيزانسون ». قال « رينو » : وليس في هذه الروايات شئ لا يقبله العقل ولا سيما ما تعلق منها بمقاطعة « فرنش كونتى » التي فيها أسماء وآثار عربية كثيرة . وقالوا أيضا ان الدير الذى فى سفح جبال « الفوج^(٨) » المسمى بدير « لوكسول^(٩) » قد جعله العرب أيضا آثرا بعد عين ، وذبحوا الرهايين الذين كانوا فيه تحت رئاسة القديس « ميلين^(١٠) ». نقل هذه الروايات « رينو » عن الأب « لكوانت^(١١) » ونقل أيضا عن « ماييون^(١٢) » وقال : يظهر ان المسلمين لم يجدوا مقاومة

Beze (١)

Dijon (٢) قاعدة بلاد « برجونيا » على مسافة ٣١٥ كيلو مترا من الجنوب الشرقى من باريس

Plancher (٣)

Gallia Christiania (٤)

Nevers (٥)

Franche-Comté (٦) مقاطعة فى شرق فرنسا، قاعدتها « بيزانسون » تحوى على ولايات « الصاوون » العليا و « دويس » Doubs و « جورا » Jura

Saint-Colomban (٧)

Vosges (٨)

Luxeuil (٩)

Mellin (١٠)

Lecointe (١١)

Mabillon (١٢)

حقيقه إلا أمام مدينة «سانس»^(١) فان هذه المدينة كان فيها مطران ينتسب إلى عائلة نبيلة ، يقال له «ايول»^(٢) «اشتهر بالفضائل والكمالات حتى جعلوه في مصاف القديسين. فهذا المطران عندما سمع بإيجاف العرب قاصدين بلده بدأ بتحصين البلدة، وهياً أسباب الدفاع عنها، بحيث لما وصل العرب إليها وأخذوا يقذفونها بقذائف منجنيقاتهم كان أهلها يرمونهم من أعلى الأسوار بأجزاء محرقة كانت تلتهب بها آلاتهم الحربية قال «رينو» : إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات كانوا من السرازين^(٣) ولا ثمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك ، بل كان المؤرخون يشيرون اليهم بقولهم «فندال»^(٤) وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على الجار عند ما جاء هؤلاء إلى المانية ودخلوا إلى فرنسة واكتسحوا «الازراس» و«اللوزين» و«فرانش كونتى» و«برغونيا» و«شبانيا» وغيرها

ثم يعود رينو، فيقول: إنه على كل حال قد تحقق محي العرب إلى فرنسة وتغلغلهم في أحشاء البلاد وانهم لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيتهم ومراميتهم، وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسة المقاومة واهية وعزما غير جميع . نعم تختلف فرنسة عن اسبانية في هذا الباب بأن اسبانية وجد فيها من انضم إلى العرب وسعى بين أيديهم ودان بدينهم ، وأما في فرنسة فاذا استثنينا بعض أشخاص لا يعرفون معنى للدين ولا للوطن لم يوجد من الأهالي فئة كان لها شيء من الوجهة والنبالة رضيت بأن تنحاز إلى العرب أو أن تصبأ عن دينها، بل انه في وسط مدينتي أربونة وقرقشونة ، حيث أقام العرب مدة طويلة، بقي الاهلون متمسكين بدينهم المسيحي لا يرضون به بدلا

(١) Sens (١) قسبة مقاطعة إفرنسية تسمى يوند «Yonnd»

(٢) Ebbon

(٣) Sarrazins وهو لقب المسلمين عند الإفرنج في ذلك الوقت

(٤) Vandales

وكان اود دوق اكينانية طول هذه المدة منحرفاً عن القتال، متجنباً الانغماس في الحرب، لأن غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ولم تكن في قلب البلاد مثل ذي قبل. وأما «شارل مارتل» فكان مشغولاً بمحاربة «الغريزوينين» و«البافارين» و«السقسون» الذين كان يخشى أن يعبروا عليه نهر الرين وينازعوه مركز سلطانه. وكان بينه وبين «أود» ما بين النظراء الذين يفص بعضهم ببعض. فأما مؤرخو العرب الذين لم يكن لهم اطلاع على تلك المناقشات الداخلية بين ملوك الافرنج فعملوا سكوت «شارل مارتل» الذي كانوا يسمونه «قارله» عن مقارعتهم بالتعليل الآتي. قالوا:

إن كثيراً من أمراء الافرنج فزعوا إلى «قارله» وشكوا له الأضرار التي حلت بهم من عيش المسلمين في البلاد، وأوضحوا له العار الذي يلحق بها من كون جيش كالجيش العربي، مجهز بأسلحة خفيفة، يتغلب على جيوش شائكة بانقل الأسلحة غائصة في الزرد إلى أعناقها كالجيوش الافرنجية. فأجابهم قارله: دعوهم الآن يفعلون فانهم في إبان صولتهم أشبه بالسيل الذي يجرف كل ما يقف في وجهه، وهم اليوم قد اتخذوا من جرأتهم دروعاً ومن أقدامهم حصوناً، ولكنهم بعد أن تمتلئ أيديهم من الغنائم، وبعد أن يألفوا نعيم الحضرة ويستولى الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضاً ويدخل الشقاق في صفوفهم، حينئذ ترحف إليهم وتتغلب عليهم وترك جمعهم شريداً وقائماً حصيداً.. وقد نقل هذا الكلام «رينو» عن المقرئ صاحب النسخ. ونحن راجعنا المقرئ فوجدناه يقول في آخر صفحة ١٢٨ من الطبعة الأزهرية المصرية مايلي:

وقال الحجاري في المسهب ان موسى بن نصير نصره الله نصرأ ما عليه مزيد، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة - وهذه سمه للمكهم - فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من

جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم . فقال لهم مامعناه : الرأي عندي أن لا تعرضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر . قال : فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء . انتهى

قلت : إن أعظم العوامل التي قضت برجوع بدر العرب كالمرجون القديم ، بعد أن كان تماما وأثار المشرق والمغرب ، تعود الى عاملين كبيرين : أحدهما الفتنة التي ذكرها صاحب السهب بين الشاميين والبلديين ، فقد طال بينهما النزاع وتجهول الى فتنة صباء أوقفت سير الاسلام في أوربة بعد أن مشى فيها مشى النار في يابس العرفج . واهم من فتنة البلديين والشاميين فتنة العرب والبربر ، فقد أجمع المؤرخون من العرب والافرنجة على أن الحرب التي اصطلت بين المسلمين في شمالي اسبانية والتي تغلب فيها البربر على العرب وأخرجوهم بها من تلك الديار كانت هي السبب في انتهاز الافرنج والاسبانيول تلك الغرة اللامحة لاستئناف دولتهم ووصولتهم وطردهم للمسلمين من شمالي اسبانية . وبعد ذلك عندما جمع العرب شملهم وكروا على البربر وواقعوا بهم ، انتقاما عما صدر من البربر من قبل ، استفاد الاسبانيول والافرنج فائدة كالفائدة الأولى ، واغتموا أيضاً مثل تلك الفرصة ، وقد كان أنكى من الفتنتين المار ذكرهما فتنة القيسية واليمانية وواقعة شقنده المشهورة ووقائع أخرى كانت تشغل العرب بعضهم ببعض ، فيستأسد العدو في خلالها وينهض من ورائها فيكر عليهم ويسترجع منهم قلاعا وحصونا وحواضر عامرة . وقد شوهد أنه لما اشتدت الفتنة في قرطبة بين العرب والبربر في أيام الخليفة المستضعف هشام الثاني كان كل فريق من المسلمين يستعين بالاسبانيول ، وكان هؤلاء يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون وكذا وكذا من المدن ، وكان أولو الأمر

في قرطبة ينزلون لهم عنها^(١). أما العامل الثاني الذي لم يكن يقل خطراً عن الأول فإنه ولوع العرب بالفنائم وحرصهم عليها الى الدرجة التي كانت سبباً في الهزائم، فان الواقعة الكبرى التي وقعت بين عبد الرحمن النافقي و«شارل مارتل» الذي يقول له العرب «قارله» كان سبب إديار العرب فيها وتملص أوربة من أيديهم هو شدة الخوف على الفنائم لا غير، فإنه لما تلاقى الجمعان أراد عبد الرحمن أن يأمر جيشه بترك الفنائم التي كانوا جمعوها حتى لا تبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال. ولكنه توجس خيفة أن يكسر بذلك من قلوبهم، فتفتر عزائمهم وتخبث نفوسهم، فأذن لهم في حفظ غنائمهم وهو كاره، فجعلوها وراء المسكر وأعينهم فيها. وعلم بذلك الأفرنج ولحظوا شدة حرص العرب عليها، فلما حمى الوطيس زحف جانب من جيش الأفرنج من طريق آخر قاصداً المسكر الذي فيه الفنائم، فانكفأ العرب عن ميدان القتال راجعين إلى معسكرهم الذي فيه

(١) قال ابن عذارى في البيان المغرب: قال ابراهيم بن القاسم: وكان أهل قرطبة على حال شدتهم وعظيم محتتم لاجين في الفتنة والتعصب على البربر، ومن ذكر الصالح قتل، حتى ان رجلا من وجوه أهل العلم قال في الجامع: اللهم اصالح عاينا فقتل في مكانه. وقال آخر في الجامع: ان الله أحب الصلح وأمر به، فقتل في الحين. وجاءت امرأة من القرن فأوقعت قدراً فانكسرت فكانت سوداء فقالوا بربرية سوداء فقتلت «الى أن يقول»: وآتى رسل ابن مامة القومس زعيم نصرانيتها يستنجزون تسليم الحصون اليه على ألا يذرمهم ولا يتعرض لشيء من ثغورهم. فرضوا بهذا وحضر الفقهاء والعدول والقاضي وكتبوا كتاباً بذلك

قال: ولما وصل الرسل الى قرطبة حضر الفقهاء والقاضي والعدول وكتبوا كتاباً بالشروط وتسليم الحصون للنصارى وقرىء على الناس بمحضرة هشام (اي الخليفة) وواضح (أي الحاجب) وشهد فيه جميع من حضر وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان (تأمل كيف كانوا يستبشرون بتسليم الحصون الى الاسبانيول بشرط أن يظهروم على البربر) فكان الذي صار لابن مامة جيم الحصون التي كان أخذها الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن أبي عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافاً من هشام. هكذا ذكر الرقيق في كتابه.

قال: وسمع اللهين ابن شانجه أيضاً بما سلم الى اللهين ابن مامة دونه من الحصون، فكتب يطلب حصوناً آخر وتوعد وتهدد، فأجيب الى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها اليه. وهذا كله لجأجاً في ألا يصلح البربر اه

تلك الأسلاب ليدافعوا من دونها، ولم يبق في الميدان قوة كافية لصد السواد الاعظم من الجيش الافرنجي . وهكذا كانت تلك الهزيمة الكبرى في المحل الذي يسميه العرب بيلاط الشهداء، ويسميه الافرنج بعمركه «بواتيه». فأنت ترى أن «قارلة» عندما قال للافرنج قوله ذلك «دعوا العرب يملأون أيديهم» كان كأنه يقرأ في ظهر الغيب

نعود الى سياق التاريخ بحسب رواية «رينو» فنقول :

وفي سنة ٧٣٠ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن «الغافقي» الذي خلف السمح بن مالك الخولاني في قيادة الجيش المحاصر «لطلوزة» عند مصرع السمح في المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلاً صارماً عادلاً محبباً في جنده، لنزاهته ولعدم رغبته في حطام الدنيا لنفسه، وكان أيضاً محل احترام صلحاء المسلمين لمعرفة بالحديث النبوي ومصاحبته لأحد أولاد الخليفة عمر (١)

(١) جاءت ترجمة عبد الرحمن الغافقي في كتاب بغية الملتبس في رجال أهل الأندلس، لأحمد بن

يحيى بن عميرة، كما يلي :

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي وهو العكي: أمير الأندلس، ولها في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي صاحب افريقية . وعبد الرحمن هذا من التابعين يروي عن عبد الله بن عمر وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعبيد الله بن عياض، استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة ١١٥ حكى ذلك غير واحد . وكان رجلاً صالحاً جميل السيرة في ولايته كثير الغزو للروم عدل القسمة في الغنائم وله في ذلك خبر مشهور، أخبرني أبو طاهر اسماعيل بن قاسم الزيات لقيته بفسطاط مصر، قال : أخبرنا الصادق بن مرشد بن يحيى بن القاسم المدني سماعاً عليه ، أخبرنا علي بن منير الحلال قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج، أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن ابن خلف قال : أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال : غزا عبد الرحمن يعني ابن عبد الله العكي إفريقية وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم كثيرة وظفر بهم . وكانت فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد فأمر بها فكسرت ثم أخرج الخمس وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه . فبلغ ذلك عبيدة يعني ابن عبد الرحمن القيسي الذي هو من قبله فغضب غضباً شديداً وكتب اليه كتاباً يتوعده فيه فكتب اليه عبد الرحمن : ان السنوات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمؤمنين منها مخرجاً . انتهى . وسندكر في متن الكتاب تكملة أخبار عبد الرحمن الغافقي رحمه الله

وقبل أن نكمل ترجمة عبد الرحمن النافقي التي سنتهيها بواقعة بلاط الشهداء ينبغي لنا أن نكمل الخبر عن الفترة التي وقعت بين إمارة عنبسة بن سحيم الكلابي وإمارة النافقي، فنقول: قال المؤرخ الإسباني «كوندى»: إن أول عمل قام به عنبسة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضي بين المسلمين بدون تجاوز على الأراضي التي لها ملاكون أصليون من الأهالي، فكان يستوفي العشر من الذين خضعوا للدولة العرب من أنفسهم، ويستوفي الخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف. وهو الذي بنى جسر قرطبة (١)

وطاف عنبسة في المقاطعات ينظر في مظالم الناس ويوزع بينهم العدل بدون تمييز بين الأديان. ثم إن أهالي «طرأسونه» انتفضوا عليه فزحف إليهم ودوخهم ودك حصونهم، واقتص من زعماء الثورة وفرض عليهم غرامة مضاعفة.

ثم أغزى جيوشه بلاد أفرنجية، فدمر وأحرق ونسف زروعا وأسر خلقا كثيرا، وقيل إنه كان يكره هذا العيث في بلاد العدو، إلا أنه كان يدارى جنده ويحذر أن يتم بفتور الحمية الإسلامية (٢). قال «كوندى»: ثم أنه في ذلك الوقت خرج في سورية نبي كذاب اسمه «زوناريا» (٣) كان يزعم أنه المسيح المنتظر عند اليهود. فلما سمع بخبره عرب الأندلس، وكان كثير منهم من أهل الشام، صدقوا مقالته هذه وتركوا الغنائم التي كانوا غنموها والمساكن التي كانوا ارتضوها، وعادوا إلى سورية مجفئين، فضبط عنبسة الأملاك التي تركوها، وحوطها لبيت المال. ثم في السنة التالية غزا عنبسة بلاد فرنسا وراققه النصر في أول الأمر، وما زال يقطع الأودية ويستقرى

(١) أكثر المؤرخين يقولون إن باني جسر قرطبة هو سلفه السمح بن مالك الخولاني، ولعل

عنبسة أكمل بناءه بعد قتل السمح

(٢) لا شك أن النافقي بمكانه من معرفة الشرع كان يعلم أن نسف الزروع وهدم البيوت وقطع الأشجار واستعمال النار كل ذلك يخالف لقواعد الحرب في الإسلام ولو في بلاد العدو وقد نص على ذلك الأئمة بالصراحة، وغاية ما شدد الشددون منهم هو أنه يصح إذا بدأ به العدو ولم تبقى للمسلمين حيلة إلا بمقابته بالمثل

(٣) Zonaria وهذا الخبر الذي رواه كوندى، ونقله عنه، رينو لم نسمع به حتى الآن وهو من أغرب ما سمع من الأخبار. ونظن أنه إن كان له أصل فيكون في المجمع اليهودي لا المجمع الإسلامي

البسائط حتى عبر نهر « الرون » الى الشرق، ولكنه وقع في إحدى الوقائع مثنخاً
بجراحات كثيرة، مات على أثرها، وذلك سنة ١٠٦ للهجرة. وقبل أن مات استخلف
حديرة الفهرى، فلم يشغل هذا المنصب الا مدة يسيرة، لأن أمير افريقية أرسل أميراً
على الأندلس يحيى بن سلمة (١). وكان هذا قائداً مجرباً محباً للعدل صارماً جداً في
اعطاء الحقوق لأصحابها، فهابه المسلمون والمسيحيون معاً. وبينما كان يطوف في الولايات
الشالية انتهز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير افريقية عزله فأجابههم إلى ماسألوا وأرسل
أميراً على الأندلس عثمان بن أبي نسمة (٢) وكان عثمان هذا مشهوراً بالبسالة والنجدة
والبصيرة بالحروب، فتولى الامارة واضطلع بها، ولكن وجد أصحابه فيه عوداً صلياً وقناة
لا تلين لغاضر ولم يحققوا فيه آمالهم، ولا هو عرف لهم جميل سعيهم في تأميره، بل رأوا
منه ما أمضٍ وأرمض، فما زالوا يسمون به كما سموا بسلفه حتى حملوا الخليفة هشاماً على
صرفه بمخديفة بن الأحوص (٣) فلم يقيم هذا إلا قليلاً، وعاد أمير افريقية فولى على
الأندلس عثمان بن أبي نسمة نفسه، ولكن ولاءه وكيلاً لا أصيلاً، إلى أن قدم من
دمشق بأمر الخليفة الهيثم بن عبيد الكنانى (٤) وكان الهيثم شامياً ولكنه كان فظاً بخيلاً
جاسياً، فأسف شيوخ العرب والبربر وساءت ملكته فيهم، فاتحدوا عليه فالتقى بهم في
السجون وأهلك بعضهم

(١) في فتح الطيب أن يحيى بن سلمة الكلبي أنفذه بشر بن صفوان الكلبي، والى افريقية، لما
استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة ١٠٧ وأقام في ولايتها سنتين
ونصفاً.

(٢) الافرنج يسمونه « مونوزة » Munuza وهكذا جعلوا ابن أبي نسمة محرماً الى « مونوزة »

ويقول « رينو » : ان كلام الافرنج والعرب يعرفون أسماء بعضهم حتى تنكر على الانسان أصلها

(٣) في فتح الطيب أن عثمان بن ابى نسمة اللخمي قدم والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن

السلمى صاحب افريقية وعزله لحمسة أشهر بمخديفة بن الأحوص القيسي

(٤) في فتح الطيب يقول إنه قدم من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى أمير افريقية وأنه وصل

في الحرم سنة ١١١ وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفى سنة ١١٣ لسنتين من ولايته. وقدم بعده

محمد بن عبد الله الأشجعي فولى شهرين. ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله

ابن الجباب صاحب افريقية فدخلها سنة ١١٣ وغزا الإفرنجة النج .

وكان من جملة المنكوبين زياد بن زيد فرفع الشكوى الى الخليفة ، هو ومن معه ، واتهموا الهيثم بأنه يسير في الأندلس سيرة لامناص من أن تنتهي بيوار الأمة والخطوب المدهمة، فأرسل الخليفة هشام محمد بن عبد الله، وفوض إليه أمر التحقيق عن الشكاوى الواقعة بحق الهيثم، وأذن له بأنه اذا ثبت لديه كون الهيثم مجرمًا يعزله ويقتص منه ويتبدل به الأمير الذي يراه الأصحح ، فجاء محمد هذا ومضى بالتحقيق اللازم على أحسن وجه . وعند ما ثبت لديه إجرام الهيثم ألقاه في السجن واطلق الذين كان نكبهم ورد عليهم أموالهم . ويقال إنه قبل أن نفي الهيثم من الأندلس الى افريقية أمر بتطويفه في شوارع قرطبة راكباً على حمار ، تشهيراً له ونكالا وفاقاً وبعد ذلك فوض محمد بن عبد الله بالامارة الأمير عبد الرحمن العافقي فاستحسن الجميع تولية عبد الرحمن العافقي لما كانوا سبروا من نجابته ومن مزاياه العالية . ولم يشذ عن الجمهور الا عثمان بن أبي نسة الذي كان يرى نفسه أولى بالامارة، فتولى عبد الرحمن سنة ٧٢٨ وفق ١١٠ (هنا فرق بثلاث سنوات عن رواية نفع الطيب) . وكان متوفر العناية باقامة العدل ورفع المظالم وابتاء الحقوق أصحابها . ولأجل أن يتمكن من تسكين الدهماء وارضاء الجمهور بقى سنتين يطوف على بلد بلدياشر اماطة المظالم وازاحة العلل بنفسه غير ميمز بين المسلم والمسيحي، وعزل كثيراً من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية وكذلك أعاد الى المسيحيين الكنائس التي كانوا انزعوها من أيديهم والتي كان لهم الحق بها وفقاً للمهود ، كما أنه هدم الكنائس التي كانوا أخذوا الاذن فيها بالرشوة خلافاً للمهود .

ولم يكن يهدأ له بال الا بفزوا فرنسة حتى يدوخها ويضمها الى إمارته أو يضم منها البلدان التي كانت من قديم الزمان تحت حكم القوط . فحشد جيشاً جراراً من نخبة المقاتلة والصابرين في الحروب، واستنجد أمير افريقية فأرسل اليه بجنود مختارة للجهاد، تنلظى شوقاً الى الجلال . ولما وصلت نجدة أمير افريقية سرحها عبد الرحمن الى الدروب، وبعث الى عثمان بن أبي نسة أمير الثغر بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش . فوقع من عثمان على باقعة شديد البأس كان بدون هذا ينافس عبد الرحمن على الامارة ولم يكن مرتاحاً الى عمل يبدأ به عبد الرحمن وينال

به حسن الذكر . وقد انضاف الى هذا السبب في كراهيته لتلك الحرب أنه في إحدى غاراته على فرنسة وقعت في يده ابنة « أود » دوق ا كيتانية، ويقال إنها كانت تسمى « نوميرانسه^(١) » ويقال ان اسمها « مينين^(٢) » ولكنها كانت مشهورة باسم « لامبيجيه^(٣) » وكانت بارعة في الجمال مع مكانها من بيت الملك ، فهام عثمان بها حباً وتزوج بها كما تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة « ايجيلونة^(٤) » أرملة الملك « لدرقيق » فمن بعد أن أصبح عثمان بن أبي نسهه صهر اللوق « ا كيتانية » عقد مع أيتها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها « دوق ا كيتانية » غارات العرب ولو الى مدة من الزمن . فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمن النافق الى الأمير عثمان بن أبي نسهه بالزحف على بلاد حميه « دوق ا كيتانية » وقع في حيص بيص ، وراجع الأمير قائلاً له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله . وكان عبد الرحمن قد عرف بزواج عثمان مع ابنة « أود » وانه قد شغفه حبها فغضب من تلكو عثمان عن الزحف ، وأفهمه أن ذلك العهد الذي كان عقده مع الافرنج بدون علمه لا يعده هو موثقاً له ، وأن عليه أن يتحرك للجهاد بدون مراجعة . فلما قطع عثمان أمه من منع عبد الرحمن عن أعمال الغارة في بلاد « أود » أرسل الى حميه يخبره بما وقع^(٥) حتى يأخذ حذره ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان . فأرسل جيشاً الى الباب تحت قيادة ابن زيان ، انتخبه من أصدق رجاله ، وأمره بأنه إن تمكن يقبض على

Numérance (١)

Minine (٢)

Lampégie (٣)

Egilone (٤)

(٥) كان العرب يطلقون لفظة الباب على بلدة واقمة في أحد منافذ جبال « البرانه » أو « البرانس » والمؤرخ « كوندى » يظن انها مدينة « بوى سردا Puy Cerda » وهذا الرأي موافق لرأى المسيو « شينييه » Chenier الذى يقول ان عثمان بن أبي نسهه كان أميراً في « سرده » ويقول آخرون إنه كان في الطرف الغربى من مقاطعة « روسيون » Rousillon في المحل الذى يقال له « سردانة » وهو قرية صغيرة لا تبعد عن « بوى سرده » وكانت تابعة لاسبانية برغم كونها محاطة

عثمان بن أبي نعمة ويرسله اليه، وان أبي الطاعة يهدر دمه . فوصل ابن زيان بمسكركه بفتة الى مقر عمان، وهو ينوي القبض عليه، ففر هذا في الجبال ومعه بعض أعوانه واستصحب أيضاً زوجته الأميرة «لمبيجيه» التي كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش في اثره حتى أدركوه وأحاطوا به، ففرق عنه أصحابه في تلك الأوغار ولم يبق معه سوى زوجته الحسنة، فدافع عن نفسه وعنهما دفاع الأسود حتى أردوه قتيلًا، وفي جسمه ما لا يحصى من طعن وضرب، فاحتزوا رأسه وأتوا به وبالأميرة الحسنة الى الأمير عبد الرحمن . فلما رأى عبد الرحمن هذه الغادة هتف قائلاً : والله ما كنت أظن أنه يوجد مثل هذا الصيد في جبال البرانس . وقد وقعت هذه الواقعة سنة ٧٣٠ وفق ١١٣ ثم إن الأمير عبد الرحمن أرسل الأميرة الى دمشق هدية للخليفة ، وهكذا انتهت حياة الأميرة «لمبيجيه» ابنة دوق « ا كيتانيا » في حرم الخليفة الأموي في الشام (١) ولما وصل خبر مصرع عمان الى دوق « ا كيتانية » علم أن الحرب واقعة لا محالة وتأهب للدفاع الشديد، ولكن الجيش العربي اندلق من جبال « البيرانه » اندلاق السيول من الجبال، لا يقف في وجهه شيء، فاكتسح الأرضين من « نافارا (٢) » الى « بوردو (٣) » وامتلاّت أيدي المسلمين بالغنائم . ولما وصلوا الى « بوردو » حاول أهلها أن يدافعوا عنها فكسروهم وأخذوا البلدة عنوة ووضعوا السيف فيها ونهبوها .

بأرض فرنسة . وكان الى شمالي هذه القرية على جبل منفرد في حذاء « البيرانه » حصن قديم فيظن بعضهم أن هذا الحصن هو الذي كان يقيم فيه أمير الباب من قبل العرب (١) قال المسيو « دومارليس » صاحب الحواشي على تاريخ « كوندى » الاسبانيولى: إن هذه الواقعة هي السبب في قول المسيو « شينيه » Chenier بأن المسلمين يعتقدون أن أحد خلفائهم تزوج بأميرة إفرنسية . قات: وليس هذا القول خطأ لأن « أود » دوق « ا كيتانية » أى ملك بلاد الغال في عصره كان ينتسب الى « كاوفيس » أول ملوك فرنسة (٢) Navarr هي مملكة في شمال اسبانيا كان العرب يقولون لها « نافارا » وأحياناً « نبرا »

(٣) Bordeaux مدينة عظيمة في غرب فرنسة على مسافة ٣٧٨ كيلو-مترًا الى الجنوب الغربي من باريس، وهي قاعدة مقاطعة « الجيرونند » التي كان العرب يقولون لها « جيرنده » وكانوا يقولون لمدينة « بوردو » بورديل

وكان الأهالي الذين وقموا في اليد يقدون أنفسهم بالمال . وأما أمير «بورديو» فقد قتل في المعركة .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من فتح بورديو تقدم إلى الشمال فوجد دوق «اكتانية» في طريقه يحاول صدّه في مضيق «دوردون»^(١) غير أن حملات العرب لم يكن ليصدها شيء ، فانهزم «أود» وفر بجيشه ، وقطع أمه من ملكه ، فتناسى جميع ما كان بينه وبين «شارل مارتيل» من الأحقاد والضغائن ، وأرسل يستصرخه ، فلم يمكن «شارل مارتيل» أو «قارله» إلا إجابة «أود» لا لأجل الإنسانية فقط بل لأجل السياسة ، إذ كان جميع مصير فرنسة والممالك المجاورة لها متوقفاً على نتيجة هذه الحرب فلو كان العرب تغلبوا ذلك اليوم على الأفرنج لما كانوا وقفوا إلا على ساحل البلطيق

فامتد الصريح في كل بلاد فرنسة وزحفت المقاتلة من كل صوب ، وانضم الجميع تحت لواء «شارل مارتيل» وبقى العرب يتقدمون إلى أن وصلوا إلى قريب من مدينة «تور»^(٢) وهناك علم عبد الرحمن النافق أن جيشاً عظيماً زاحف لمصادمته ، وكان عبد الرحمن مع شدة بأسه وغرامه بالحرب عاقلاً حازماً بصيراً بالعواقب ، ففكر ساعة فيما بين أيدي رجاله من الغنائم الثقيلة وعلم ما يعوقهم عن القتال من اهتمامهم بحفظها ، فهم باعطاء الأمر إلى الجيش بترك جميع ما في أيديهم من الغنائم والأسلاب ، ولكنه خاف من إغصاب عسكره فيما لو حملهم على تجرع هذه الكأس المرة ، إذ قد تفتت همتهم وتلقس نفوسهم ، فرجع عن عزمه هذا معتمداً على ما كمن في نفوسهم من شجاعة وصبر ، ثم تقدم وحصر «تور» وأخذها عنوة بمشهد من جيش «شارل مارتيل» وخيم بساحتها . ولما دخل العرب المدينة أسرفوا في القتل والنكابة . ثم تلاقى الجمعان بين «تور» و«بواتيه»^(٣) وكان عبد الرحمن هو البادئ بالناجزة فاستمرت

(١) Dordogne والمؤرخ «كوندى» الاسبانولي يقول إن هذه الواقعة حصلت على وادي «الغارون» ولكن «دومارليس» الذي حشى كتاب «كوندى» يقول إن أكثر المؤرخين الأفرنسيين يجعلونها في مضيق «دوردون»

(٢) Tours من مدن فرنسة المشهورة واقعة على نهر «الوار»

(٣) Poitiers مدينة على مسافة ٣٣٢ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من باريس

المعركة مدة طويلة، قبل أن يترجح النصر للفرننج. ولما رأى عبدالرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط المعمة يصطليها بيده، ودخل حتى بين صفوف الأعداء أنفسهم، يفامر مغامرة الجندي الذي هو من عرض الجند، الى أن خر هناك صريعاً، فلما رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر نزل بهم الرعب ونكصوا على أعقابهم وبنكوصهم خمدت جرتهم وسقط في أيديهم، فأذرع الافرنج فيهم القتل وطرحوا منهم بالعراء أوفاً وما زالوا يعملون في أفضيتهم السلاح الى «أربونة»^(١)

فلما وصل خبر هذه الفاجعة الى الأندلس والى افريقية زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وعم الحزن واشتد البث ولبس المسلمون أثواب الحداد، فأسرع أمير افريقية بإرسال عبد الملك بن قطن الفهري، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي، وأنفذ معه جيشاً من خيل ورجل

(١) يقول المسيو «دومارليس» في حاشية كتاب «كوندى»: ان المؤرخين من الافرنج لم يتفقوا على تعيين يوم هذه الواقعة ولا على محل نشوبها. فبعضهم يقول إنها وقعت في ١٧ أكتوبر سنة ٧٣٢ وبعضهم مثل «كوندى» يقول انها وقعت سنة ٧٣٣ وأما العرب فانهم أوثق رواية عن يوم وقوعها، لأن هذه الحادثة المشؤومة على الأمة العربية، التي كانت سبب توقف سير قوتها والتي سقط فيها رجل من أعظم قواد العرب في التاريخ، كانت عندهم من أشد الوقائع نكاية بهم فحفظوا جيداً تاريخ وقوعها. فالعرب يقولون إنها وقعت سنة ١١٥ للهجرة. قلت: يريد «دومارليس» أن يقول إنها وقعت سنة ٧٣٣ ولكن الذي في فتح الطيب يخالف هذا إذ يقول إنها وقعت في رمضان سنة ١١٤ أي وفق سنة ٧٣٢

قال: بقي مكان الواقعة. فبعض المؤرخين من الإفرننج مثل «فيللي» Velli يجعل وقوعها على خمس مراحل من «تور» والآخرين يقولون بل جرت بقرب «بواتيه» ومؤرخو العرب يذكرون أنها نشبت على ضفاف نهر «أوفار» Ovvar ورجموا بقصدوا بذلك نهر «فين» Vienne الذي ينصب في اللوار. ويقول العرب إن سبب المهزيمة هو أنهم كانوا وضوا الغنائم في الخيم وراءهم فانخرق فريق من الإفرننج وهاجموا الخيم فخاف العرب على الغنائم التي فيه. وبينما المعركة في أشد مدمرتها ترك جانب كبير من فرسانهم ساحة الحرب ورجعوا لحماية الغنائم ورجوعهم هذا خفت كفتهم في ميدان القتال حيث كان منتصباً الميزان وكان أقل شيء يمكنه أن يرجع الكفة الواحدة على الكفة الأخرى. فعبد الرحمن كان حسب لفضية الغنائم هذه حساباً كبيراً وخاف أن تكون سبب بوار العرب ذلك اليوم فوق فيما خاف منه

وبعث الى الخليفة بدمشق يعلمه بفاجعة بلاط الشهداء وقتل الأمير عبد الرحمن الفاقى وبأنه أنفذ عبد الملك الفهرى مكانه وجرده معه جيشاً، فوافق الخليفة على عمل عامله وشمير للأخذ بالثار وأمر بفزو بلاد فرنسة وأخذها بالسيوف من كل ناحية، فسار عبد الملك الفهرى وفي نيته أن يأخذ بدحل المسلمين ويجبر الكسر الذى وقع، ولكن هيات فقد كان بلغ بالمسلمين اليأس مبلغه وذهب كل كلام القائد فى استنهاض همهم سدى وسار منهم مع عبد الملك جيش الى فرنسة لكنهم ساروا بصدور غير منسرحة وآمال غير منفسحة . وكيف يقاتل جيش تعوزه القوة المعنوية . فانهزم جيش عبد الملك فى جبال « البيرانه »

وأخيراً أرسل الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج (السلولى) وكان اشتهر ببسالته وحسن تديره فى حرب البربر بافريقية فوصل إلى الأندلس ، واتعشت به الآمال بما كان عليه من زكاء السيرة والعدل وسداد التصرف، فبدأ بعزل العمال الذين عسفوا الرعية وحبس الذين غلوا من أموال الدولة أو قاموا بجبايات غير شرعية ، وانتصر للضعفاء واقتص لهم من الأقوياء، وأمر الولاية بتجنيد فرق من الجند أرصدها لاستئصال قطاع الطرق، وأسس كثيراً من المدارس والمساجد، على نفقة الدولة، وخصص لها الخدمة الكثيرين. وكان لا يميز فى المعاملة بين أصناف رعيته . وبالإجمال فقد كان عقبة هذا كامل العدالة تام الرجولية لا يجد قائل فيه مطعناً . ثم نظر فى سيرة سلفه عبد الملك الفهرى فلم يجد عليه ما يؤاخذ به، فجعله أميراً على الخيالة، وأرسله الى الثغر. وكان فى نية عقبة أن يزحف الى فرنسة بجيش جرار^(١) امثالاً لأمر الخليفة ، ولكن لما وصل الى « سرقسطة »

(١) وأما فى فتح الطيب فيقول ان عقبة بن الحجاج السلولى تولى من قبل عبيد الله بن الحجاج فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكى المسلمين « أربونة » وصار رباطهم على نهر « ردونة » ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله . ولكن المؤرخ كوندى الاسبانولى لا يروى الحوادث على هذه الصورة بل يقول انه فى غياب الامير عقبة فى افريقية وقع الخلل فى إدارة الأندلس وصار كل أمير يعمل بما يعين له ووقت الفوضى لم يكن غير عبد الملك الفهرى من يعرف أن يحفظ النظام فى جيشه وأن يسد الثغور . وفى ذلك الوقت اتهم الاشتوريون فرصة هذه الفوضى بين العرب وخرجوا من جبالهم وطرادوا العرب الذين يلوونهم

جاء الخبر بأن البربر في افريقية ثاروا عوداً على بدء، وأمره أمير افريقية بأن يتولى قيادة الجيش الثائر للتكامل بهم وأن يعبر البحر الى طنجة، وهكذا اضطر عقبة أن يعدل عن غزو فرنسة وأجاز الى طنجة واشتدت به عزائم العرب في افريقية وكانت هذه الواقعة سنة ٧٣٧ مسيحية وفق سنة ١٢٠ هجرية . وفي آخر هذه السنة توفي « بيلاي » بطل « استورية » الذي كان هو وحده بنفسه نواة المقاومة بما بقي من قوة الاسبانيول في وجه العرب بعد أن استصنى هؤلاء جميع اسبانية واخنوا على ملك المسيحيين بها، فانه بطائفة قليلة من رجاله لم يزل يفر في جبال « استورية » من صخرة إلى صخرة إلى أن اعتصم بمغارة جعلها مركز قوته المنيعه ، ولم يبرح معتصماً بذلك الغار يشن منه الغارات على الأطراف القريبة منه وهو بمنجاة من العرب ، حتى وسع رقعة إمارته وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إمارة مذكورة ثم مملكة ثم تغلبت هذه المملكة بعد عدة قرون على جميع إسبانية وأخرجت العرب من كل أوربة . وسند كرفي الجزء التالي جميع ما يتصل بنا علمه من خبر « بيلاي » هذا، وكيفية نشوء إمارته ونمو أعقابه إلى أن استرجعوا جميع وطنهم بعد ثمانية قرون ولنعد الآن الى تاريخ « رينو » عن غزوات العرب في فرنسة ، ولنمهد لكلامه بما يلي :

واقعة بلاط الشهداء

قبل الدخول في شرح هذه الواقعة وأسبابها وما قيل فيها أرى أن أترجم للقاري

وتقدموا صوب بلاد المسلمين فزحف عبد الملك اليهم بمجيئه وهزمهم واضطروهم الى الرجوع من حيث أتوا . ثم بعد ثلاث سنوات كانت استمرت بها ثورة البربر الى أن دخلوا في الطاعة عاد عقبة ابن الحجاج الى الاندلس فوجد الولاة في أسوأ حال وليس هناك أمير كفؤ للامارة فأتم بالواجب عليه غير عبد الملك الفهرى فكتب اليه عقبة أنه لا كان طراً عليه مرض أصبح لا يقدر معه على الإمارة فقد كتب الى الخليفة بأن يوليه مكانه . وهكذا كان . ومات عقبة في قرطبة وبكاه الجميع بدون استثناء نظراً لحسن سيرته

بطلى هذه المعركة عبد الرحمن الغافقي العربي و « شارل مرتيل » الافرنجى الذى يسميه العرب «قارلة» وأذكر خلاصة خبرها، فيكون ذلك أعون على فهم الواقعة والحوادث التى أدت إليها ونشأت عنها .

« فشارل مرتيل » هو ابن « بين ديريستال ^(١) » مولده سنة ٦٨٩ كان اتهمه أبوه بقتل أخيه الذى كان من غير أمه فاعتقله فى كولونية ^(٢) وما زال إلى أن مات أبوه بين سنة ٧١٤ فى الاعتقال فنار الأسترازيون أى أهالى القسم الشرقى من المملكة الميروفنجية الافرنجية بتلك الدولة وجعلوا شارل (أو كارل أو قارله) دوقاً عليهم وتقلبوا به على أهالى القسم الغربى من المملكة بعد وقائع متعددة سنة ٧١٦ وسنة ٧١٧ إلى سنة ٧١٩ وعند ذلك اضطر الملك « شيلبريك » الثانى أن يتخذ شارل حاجباً فتسلم زمام الأمور واستبد بها وصار مع الملك «شيلبرك» الثانى والملك «تيتري» الرابع كما كان المنصور بن أبى عامر فى الأندلس مع الخليفة الأموى هشام أو كما كان عز الدولة ابن بويه أو ابن عمه عضد الدولة بن بويه مع الخليفة الطائع العباسى أو كما هو المقيم العام الذى يجعله إحدى الدول الاستعمارية من قبلها فى هذا العصر بجانب أحد سلاطين الاسلام ممن ليس له من السلطنة الا الاسم . هذا ومن ذلك الوقت أخذ شارل يهدد البلدان التى تليه ويدوخ الشعوب التى فى جواره فقهر السكسون والبالافارين وغيرهم من الألمان وكذلك كان « أود » دوق ا كيتانية قد هاجمه فدحره .

ولكن لم يبلغ تلك الشهرة التى بلغها ولم يلقب بشارل مارتيل أى المطرقة الا بعد أن ظهر على العرب فى واقعة « پواتيه » أو بلاط الشهداء . جاء فى « المعلقة التاريخية الافرنسية لغريغوار وموريس فال ^(٣) » ما يلى : وكان العرب استولوا على اسبانية وسبتانية وتهددوا بلاد الغال والنصرانية كلها وهزموا « أود » دوق ا كيتانية فاستصرخ هذا شارل فزحف إلى العرب على رأس جيش الأسترازيين

Pepin D'heristal (١)

Cologne والالمان يقولون كولن (٢)

Dictionnaire Encyclopédique Par L. Gregoire et Maurice Vahl (٣)

والمقاتلة التي جاءت من وراء الرين ، فانتصر على الأمير عبد الرحمن انتصاراً عظيماً بين «نور» «وبواتيه» سنة ٧٣٢ ويقال إنه بعد هذه الواقعة تلقب بمارتيل ، وهي لفظة معناها المطرقة . ثم إنه بسط الملك الافرنجي على البلاد التي يسقيها نهر الصاوون ونهر الرون ، ودخل سبتيانيا ، وطرد العرب من نيم ومدن أخرى ، لكنه لم يقدر على أربونه التي تم فتحها فيما بعد على يد ابنه بين القصير . انتهى .

ومات شارل مارتيل سنة ٧٤١ ولم يسمح لأحد من الملوك الميروفانجيين بشيء من الملك ولا بلبق الملك ، وترك سبعة أولاد ذكور ، أشهرهم بين وكارلومان ، فتقاسم هذان المملكة بينهما

أما عبد الرحمن بن عبد الله الغافق فهو أمير الأندلس . كان مع السمع بن مالك الخولاني في غزاة طلويزة بحسب رواية «رينو» ولما استشهد السمع رحمه الله في تلك الغزاة تولى عبدالرحمن قيادة جيش العرب الغازي للافرنجة ، وقفل به الى الأندلس وآلت إليه الامارة فيما بعد . وقد ذكرنا في حاشية متقدمة ترجمة الأمير عبد الرحمن المذكور نقلاً عن بغية الملتمس لابن عميرة . ولندكر الآن شيئاً عن نسب هذا الرجل العظيم فنقول :

يقال له الغافقي نسبة الى غافق وهي قبيلة من الأزد وهو ابن الشاهد بن عك . ابن عدنان بن عبد الله بن الأزد . وقيل بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدنان واليهم ينسب الحصن المعروف بغافق في الأندلس على مسافة مرحلتين من قرطبة . وجاء في تاج العروس ان لهم خطة أيضاً بمصر . وذكر ياقوت في معجم البلدان غافق ، فقال : إنها حصن بالأندلس من أعمال فخص البلوط منها أبو الحسن علي بن محمد بن الحبيب بن الشماخ الغافقي كان من أهل النبل وتولى الأحكام ببلدة غافق مدة طويلة قدر ٦٥ سنة ومات سنة ٥٠٣ . وقال المقرئ في نفع الطيب : إن غافقا هو ابن عك بن عدنان بن أزان بن الأزد ، قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب . وأكثر جهات شقورة ينتسبون الى غافق . انتهى

قلت : ومن العلماء المعروفين المنسوبين الى غافق عبدالعزيز بن علي بن عيسى بن سعيد

ابن مختار الغافقي أبو الأصبع المعروف بالشقورى المتوفى سنة ٥٣١ هـ ترجمه ابن بشكوال
في الصلة وابن الأبار في التكملة

ومنهم عبد الرحمن بن بشر بن الصارم الغافقي أبو سفيان وفد على سليمان بن
عبد الملك ورجع الى الأندلس فاستشهد بها في قتال الروم، روى عنه بكير بن الاشج

وعبد الرحمن بن شريح
ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر بن حجاج الغافقي الاشبيلي وهو الذى جاور
بالمدينة المنورة وقال :

لم يبق لى سؤل ولا مطاب مذصرت جاراً للجيب الجيب
لا أبتغى شيئا سوى قربه وها أنا منه قريب قريب

جاء ذكره في نفع الطيب

ومنهم أبو عبدالله محمد بن فطيس الغافقي الألبيرى الزاهد : كان من أهل الحديث
والضبط رحل إلى المشرق وسمع من شيوخ كثيرين وعاد إلى البيرة وطنه وتوفى بها
في شوال سنة ٣١٩ عن تسعين سنة، ورد ذكره في النفع أيضا .

ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقي من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا حج
وحضر افتتاح أقرطش « أى جزيرة كريت » واستوطنها. قاله الرازى .

ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي : من
أهل بلنسية أصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى ترجمه صاحب نفع
الطيب، وقال : إنه كتب لبعض الامراء بشرق الأندلس وله كتاب سماه « المغرب في
أخبار محاسن أهل المغرب » جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار
المصرية بعد أن رحل اليها من الأندلس سنة ستين وخمسةائة وتوفى بمصر سنة ٥٧٥ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الاشبيلي الشهير بالمسيلي : رحل
حاجا وقفل إلى بلده. ذكره صاحب النفع .

ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خصيب بن احمد بن حزم الغافقي :
أندلسي سكن دمشق وتولى بها الحسبة وسمع بمصر وبغداد وطرابلس ودمشق وغيرها

كان مالكي المذهب لكنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، قال القرى : ماسمت بمالكي معتزلي غير هذا . توفي سنة ٤٠٤ ذكره ابن عساكر .

ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقي من أهل الرية نزل مرسية وتولى القضاء والخطبة فيها وحدث بصحيح البخارى آخر الحججة سنة ٥٥٥ ذكره صاحب النفع . ومنهم غير هؤلاء من الأعلام

وأما عبد الرحمن الغافقي ، أمير الأندلس ، فقد ذكر القرى في النفع نقلا عن ابن سعيد أنه كان من التابعين تولى إمارة الأندلس في حدود العشر ومائة وهو من أبطال الاسلام المدودين . كل ما ذكره المؤرخون من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الرجال ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام والسهر على مصالح الأنام وبعد النظر في السياسة

قال المؤرخ « رينو » إنه كان مهتما بأخذ ثأر المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا فيها في السنين الأخيرة قبل إمارته . وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسا يدوخ بها هذه المملكة ثم يجتاز منها إلى ايطالية فألمانية فالقسطنطينية ويدخلها في حكم الاسلام . ولما كانت الحماسة الدينية في ذلك الوقت في إبان غلبتها ، وكانت الأندلس وفرنسة الجنوبية بخصب أراضيها واعتدال هوائها أصبحتا مقصداً للعرب من جميع الجهات ، وكان يأتيها كل يوم رجالات أشداء من جزيرة العرب ومن جبال الأطلس ، فقد كان الأمير عبد الرحمن الغافقي يمرن هؤلاء المجاهدين على استعمال السلاح ويثير فيهم نخوة القتال وكان مقامه بقرطبة ولكنه بقي مدة يطوف في الأندلس وينظر في مظالم العباد ويقصص من القوي للضعيف ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويتبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة . وكان يعامل المسلمين والمسيحيين على السواء تقريبا وعلى كل حال لم يكن يخرج في معاملة المسيحيين عن المهود المعقودة معهم

وفي تلك الأيام كان المسلمون يوالون الغارات من أربونة وقرقشونة على البلدان المجاورة لها ، ولكن حصل حادث نفس من خناق المسيحيين بعض الشيء ، وذلك أن

القائد الذي كان في سردانة من جبال البيرانية كان بحسب رواية إزيدور الباجي ولندريق شمينيس أحد أحلاس الحرب الإفريقيين الذين بالاتحاد مع العرب فتحوا الأندلس. وكان يسمى «مونوزه» وكان من ذوى البطش والشبا المرهوب وكان في مبدأ أمره صارماً جداً في معاملة المسيحيين وأحرق حياً أسقفاً اسمه «أنا مبادوس» فلما وقعت الحرب بين البربر والعرب مال بطبيعة الحال الى قومه البربر واتحد مع «أود» صاحب جنوبي فرنسة الذي لأجل أن يتمكن منه أزوجه ابنته المسماة «لميجيا» وكانت فتاة بارعة في الجمال^(١) بلغت شهرة عظيمة

وقد روى «كوندى» الاسبانيولى هذه الحادثة بشكل آخر نقلا عن مؤرخى العرب، فجعل «مونوزه» هذا محرفاً عن عثمان بن أبى نسعة^(٢) الذى تولى إمارة الأندلس مرتين، وكان ينافس عبد الرحمن الناقى على الإمارة ويرى نفسه أولى بها. وروى «كوندى» أن ابن أبى نسعة هذا أصاب هذه الأميرة في إحدى غزواته فسباها في من سبا وهام بجبها نظراً لجمالها واتحد من أجلها مع «أود» أبيها، ثم لما حمله عبد الرحمن على شن الغارات في بلاد إفرنجة اعتذر «مونوزه» أو ابن أبى نسعة بوجوب مراعاة الميثاق الذى بينه وبين «أود» فلم يقبل عبد الرحمن منه هذا العذر وأصر عليه بالتعمية والزحف، فأسرع ابن أبى نسعة بتحذير حميه «أود» ليكون على أهبة ضخمة في وجه عبد الرحمن، فأرسل عبد الرحمن نخبة من جنوده إلى «البيرا» وأمرهم بالقبض على ابن أبى نسعة حياً أو ميتاً. فلما رأى هذا نفسه لا يقدر على الوقوف أمامهم فرمعه زوجته الحسنة الى الجبال، فتأثروه الى حيث ثقفوه، وتغلبوا عليه واحترزوا رأسه وأرسلوا بالرأس الى دمشق. وكذلك أرسلوا الى دمشق الأميرة «لميجيا» التى دخلت

(١) ذكر رينو أن بعض مؤرخى ذلك العصر اتهموا اود بأنه هو الذى دعا العرب إلى فرنسة. وهو وغيره يظنون أن هذه التهمة باطلة وان الذين كتبوا ذلك كانوا من أنصار شيلد براند أخى شارل مارتل وأنصار شارل وكلهم كانوا يريدون الوقعة بأود

(٢) عثمان بن أبى نسعة هو عربى لخمى كما يظهر من كتب العرب. وهو الذى تزوج بابنة «أود» أمير بلاد الغال بحسب رواية «كوندى» الاسبانيولى ومؤرخى العرب. فأما ما يقوله «رينو» من أن صهر الأمير «أود» لم يكن عربياً وإنما كان بربرياً اسمه «مونوزه» فلم يقل على أى شئ استند فى هذه الرواية ولا ذكر شيئاً من تاريخ «مونوزه» هذا الذى سماه.

في حرم الخليفة . روى هذه الحادثة أيضا ايزيدور الباجي ولوذريق شيمينيس ، ثم روى أن المسلمين الذين كانوا في جنوبي فرنسة كانوا قبل واقعة « پواتيه » غزوا مدينة « أرل »

قال « رينو » : وقد أشار مؤرخو العرب الى هذا الحصار بدون تسمية هذه المدينة ولكن بوصفهم اياها بأنها مبنية على ضفاف نهر كبير هو أكبر نهر في تلك البلاد كانت تصعد به السفن من البحر . ويظن بعض مؤرخي الافرنج ان حملة العرب على مدينة آرل لم تكن الا خدعة يقصدون بها صرف نظر الافرنج عن وجهة الحرب الحقيقية وهي الجهة الشمالية . فان عبد الرحمن بعد أن لبث نحواً من سنتين ، يتأهب للزحف ويكتب الكتاب ويصي الجنود، توجه الى جبال البيرانية . وكان جيشه جراً أريج الارض ويهتز شوقاً الى القتال . والأرجح أن مروره من هناك وقع في ربيع سنة ٧٣٢ وقد جعل طريقه على أرغون ونابارة ودخل أرض فرنسة من أودية « بيغور^(١) » و « بيرن^(٢) » يستدل على ذلك من آثار التدمير التي وقعت في تلك الديار فقد هدم العرب الكنائس والأديار مثل دير « سان سافين^(٣) » بقر « طارب^(٤) » ودير « سان سيفر دورستان^(٥) » في « بيغور » وخرّب العرب « آير^(٦) » و « بازاس^(٧) » و « اوليرون^(٨) » و « بيرن » وكذلك دير « سانت كروا^(٩) » بقر بوردو . ثم افتتحوا بوردو^(١٠) عنوة . وأقبل اوددوق اكينانيا بمجموعه محاولاً صدّهم في ممر

Bigorre (١)

Béarn (٢)

Saint - Savin (٣)

Tarbe (٤)

Saint - Sever - De - Rustan (٥)

Aire (٦)

Basas (٧)

Oleron (٨)

Sainte-Croix أي الصليب المقدس

Bordeaux (١٠)

دور دفاون^(١) نهزم. وكان عدد قتلى المسيحيين من الكثرة بحيث أن المؤرخ ايزيدور الباجي^(٢) قال : ان الله تعالى وحده يقدر أن يحصيهم . فلما رأى أود أن لاطاقة له بالثبات أمام العرب استصرخ شارل مارتل الذي كان في ذلك الوقت يدافع عن مملكته فاستجاش عصائبه القديمة من جهات الدانوب والالبا^(٣) والاوقيانوس. ثم ان العرب بعد أن ظفروا بأود أوغلاوا حتى وصلوا الى بواتيه وأحرقوا دير « سانت إيميلين^(٤) » وكنيسة « سانت إيلير^(٥) » في بواتيه

قال رينو : انه بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريح صرصر ، تقتلع كل ماجاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل ما يصادمه . وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم مدينة « تور » التي كان فيها دير « سان مارتين^(٦) » المشهور بنفائسه . وهناك تلقى العرب خبر قدوم شارل مارتيل بجيوش الافرنجية . فقلما ذكر التاريخ معركة لها مابعد ما مثل هذه المعركة . فكان المسيحيون من جهة يذبون عن دياتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم ، وكان المسلمون من جهة أخرى معتقدين أيضاً أنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، خلا ما كان يهتمهم من حفظ الغنائم التي في أيديهم ، قال رينو : ان مؤرخاً عربياً روى ان عبد الرحمن كان في آخر الأمر في خوف شديد من لهو جيشه بالغنائم الكثيرة التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وانه قد فكر في حملهم على تركها في أرضها لئلا تشغلهم عن القتال فتكون عليهم وبالا ، لكنه لم يشأ - وهو في مأزق كذلك المأزق - أن يفيظهم ويخسر توجه قلوبهم . وبقي واثقا بشجاعتهم ويمن نقيته في القتال . فكان لترده هذا تلك النتيجة المشؤومة . وقد روى هذا المؤرخ العربي أن العرب هاجموا مدينة تور ،

Dordogne (١)

(٢) تقدم ذكر هذا المؤرخ

(٣) الدانوب معلوم . ونهر الالبا هو نهر شهير في المانبة

Saint - Émilien (٤)

Saint - Hilaire (٥)

Saint - Martin (٦)

بمراى من شارل مارتل ، وأنهم انقضوا مثل النمر الكاسرة على أهلها فذبحوهم
ذبح الشياه مما لاشك أنه قد أغضب الله تعالى فعاقبهم بنكال قريب . أما مؤرخو
المسيحيين فكانت رواياتهم عن هذه المعركة قاصرة ولم يذكروا شيئاً عن أخذ
العرب لمدينة تور . وقد بقى الجيشان يرابط كل منهما الآخر مدة ثمانية أيام ، وبعد
مناوشات ليست بذات بال أجمع الجيشان على الوقعة الفاصلة . وبحسب هذه الرواية
العربية تكون الوقعة قد حصلت بقرب تور . وهذا هو رأى لذريق شيمينيس الذى
كان يروى عن مؤرخى العرب . وأما مؤرخو الافرنجة فأكثرهم يذهبون الى أنها
وقعت فى احدى ضواحي « بواتيه » ويستدلون على ذلك من الآثار المحفوظة فى دير
مواساك . ومن الممكن الجمع بين الروايتين . وذلك بأن يقال ان بداية المعركة حصلت
بقرب تور وأنها انتهت بقرب بواتيه . وقد كان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٧٣٢
بحسب رواية بعضهم . وكان المسلمون هم الذين بدأوا القتال ، وكان الفرنج قادمين من
حروب اتسق لهم فيها النصر ، فكانت حماستهم تغلى مراحلها ويزيدها فيهم وجود
شارل مارتل الذى كان كلما ظهرت ثلثة خف وسدّها بنفسه . وقد هاجم المسلمون
بخفة حركاتهم على سروات الخيل مهاجمات شديدة ، يحاولون بها حرق صفوف الافرنج
فكانوا يجدون أمامهم صفوفاً أشبه بالجدران فى ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حملات
العرب ، فاستمر القتال أول يوم طول النهار ولم يحجز بينهم سوى الظلام . وفى اليوم
التالى تجدد القتال ورخصت النفوس فى سوق المنايا وحمل المسلمون حملات اليائسين
اذ لم يكونوا ينتظرون من الافرنج مثل هذا الثبات ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً .
وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم اذ أغارت فرقة من الافرنج على معسكر المسلمين يظن
ان قائدها كان اود دوق اكيثانية ، فلما رأى المسلمون غارة جانب من الافرنج على
مخيمهم اشفقوا على الغنائم التى كانوا حازوها فتركوا المصاف وانكفأوا الى المخيم
ليستخلصوه من أيدي الافرنج . وعند ذلك هرع عبد الرحمن يرد المنكفيين ويسوى
الصفوف ، فذهب اجتهاده عبثاً ، وأصابه سهم من جهة العدو نحر صريعاً . وعند ذلك
وقع الفشل فى صفوف المسلمين ، لكنهم تمكنوا من تخلص مخيمهم من أيدي الأعداء
وان كانوا فقدوا كثيراً من رجالهم . وأقبل الظلام فحال بين الفريقين . وكان مراد شارل

مارتل الكر على العرب عند الصباح ، الا أنه عندما أصبح الصباح لم يجد منهم أحداً .
وذلك أنهم لما رأوا ما حل بهم سروا في أحشاء الليل وأحازوا إلى الورا قاصدين جبال
البيراه . وكان مسراهم من السرعة بحيث أنهم تركوا خيامهم منصوبة وغنائمهم مطروحة
في الأرض

ولما رأى شارل مارتل أن العدو أقبل بقضه وقضيضه وزع على عساكره
ما وجدته في تخيم العرب من الغنائم المركومة ، ولكنه لم يتأثر العرب في طريقهم وهم
قافلون . وعللوا ذلك بأنه خشي أن يكون انكفاؤهم إلى الورا استدراجا ومكيدة ، أو
أنه قد أمن بهذه الواقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها شراً . فلذلك قطع نهر
الوار ، راجعا إلى الشمال ، مفتخراً بما أحرزه من النصر الباهر . ومنذ ذلك اليوم لقبوه
بمارتيل (أى المطرقة) سموه بها لمتانته ولما سد به بنفسه من الثم التي كانت تقع في جيشه
ولا يمكن قبول روايات بعض مؤرخي المسيحيين الذين أوصلوا عدد المسلمين
الصرعى في تلك المعركة إلى ثلاثمائة وستين ألفا ، فان المسلمين ذلك اليوم لم يسقطوا كلهم
صرعى ، وما كان من الممكن جمع جيش مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل في تلك الأيام وقد
كانت الحروب الداخلية المستأصلة للرجال لا تنقطع . ثم على فرض الحال وأنه كان ممكنا
جشد فيالق جرارة كهذه فكيف كان يمكن إيجاد الميرة اللازمة لهذه الفياق الحرارة
في البلاد التي تمر فيها وقد كانت خربت تقريبا من توالى الغارات والرزايا . نعم لا ينكر
أن هذا الجيش الذى قاده عبد الرحمن العافق ، تلك النوبة ، كان أعظم جيش وأحمس
جيش قاده العرب الى وطننا الجميل ، وأنه كان قد هب للحرب كالريح المرسله ، وأدل
دليل على ذلك هو كون فرنسة بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر
لمقابلة ذلك الجيش العربى الغير ، وأن هذه المعركة لاتزال حتى اليوم شاعلة أعظم موقع
في أذهان جميع الاوربيين

وأما مؤرخو العرب فلم يكونوا يعلمون من تفاصيل تلك المعركة الفاصلة أكثر
مما عرفه مؤرخو الافرنج . وغاية ما ذكر العرب أن عدداً كبيراً من رجالهم استشهدوا
في بلاط الشهداء وهو الاسم الذى أطلقوه على تلك الواقعة . ويقولون انه لا يزال يسمع
هناك دوى خفى هو ضجيج الملائكة الذين يزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان

المقدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم

قال المستشرق رينو : وبعد هذه الهزيمة انكفاً فل الجيش العربي الى البيرانه مدمراً كل مامر به ومن جملة ذلك دير سولينياك^(١) . وقيل ان الافرنج عند ما انكفاً العرب أعمالوا في أفتيتهم السلاح الى أن بلغوا أربونة . ولا يظهر أن هذه الرواية متينة^(٢) وقد كان تأثير هذه الهزيمة مختلفاً جداً بين المسلمين والمسيحيين ، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم واستأنفوا صراهم ، وهبوا في جبال البيرانه للأخذ بالثأر ، واعتقدوا أن الله عاد معهم يؤيدهم على أعدائهم . والمسلمون استولى عليهم الوهل ونزل الوهن بعزائمهم وأخذ الأتقياء منهم يقولون ان ماحل بهم من الادبار بعد الاقبال انما كان جزاء وفاقا من الله تعالى على استرسالهم في معاصيهم وامعائهم في ركوب أهوائهم

وكان النائب في الامارة الذي تركه عبد الرحمن الغافقي في قرطبة قد طير الخبير بهزيمة المسلمين في بلاط الشهداء الى القيروان والى دمشق . فارتضى الخليفة لهذا الخطب وأرسل أميراً على الأندلس اسمه عبد الملك^(٣) وجهاز معه جيشاً وأمره بالأخذ بثأر المسلمين وشفاء صدور المؤمنين واستنفاد الوسع في هذا الأمر . فأقبل هذا الأمير على الأندلس ، يحاول رتق الفتق ورفو الخرق ، واغذ بجيشه الى البيرانه ، وأخذ يخطب في الغزاة والمرابطة ويشدد من عزائمهم ويجدل سواعد المسلمين ويحبك من مرائهم ويبين فضائل الجهاد وعلو رتبة الاستشهاد ، إلا أن كل هذه الخطب في المجاهدين لم تفعل فيهم الفعل الكفيل برأب ذلك الصدع . وكان نصارى شمالى اسبانية وجنوبى فرنسة قد رفعوا رؤسهم بعد هذه الواقعة ونبذوا الى المسلمين على سواء . وروى مؤرخ من مؤرخى العرب أن جيشاً من الفرنسيس قطع وقتئذ البيرانه واستولى على بانبلونه وجيرونه أما الأمير عبد الملك فاعمل الحركة أولاً الى كتالونيا واراغون ونافار^(٤) ثم تقدم

Solignac (١)

(٢) بل الأظهر أنهم رجعوا من بلاط الشهداء والعدو خائف أن يظأ أذيالهم لشدة ما كان لهم من الرعب في قلوب الافرنج

(٣) هو عبد الملك بن قطن الفهرى

(٤) كتالونيا هى بلاد الكتالان التي قاعدتها برشلونه . واراغون هى مملكة شمالى اسبانية

على الشرق . ونافار هى من البلاد المجاورة لأراغون والعرب يسمونها نابرا وأحياناً نيرونه

الى بلاد اللندوق^(١) وحصن المدن التي كانت منها في أيدي المسلمين ، ثم أبعده المغار في بلاد العدو . وكانت بلاد « السبتيانيا » و « بروفانس » في حالة الفوضى تقريباً . وكان كل ذى طمع فيها قد انفرد بامارة واستأثر بزعامة . وكان بعض من هؤلاء الزعماء ينضون تحت جناح دوق أكيثانية والآخرون يتقيأون في ظل شارل مارتل ، وذلك مصانعة لكل منهما ، ولكنهم كانوا في الحقيقة انما يريدون الاستقلال باماراتهم . وكثيراً ما كانوا يتحدون يداً واحدة مع المسلمين الذين كانوا في أربونة ، وذلك ليتقوا بأس أولئك الملوك الكبار . ومن هؤلاء الأمراء « موروند » الذي كان يلقب بدوق مرسلية والذي كان بيده أكثر مقاطعة بروفانس

وفي تلك المدة كان شارل مارتل مشغولاً بيسط سلطته على برغونية وعلى مقاطعة ليون ، حيث كان المسلمون قد شنوا الغارات واهرجوا البلاد وأمرجوها ، ثم انه زحف لقتال « الفريزون^(٢) » فشغلوه أيضاً عن قتال المسلمين

وفي سنة ٧٣٤ اتفق يوسف أمير أربونة العربي مع موروند دوق مرسلية وزحف المسلمون بجيش جرار ، وعبروا نهر الرون واستولوا على مدينة « آرل » ونهبوا أديار الرسل والعذراء^(٣) وهدموا قبر سان « سيزير^(٤) » ثم تقدموا إلى أواسط بلاد البروفانس ، وحاصروا مدينة « فريتا » المعروفة اليوم « بسان ريمي^(٥) » واستولوا عليها ، وساروا منها نحو « آفينون » وعبثاً حاول مقاتلة « آفينون » صد المسلمين في عمر « دورانس^(٦) » فان المسلمين ذلوا كل العقبات . وكانت « آفينون » في ذلك الوقت عبارة عن الصخرة التي بنى عليها فيما بعد قصر الباباوات ، وهو المكان الذي كان مؤلفو العرب يسمونه بصخرة أبنين . وقد بقي المسلمون في ذلك الوقت أربع سنوات

Languedoc (١)

Frison (٢) شعب جرمانى كان ينزل بين بحر الشمال ونهر الرين الأدنى

Couvents des Saints- Apôtres et de la Vierge (٣)

St- Césaires (٤) وقد روى رينو هذا الخبر عن تاريخ « غاليا كريستيانيا »

Fretta, aujourd'hui St Remi (٥)

Durance (٦)

محتلين بلاد « بروفانس^(١) » وكان « أود » دوق أكيثانيا قد توفي سنة ٧٣٥ بجاء شارل مارتل واستولى على بلاده وخضع له أولاد الدوق المذكور وأما الأمير عبد الملك^(٢) فبعد أن أهب الله له ريح النصر في هذه الغزوات بأرض فرنسة، عاد إلى جبال اليرانيه ، لتدويخ الأهالي الباقين على العصيان ، فصادفته أنواع وأمطار وهو في جبال وأوعار فوقت عليه هزيمة . وعندما بلغ الخليفة مأصابه قلده إمارة الأندلس أميراً غيره اسمه عقبة^(٣) ولم يبق في يد عبد الملك سوى إمارة المقاطعات التي في جوار اليرانه

وكان عقبة هذا رجلاً يتقدم حمية على الاسلام ويرى في الجهاد قرة عينه . ويقول مؤرخو العرب إنه اختار إمارة الأندلس جبا بالجهاد والرباط . وكان اذا وقع في يده أسير من المسيحيين لا يهمل أن يعرض عليه الاسلام . وفي أيامه حصن المسلمون جميع المواقع التي أمكنهم تحصينها في بلاد اللندوق ، حتى ضفاف نهر الرون ، وشحنوها بالمقاتلة . وفي ذلك الوقت أعادوا المغار كما بدا على بلاد «دوفينه^(٤)» فخرّبوا بلدة «سان بول» المعروفة بالثلاثة القصور و «دوزير^(٥)» واحتلوا «فالانس^(٦)» وأصبحت جميع الكنائس المجاورة لمدينة « فيين^(٧) » على ضفتي الرون قاعاً صافصفاً

(١) قد ذكر المستشرق رينو في حاشية كتابه نصوص التواريخ التي تخبر عن هذه الواقعة وهي باللاتينية كما لا يخفى لأنها كانت لغة الكتابة في ذلك العصر . فن هذه النصوص ما نقله عن تاريخ دير «مواساك» «Moissac» ومجموعة مؤرخي فرنسة «Recueil des Historiens de France» وتاريخ بروفانس للمؤلف بابون «Papon» وذكر أيضاً لتأييد خبر الوقائع التي جرت بين العرب والافرنج على ممر «دورانس» كتابه لاتينية كانت في كنيسة بقرب «بونبا» «Bonpas»

(٢) أي عبد الملك بن قطن القهرى الذى سبق ذكره

(٣) هو عقبة بن الحجاج السلولى الذى تقدم ذكره أيضاً

(٤) «Dauphiné» مقاطعة في شمالي « بروفانس » وغربي « سافوا » وشرقي « ليون»

تقدم ذكرها

(٥) « Saint - Paul - Trois Chateaux et Donzere »

(٦) مدينة على نهر الرون «Valence»

(٧) «Vienne» مدينة على الرون أيضاً

وكان المسلمون للاخذ بثأر جيشهم الذي قهره شارل مارتل في بلاط الشهداء قد احتلوا مدينة ليون من جديد ، وبثوا الغارات منها على بلاد «بورغونية» فأخذ شارل مارتل يتأهب لقتالهم ، وقد كان واقفه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت نائرة عليه ، فسرح أخاه « شيلد براند^(١)» بجيش إلى ليون ، وأرسل يستصرخ «لويتبراند^(٢)» ملك «اللومباردين» في ايطالية ليوافيه بجيش لقتال المسلمين الذين كانوا البواحداً مع موروند دوق مرسلية وقد تمكنوا من جبال «دوفينه» و «بيمونت^(٣)» . فجاء شيلد براند (أخو شارل مارتل) وحاصر المسلمين في آفينيون واستعمل في حصارها الآلات المعروفة لذلك العهد ، وتبعه شارل مارتل نفسه بجيش جديد ، وجاء لويت براند ملك اللومباردين بجيش آخر من ايطالية ، فاستولوا على أفينيون عنوة واستأصلوا من بها من المسلمين . وتقدم بعد ذلك شارل مارتل صوب أربونة وكان فيها أمير يقال له بحسب تلفظ المؤرخين القدماء أتيا^(٤) وكانت مواصلات مسلى الأندلس مع مسلى سبتيانيا أكثرها من طريق البحر نظراً لكون أهالي جبال اليرانية المسيحيين حائلين بين الفريقين . فلما وصل الخبر إلى عقبه بأن شارل مارتل قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشاً في البحر ، لنجدة هذه البلدة ، تحت قيادة رجل يقال له عامر^(٥) فلما عرف شارل مارتل بمجيء هذا الجيش الجديد جاءه بفتة قبل أن يتأهب للقتال فأخذ المسلمون على غرة وكانت هزيمتهم تامة . وقتل أميرهم ولم ينج منهم الا فل قليل خلصوا إلى مراكبهم وآخرون وصلوا إلى « أربونة » . ولكن برغم هذا كله لم يتمكن شارل مارتل من أخذ « أربونة » وصعرت له خذها . وفي تلك الأيام جاء الخبر بأن الفريزون والسكسون أشعلوا الثورة من جديد ، فاضطر شارل أن يرحل عن « أربونة » ولكنه قبل رحيله خرب القلاع

(١) Childebrand

(٢) Luitprana

(٣) Piemont هي اليوم اسم البلاد الواقعة في شمالي ايطالية

(٤) لعله الهيثم

(٥) روى ذلك ايزيدور الباجي

التي كانت في « بيزيه (١) » و « أقد (٢) » ودمر أبواب مدينة « نيم (٣) » الشهيرة وقبما من الملهي الروماني الذي كان فيها خوفاً من أن يتحصن به العرب . وكذلك دمر مدينة « ماجلون (٤) » وأخذ المسلمين الذين فيها أسارى ومعهم أيضاً أناس من المسيحيين أبقاهم رهائن عنده

ولا يمكن أن يقال إن جميع أهالي جنوبي فرنسا كانوا يحبون شارل مارتل، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين، لأن هؤلاء الأهالي كانوا ينظرون الى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدينة قديمة من زمان الرومانيين . ولا نزاع في أن المسلمين كانوا قد خربوا الكنائس والأديار وما يخصها من الأراضي، ولكن شارل مارتل عندما جاء ودفع عادية المسلمين عن تلك البلاد لم يرد تلك العقارات على الرهبان والأساقفة، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسي الأسقفية خالية . ويقال إن « فيليكاروس (٥) » مطران « فيين » بعد أن خرج المسلمون من البلاد لم يرجع الى أسقفيته، لخلو الكرسي مما يقوم بأوده، فذهب الى « فاله (٦) » حيث جعلوه رئيساً للدير « سين موريس (٧) » وكان الأبحار ورجال الدين يؤولون هذه المصائب بأنها عقاب صبّه الله تعالى على هام

(١) Béziers مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب، ذات آثار قديمة، سكانها خمسون ألفاً

(٢) Agde مدينة على الضفة الشمالية من نهر هيرولد، كانت إحدى المدن السبع التي نسبت اليها

مقاطعة سبتيانية التي معنى اسمها السبعية

(٣) Nimes مدينة مشهورة في جنوبي فرنسا ذات آثار رومانية عظيمة

(٤) Maguelon مدينة على البحر كانت ترفأ إليها سفن المسلمين الواردة من الأندلس

وافريقية

(٥) Willicarius

(٦) Valais

(٧) Saint-Maurice في سويسرة . وسيأتي ذكر هذا الدير الذي أحرقه العرب

العباد تنبيهاً لهم للرجوع الى طريق الفضيلة^(١) . ولم يخل الأخبار ورجال الدين من أناس تعلقوا بشارل مارتيل الذي تولى كبر دفع المسلمين عن أوربة ، وأشهر هؤلاء «هيناروس» مطران «أو كسير»^(٢) الذي كان يحارب في جيش شارل مارتيل بنفسه ويقاثل المسلمين في البيرانه وهو في ثوب الأسقفية

وكان موروند دوق مرسيقية قد فر هارباً من وجه شارل مارتل، وبق متواريا الى أن غادر شارل مارتل جنوبي فرنسة عائداً الى الشمال . فلما ذهب شارل مارتل شمالاً ظهر موروند من مخبأه، وجدد علاقته مع المسلمين، وقاموا بعمل واحد، فبلغ الخبر شارل مارتل . وفي سنة ٧٣٩ زحف الى الجنوب ومعه أخوه شيلدربرند واستولى على مرسيقية ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون في أربونة لايجرؤون على عبور نهر الرون

وليست عندنا معلومات يوثق بها عن كيفية معاملة المسلمين لأهالي مقاطعة بروفانس، ويجوز أن يكون اتفاقهم مع موروند قد جعلهم أقل ضغطاً على بلاده مما كانوا في غيرها . ولكن نزلت على بلاد بروفانس و «لانغدوق» مصيبة ثانية وهي غارات المسلمين البحرية التي كانت سواحل جنوبي فرنسة دائماً عرضة لها

وكان المسلمون في أول الأمر لايجبون ركوب البحر، ولكن بعد أن فتحوا سورية ومصر وافريقية اضطروا الى استعمال الأساطيل البحرية . وبعد وفاة الرسول بخمس عشرة سنة غزا معاوية أمير الشام جزيرة قبرص . وفي سنة ٦٦٩ غزا العرب جزيرة صقلية . ومن ذلك الوقت لم ترح سواحل سلطنة القسطنطينية عرضة للغارات البحرية الاسلامية . وكانت طوائف الأساطيل الاسلامية ، في بادئ الأمر ، جمعاً مؤتسباً من الأفاقين ومن النصارى الذين أسلموا ومن الشذاذ من كل قوم ولكن المسلمين فيما بعد تعودوا ركوب البحر والغزو فيه طمعاً في الغنائم . ومنهم من كان يغزو

(١) ذكر رينو شواهد بهذا المعنى من جملتها مكتوب من القديس «بونيفاس» رئيس أساقفة «مايانس» الى ملك «مرسية» في انكلترة سنة ٧٤٥ وهي مملكة كانت في أواسط انكلترة قاعدتها لنكوكن

(٢) Auxerre مدينة على ١٧٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من باريس

في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول معناها الحث على الجهاد في البحر، حتى بلغت بهم الحماسة إلى أن النساء صرن يفزون في البحر، ومنهن أم حرام امرأة أحد الصحابة التي ماتت في غزاة بحرية في قبرص. وقيل إنه لما ذهب الأسطول الإسلامي يفتزو القسطنطينية، كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضراً، فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين، فأجابه الأمير بأن آثامهم معلقة في أعناقهم. فأجابه ابن عمر: والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطئ. وعزوا إلى الرسول أنه قال: إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر.

وكانت الغزوات الإسلامية البحرية، صدر الإسلام، موجهاً أكثرها إلى مملكة الروم. ولما استولى العرب على مدينة قرطاجنة لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر، ولذلك بنو مدينة القيروان على مسافة بعيدة عن الشاطئ. ولما غزا موسى بن نصير الأندلس لم يكن عنده إلا أربع سفن لا غير، كانت تذهب وتجيء لنقل الجنود من إفريقية إلى جبل طارق^(١). وعند ذلك فهم موسى ضرورة بناء الأساطيل وأنشأ دور الصناعة في كثير من مراقي الأندلس. وكذلك كانت للعرب مراقي كثيرة ممتدة من جبل طارق إلى طرابلس الغرب. وسنة ٧٣٦ أنشأ العرب دار صنعة عظيمة في تونس. وكان لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء^(٢). ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها. وذكر مؤلفو العرب أن موسى غزا جزيرة سردانية سنة ٧١٢ وذكر مؤرخو المسيحيين غزاة للعرب في جزيرة كورسكا^(٣) وكانت جزائر سردانيا وكورسكا وصقلية تابعة للملك القسطنطينية. ففي البدايه فإن العرب يكتفون بانتقاصها من أطرافها ولكن أخذوا فيما بعد يتوغلون في الداخل.

(١) روى ذلك ابن القوطية

(٢) نقل رينو هنادر عن النويري بحسب تأليف مخطوط في خزانة الكتب الملكية بفرنسة

(٣) ان أحد مؤرخي القرن الخامس عشر زعم أن المسلمين دخلوا جزيرة كورسكا في زمان

الرسول نفسه ولبثوا فيها إلى زمان شارلمان ولكن هذه الرواية متقوضة

وكان أول نزول العرب، في سواحل فرنسه، هو في جزيرة « ليرين ^(١) » بقرب عين الطيب ^(٢) . وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الذي يقال إن العرب غزوا فيه هذه الجزيرة، فقالوا إن ذلك وقع سنة ٧٢٨ وقالوا بل سنة ٧٣٩ وكان في هذه الجزيرة دير شهير تخرج منه آباء للكنيسة وأساقفة مشهورون. ويوم كبسه العرب كان فيه خمسمائة راهب آتين من فرنسة وإيطالية وسائر بلاد أوروبا. وكان رئيس هذا الدير القديس « پورسير ^(٣) » فلما قرب المسلمون من الدير جمع القديس الرهبان بأجمعهم وقال لهم إنه يجب عليهم أن ينتظروا الموت. وإنما أرسل إلى البر الأحداث الذين كانوا يتعلمون في الدير. فلما نزل المسلمون في الجزيرة فتشوا عن غنائم يأخذونها فلم يجدوا شيئاً ذا بال، فعرضوا على الرهبان الإسلام، فلم يقبل أحد أن يترك دينه فذبحوهم جميعاً.

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بين القصير، واشتغل في توطيد ملكه في شمالي فرنسة وجنوبها، بحيث كان يمكن العرب أن يفتنوا هذه الفرصة ويجددوا غاراتهم على جنوبي فرنسة ويلقوا منها مرادهم. ولكن وقع الشقاق بين العرب أنفسهم فعاثهم عن كل عمل من هذا القبيل. فان العرب لم يكونوا في هذه الغزوات وخدمهم بل كان معهم البربر، وكان القبيلان في نزاع دائم، كما أنه كان العرب أنفسهم منقسمين إلى يمانيين وهم أبناء قحطان، وإلى عدنانيين وهم أبناء اسماعيل بن إبراهيم. وكانت الحروب دائمة بين هذين الشعبين، لشدة ما عند العرب من العصبية، فبعد أن وقعت في بلاد العرب امتدت إلى مصر والشام ثم الأندلس وفرنسة.

وفي ذلك الوقت أعنى العرب الأقبام الذين خضعوا لهم وساروا معهم من الجزيرة التي كانوا ضربوها عليهم، ومنهم البربر، فاعتاد هؤلاء أن لا يؤدوا شيئاً. إلا أنه في سنة ٧٣٧ عاد أمير إفريقية فتقاضى البربر الجزية فمضوا عليه. وكانوا أقواماً أشداء

(١) Lerins

(٢) Antibes بلدة على شاطئ البحر بقرب نيقية أونيس

(٣) Saint Porcaire

نشأوا على سهوات الخيول، فلم يقدر الأمير على تدويغهم، واضطر عقبة أمير الأندلس أن يجيز إلى بر العدو - أي إلى أفريقية - لادخال البربر في الطاعة. وهكذا تمكن شارل مارتيل، في غياب عقبة في أفريقية لادخال البربر في الطاعة، أن يخضد شوكة العرب في جنوبي فرنسا (١). ثم اشتدت ثورة البربر في أفريقية وظهروا على العرب ولجأ فريق من العرب إلى الأندلس. وكان العرب والبربر الذين في الأندلس قد تقاسموا الأراضي فيما بينهم، سواء في الأندلس أو في جنوبي فرنسا، فخافوا من أن هذا الفريق الذي دخل الأندلس من العرب ينازعهم على الأراضي، وقصدوا أن يجلوهم عن البلاد. وكان الأمير عبد الملك أمير الأندلس عدواً لهؤلاء العرب الذين دخلوا الأندلس، فقتلوه ونصبوا رأسه على جسر قرطبة. وكان في أربونة أمير اسمه عبد الرحمن، من أنصار عبد الملك فزحف من أربونة بجيش يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل وكان يريد الأخذ بشار عبد الملك، فوصل إلى قرطبة واقتتل الفريقان ورمى عبد الرحمن قائد جيش العدو بسهم فقتله وقفل إلى أربونة بعد أن أخذ بشار صديقه (٢).

ولم يكن في وسع الخلفاء في دمشق أن يعيدوا السكون إلى نصابه في بلاد بعيدة كبلاد الأندلس؛ لاسيما أن الثورات كانت تتوالى في الولايات الشرقية فتشغلهم عن المغرب. وهكذا تغيرت الحالة في جنوبي فرنسا، وخلال الجول للمسيحيين، برغم قصر باع بين القصير وفتور همته. وكان المسلمون الذين في أربونة قد استولوا على مدينة نيم والمدن المجاورة لها، ولكن الحاميات الإسلامية في تلك المدن أخذت تحف شيئاً فشيئاً، فصار في نيم وفي بيزيه وفي ماغلون إدارة أهلية مستقلة بعض الشيء، وأصبح لكل من هذه البلدان أمير يدير أمورها لكنه معترف بسطان المسلمين (٣). ومثل

(١) ظهر من هنا أنه لولا ثورة البربر على العرب ما كان أمكن شارل مارتيل أن يضم جنوبي فرنسا إلى مملكته ويخلص بروفانس ولانغدوق وسبتيانيا من أيدي المسلمين

(٢) هل رينو هذا الخبر عن ابن الفوطية. وقد جاء في أخبار مجموعة

(٣) نقل رينو هذا الخبر عن تاريخ اللانغدوق تأليف « فيسيت » Vaissette وعن تاريخ

هذا حصل في شمالى إسبانية ، أى في أشتورية ونابار وغيرها .

وفي سنة ٧٤٧ تولى قيادة الأندلس أمير اسمه يوسف ^(١) فأنفذ ابنه عبد الرحمن بجيش ، الى البيرانه ، لأجل تدويح تلك البلاد ؛ ولكن المسيحيين قاوموه بالسلح مقاومة شديدة . وكانت طرق الاتصال بين مسلمى أربونة وبين قرطبة ، تكاد تكون منقطعة ، بسبب جبال البيرانه ، ولذلك لم يطل الأمر حتى ابتداء المسيحيون في السبتيانية ينتفضون على المسلمين . وكان يتنازع هذه البلاد ، أى المدن السبع ، فيفر ^(٢) بن أود دوق أ كيتانيا وبين بن شارل مارتل . وكان بين قد نال من البابا لقب ملك وهو اللقب الذى لم ينله أبوه رغم جميع ما بلغه من الشهرة والمكانة

وفي سنة ٧٥٢ سار بين بجيش الى اللاندوق ، واستولى على نيم وأقت وماغلون ويزيه ^(٣) . وبعد ذلك زحف لحصار أربونة وضيق عليها بجميع قوته . ولما وجد أن أمر حصارها يطول أبقى جانباً من عساكره حولها تحت قيادة أمير من أمراء القوط اسمه أنسباندوس ^(٤) إلا أن العرب قتلوا أنسباندوس هذا ، في كمين عملوه له ، وضادف ذلك حصول مجاعة في جنوبي فرنسة عطلت حركات الجيوش

وكان بنو العباس في الشرق قد تغلبوا على بنى أمية ، وتقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد واستأصلوا الأمويين ، وتعقبوهم في كل مكان ، ففر منهم واحد الى افريقية ومنها أجاز الى مالقة فتلقاء عرب الأندلس كمنقذ لهم ، وكان اسم هذا الأمير عبد الرحمن ^(٥) وكانت هذه الواقعة سنة ٧٥٥ وقد قدر أن يكون على يد هذا الرجل

(١) يوسف بن عبدالرحمن الفهري

Vaifre (٢)

(٣) أورد رينو على ذلك نسا من مجموعة مؤرخى فرنسة منسوباً الى مواساك الذى تقدم ذكره

في إحدى الحواشى

Ansemundus (٤)

(٥) هو عبدالرحمن بن معاوية الملقب بالداخل . والافرنج يكتبون اسمه Ebn-Moavia وكان

الافرنج الأقدمون من كثرة تحريفهم لأسماء العرب يسمونه Benemauguis وأظنهم قد خلطوا

بينه وبين ابن مغيث الذى كان من أمراء دولته

وأعقابه أعظم مجد ممكن لمسلمي اسبانية . وفي أيامهم تأملت المدينة العربية في الأندلس تأثلاً لاتزال له آثار باهرة هناك الى اليوم . والى يوم مجيء عبد الرحمن لم يكن لأمرء المسلمين في الأندلس شغل الا بقتال بعضهم بعضاً فلم يؤثروا آثاراً خالدة

وقد لقي عبد الرحمن نفسه خطوباً وأهوالاً ، وبقى يسكن الثورات ويرتق الفتوق مدة طويلة . ولكنه تمكن أخيراً من توطيد سلطته وتمكين استقلاله ، واستوسق له أمر الأندلس تبامها ، الا أنه لم يقدر أن يتجاوز الى غيرها ، فلذلك تحاشى أن يتلقب بلقب الخليفة واقتصر على لقب أمير . وبقى أعقابه الى القرن العاشر مكتفين بهذا اللقب ، وانما كانت عاصمتهم قرطبة مركزاً للعلوم والصنائع ومبعثاً لأشعة المعارف . وبعد أن رسخت قدم عبد الرحمن الأموي في الأندلس ، فكر في مدينة أربونة وما يليها من جنوبي فرنسة ، وسرح جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان ، زحف الى البيرانه أملاً برفع الحصار عن أربونة ، ولكن المسيحيين كبسوهم في تلك الأوعار ، فانهزموا هزيمة تامة

ولما كان جمهور أهالي أربونة من المسيحيين ، وقد ضررهم حصار أربونة بناه ولم يعد لهم طاقة بتحمل تلك الحالة ، داخلوا الملك بين سراً على أن ينتقضوا على المسلمين وينضموا الى جيشه ، بشرط أنهم يكونون في المستقبل أحراراً في بلدتهم ، وتكون ادارة أمورهم بحسب عرف القوط . وهكذا تم الاتفاق بينهم وبين بين . فبينما كانت الحامية الاسلامية غافلة عما يصنعون كبسوها على غفلة منها ، وذبحوها بأجمعها ، وفتحوا أبواب البلدة للفرنسيين . وكان ذلك سنة ٧٥٩ فانقضت حكومة الاسلام من أربونة ، وأبقى الملك بين جيشاً وافرأ لأجل حراسة البلاد^(١) .
اه ملخصاً من كلام رينو

(١) نقل رينو عن هذه الحادثة رواية الدون بوكيه Bouquet ذكر رينو في الحاشية نقلاً عن الدون بوكيه أن بعض مؤرخي الافرنجة يذهبون الى أن المسلمين لم ينقضوا من جنوبي فرنسة تلك اثره بل بقيت منهم طوائف في مقاطعة دوفينه وفي مقاطعة نيس أو نيقية وفي جبال الألب وأن

غارات العرب على فرنسا

من بعد جلائهم عن أربونة

الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ مسيحية

قال « رينو » : ان العهد الذي سنتكلم عنه الآن في هذا القسم من تاريخنا مختلف عن العهد الذي تقدمه والذي سردنا وقائمه . فقد ظهر لنا مما تقدم من الوقائع أن العرب في تغلغلهم في فرنسا لم يكونوا مقتصرين على نية الاستيلاء على هذه المملكة فقط ، وإدخالها في الاسلام ، بل كان هدف رميمهم الاستيلاء على سائر أوروبا وإضافة هذه القارة التي كادت في زمان الرومانيين تستولى على العالم ، الى سلطنة الاسلام كاحدى مقاطعاتها . ومما لا ينبغي أن ننساه أن قواد الجيش العربي الفاتح كان أكثرهم من الجزيرة العربية ، الشام والعراق ، فكان مركز دياتهم ومبعث قوتهم في الشرق ، ومن الشرق ، فكانت جميع أعراقهم تنزع بهم الى هناك . ولم يكن في نظرهم عقبه كؤود بعد أن قاموا بتلك الفتوحات التي لانظير لها ، وكانوا كلما كانت مملكة أوسع رقعة وأكثر رجلا وجدوها أصلح للغارة وأجدر بالفتح وبنيل المجد في الدنيا والثواب في الآخرة

أما العهد الذي سندخل فيه الآن فلا يماثل العهد السابق ؛ فان الأمير الذي بدأ يتولى الأندلس كان بقية عائلة مالكة قد نزل عرشها في الشام وأيد رجالها بالسيف ، ففر شريداً وانسل وحيداً الى اسبانية ، وأصبح لا يرى في افريقية وفي سائر أقسام السلطنة الاسلامية الا أعداء له ولأهله . ولم تكن الجزيرة الأندلسية بالقطر الذي يمكنه

هذه الطوائف بقيت متمكنة في تلك الجهات طول مدة بين وولده شارلمان . وقد ورد في بعض التواريخ المتعلقة بمقاطعة دوفينه أن المسلمين احتلوا مدينة غرينوبل Grenoble وذهب مؤرخ دير ليرين المسمى فنسان بارال الى أن المسلمين كانوا في نيس وان شارلمان هو الذي طردهم منها . ومن هنا استدل بعض المؤرخين على أن المسلمين كانوا لا يزالون في دوفينه من زمان شارل مرتيل الى أوائل القرن العاشر حيث جددوا غاراتهم على بروفانس وتقدموا الى بلاد الليمونت وسويسرة .

وحده أن يستقل بجملات عظيمة كفيلة بالاستيلاء على الارض الكبيرة ، بل كان المسلمون في ذلك القطر قد دبّ في جوانبهم الوهن بسبب الفتن الداخلية المستمرة التي كانت بينهم ، والتي كانت قد أبادت خضراءهم ، وبما تأصل في طباع أهل الأندلس من غريزة حب الانتفاض على كل سلطة مما اهتبل به المسيحيون ، سكان المقاطعات الشمالية ، الفرّة لأجل الكرة على العرب

وكانت فرنسة التي هي مرمى العرب في هذه الفارات تتأيد يوماً فيوماً ويفلظ أمرها ، فإنها في عهد « بين » و « شرلمان » خضعت بأجمعها لسلطة واحدة ، وكان يمكنها لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة تأتيها من ألمانيا وبلجيكا وإيطالية ، فارتفع إذاً كل خوف من وجودها بعد ذلك عرضة لاعتداء المعتدين ، ولم يعد مسلمو إسبانية هم المهاجمين لمسيحي فرنسة ، بل أصبح مسيحيو فرنسة هم المهاجمين لمسلمي إسبانية (١) . وكان « بين » و « شرلمان » قد أخذوا يرسلان أهالي « كتالونيا » و « اراغون » و « نابار » ليوحدوا حركتهم مع الافرنج ، كما أنهما كانا دائماً يمدان أيدي التحريك الى أمراء العرب الثائرين على السلطان في قرطبة ، وكثيراً ما هم . ثم لم يلبث شرلمان وأولاده أن وطئوا بالفعل أرض إسبانية وأدخلوا بعضها في مملكاتهم ، لأن الولايات التي تشرب من نهر الايبير (٢) بقيت مدة من الزمن تابعة لفرنسة ، ثم عندما أخذ المسيحيون سكان الشمال يكرون على العرب ويسترجعون بلاد آبائهم كان أهالي جنوبي فرنسة الذين أكثرهم والاسبان من أصل واحد يخفون لنجدتهم ويحييون لصريحهم

ومما يدل على بعد المدى الذي تصل اليه أهواء النفوس اذا استحكت المداوة أن أمراء قرطبة كانوا في نزاع دائم مع خلفاء بغداد ، وكان وكذ كل من الفريقين النكابة

(١) قد ظهر من هنا أن سقوط الدولة الأموية في المشرق وصعد الوحدة العربية بانسلاخ الأندلس عن دولة الخلافة هما العاملان في تأخر العرب في قارة أوربية . ومما لانتزاع فيه أن القوة المتحدة التي كان وراءها الأندلس وإفريقية ومصر والشام والعراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان كانت أقوى على تجريد الجيوش وتسريب الأموال من القوة التي لم تكن تتجاوز جزيرة الأندلس وحدها (٢) Ebre هو النهر الذي يمر بسرقسطة . والاسبانيول والعرب يقولون له ايبيره

بالآخر ، أكثر منه في الفتوحات في بلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يراستون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيس الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الأندلس ، وكانت لذلك العهد العلاقات التجارية قد بدأت بين الشرق والغرب وسارت السفن تختلف بين « مرسيلية » و « فريجوس » ومرافق سورية ومصر ، لأجل التجارة بالبهارات والطيوب والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الأخطار ، وذلك أن المسيحيين في الغرب كانوا في أثناء الحروب بينهم وبين المسلمين لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة في فلسطين

وفي سنة ٧٣٣ ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصره وكانوا يجولون آمنين في فلسطين والشام وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ولم يعترضهم أحد (١) ولا خافوا ولا حزنوا

وكان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الافرنسية أحسن معاملة ، ويتبادلون وإياها التحف والأطراف وان كان قد وجد من عمالهم في افريقية من يشن الغارات على سواحلنا في الأحيان ، فما ذلك الا لتباعد المسافات بين أولئك العمال وبين مركز الخلافة العباسية

هذا ومنذ استرجع « بين » القصير « أربونة » وأجلى العرب عنها سكنت الأمور بين مسلمي الأندلس والفرنسيس . وكان « بين » يعد « البيرانه » هي التخيم الطبيعي بين فرنسا وإسبانية . وكان عبد الرحمن مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه . ولم يكن « بين » يهمل شيئا من الوسائل لاثارة نيران الفتن بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أي بعد استرداد الفرنسيس لأربونة دخل أمير برشلونة المسمى

(١) نقل « رينو » هذا الخبر عن ترجمة حياة القديس « جيو » Jubeau في مجموعة البولنديين

سليمان^(١) في علاقات مع « بين » وتماهد معه^(٢) . ومؤرخو الفرنسيين يزعمون أنه انضوى تحت لواء « بين » ولكن الأصح أن يقال إنه ما قصد إلا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه . ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين في شمالي الأندلس ، فيوم يضغط عليهم السلطان في قرطبة يلجأون الى فرنسة ، ينشدون عندها التنفيس من حناقمهم ، وإذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيين بحق بلادهم عادوا الى رئيسهم في قرطبة واعتصموا به ، وكانت تساعدهم على الاستقلال طبيعة البلاد التي كانوا فيها فانها بلاد جبلية كثيرة الأوعار صعبة المرتقى يسهل على المقاتلة بها ، ولو كان عددها قليلا ، أن تشاغل الجيوش الجرارة . وكان العرب يسمون « قشتالة » القديمة و « البلة » بلاد « البيا » و « القلاع »^(٣) وكانوا يسمون النابار بلاد البشكنس . وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي وراء البيرانه الى جهة فرنسة ، لأن أصل الأهالي واحد سواء في السفح الجنوبي أو السفح الشمالي من البيرانه

وكان العرب يسمون البيرانه جبل البورتات وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة

(١) هوسليمان الاعرابي السكلي أمير برشلونة . وكانت بينه وبين شارلمان مذ كان أميراً بسرقسطة . انظر إلى مايقوله صاحب أخبار مجموعة : ثم ثار سليمان الاعرابي بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري ، من ولد سعد بن عباد ، فبعث إليه الأمير (يعني عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد في جيش ، فنازل أهل المدينة وقتلهم أياماً ، ثم ان الاعرابي طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلاً ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة فصار عنده أسيراً وانهزم بجيش . فبعث به الاعرابي إلى قارلة فلما صار عنده طمع قارلة في مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودفنوهم أشد الدفع فرجع إلى بلده . انتهى

قلت : إن العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتي ذكر قصة الأمير سليمان هذا - الذي مالا شارلمان على قومه - وكيف انتهى أمره

(٢) نقل « رينو » هذا الخبر عن مجموعة « الدون بوكيه »

(٣) يكثر في تواريخ العرب ذكر غزوات الجيوش الاسلامية لبلاد ألبا والقلاع

Le Pays D'alaba et des Chateaux ويقال أحياناً « ألبا » ولكن تلفظ الاسبانيول للقاء هو كلفظ العرب للباء

اللاتينية Portus وبالاسبانية Puerta ومعناها المر ، وذلك لأنه من هناك كان المر من الأندلس الى الارض الكبيرة . وكان يوجد في البيرانه أربعة أبواب معروفة عند العرب : الأول طريق برشلونة الى أربونة على مدينة « پرينيان ^(١) » الحاضرة . والثاني طريق « بويسردا » على « سردانة ^(٢) » . والثالث الطريق الذى يؤدى من « نبلونة » الى « سان جان بيه دوپور ^(٣) » والرابع طريق طولوزة الى بايـون ^(٤) . وكانت طرق البيرانه فى القرون الوسطى أوعر مما هى الآن بلا نكير

وكما كان بين ملك فرنسا كثير التضريب بين أمراء المسلمين ، لايفتأ يفرى بعضهم بالايقاع يبعث ، كان الخليفة العباسى المنصور بعد أن بنى بغداد مجتهداً أيضاً فى توحيد المملكة الاسلامية كما كانت لمهد بنى أمية ، ولذلك أرسل من سواحل أفريقية أسطولا فيه عساكر لقتالة عبد الرحمن الأموى الملقب بالداخل ^(٥) ووجد

(١) Perpignan قاعدة ولاية روسيون أوالبيرانه الشرقية

(٢) Gerdagna

(٣) Saint - Jean - Pied - de - Port

(٤) Tolosa a Bayonne وطولوزة هذه هى غير طولوزة الإفريقية. والفرق بينهما أن

طولوزة الاسبانية تكتب بحرف O فقط وان طولوزة الإفريقية تكتب بحرفين OU

(٥) قال ابن خلدون : وفى سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصي من افريقية الى الأندلس ، ونزل بياجة الأندلس ، داعياً لأبى جعفر المنصور ، واجتمع اليه خلق ، فسار عبد الرحمن اليه وليفه بنواحي اشبيلية ، قفاته أياماً ثم انهزم العلاء وقتل بسبعة آلاف من أصحابه . وبعث عبد الرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة ، فألقت فى أسواقها سراً ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك ، وقال : ما هذا إلا شيطان والمحمد الذى جعل بيننا وبينه البحر . أو كلاماً هذا معناه . انتهى

وجاء فى كتاب « أخبار مجموعة » الذى تقدم ذكره فى أخبار عبد الرحمن الداخل : نار عليه العلاء بن مغيث اليحصي ، ويقال حضرمي وسود (يعنى دعا لبني العباس الذين كان شعارهم السواد) ودعا إلى طاعة أبى جعفر وكان قد بعث اليه بلواء أسود فى سن قنائة ، قد أدخله فى اهليجة وطبع عليه ، فأخرجه العلاء فجعله فى رحمة وقام به فى جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائى وأمىة بن قطن الفهري فأقبلت اليامية حتى صاروا باشبيلية فاتهموا أمية بن قطن فأخذوه وكيلوه ، وخرج الأمير اليهم ، واجتمعت اليه الحشود ، وأقبل حتى نزل بقرية القوم بقلعة رعواق وأقبل

من أمراء المسلمين بالأندلس من ماله على عبد الرحمن . ولما كان بين لا يخشى عادية المنصور ، بمكانه من البعد عن فرنسة ، وكان يرجو نصرته لكون عدوهما واحداً أسرع الى الدخول في العلاقات مع المنصور ، وأمّل منه الجذب بضبعه . وفي سنة ٧٦٥ أرسل رسلا الى بغداد لبثوا ثلاث سنوات حتى رجعوا الى فرنسة ومعهم رسل الخليفة، فنزلوا في مرسلية وصعدوا الى مقر بين فبالغ في الاحتفاء بهم وقضوا ذلك الشتاء في مدينة «متر» باللورين، ثم أمر باقامتهم في قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ثم أعيدها الى الشرق، عن طريق مرسلية ، ومعهم الهدايا الى الخليفة هذا وقد اتبع شارلمان خطة أبيه « بين » في هذا المعنى فما استوسق له الأمر حتى أخذ يداخل أمراء الأندلس ، من مسلمين ومسيحيين ، فكان يقول لهذا الفريق إنه انما يريد ليحررهم من طاعة أمير قرطبة ويساعدهم على استقلالهم ويخفض جناح الرحمة لهم ، ولذلك الفريق أنه هو حامى النصرانية الطبيعي الناصر للنصرانية الحافظ للكنيسة الأصلية القامع للبدع الخ

وكان العرب عند ما فتحوا الأندلس أبقوا للمسيحيين حريتهم الدينية ، فكان

غياث بن علقمة اللخمي من شذونة ممدأ لهم . فلما سمع بخبره الأمير بعث اليه بدرأ مولاه في قطع من عسكره فقطع به فنزل في الوجبة التي بين وادي إيريه والنهر الأعظم . وناله بدر فتراسلا حتى انقصد بينهما صلح ، ورجع غياث بن علقمة اللخمي إلى بلده ، ورجع بدر إلى الأمير ، فلما بلغ القوم الخبر قالوا ليس لنا الامدينة قرمونة فعبوا على الخروج اليها ليلا . وجاء الخبر الى الأمير فبعث بدرأ ، وقال له : اجتدر الى المدينة وارفع رأس قبلك على باب قرمونة واجمع اليك أهل الطاعة الى أن نوافيك غدوة . وركب الأمير من سحر طويل فأصبح على ظهره وتباطأ القوم فأصبح القوم في الشعراء تحت قرمونة . فلما نظر الى القبة مضروبة على باب المدينة علم أنهم قد بدروا اليها ، فاجوا وتطلعت عليهم خيل العسكر ، فانهزموا وقتلوا قتلا ذريعا . وأصيب أمية بن قطن مكبلا فن عليه الأمير وأطلقه وقطف من رؤوسهم سبعة آلاف رأس فيز رؤوس المعروفين ورأس الغلاء ومثله ، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه ، ثم أجزل العطية لمن اتدب لحمل تلك الرؤوس الى افريقية فجمعها في أخرجة وركب فيها البحر حتى انتهى الى القيروان ، فطرحها ليللا في السوق ، فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتاباً مكتوباً بالخبر في الخرج ، فانتشر ذلك حتى بلغ أباجعفر . انتهى

يوجد أساقفة في قرطبة و طليطلة والمدن التي من الدرجة الأولى (١) وكان لهم قسيسون في كل مكان وجدوا فيه ، إلا أنه لا يظهر انه كان يوجد في المدن الثغرية التي كانت مترددة بين حكم المسلمين وحكم النصارى أساقفة ينظرون في شؤون المسيحيين الروحية وكان المسلمون في إحدى الحروب هدموا مدينة طرطرة كونه (٢) فلم يبق فيها مركز أسقفى فصارت أمور بلاد كتالونيا الروحية مربوطة برئيس أساقفة أربونة في فرنسا . وقد كان أيضا رئيس أساقفة أوش من مقاطعة جيرس Gers في فرنسا ينظر في شؤون مملكة أراغون الروحية . وكان شارلمان يفصل خصومات المسيحيين الاسبانيين فيما بينهم وكان يتوسط لهم عند البابا فيما اذا كانت لهم رغائب اليه أو قضايا عنده وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر إيره ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه قاصدين شارلمان في وستفاليا Westphalie (٣) حيث كان منعقداً مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين وهو المسمى سليمان ، أثناء وجوده أميراً على سرقسطة ، قد قاتل عساكر أمير قرطبة وأخذ قائدها أسيراً وجاء به وقدمه كهدية الى شارلمان ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الامبراطور الإفرنسي (٤) .

(١) جاء في فتح الطيب عند ترجمة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الثالث ذكر وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة وعبيدالله بن قاسم مطران طليطلة . وجاء فيه عند ترجمة الناصر ذكر ربيع الأسقف الذى أرسله الخليفة الى ملك الصقالبة رسولا يرد بذلك زيارة رسول هذا الملك ليا به . ومن هذه الأسماء يعرف القارىء أن أهل النمة في الأندلس كانوا قد استعربوا وتسموا بأسماء العرب وان كانوا بقوا على النصرانية . وكانوا في هذا أشبه بالمسيحيين من عرب الشرق

(٢) Tarragone مدينة في كتالونية على البحر المتوسط . قال ياقوت في معجم البلدان : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة وهى مدينة قديمة على شاطئ البحر منها نهر علان يصب مشرقاً الى نهر ابرة وهو نهر طرطوشة . وهى بين طرطوشة وبرشلونة بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخا . قال : وطرقونة موضع آخر بالأندلس من أعمال لبله

(٣) وستفاليا هى اليوم من مقاطعات بروسية

(٤) استشهد « رينو » على ذلك بمجموعة الدون بوكيه وكذلك بتاريخ ابن القوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربى والآخرين

وكان شارلمان مترصداً فرصة كهذه حتى ينقضّ على إسبانية ويملك ولو جانباً منها ، فأمر بالنفير العام وتوافت إليه المقاتلة من المانية وفرنسة ولبارديه ، وزحف بهم قاصداً البيرانه . وكان ذلك سنة ٧٧٨ ولم يكن يشك في كون الأهلين سيهرعون من كل ناحية اليه ، يجتمعون تحت لوائه ، ولكن أخطأ حدسه هذا ، لأن المسلمين عند ما جاء بنفسه قاوموه بالسيف وظهر انه لم يكن مقصد بعض أمرائهم من خطبة وده إلا الاستعانة به على استقلالهم . وأما المسيحيون في الجبال فقد آوأم أنفسهم أيضاً أن لا يخضعوا لحكم الأجنبي أياً كان ، فما وصل شارلمان الى البيرانه حتى وجد نفسه محاطاً بالأعداء فضيق الحصار على بنبلونه (١) ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . وكذلك قاومته مدينة سرقسطة . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه استولى عليها ذلك اليوم وانه أخذ أميرها أسيراً وأرسله مكبلاً إلى فرنسا . وأما مؤرخو العرب فينكرون ذلك ويقولون انه فشل في هجومه على سرقسطة فشلا تاماً . ولكن بعد ذلك جرى ان قتل أمير سرقسطة غيلة فالتجأ ابنه الى فرنسة (٢) . أما أمراء برشلونة وجيرونة ووشقة فقد أرسلوا رهائن من قبلهم الى شارلمان

وبينا شارلمان يحارب في شمالي اسبانية إذ جاءه الصريح بأن أمة الصكصون أبت بأن تترك ديانتها الوثنية وبأنها زحفت للقتال ، فاضطر شارلمان الى مغادرة إسبانية

يسمونه مطرف بن العربي . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الاعرابي الحنفي . وأما أسيره الذي أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذي أسره بجيلة كما تقدم

(١) من مملكة نابار وهي قلعة حصينة

(٢) جاء في أخبار مجموعته : ان حسين بن يحيى الأنصاري رفيق سليمان الكلبي ، الذي تار بسرقسطة على الأمير عبد الرحمن الداخل ، كان قد عدا على سليمان يوم جمعة فقتله في المسجد الجامع وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير عبد الرحمن . وكان عيسون بن سليمان الاعرابي قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة وصار على جرف الوادي فاقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد فقتله ، ثم رجع إلى أصحابه . فسمى ذلك الموضع إلى اليوم « مخاضة عيسون » ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره وحارب سرقسطة معه

عائداً الى فرنسا ، و بينما هو في طريق رجوعه وعند وصوله الى وادى « رونسفو » Roncevaux انقض عليه المسيحيون الجليليون ، وساعدهم في ذلك المسلمون ، فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها . وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيين بينهم فيما يقال « رولان » Roland الفارس الشهير

وبالاختصار كانت الجهات الشمالية من اسبانية أشبه بالثغور لفرنسة كما كانت بلاداً ثغرية للعرب . وكان العرب يسمونها إفرنجية لكونها طالما الحقت بمملكة أكتانيا . وكان شارلمان قد جعل ا كيتانيا لابنه لويس الذى جعل كرسى ملكه طلوزة أو طولوز

فبعد أن قفل شارلمان من إسبانية عادت فعصت عليه المدن التى كانت أطاعته قبلا ، وحق المسلمون على المسيحيين وجعلوا ينتقمون منهم ، بحجة أنهم كانوا السبب في مجيء الفرنسيين . فلجأ عدد من المسيحيين الى الجبال وكانوا يتحملون شظف العيش ويلبسون جلود السباع ولا يبألون بسكنى البرارى . ولكن الترفين من المسيحيين الذين لم يكونوا يستطيعون السكنى فى الأوعار ، التجأوا الى شارلمان ، ووزع هذا عليهم أراضى فى بسائط أر بونة ، ولم يفرض عليهم من الضرائب شيئا إلا الخدمة العسكرية . وقيل انه كان بين هؤلاء المهاجرين أناس مسلمون ارتدوا الى النصرانية كما يظهر من أسماهم^(١) وقد اشتهر أناس من هؤلاء المهاجرين ولا

(١) نقل « رينو » هذا الخبر عن « الدون بوكيه » ولم نعلم شيئاً من هذا القبيل أى من تصر جماعة من المسلمين فى أوائل الفتح الاسلامى للاندلس سوى ما ذكره المؤرخون من العرب وهو أنه عند ما اشتدت الفتنة بين القيسية واليمانية اغتم الفرصة أهالى شمالى إسبانية وأخرجوا المسلمين من بلادهم وبقى من هؤلاء بينهم بقايا تنصروا .

قال صاحب أخبار مجموعة : فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر عليح يقال له بلاى قد ذكرناه فى أول كتابنا فخرج من الصخرة وغلّب على كورة وستورس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبى الحظار وثوابة فلما كان فى سنة ١٣٣ هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب فى دينه وضمف عن الخروج وقتل من قتل الخ . ولا مانع من أن يكون فى الذين هاجروا من شمالى إسبانية إلى فرنسا أناس أصلهم من المسلمين

يزال من بقاياهم عائلات نبيلة ينتسبون إليهم مثل عائلة فلنوف Villeneuve
ثم إن عبد الرحمن الأول أمير قرطبة توفى سنة ٧٨٨ وقد وصفه المؤرخون
الفرنسيون بالقسوة، وقالوا انه كان سفاكاً للدماء جباراً عاتياً وأنه أوقع بكثير من
رعيته العرب والبربر. وزعم الدون بوكيه أن النصراري واليهود قاسوا العذاب ألواناً
في أيامه، وأنهم اضطروا الى بيع أولادهم ليتمكنوا من العيشة. وأما نحن فنعتقد أن
هذا الأمير الذي فتح بلاده فتحاً بقوة ساعده و بمجرد حسن تديره وكان في جدال
وجلاد دائمين لأجل توطيد سلطانه، لم يكن ليستغنى أحياناً عن الإتيان بمثلات من
الشدة يرهب بها أعداءه. والحقيقة انه كان في نفسه حلماً عاقلاً محباً للعلوم والصنائع،
وأنه هو أول مؤسس للمدينة العربية الزاهرة في الأندلس. ولا يظهر أنه كانت
له علاقات رأساً مع شارلمان، وإن كان القرى يذكر ذلك ويقول انه أراد أن يخطب
أحدى بناته (١) والأرجح أنه لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذي دخل في علاقات

(١) جاء في فتح الطيب (الجزء الأول صفحة ١٥٥) مايلي: وخاطب عبدالرحمن قارله ملك الإفرنج
وكان من طفلة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المسكر ثم الرجولية قال معه إلى المداراة
ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة. اه
قتت: وأما كون عبد الرحمن فتح البلاد بنفسه ودوخها بصرامته ولم يستغن في ذلك كما قال
«رينو» عن إرهاف الحد، فلننتقل في هذا الموضوع ماجاء في الفتح عن ابن حيان: ولما ألقى
الداخل الأندلس نفراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم
بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدون
الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية ووجد الأجناد ورفع العواد وأوثق الأوتاد، فأقام
للملك آتله وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكبر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته،
ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها، فلذلك ظل عدوه أبو جعفر المنصور
بصدق حسه وبعد غوره وسعة إحاطته يسترجع عبد الرحمن كثيراً ويمد له بنفسه ويكثر ذكره
ويقول: لانتعجوا لامتداد أمره مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذى
الغد في جميع شؤونه وعدمه لأهله ونسبه وتسلية عن جميع ذلك يبعد مرقق همته ومضاء عزيمته حتى
قذف نفسه في ليج المهالك لابتناء مجده فافتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب
بين جندها بمخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيته بقضية سياسته حتى

كهنه مع قارله ، بل عبد الرحمن الثاني الذي كانت له علاقات مع شارل الأصغر
والذي كان عائشاً في عصر لم تكن فيه هذه المصاهرات وأمثالها مستنكرة اه
وقبل إكمال حديث « رينو » عن عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثاني رأينا
مناسباً أن نذكر خلاصة تاريخ عبد الرحمن الثاني نقلاً عن نفع الطيب .

قال المقرئ : غزا عبد الرحمن بن الحكم لأول ولايته إلى جليقية وأبعد وأطال
الغيب وأنخن في أمم النصرانية هنالك ، ورجع . وفي سنة ٢٠٨ أغزى حاجبه
عبد الكريم بن عبد الواحد إلى البة والقلاع ، فغرب كثيراً من البلاد وانتسفها ،
وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف
ظافراً . وفي سنة ٢٤ بعث قريبه عبيد الله بن البلنسى في العساكر ، لغزو ألبة والقلاع ،
فسار ولقي العدو فهزيمهم وأكثر القتل والسبي . ثم خرج لندريق ملك الجلائقة وأغار
على مدينة سالم بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله فهزيمه وأكثر القتل والسبي
في العدو . ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه .
ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال
في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم . وفي سنة ٢٦ بعث عبد الرحمن
العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية^(١) وكان على مقدمة المسلمين
موسى بن موسى عامل ططيلة^(٢) ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه . وكان لموسى

اتقاد له عصيهم وذلكه أيهم فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته فأهراً لأعدائه جامياً لدماره
مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه إن ذلك هو الفقى كل الفقى لا يكذب مادحه . انتهى
قلت : وكان المنصور يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش وسندكر في الجزء التالي كلاماً آخر
للمنصور عنه في هذا المعنى

(١) برطانية هنا لا يظهر أنها التي يقال لها برطانية Bretagne من شمال فرنسا إلى الغرب بل
هي مقاطعة من كتالونية يقال لها اليوم امبردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها
« امبروطانية » وهي لفظة مشتقة من « امبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ثم يونانية عمرها أهل
صور وصيدا في أرض كتالونية

(٢) Tudela من مدن شمالى الأندلس

في هذه الغزاة مقام محمود. وفي سنة ٢٩ بعث ابنه محمداً بالعباسية، فتقدم إلى نبلونة، فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى إلى أن يقول: وفي سنة إحدى وثلاثين بعث العباسية إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون^(١) ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فتلما فيه ثلثة ورجعوا. ثم أغزى عبدالرحمن حاجبه عبدالكريم في العباسية إلى بلاد برشلونة فعاش في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى «البرت» إلى بلاد الفرنجة، فدوخها قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتها العظمى «جبرونده»^(٢) وعاش في نواحيها وقفل. وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم «توفيلس»^(٣) بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة ٢٥ بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالشرق من أجل ما ضيق به عليه المأمون والمعتمد، حتى أنه ذكرهما له في كتابه إليه، وعبر عنهما بابني مراحل وماردة^(٤) فكافأه الأمير عبدالرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال بمن كبار أهل الدولة وكان مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة وارتفع عبدالرحمن ذكر عند مناغيه من بني العباس. ويعرف الأمير عبدالرحمن بالأوسط،

(١) Leon يريد بهامدينة ليون الإسبانية في شمالي إسبانية لامدينة ليون الإفريقية التي يكتب

اسمها هكذا: Lyon

(٢) Jironde يريد بمدينة جبرونده بورردو وكان العرب يقولون لها أيضاً بورديل وهي

مدينة بلاد جبرونده الإفريقية

(٣) هذا هو إمبراطور بيزانطية الذي قاتله المعتمد العباسي وفتح من بلاده عمورية. وورد

ذكره في قصيدة أبي تمام الطائي التي يذكر بها وقعة عمورية والتي مطلعها

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فانه يقول فيها:

لما رأى الحرب رأى العين توفيلس والحرب مشتقة معنى من الحرب الخ

(٤) كانت أم الخليفة المأمون أم ولد اسمها مراحل ماتت في نفاستها به. وكانت أم المعتمد اسمها

ماردة وكانت أحظى النساء عند هارون الرشيد. ويظهر أن توفيلس إمبراطور الروم قصد أن يغري

بني أمية أمراء الاندلس بغزو الشرق ليشغل بني العباس عن قتاله ويوهن قوتهم

لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر . ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من إمارته . ومولده بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون . وكثرت الأموال عنده وأخذ القصور والمتزهات وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لفضلها مصنفاً اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور . وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس . وزاد في جامع قرطبة وواقين . ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم الملكة واحتجب عن العامة . قال : وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته « طروب » وكلف بها كلفاً شديداً وهى التى بنى عليها الباب بيدر المال حين تجنت عليه وأعطاهها حلياً قيمته مائة ألف دينار اه

وجاء فى النسخ كلام طويل عن محبة هذا الأمير لطروب ولنغيرها من الجوارى ولم يقل إنه خطب ابنة شارل الأصلاح ملك فرنسا . ولم أذكر ان « دوزى » الذى استقصى فى الكلام عن عبد الرحمن الثانى وسيرته الشخصية ذكر شيئاً من هذا

ونعود الى سياق حديث « رينو » عن أمراء بنى أمية ومغازيهم فى أفرنجية ، فهو يقول : ان عبد الرحمن الداخل كان استخلف ابنه هشاماً من بعده وان هشاماً لأول حكمه وجد الفتن مشتتة فى أكثر البلاد فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية ، بجهاد العدو الخارجى ، لأنه أجمع شئ للكلمة . وكان يريد أن يتلافى ما نقص من الملكة بغارات بين وشارلمان الأخيرة ويخضع شوكة مسيحي بلاد استوريش وشمالى الأندلس فأجمع على قتال المسيحيين فى كل مكان . وفى أيامه كثرت القالة بأن المسلمين لا يقدرون الا على قتال بعضهم بعضاً ، وأفتى بمض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمرء لا يعرفون أن يقاتلوا الا أمة محمد وحدها ، وكانوا يضر بون الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين كانوا يواصلون غزو مملكة القسطنطينية

فبناء على هذا كله تحمَّس هشام وأعلن الجهاد ، وأمر الناس كافة بأن ينفروا قاصدين جبال اليربانه ، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه وجب أن يجاهد بماله . وقرىء

منشور الأمير في الجوامع ، وفيه الآي القرآنية التي تحض على الجهاد ^(١) . فلما تلى هذا المنشور نفر الناس للجهاد من كل فج ، واثالوا على الأمير من كل حذب ، ولكن برغم هذا كله لم يكن المجاهدون بالأعداد التي كانت تجتمع في الغزوات الأولى لأول الفتح عندما كان المجاهدون كحصى الدهناء ، ينفرون للجهاد في سبيل الله من أفريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها . فان هذه البلدان كلها كانت في أيام هشام موصدة الأبواب على من أراد الجهاد في الاندلس ، فأصبح الغزو في الاندلس منحصرا في أهلها . ولذلك لم يجتمع في هذا النفي سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل ، انقسمت الى شطرين : زحف منها شطر الى قتال مسيحي أستوريش ، فلم يظفروا بطائل يذكر ، وزحف الشطر الآخر تحت قيادة الوزير عبد الملك ^(٢) الى كتالونيا ، ومنها تأهب لاجتياح فرنسة .

وكان دخولهم الى فرنسة سنة ٧٩٣ وشارلمان يومئذ مشغول على ضفاف الدانوب ، بحرب الآفارين ، ونجبة جنود مملكة ا كيتانيا غائبة في ايطالية بصحبة لويس بن شارلمان . فهد المسلمون من فورهم الى أربونة ، ولما وجدوها محصنة بادر وابطحراق أرباضها ، وزحفوا الى قرقشونة ^(٣) وكان لويس ملك ا كيتانيا قد عهد بالوكالة في غيابه الى غليوم كونت طلويزة ، فاستنفر غليوم أمراء المملكة ورجالها ، وأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب ، وتلاقوا مع المسلمين على ضفاف نهر « اوريو » ^(٤) في المكان المسمى « فيلدانيا » ^(٥) بين قرقشونة وأربونة . وكانت المعركة من أحمى المارك وطيسا ، وقاتل الكونت غليوم قتال الضواري ، ولكن

(١) نقل « رينو » صورة هذا المنشور وقال إنه وجد في مجموعة مطبوعة في القاهرة قال : وليس بأكد أن يكون هو نفس المنشور الذي تلى باسم الأمير هشام ولكنه على كل حال لا يختلف عنه في المعنى

(٢) عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٣) نقل « رينو » هذا عن تاريخ « موساك » في مجموعة « الدون بوكيه »

Orbieux (٤)

Villedaigne (٥)

المسلمين ثبتوا كالآوتاد والفرنسيس انهزموا ذلك النهار وولوا الأكتاد وأصيبوا بخسائر فادحة . وغنم المسلمون غنائم فوق الاحصاء ، غير أنه لم يكمل سرورهم وقتل أحد كبار قوادهم ، فلم يتعقبوا المسيحيين في هزيمتهم ، واكتفوا بما أصابوه من السبي والغنم ، ووقفوا الى الأندلس ظافرين . وكان لهذه الطائلة ، للمسلمين على المسيحيين ، فرح عظيم عند المسلمين لأنه كان قد طال عهدهم بالظفر (١) وأصاب الأمير خمس الغنائم . فبلغ حسنة وأربعين ألف مثقال من الذهب . فاذا حسبنا قيمة الذهب يومئذ بالنسبة إلى قيمته الحاضرة وجب أن تضرب هذا العدد بتسعة فيجتمع لنا سبعمائة ألف فرنك من معاملتنا الحاضرة (٢) فيبني هشام بهذا المال في جامع قرطبة الذي كان أبوه لم يتمه (٣) . وكان عبد الرحمن الأول بدأ جامع قرطبة ، من غنائم الحرب ، فزاد ذلك في حرمة الجامع في نظر المسلمين . فلما باشر ابنه هشام بناء القسم الجديد من الجامع وجد المسلمين ملتزمين الصلاة في القسم القديم ، فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له : إن هذا من أجل كون هذا القسم بنى من غنائم الجهاد . فأجابهم هشام بأن القسم الجديد أيضاً بنى من غنائم الجهاد . واستدعى القاضى ونقرأ من كبار القوم فأيدوا كلامه (٤) . وقال بعضهم : إن أسس هذا الشطر الجديد من الجامع وضعت على تراب مجلوب من جليقية ومن جنوبي فرنسا ، أى من مسافة مائتى مرحلة ، حملة أسرى المسيحيين على ظهورهم . وقد تقدم هذا الخبر في الكلام على مدينة أربونة ولم يثبت أن المسلمين تمكنوا من أربونة في تلك الغزاة ، ولو كانوا فتحوها لكان

(١) نقل « رينو » ذلك عن مجموعة مؤرخى فرنسا وعن النويرى

(٢) يعنى بالمعاملة التى كانت سنة ١٨٣٦ أى منذ قرن تقريباً

(٣) ورد في فتح الطيب أن من محاسن الأمير هشام إكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع فيه . وأما الغزاة التى ذكرها « رينو » فهى التى يقول عنها في الفتح ان هشام بعث وزيره عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث في العساكر سنة ١٧٧ إلى أربونة وجيرونده فأئخن فيها ووطى أرض برطانية وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم

(٤) استشهد « رينو » هنا بتاريخ للعرب في إسبانية ملحق بجغرافية أبى الفدا التى طبعها

« رينك » في « لايبسيك »

مؤرخو المسيحيين أشاروا إلى ذلك الحادث . واشتهر في تلك الحرب غليوم كونت
طلوزة ، من أمراء البلاد ومن أفرس فوارسها وأشدهم تحمسا بالدين المسيحي ، لأنه
بعد أن قضى حياته في الحروب ، وكان من جملة غزاة الفرنسيين الذين فتحوا برشلونة ،
أنهى حياته في دير جلون (Gellone) الذي بناه هو بنفسه في لوديف (Lodève) ومات
بذلك الدير منقطعاً للعبادة ، وصار معدوداً في مصاف القديسين . ترجمه أحد معاصريه
فقال : إنهم في القرن العاشر كانوا في الكنائس يرتلون دائماً الأناشيد بذكر أعماله الحميدة
ومواقفه في جهاد المسلمين . ولما أخذ شعراء الفرنسيين ينظمون القصائد على شارلمان
ومشاهير رجاله ويتغنون بذكر وقائع ، فيها ماهو صحيح وفيها ماهو خيالي ، كانوا
يجعلون من ذلك قسطاً كبيراً لغليوم ذى الأنف القصير ، وكانوا يصورون مدينة نيم
ومدينتي اورنج وآرل كأنها قد وقعت في أيدي المسلمين ولم يتم استخلاصها إلا على
يد ذلك البطل الذي لا يفاب . . . وكذلك وجدت كتابة لاتينية بقيت محفوظة
إلى زمان الثورة الفرنسية في دير « مون ماجور » (Mont - major) تفيد أن
شارلمان جاء بنفسه إلى آرل لطرد المسلمين منها

ومن المعلوم أن الشعراء لم يكن همهم التدقيق في المسائل التاريخية إذا أرادوا
التغنى بأحداث أبطالهم وهاموا في أودية خيالهم . فأما الكتابة التي في دير « مون
ماجور » فهي غير صحيحة ، لأنها تتضمن أن شارلمان بنى ذلك الدير تمجيداً لواقعة
طرد المسلمين من آرل ، والحال أن الدير قد بُني بعد ذلك بمئة وخمسين سنة .

وكان هشام ملك قرطبة قد توفي سنة ٧٩٦ وخلفه ابنه الحكم ، فتار به عماء (١)

(١) جاء في فتح الطيب : أنه تولى بعد هشام ابنه الحكم بمهد منه إليه ، فاستكثر من المالك
وارتبط الخيل واستفعل ملكه وباشر الأمور بنفسه . وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عمه اغتم العدو
الكافر الفرصة في بلاد المسلمين وقصد برشلونة فلما كوها سنة خمس وثمانين ومائة وتأخرت
عساكر المسلمين إلى مادونتها . وقال أبو الفداء : ولما اشتغل الحكم بقتال عميه اغتمت الفرنج
الفرصة فقصدوا بلاد الاسلام وأخذوا مدينة برشلونة في سنة ١٨٥

فاضطر أن يقضى أوائل أيامه في قمع الثورة . وفي السنة التالية بينما كان شارلمان في مدينة اكسلاشابيل - Aix - la - Chapelle جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم وعم الحكم أمير قرطبة (١) . وفي تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك ا كيتانيا عاقداً مجمعاً في طلويزة ، جاء رسول من الاذفونش ملك جليقية واشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية وتجريدها لقتال العدو العام . ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم في ناحية وشقة (Huesca) يقال له « باهالوك » يريد أن يسالم المسيحيين (٢)

فظهر ان الفرقة كانت لأئحة لأخذ الثأر من المسلمين وللدخول الى اسبانية ، وكان لويس ملك ا كيتانيا وأخوه شارل (او كارل) قد شنّا الغارات في أطراف المقاطعات التي تشرب من نهر ابره . ثم عاد لويس فأجاز البيرانه من جهة آراغون . وحاصر وشقة التي كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسي لتسلم بلده امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر . وفي ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة قد استولى على طليطلة ، وعمه الآخر سليمان استقر في بلنسية ، فصرح جيشاً لقتال عمه عبد الله في طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانه ، فأدخل في الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التي كانت اشترطت نفسها للعصيان . ومن هناك قصد الجبال وأوقع بالمسيحيين وسبي منهم كثيراً نساء ورجالا ، واتخذ الحكم من أسراه حرساً خاصاً وهو أول أمراء قرطبة الذين اتخذوا حرساً خاصاً من الأسرى والأجانب . وقد رجع الحكم من تلك الغزاة مظفراً منصوراً (٣) ،

(١) نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكيه

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة . وورخي بلاد الغال ولم تعلم أصل الأمير المسلم الذي ذكره وهم يحرفون الأسماء العربية تحريفاً يعيد بها عن الأصل بعداً كبيراً بحيث تتنكر على الباحث تماماً (٣) جاء في فتح الطيب : وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وسار لحصار ترا كونه فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه ففتح الله على المسلمين وعاد ظافراً . ولما كثرت عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالمحاربين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي وأنخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً . انتهى

قلت : لعل القرى يعنى بلذريق بن قارله لويس بن شارلمان

كما ان عمه سليمان قتل في إحدى المعارك التي دارت بينهما، وعمه عبد الله فر الى افريقية وعادت طليطلة الى الطاعة . ثم ان الاذفونش صاحب جليقية اغار في تلك الأيام على المسلمين في إشبونة ، ووقع في يديه بعض أسرى منهم ، فأرسلهم راكبين على البغال إلى شارلمان اعترزاً بالنصر . ثم ان لويس ملك اكيثانيا الذي هو ابن شارلمان اكتسح نواحي وشقة (١) ولم يكن شيء من هذه الغارات ، سواء من هذه الجهة أو من تلك الجهة ، ليؤدي الى نتيجة حاسمة يستفص منها أحد الفريقين ملكاً ، بل كانت النتيجة الوحيدة هي خراب تلك النواحي . وكان أهم ما لقيه الفرنسيين في هذه الحرب هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان ، عند ما جاءت جيوشه إلى بلادهم ، ابوا أن يقبلوها وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى والمعاقل النيمة مثل برشلونة وطرطوشة وسرقسطة ، وكانت برشلونة بنوع خاص بحصانة موقعها وبقربها من فرنسة ووجودها على سيف البحر ، من أشد البلاد نكابة بالفرنسيين . وكان الأمير الذي فيها والذي يسميه مؤرخونا « زاتون » (٢) قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول في طاعته ، ولكن عند ما حضر الفرنسيين أمام بلده امتنع من قبولهم وقلب لهم ظهر المجن فأجمع لويس ملك اكيثانيا بالاتفاق مع غليوم كونت طلويزة ، وبرأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد أن يستولى على برشلونة في أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ في رومة مشغولاً بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب . وكانت برشلونة كما قال الشاعر « ارلودوس نيجلوس » قد أصبحت للمسلمين معقلاً متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فتبث

(١) جاء في معجم البلدان لياقوت : وشقة بليدة في الأندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر له رحلة وابراهيم بن عجيس بن اسباط بن أسعد بن عدى الزيادي الوشق كان حافظاً للغة واختصر المدونة له رحلة سمع فيها يونس بن عبد الأعلى ومات سنة ٢٧٥ وابنه أحمد سمع من أبيه وتوفي سنة ٣٢٢

(٢) Zaton وهو من جملة تحريف الإفرنج للاعلام العربية ولايدري ما أصل هذا الاسم

الغارات في بلاد النصارى وتعود أيديها ملأى بالغنائم . وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيين لبثوا سنتين يحصرونها ويضيقون عليها ، ويكتسحون نواحيها ، ولكنهم لم يقدروا على دخولها . وقد قسم الفرنج جيشهم الى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم برشلونة ، وقسم ثان يقوده غليوم كونت طلوزة كان يربط في المرء الذي تفيض منه جيوش المسلمين الآتية من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه ، وكان في أعلى جبال البيرانه ، يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة .

وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار ، فمنهم من كان مشغولاً بوضع السلام ، ومنهم من كان يجلب الميرة والعدة ، ومنهم من كان موكولاً اليه الحفر والنقب ، ومنهم من كان موكولاً اليه غير ذلك . فاشتد الحصار شدة غير موهودة ، وجاءت جيوش المسلمين فلم تقدر على النفوذ الى برشلونة فتحولت الى بلاد اشتورية ، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، وخرج في إحدى المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة المحللة الأخيرة وفتحوها (١) .

وكان فتح الافرنج لبرشاونة سنة ٨٠١ مسيحية بعد أن بقيت تسعين سنة في أيدي المسلمين . فلما دخلوها حولوا جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانباً من الغنائم ، فيها دروع وخوذ ، ومنها خيول مسرحة بأفخر السروج ، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان في شمالي اسبانية احدها كتالونيا وقاعدتها برشلونة ، والثانية غشقونية ومن جملتها ناباره وأراغون

وفي تلك السنة جاء وفد من قبل هارون الرشيد الى شارلمان . وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهودياً اسمه اسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيين لأجل السلام من قبله على الخليفة العباسي ، وقد أمر شارلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد ، وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت المقدس ، ويتوسط لدى

(١) مؤرخو الاسلام ينسبون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله عما الحكم وشغلته عن انجذاب تلك المدينة كما تقدم لك من كلام المقرئ في النفع وكلام أبي الفداء

الخليفة في تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة . وكان الفرنسيين من عهد انيبال لم يروا في بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يتهدج برؤيته أهل فرنسا . فلما وصل الوفد الى بغداد استقبلهم الخليفة برأ وترحيباً ووعده بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس وترفيه مقامهم عند ما يردون اليه . ولم يكن في دار الوحوش التي عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد الى شارلمان ومعه هدايا أخر من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها في فرنسا ، ومن طيوب ومعطرات وأشياء أخر . وكان من جملة الهدية شمندان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار

ونزل الوفد في قدمته من الشرق ، في مدينة بيزة ، وحملت الهدايا بابتهاج عظيم إلى « اكس لاشابل » مركز الامبراطور شارلمان . ولما وصل الوفد قدموا للامبراطور تحايا الخليفة ، وأبلغوه ماقاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك (١) وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شارلمان بأن يتوجه الى قرطجنة ، في افريقية ، ويلتمس من ابراهيم الأغلب (عامل الخليفة) الاذن بنقل رفات القديس نبريانس المدفون في قرطجنة وغيره من القديسين المدفونين هناك ، فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضاً رسولا وراءهم الى الامبراطور يتودد إليه . وقد كان لذلك في هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظراً لانقطاع العلاقات تقريباً بين الاقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان (٢) وأن الله أعطاه في ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب . وفي تلك الأيام لم تكن الحرب تسكن بين المسلمين والافرنج في بلاد اراغون وكتلونية

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة الدون بوكه من رواية « اجينار » Eginard

(٢) ذكر رينو هذه الجملة نقلاً عن الدون بوكه وقال : إن مؤرخي العرب لم يذكروا شيئاً من أخبار هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان وانما ذكروا تبادل رسائل بين بين القصر والمنصور العباسي وبين الملك لويس الحليم Le Dehomiaire وبين المأمون . وأما المشيوي بوكشيل « Pouquevelle » فقد ذهب إلى كون هذه الأخبار كلها غير صحيحة

وناباره ، وكانت سجلا بين الفريقين .

ولم يكن شارلمان ليقدر على النظر في جميع شؤون مملكته الواسعة . ففي سنة ٨٠٩ مسيحية مات الكنت اوربول « Aureole » قائد الجيوش الافرنسية في اراغون ، فجاء أمير سرقسطة المسلم ، وكان يقال له عمروس ، واستولى على الأماكن التي كانت في حوزة الكنت زاعماً انه عند ما يأتى شارلمان بنفسه يسلمها اليه ، ولكن لما جاءت المساكر الافرنسية أبى إزاهم فيها ، فبقيت في يد المسلمين . هكذا روى مؤرخو الفرنسيس . وقد روى بعض مؤرخى العرب أن عمروس هذا كان أميراً في وشقة ، وكان أبوه مسلماً وأمه مسيحية . وكان مثل هذا الزواج كثير الوقوع في اسبانية لذلك العهد ، لاسيا في الأصقاع الشمالية ، وكان يقال لهؤلاء الذين هم من أب مسلم وأم مسيحية المولدون . وكان هذا الصنف من الناس لا يرجعون الى مبدأ ، ولا يتقيدون بذيمة ، وانما يتبعون مصالحهم الخاصة . وكانوا كثيرين في مدينة طليطلة فثاروا على أمير قرطبة فرماهم برجل يقال له عمروس ، وكان داهية من الدواهي . فجاءهم عمروس وتظاهر لهم بالاخلاص لتفضيتهم ، وأوهمهم انه في نفسه ممالئ لهم ينتظر أول فرصة للانتفاض معهم على السلطان ، وأقنعهم بذلك بمكره وحيلته وصدقوا كلامه واتفق معهم على بناء قلعة في أعلى البلدة تكون المعقل الأمين بزعمه لهم ، بحيث لا تنالهم جيوش السلطان بسوء . فلما أكمل بناء هذه القلعة دعاهم فيها الى وليمة ، فكان كلما دخل منهم واحد قطع الجند رأسه ، فقبل انه قطع رؤوس أربعمئة من أعيانهم ، وقيل انه بلغ عدد القتلى خمسة آلاف . وهكذا تمكن عمروس من إدخال طليطلة في الطاعة . انتهى

وقد ذكر دوزى الهولندية في « تاريخ الاسلام في إسبانية » ان عمروس هذا كان من الاسبانيول الذين اتخذوا الاسلام ديناً . والحقيقة انه لم يكن يهيمه لامذهب ولا مشرب ، وانما كانت تهمة مطامعه الدنيوية ، فكاشفه الأمير الحكم بما في نفسه من أمر طليطلة التي كانت لا تنتهي من ثورة الآلى ثورة ، وكانت تأبى الخضوع

لوال عربي ، وقد أعجب الحكم أمرها ، فدبر عمروس هذه الكيدة على أهالي طليطلة بالاتفاق مع الحكم ، وكتب الحكم قبل ذلك اليهم قائلاً لهم : إن أعظم دليل على اعتنائنا بشأنكم أننا مرسلون اليكم الآن والياً من أبناء جنسكم . وقد كان هذا القول صحيحاً لان عمروس كان اسبانيولياً ، مهتدياً للإسلام . وذهب عمروس فخذع أهالي طليطلة وتودد اليهم وزعم انه كاشفهم سرّاً بما في نفسه من الحمية على جنسه ، والاستعداد لخلع طاعة السلطان عند ماتوح أول بارقة أمل ، وقال لهم : إن أكثر أسباب النزاع بينكم وبين السلطان كانت من قبل الولاة الذين كانوا يتولون طليطلة ، فكانوا يضعون الجند في بيوتكم فيسلبون راحتكم ، فلو بنينا في طرف من المدينة حصناً نتخذة ثكنة للعساكر لانحسنت أسباب النزاع بينكم وبين السلطان . فوثق الأهالي بكلام عمروس ، وبنوا الحصن واستقرّ به عمروس . وبعد ذلك أكمل عمروس الكيدة بأنه تواطأ مع السلطان على أن يرسل جيشاً الى طليطلة بحجة أن العدو تحرك في الثغر فأرسل الحكم جيشاً تحت قيادة ولده عبدالرحمن - وكان في الرابعة عشرة من عمره - فلما وصل الجيش الى طليطلة أشاعوا أن العدو اتقبض الى بلاده ، وأن الجيش سيعود أدراجه الى قرطبة . ولكن عمروس أشار على أعيان طليطلة بأن يأتوا للسلام على الأمير عبد الرحمن ، قياماً بواجب الحرمة للسلطان ، فجاء منهم جمهور وسلّموا عليه ، واستقبلهم الأمير بالحفاوة والأكرام ، وهم دعوه أن يطيل الإقامة عندهم ، وتظاهر الأمير بادية ذي بدء بأنه مضطر لسرعة الأوبة ولكن أعيان البلدة ألحوا عليه بالترث عندهم ، وأمّلوا فيه خيراً كثيراً ، وكانوا مسرورين بكون اليهم الجديد اسبانيولياً من جنسهم ، وبعد ذلك تقرر إعداد ولية لأعيان طليطلة وجوارها ولكنها لم تكن مريثة المأكلّة . وفي اليوم التالي جاء المدعوون أفواجاً أفواجاً ونزلوا عن ركائبهم وربطوها خارج الحصن ، وصاروا يدخلون زرافات ، وكان في ساحة الحصن خندق وقف بجانبه جماعة من الجلادين ، فكانوا كلما أقبل جماعة يقطعون رؤوسهم ويرمون بها في الخندق . وتمّ كل هذا وأهل البلدة لا يعلمون بشئ مما جرى داخل الحصن وكان هناك طبيب من أهل طليطلة ، عظيم الفراسة ، لحظ عدم خروج أحد

من المدعويين . فسأل الأهالي هل رأيتم أحداً من المدعويين الى الحصن خرج منه ؟ فأجابوه : يجوز أن يكونوا دخلوا من هذا الباب وخرجوا من الباب الآخر . فقال لهم الطبيب : بل أظن أنهم لن يخرجوا أبداً وأنه أتى عليهم القتل . وقال ابن عذارى : ان عدد القتلى يوم الخندق هذا بلغ سبعمائة . وقال النويرى وابن القوطية : أنهم أكثر من خمسة آلاف ، ولكن من بعد هذه الواقعة سكنت الثورة في طليطلة مدة طويلة . انتهى كلام دوزى

فهذه كانت عقبى غرام أهل طليطلة بالانتفاض . وعمروس الاسبانيولى هذا الذى دبر هذه المكاييد هو الذى خدع أيضا قواد الفرنسيس وتسلم منهم المواقع التى كانوا فيها . ولا يبعد على رجل كهذا ، غدر ذلك الغدر بأهل وطنه ، أن يغدر بالفرنسيس ولننظر الآن الى رواية المؤرخ كوندى الاسبانيولى ، قال : إن الحكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطداً أطناها بتعبه وجهاده ، ففي سنة ٨٠١ مسيحية وفق ١٨٥ هجرية تحرك ملك اشثورية وأراد التجاوز على المسلمين . ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجدته مؤملا بذلك الاستيلاء على ولايات إسبانية الشمالية وضمها الى مملكته ، فجمعت أمداد شارلمان تثوب الى الاسبانيولى تحت قيادة ولده لويس ملك اكيثانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جبرونة ، وجاء فحاصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن مخلوق من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس الى طرطوشة ، فزحف الحكم بنفسه ومعه عمروس ومحمد بن مفرج قائد الخيالة الذى كان عظيم الاعتماد عليه نظراً لدهائه وإقدامه

ولما وصل الى سرقسطة ثارت الثورة في طليطلة بما أخرج الأهالي من عسف يوسف بن عمروس الذى كان قبض عليه الأهالي لسوء ملكته فيهم ، فاستدعى السلطان والده عمروس ، وعهد اليه نظراً لدرسته ودهائه بولاية طليطلة ، وأرسل ولده يوسف قائداً على تطليبة

ثم أغار الحكم على نابارة وبنبلونة ودخل وشقة ، فغشى الازفونش على بلاده وحشد عساكره ، وزحف اليه يوسف بن عمروس فأوقعه الازفونش في كمين وأخذه

أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه . وأما الحكم فكان يتوقد صدره
احنة على بهلول عامله الذي انجاز الى الفرنسيين ومشى بين يديهم ، ولما عرف انه في
جوار طركونة عمد اليه من فوره ، ولم يزل في أثره حتى ثقفه في طرطوشة بعد أن
هزمه ، واحتز رأسه . ورجع الحكم الى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة وذلك
خوفاً من الفشل في حصارها

أما حصار الافرنج برشلونة فقد أجمع المؤرخون انه كان من أندر ما عرف التاريخ
شدة وصبراً وان مسلمي لبرشلونة صبروا في هذا الحصار الى الحد الذي تحير فيه العقول .
ولكن الخلاف وقع بين المؤرخين في الأطوار التي دخلت فيها تلك الحرب . فبعضهم
قالوا ، كما في تاريخ متس وتاريخ ريجينون وغيرهما ، انه في سنة ٧٩٧ قدم أمير
برشلونة العربي على شارلمان ، وبعد ذلك في سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته ، فأخذ أسيراً
ونفى . وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون » Zaton وطوراً « زادو » وأحياناً
« زاد » Zaddo, Zaad ولعل اسمه سعدون أو سعد . وفي تاريخ الملك لويس الحليم
ورد أن سعدون هذا وقع أسيراً في سربونة ، وانه بعد أسره تولى امارة برشلونة ابن
عم له ، اسمه عامر ، فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين ، تحمل
في أثنائها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أي قبيل عن تحمله

وذهب مؤرخون منهم مارمول « Marmol » الى ان الرواية الصحيحة هي أن
سعدون أو سعداً كان تابعاً لملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل الى شارلمان يعهده
بالدخول في طاعته ، وفي سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل فعلا في طاعة شارلمان ولكن
شارلمان بعد سنتين من هذا العهد شعر بأن أمير برشلونة نقض طاعته ، فسرح اليه
جيشاً تحت قيادة ولده لويس فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها ، فجاء
أمير سرقسطة واستردها ، ولكن لويس عاد ثانية سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها .
فالروايات تختلف في كيفية استيلاء الفرنسيين على برشلونة ، ولكن خلاصتها واحدة
وهي أن العرب خسروا بلاد كتلونية منذ ذلك الوقت ، وأنه تولى عليها في البداية
أمراء تابعون لفرنسة ثم لم يرحوا حتى استقلوا عنها وعن العرب معاً

وقد ذكر كوندى الاسبانيولى واقعة عمروس فى طليطلة ، وكيف غدر بأعيان تلك البلدة وكيف دعاهم الى وليمة فى القصر وقطع رؤوسهم غدرآ . ولكن رواية كوندى تختلف عن رواية دوزى بكون دوزى يوهم ان تلك المكيدة وقعت بتواطؤ عمروس مع سيده الحكم ومع ابنه الأمير عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة عشرة من عمره ، وبأن كوندى يقول ان صاحب ذلك الرأى انما كان عمروس ، وان الأمير عبد الرحمن مع صغر سنه أوضح له فظاعة ذلك العمل وما يبق بعده على الأعقاب من قبيح الذكر ولكنه تغلب عليه لحدائه سنه ، وراجه الأمير كثيراً وأبدى وأعاد فلم يقنع عمروس الا بتنفيذ ما يئته لأهل طليطلة ، قائلاً للأمير : ان طليطلة قد ألفت العصيان من زمن طويل حتى صار لها خلقاً ملازماً وانه لابد لسكونها من قطف عدة مئات من رؤوس أعيانها . ثم ذكر كوندى زحف ملك ا كيتانية وحصاره لطرطوشة سنة ٨٠٧ وان الأمير عبد الرحمن كان فى سرقسطة فزحف لانجاد طرطوشة ووافاه اليها والى بلنسية فطردوا الفرنسيس عنها . ثم يقول : ان عبد الرحمن عاد فاستولى سنة ٨١٢ على جيرونية من كتلونية ، وانه وصل بجيشه الى أربونة وعاد بفنائم وافرة . ثم ان الفرنسيس استولوا على طرطوشة بعد حصار شديد وسار ملكهم لويس منها قاصداً أخذ وشقة (١) فما كاد ينصرف عن طرطوشة حتى رجعت هذه البلدة الى حكم العرب

وقد علق « دومارليس » على روايات كوندى عن هذه الحرب حاشية معناها ان مؤرخى الفرنسيس يزعمون ان ملك قرطبة بعث الى شارلمان وفداً بطلب الصلح ، وأنهم وصلوا الى « اكسلاشابيل » وتقرر الصلح على أن ينزل العرب لشارلمان عن جميع البلاد الواقعة بين نهر ابره والبيرانه ، وان هذه المعاهدة انعقدت سنة ٨١٠

فدومارليس يستبعد وقوع هذه المعاهدة بكون العرب لم يذكروا عنها شيئاً فى توارخهم ثم بكون لويس بن شارلمان زحف الى كتلونية عدة مرات من بعد هذا التاريخ فىرى دومارليس انه يجوز أن تكون حصلت مهادة بين الفريقين الى حد سنة ٨٢٠

(١) Huesca وابن حوقل فى المسالك والممالك يسميها وسكة

أو الى ما بعد ذلك . وأما العرب الذين شوهدهوا في أكسلاشايل فرجما كانوا من بعض أولئك الولاة المسلمين الذين كانوا ينتقضون على ملك قرطبة ويستعينون عليه بالأجانب من قبيل بهلول بن مخلوق الذي تلقى جزاء خيافته من يد الحكم نفسه

أساطيل الاسلام في الأندلس وافريقية

قال رينو : وفي تلك الأيام أخذت قوة الاسلام البحرية تزداد وتنبسط في البحر المتوسط بسبب رغبة المسلمين بإنشاء الأساطيل في مرقاء الأندلس وافريقية . وقد كان لذلك تأثير عظيم في اجتياح المسلمين لجنوبي فرنسة . ولما اقتطع عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس عن خلافة بني العباس وأرسل هؤلاء جيشاً في البحر ، أجاز الى الأندلس لمطاردته ، علم عبد الرحمن بأنه لا بد له من قوة بحرية في وجه قوتهم البحرية

ففي سنة ٧٩٣ اتخذ عبد الرحمن الأول دور الصناعة^(١) في مراسي طرطوشة وقرطوشة وقرطجنة واشبيلية والرية وغيرها . وقبل ذلك كانت جزر الباليار - أي ميورقة ومينورقة وإبسة وجزيرتا سرديانية وكورسيكا - عرضة لغزوات المسلمين ، بحيث ان أهالي هذه الجزر وضعوا أنفسهم تحت حماية شارلمان . وورد في مجموعة الدون بوكه ان هؤلاء كانوا تغلبوا على المسلمين في بعض الوقائع وأخذوا منهم بضع رايات ، فأرسلوا بها اليه . وعلى أثر ذلك ازداد غزو المسلمين لهذه الجزر ، فكانوا يغادونها القتال يراوحونها ، ويسبون من أهلها النساء والأطفال ويقتلون المقاتلين

(١) سمي العرب العامل التي كانت تبني فيها المراكب البحرية بدور الصناعة وربما قالوا الصنعة ومضى كتابهم على هذا الاصطلاح ، فترى مؤرخينا يقولون : كانت الصنعة في صور أو أسس الأمير فلان دار الصنعة في تونس أو كانت صنعة الأندلس بالرية وما أشبه ذلك . وأخذ الإفرنج جملة « دار صنعة » لفظوها « دارسنا » بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كالايمحى ، ثم قلبوها إلى « آرسنا » وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم في النسبة والمقامات الظرفية فصارت « آرسنال » ثم جاء الترك غرّفوا « دار صنعة » أو « دار صنعة » إلى « ترسانة » فقالوا عن دار الصناعة التي في خليج استانبول « ترسانة عامره »

ولم يكونوا يعفون إلا عن الشيوخ العاجزين والمرضى والمقعدين
وسنة ٨٠٦ م اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكا^(١) وكان بين بن شارلمان ملكاً
على ايطالية ، فأرسل أسطولاً لمطاردتهم ، فلما شعر المسلمون بدنو أسطول النصارى
انسحبوا الى الوراء ، فطمع فيهم آدمر Admer كونت جنوة وتعقبهم بأسطول
فرجعوا اليه وقتلوه وهزموا أسطولهم وأسروا ستين راهباً وباعوهم في الأندلس . وبلغ
ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بقدية أداها عنهم^(٢)

وسنة ٨٠٨ م جاء قرصان من الأندلس ، فنزلوا بسردانية فاجتمع أهلها ودحروهم
فنزلوا بكورسيكا (أو قرسقة) فصادمهم القائد بورشارد Burchard فحسروا ثلاثة
عشر مركباً وانهزموا . ولكن المسلمين في السنة التالية جاؤا من افريقية ونزلوا في
سردانية ، كما ان غزاة مسلمين آخرين جاءوا يوم عيد الفصح ونزلوا في كورسيكا
وعاثوا فيها . وجاء في تاريخ كورسيكا لجاكوبى ان المسلمين خيّموا في الجهة الشرقية
من الجزيرة بين أطلال مدينة آليرية «Aleria» ولم يتمكن الفرنسيين من طردهم الا
بشق الأقبس ، ثم في سنة ٨١٣ م رجعوا الى كورسيكا وأسروا وغنموا . وبينما هم
راجعون أكن لهم كونت امبورياس Ampurias بقرب مدينة برينيان قوة بحرية
غنمت منهم ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير ، فانتقم المسلمون عن
ذلك باجتياح سواحل نيقه Nice وبروفنس وسيفيتة فكشيا Civita - Vecchia

(١) أو قورسقة

(٢) وقرأت في مدينة جنوة في تاريخ جمهورية جنوة لمؤلفه فريديريشى دونافار أنه في سنة ٩٣٤ م
جاءت قوة بحرية إسلامية من افريقية فحصرت جنوة حصاراً شديداً ، لكن الجنويين تمكنوا من
دفعها عنهم ، فرجعت أدرأجها وأصابها ضرر من زوبعة بحرية . ثم بعد سنتين من تلك الواقعة جاء
أسطول إسلامي آخر وهاجم جنوة واشتد القتال فتغاب المسلمون ودخلوا البلدة وأصابوا مقام
كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين وقتلوا . وكان أسطول جنوة في كورسيكا فلما جاء ورأى ما حصل
بجنوة سار في أثر الأسطول الاسلامي فهزمه وفك الأسرى واسترجع الغنائم وصار الجنويون من
ذلك الحين يحصنون بلدتهم

بقرب رومة (١)

ورأى الامبراطور شارلمان ان الخطر قد ازداد على بلاده ، وأن لا بد له من تدابير بالغة في الشدة لرد غارات المسلمين البحرية . وقد كانت امارة الأغالبة في افريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، فكان أمير القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحامي سواحل مملكة شارلمان حرمة للمهد الذي كان بين هارون والامبراطور ، ولكن عندما مات الرشيد سنة ٨٠٩ ووقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون تفصى الأمير الأغلبى من ذلك العهد ، وصارت مراسي تونس وسوسة بثورة قرصان تنبث منها الغارات البحرية . وقيل ان أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الاغلبة عيث القرصان في سواحلهم ، فأجابه الرسول : نعم منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيداً يريدون أن يكونوا أحراراً والذين كانوا أحراراً ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحراراً أغنياء .

وكان القرصان أكثر ما يتعرضون للسفن التي تتردد بالبضائع بين فرنسة وإيطالية من جهة ، ومصر والشام واسيا الصغرى من أخرى . وكان قد انضم الى قرصان المسلمين قرصان النورماندين وأخذوا جميعاً يعيشون في السواحل الجنوبية ، فأمر شارلمان ببناء الابراج والحصون في السواحل وعند مصاب الأنهار ، وأنشأ الأساطيل لدفع عوادي القرصان .
وجميع هذه الروايات جاءت في مجموعة الدون بوكه

ولما طالت هذه المساجلات البحرية وتعب منها الفريقان داخل بعضهم بعضاً في

(١) الذي عرفته في رومة من روايات بعض أدباء الطليان والمطمين منهم على التواريخ أنه يوجد على مسافة ٤٠ كيلومتراً من رومة قرية يقال لها « سراسينشكو » Sarracinesco أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقموا إلى تلك الأرض وأحاط بهم الأهالي قتلوا جانباً واستسلم لهم الباقي وتصوروا وعمروا تلك القرية . ويقال إن سحنهم لا تزال تدل على أصلهم العربي وأن ما كلفهم ومشاربهم وصنعة الفناء عندهم تدل على عروبته . وحتى هذا اليوم ترائى أترقب الفرصة لمشاهدة تلك القرية والتنقيب عن صحة ماسمته . وقيل لي انه يوجد في ولاية « غاليارى » Gagliari من سردانية قرى أصل سكانها من العرب وأنه يوجد آثار عريضة في « لوشيرة » بقرب نابلي . ولا يخفى أن الامبراطور فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا وملك صقلية التي عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحي كان عنده جيش من العرب م عمدة قوته وكان متقناً للغة العربية

عقد معاهدة سلم تأمن بها السفن البحرية غوائل متلصصة البحر . ففي سنة ٨١٠ انعقدت أول متاركة ، ثم تجددت بعد سنتين ، وجاء رسول من الأندلس يرجح انه يحيى بن حكم أمير الماء ^(١) في الأندلس قاصداً أكسلاشابيل وعقد مهادنة مع شارلمان لثلاث سنوات . ولكن المسلمين نقضوها هذه المرة لأنهم سنة ٨١٣ نزلوا في جزيرة كورسيكة وتقدم عبد الرحمن ابن أمير قرطبة الى حدود فرنسة بجيشه . وفي تلك الواقعة قتل القديس آفانتين . « Saint Aventin » من أهالي بانير دولوشون Bagneres - De - Luchon في مقاطعة غارون العليا

ومات شارلمان سنة ٨١٤ وخلفه ابنه لويس الحليم ، وسار على أثره في السياسة ولكن في أيامه استفحلت غزوات المسلمين البحرية . وجرت لذلك العهد حادثة في قرطبة تفاقم بسببها هذا الأمر ، وذلك ان أهالي ريبض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار اليهم الحكم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونقى بقية السيف ، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً فاركبهم طبقاً عن طبق وأجازهم البحر الى اسكندرية وهناك خاف عاديتهم والى الاسكندرية فأدى اليهم مبلغاً من المال واركبهم الى جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريت ^(٢)

(١) نقل رينو ذلك عن مجموعة مؤرخى فرنسة وعن تاريخ كوندى وحتى الآن لم أظفر بهذا

الخبر في كتب العرب

(٢) جاء في فتح الطيب في ترجمة الحكم : وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الريبض من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهك في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فتاروا به وخاموه وباعوا بعض قرابته وكانوا بالريبض الغربي من قرطبة وكان محلهم متصلاً بقصره ، فقائلهم الحكم فغلبهم واقتروا وهدم دورم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدو وبالاسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها فرحف اليهم عبدالله بن طلعة صاحب مصر للأمون بن الرشيد وغنبيهم وأجازهم إلى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة . انتهى

وقال كوندى عن هذه الواقعة : ان الحكم سار إلى العصاة بنفسه برغم رجاؤه وكبار قواده أن لا يفاخر بنفسه وأوقع بالثائرين حتى امتلأت الشوارع بمجث القتلى ولكن الذين لبثوا داخل البيوت لم يصبهم سوء . وقبض الحكم على ثلاثمائة من الثوار وصلبهم على النهر . ثم أمر بدك

وفي سنة ٨١٦ توجه رسل من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان بدأ يباشر الاشغال في حياة أبيه ، وذلك الى مدينة كومبيان Compiene حيث كان

حارة الرض كلها بعد أن أمر بنهبها ولكنه أمر بعدم التعرض للنساء . ومازال السيف عاملاً في الثوار إلى اليوم الثالث فعفا عن بقى منهم في الحياة بشرط أن يخرجوا من قرطبة مع عائلاتهم ، فرحل جانب من هؤلاء الساكنين إلى طليطلة ، وأجاز نحو من ثمانية آلاف إلى برالعدوة حيث تقابلهم إدريس بن إدريس في فاس وبنوا حارة فيها هي مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس . وسار منهم خمسة عشر ألفاً إلى الاسكندرية ودخلوا البادية واستولوا عليها ، فاجأ عامل الخليفة المأمون على مصر إلى مصانعتهم وأدى لهم جانباً من المال على أن يذهبوا ويستعمرروا إحدى جزر بحر يونان ، فاختراروا اقريطش ، وكان المعمرور منها قليلاً فنزلوا بها وكان زعيمهم منذ برحوا قرطبة أبو حفص عمر بن شعيب فبعلوه أميراً عليهم ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين وأخذوا يغزون في البحر ويغنون ثم كان بناؤهم مدينة « قنديا »

وروي السيو شينييه Chenier ان الذي بنى قنديا هو أحد قواد الأمير عبدالله بن عبد الرحمن وكان اسمه « كندش » Candax فانه بعد موت سيده فارق الأندلس خشية انتقام الحكم منه وقد ذكر كوندى رواية هذه الحادثة مثل الحميدى ومحمد بن هشام وغيرها . وأما دوزى فقال ان عدد الذين نزلوا من الرضيين بالاسكندرية كان ١٥ ألفاً عدا النساء والأولاد . وكانت أمور مصر يومئذ مختلة فلم يقدر العامل على منعهم من النزول . واتفقوا أولاً مع قبيلة من عرب الضواحي إلى أن تمكنوا ، فاقتلوا مع هؤلاء العرب وهزموم واستولوا على الاسكندرية . فأرسل الخليفة المأمون جيشاً قاتلهم فقتلوه ونبتوا إلى سنة ٨٢٦ مسيحية إلا أن عمال الخليفة تغلبوا أخيراً عليهم فخرجوا إلى جزيرة اقريطش التي كان منها جانب تابعاً للقسطنطينية فاستولوا عليها وأسس قائدهم أبو حفص عمر البلوطى - من فحص البلوط - دولة استمرت في اقريطش (أو كريت) إلى سنة ٩٦١ اذ عاد الروم فاقتنحو الجزيرة اه

وجاء في الانسكلوبيديا الاسلامية باللغة الافرنسية ان المسلمين احتلوا جزيرة اقريطش سنة ٦٧٣ مسيحية . ولكن المعلومات قليلة عن هذا الدور الأول من احتلالهم . ثم انه في سنة ٨٢٥ استولى على هذه الجزيرة أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى وذلك على أثر وقعة الرض في قرطبة واجلاء الحكم الأموى أهل الرض ومجيئهم إلى الاسكندرية ، فبأوا إلى جزيرة اقريطش فاقتنحوها كلها ماعدا أرض سفاكيا ، وأرسل ملوك بيزنطية مراراً بالجيوش لطرد المسلمين من هناك فلم يتمكنوا من ذلك وبقيت هذه الامارة الاسلامية في كريت ١٣٥ سنة ثم بنى المسلمون عند رأس « شاراكس » عاصمة لهم سموها قانديا وصار هذا الاسم عاماً لاقريطش

وسنة ٩٦١ جاء القائد البيزنطى نيقفور فوكاس وحاصر قانديا واستفتحها بعد حصار عدة

يقيم الامبراطور ، ثم ذهبوا الى اكسلا شابل حيث كان سينعقد مجلس شورى . وكان
مراد رسل أمير الأندلس عقد متاركة ، وانعقدت الا انها لم تطل . وفي سنة ٨٢٠

أشهر واستصق الجزيرة وأخذ آخر امراء المسلمين على الجزيرة عبد العزيز أسيراً ، ومات في
القسطنطينية ، ودخل في خدمة ملك الروم ابنه انطاس وفارق الاسلام هذه الجزيرة اذ جلا المسلمون
عنها ، ومن اختار البقاء تنصر

أما استيلاء الأتراك العثمانيين على كريت فبدأ سنة ١٦٤٥ وانتهى سنة ١٦٦٧ وبقيت
للبنادقة بعض مدن فسقطت في أيدي الترك سنة ١٧١٥ اه

وقال ياقوت في معجم البلدان : اقريطش بفتح المهمزة وتكسر والالف ساكنة والراء مكسورة
وياء ساكنة وطاء مكسورة وشين معجمة اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا
وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء . قال أحمد بن يحيى بن جابر
(يعنى البلاذرى) : غزا جنادة ابن أبي أمية الأزدي جزيرة ارواد في سنة ٥٤ في أيام معاوية ثم غزا
اقريطش فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها ثم اغلق . وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة
الرشيد ففتح بعضها . ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف
بالاقريطشى فافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم
أحداً وخرب حصونهم وذلك في سنة ٢١٠ في أيام المأمون (هذه رواية البلاذرى في « فتوح
البلدان » عند ذكر فتح الجزائر البحرية)

وقال غير البلاذرى : فتحت اقريطش في أول أيام المأمون ، وقبل فتحت بعد ٢٥٠ على يد عمر
ابن شعيب المعروف بابن الغليظ ، وكان من أهل قرية بوطروح من عمل فحص البلوط من الأندلس
وتوارثها عقبه سنين كثيرة . وقال ابن يونس : كان أول من افتتحها شعيب بن عمر بن عيسى ،
وكان سمع يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر ، ثم ندب لفتحها فسار اليها حتى افتتحها . وكانت من
أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أتاه عليها تقفور بن الفقاس المستق في خلافة المطيع ،
وتملك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ في اثنين وسبعين ألفاً منهم خمسة
آلاف فارس ، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠
قتل ونهب وسبي ، وأخذ صاحبها عبدالعزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي
وأمواله وبنى عمه ، وحمل ذلك كله الى القسطنطينية ، وقيل انه حمل الى القسطنطينية من أموالها وسبي
أهلها نحواً من ثلاثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة والقوفا في المينا الذي دخلت مرآكهم فيه ، لئلا
يدخل فيه بدمع عدو ، وهي الى الآن بيد الإفرنج . ونسب اليها بعض الرواة منهم محمد بن عيسى
أبو بكر الاقريطشى حدث بدمشق عن محمد بن قاسم المالكي زوى عنه عبدالله بن محمد النسائي
المؤدب قاله ابو القاسم انتهى

ساز اسطول إسلامى من تركونة وغزا جزيرة سردانية فجاء أسطول مسيحي لأجل الدفاع عنها ، فتغلب الأسطول الاسلامى وأغرق المسلمون ثمانية مراكب للمسيحيين وأحرقوا أيضاً مراكب كثيرة .

وقال ابن عميرة في بغية المتنس في تاريخ رجال الأندلس : عمر بن شعيب ، أبوحفص ، المعروف بالفليظ البلوطى من أعمال فحس البلوط المجاور لقرطبة ذكره أبو محمد بن حزم وقال : إنه كان من فل الرضيين وانه الذى غزا اقريطش وافتتحها بعد الثلاثين ومائتين وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذى غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ وكان أكثر المفتحين لها معه أهل الأندلس . هكذا قال . وذكره سعيد بن يونس فقال : شعيب بن عمر ابن عيسى أبو عمر صاحب جزيرة إقريطش كان تولى فتحها بعد سنة ٢٢٠ وقد كان كتب شعيب هذا بالمراق وكتب عن جده يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر أيضاً . هذا آخر كلام ابن يونس فقد اختلفا في اسمه أولاً فقال أحدهما عمر بن شعيب وقال الآخر شعيب بن عمر ، ووصفاه بالفتح ، ولولا ذلك لقلنا ان أحدهما ابن الآخر ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح انتهى وجاء في صبح الأعشى أن عبدالله بن أبي سرح أمير مصر كان افتتح اقريطش وبقيت بأيدي المسلمين حتى قلب عليها النصارى في سنة ٣٤٥

وقال ابن حوقل : وكانت اقريطش وقبرص للمسلمين وأبناء المجاهدين ، فداخل أهلها من الحسد والتكيد ماداخل أهل الثغور الجزرية والشامية وأهل ذلك البلد من الفسق والفساد والشح والصاد والقبيلة والفساد فجعلا عبرة للمعتبرين وموعظة للناظرين ، ولا يصلح الله عمل المسدين ولا يضع أجر المحسنين

وقال في محل آخر : وكان للمسلمين في بحر الروم غير جزيرة جلييلة وناحية مشهورة فاستولى العدو عليها مثل قبرص واقريطش ، وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، وكانوا يفزون بلاد النصرانية وينكون فيها النكاية الظاهرة يوجلبها لهم قريهم من مطالبهم ومجاورتهم بما كانوا فصدت النصارى صدها ووكدت وكدها إلى أن ملكتها جميعاً . وكانت قبرص على غير ما كانت عليه اقريطش من موافقة كانت بينهم وبين المسلمين فيها ، وذلك انها تسنان ، فكانت نصفاً للمسلمين ونصفاً للنصرانية ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم . وجزيرة اقريطش حرة مذ كانت فتحت لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج الا على طريق الجهاد أو في حين الهدنة والسائلة يدخلونها على شرائط بينهم انتهى

ثم انه قد ذكر السمودي في مروج الذهب ان الخليفة المستعين بالله نفي احمد بن الحبيب الى اقريطش سنة ٢٤٨

وفي تلك السنة مات الحكم ، وتولى ابنه عبد الرحمن ، وكان الحكم موصوفاً بالقسوة جباراً وكان يلقب بأبي العاصي ومن هنا لقبه الافرنج بلفظة ابولاز Abulaz فلما مات الحكم جاء عمه عبد الله يطالب بالامارة كما دته ، وهو الذي كان داخل

ومما يتعلق بمجزيرة اقريطش عبارة لابن جبير الأندلسي في كلامه على جزيرة صقلية فقد ذكر أنه صادف رجلا مسلما في مدينة اطرابونش كان قد تحول الى النصرانية وذكر أنه قد يعرض للمسلمين هناك من الفتنة في دينهم ومن أسباب السكال ما يدعوهوم الى فراق الاسلام قال : فنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء المدينة التي هي حضرة الطاغية ، ويعرف بابن زرعة ، ضغظته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانفماس في دين النصرانية ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى أيضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله . ومع ذلك فأعلمنا انه يكتم ايمانه فعمله داخل تحت الاستثناء في قوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)

قال ابن جبير : ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين الفائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت توارثوا السيادة كابرأ عن كابر ، وهو مع ذلك من أهل العمل الصالح كثير الصنائع الأخروية من افتسكك الاسرى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج فارتجت هذه المدينة لوصوله ، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه أحداث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمينة ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي بدون مال ، فانفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره اياه بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية . فنفذ لها نفوذ الملوك المغلوب على نفسه وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة زغنة منه في الاجتماع بنا فاجتمنا به فاطهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة ما يبكي العيون دماً . فمن ذلك أنه قال كنت أود لو اباع انا وأهل بيتي لعل البيع كان مخلصنا مما نحن فيه ويؤدى بنا الى الحصون في بلاد المسلمين . فتأمل حالا يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره الى ان يتمنى مثل هذا التمنى مع كونه مثقلا عيالا بنين وبنات ، فسأنا الله عز وجل له حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وفارقناه با كياً مبكياً ، واستمال نفوسنا لشرف منزعه وخصوصية شتمائه وكنا أبصرنا له ولأخوته بالمدنية دياراً كأنها القصور المشيدة . وشأنهم بالجملة كبير . وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعهم بها وبمجازيه الجزاء الأوفى

شارلمان لأجل أن يساعده على ابن أخيه . فلما جاء هذه المرة واهرج الأندلس وامرجهما
اهتبل الفرنسيين الغرة ليزحفوا مجدداً الى كتلونية وآرغون فعاثوا ودمروا وأحرقوا
وفي سنة ٨٢٠ أتهم بيره Bera أمير برشلونة من قبل فرنسة بجمالة المسلمين
سراً ، وكان الواشى به أحد القوط ، وكان بيره نفسه قوطياً أيضاً ، وكان من عادة
القوط أنه اذا تخاصم اثنان ولم يقدر احدهما أن يثبت دعواه بالبينة تبارزا بالسلاح
فالمغلوب منهما يعد مذنباً . وفي ذلك اليوم كان المغلوب « بيره » فتقرر حينئذ أنه كان
خائناً للفرنسيين . وفي ذلك الوقت ثار نصارى ناباراه على الفرنسيين من شدة عسفهم
وظلمهم ، واتفقوا مع المسلمين ، وسلموهم مدينة بنبلونة ، فأرسل الامبراطور الكنت
أزناار Asnar والكنت ابل Eble لأجل تسكين الثورة ، فاتفق عليهما نصارى الجبال
وتفقوهما . فأما أزناار ففعلوا عنه لأنه كان من اصل عشقوني أى من أقارب الاسبانيول

قال ابن جبير : ومن أعظم مامنى به أهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه أو على
زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المفضوب عليه أفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة ،
فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب لابن سيلا ولا الأم للبت سيلا ، فتخيل حال من منى بمثل هذا في
أهله وولده يقطع عمره متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق
على جميع مااتفق على أهل جزيرة اقريطش في المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية بالاستدراج
الشيء بعد الشيء محالاً بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .
قال : ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور ، في نفوس النصارى ، أنهم يزعمون انه لو تنصر
لا بقى في صقلية مسلم . قال : ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التي تذيب القلوب رافة وحنانا ان
أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راعياً في أن يقبل منه بنتا بكرها صغيرة
السن قد راهقت الادراك فان رضيتها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن يرضاه من أهل بلده . وذلك
طمعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين ، وطال عجبنا من حال تؤدى
الى السباح بمثل هذه الوديعة المعلقة واسلامها الى يد من يفرها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق
اليها ، كما انا استغزينا حال الصبية ورضايها . ففراق أهلها رغبة في الاسلام واستمساكاً بعروته
الوثقى ، وكان استنثارها الاب في مامه به فقالت : ان أمسكتنى فانت مسؤول عني . انتهى باختصار
وقد اوردنا هذه الأمانيل ليعلم القارىء كيفية تلاشى الاسلام من اقريطش وصقلية وغيرهما من
جزائر البحر المتوسط وبعد ذلك من الأندلس ، وذلك بعد فقد المسلمين استقلالهم وسلطانهم السياسى ،
والدين لا يمكن حفظه بلادنا كما قلنا ذلك مراراً

فأطّقت بهم رحم القرابة نحوه . وأما الكنت إبل فلكونه افرنسياً صريحاً أرسلوه الى الأمير في قرطبة . روى ذلك الدون بوكه
وفي سنة ٨٢٦ ثارت مدينة ماردة ، على عبد الرحمن ، فكتب اليهم لويس بن شارلمان الكتاب الآتي نصه :

«باسم ربنا الاله وباسم مخلصنا يسوع المسيح ، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة
الالهية الى الاساقفة والشعب في ماردة . قد اتصل بنا ماتقاسونه من العذاب من جهة
الملك عبد الرحمن الذي لا يزال يرهقكم عسراً متبعاً في ذلك طريقة ابيه أبولاز الذي
كان يبتزكم أموالكم والذي كان جعل اصدقاءه أعداء وجعل الطائع عاصياً ، فاليوم
يريدون أن يجرموكم حريتهم وان يثقلوا كواهلهم بالضرائب وان يمسوا كرامتكم
ويهينوكم . وقد علمنا انكم ايتم تحمل الاهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم في وجه
طمعهم وغدرهم . وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة ، فأرأينا ان نكتب هذا
الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه ولتحريضكم على الثبات في خطتكم هذه . ولما كان
هذا الملك البربري عدواً لنا ، كما هو عدولكم ، فانتا حاضرون للاشتراك معكم في قتاله .
ومرادنا في هذا الصيف بمون الله تعالى أن نرسل جيشاً يجتاز البيرانه ويكون حاضراً
للمعمل باشارتكم ، فان كان عبد الرحمن سيرحف اليكم فيكون جيشنا بالرصاد له ،
وترانا نعلمكم من الآن انكم ان كنتم تخلمون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا
فنحن حاضرون ان نعيد اليكم حريتهم الأولى ، بدون مساس بها وبدون ان نطالبكم
بأدنى مال تؤدونه لنا ، واتم مختارون القانون الذي تريدون ان تسيروا عليه ، ونحن
نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا في الدفاع عن سلطتنا ونسأل الله أن يسبغ عليكم
آبواب العافية » انتهى

وفي ذلك الوقت عقد الامبراطور لويس ندوة عامة في اكسلاشابل ، حضرها
ابنه بين وسائر أمراء البلاد المجاورة لاسبانية ، وأعلن الامبراطور عزمه على غزو
الأندلس للاخذ بالثار . وكان في اكسلاشابل قائد قوطي اسمه عيسون Aizon التجأ
بزعمه الى الامبراطور ، فما شعروا به إلاّ وقد انسل من هناك خفية ، وجاء وأثار

الأهالي في كتلونية وآراغون ، واستولى على مدينة أشونة Assuna واجتاح البلاد التي كانت تحت احتلال الفرنسيين ، وأرسل يستنجد أمير قرطبة ، ولماً أبطأ عليه الامداد ذهب بنفسه الى قرطبة لأجل الاستعجال في التعبئة والنجدة فصرح عبد الرحمن جيشاً بقيادة عبيد الله أحد ابناء عمه ، وسار هذا الجيش ومعه عيسون ، وأغدوا السير ، بينما الجيش الافرنسي يسير بطيئاً ، فوصلوا الى برشلونة وجيرونة واجتاحوها ، وتقدموا الى سردانة وملأوا البلاد عيثاً وتدميراً كما جاء في مجموعة بوكه . وكان أهالي ماردة قد أعلنوا الحرب على عبد الرحمن ، وانتظروا نجدة الفرنسيين لهم ، ولكن عبد الرحمن ضيق عليهم الحصار وجرعهم أمراً كؤوسه ثلاث سنوات حتى دخلوا في طاعته صاغرين ورجعوا داخرين بعد أن كانوا فآخرين . وفي تلك الأيام ازداد عيش قرصان النرمندانين في سواحل فرنسة والمانية وانسكاترة واسبانية ، بينما قرصان افريقية والأندلس تجمل في سواحل فرنسة وإيطالية غدوها ورواحها ، فعيل صبر بونيفاس امير كورسيكة وأرسل مراكب الى افريقية فاجتاحت ساحل قرطجنة الأخذ بالثار . وقد ذكروا انه كان للمسلمين لذلك العهد بارجة متناهية في الكبر يظنها الرأي من بعيد سورا عالياً سائراً في البحر غزت مرة جزيرة اوى Oye في بريطانيا عند مصب نهر لوار ولكن لم نعلم من آثارها شيئاً غير هذا

ولا يخفى ان هذه الوقائع كانت تترأكم كلها في أيام الامبراطور لويس الحليم الذي كان هو بنفسه فائل الرأي ضعيف العزيمة سيء الادارة فاقد الارادة ، قدم مملكته بين أولاده الثلاثة ، وسلم الى كل حصته ، ثم بدا له أن يعيد القسمة وأن يجعل نصيباً لولده الرابع ، فنار أولاده عليه وقاتلوه وخلعوه ، ورجع إلى العرش ، ولكن لم ترجع مهابته وامتلات أيامه بالفتوق والآفات بحيث أنه أصدر سنة ٨٢٨ منشوراً يقول فيه ان المجاعة والطاعون وسائر اصناف الآفات السهاوية انقضت على شعوب سلطنتنا مما يدل على غضب الله تعالى من أعمالنا غير المستقيمة . ثم أمر الامبراطور بصيام عام وواجتماع الاساقفة في أربع حواضر ، منها مدينة طلويزة ، وذلك لأجل المذاكرة في التدابير اللازمة لمعالجة هذه الحال

أما العلاقات التجارية، بين مملكة شرلمان وبين مصر والشام، فلم تنقطع في وقت من الأوقات. وفي سنة ٨٣١ تجددت المواصلات بين الخلافة العباسية والسلطنة الغربية، وقد تقدم وفد من قبل الخليفة المأمون إلى فرنسا مؤلف من ثلاثة اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحي. وجاءوا إلى الإمبراطور بهدايا منها منسوجات فاخرة ومنها افأويه عطرة.

وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في جبال البيرانه، بين جيوش أمير الأندلس وجيوش فرنسا، فاجتاح الأمير عبید الله ابن عم الأمير عبد الرحمن في سنة ٨٣٨ البلاد التي كانت تحتها جيوش الفرنسيس، كما ان هؤلاء اجتاحوا من بلاد قشتالة ما كان تابعا للملك قرطبة، وسار أسطول للمسلمين من تركونة ومعه أسطول آخر من جزيرتي ميورقة ويايسة. وهاجم المسلمون مرسلية وازلوا العساكر في نواحيها واستولوا على ضواحيها وساقوا جميع الرجال حتى الرهبان اسرى. والمظنون أنه في تلك الغزوة حصلت الحادثة المنسوبة إلى القديسة اوزيبيا Cusébia رئيسة دير الراهبات في مرسلية والأربعين راهبة اللأى كن في ذلك الدير، وذلك أنهن خشين من ان الغزاة يتجاوزون على اعراضهن ويلحقون بهن المرات فشوهن خلقه انفسهن بجمع انوفهن حتى يكن بأمن من تجاوز غزاة العرب

ومات الإمبراطور لويس سنة ٨٤٠ فوق الخلف بين أولاده، واغتم المسلمون هذه الفرصة فدخلوا من مصب نهر الرون، كما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسا للدون بوكه، وعاثوا في مدينة آرل ونواحيها. وفي الوقت نفسه أغار موسى أمير تطيلة في بلاد نابار وأوغل حتى بلغ أرض سردانة، واكتسح تلك البلاد^(١)

وكانت في تلك الأيام قد ساءت الأحوال في فرنسا إلى الدرجة القصوى بسبب

(١) أشار رينو إلى هذا الخبر تعلقا عن القرى. وقد راجعنا كلام القرى في النسخ، فرأينا يقول: انه في سنة سبع وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصر حتى هزم الله عدوه وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود

الحروب الداخلية ، وأصبحت قد انتثر سلكها وتعطلت حلاها وتقاسم جنوبي فرنسا ثلاثة ملوك : الامبراطور لوثير Lothaire والملك شارل الأصغر والملك الشاب بين ابن بين الذي كان ملكاً على ا كيتانية . ثم ثار أمير اسمه فولكراد Folcrade على الامبراطور وسمى نفسه كنت آرل وروفس . وقد بلغ حب الشقاق وفساد الأخلاق ان الكثيرين من سلالة شارل مارتل وبين القصير وشارلمان كانوا يستنجدون بالأعداء الأجانب بعضهم على بعض

ولم تكن ايطالية بأحسن حالا من فرنسا لأن المسلمين كانوا استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من أمراء المسيحيين يتنازعان الامارة في بلاد بينيفنتي بقرب نابولي ، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا في صقلية ، فدخل المسلمون الى الأرض الكبيرة واستولوا على قسم كبير منها (١) .

(١) جاء في فوج البلدان للبلاذري تحت عنوان « فتح جزائر في البحر » مايلي :

قالوا: غزا معاوية بن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان صقلية ، وكان أول من غزاها ، ولم تزل تغزى بعد ذلك فقد فتح آل الأغلب بن سالم الافريقي منها نيماً وعشرين مدينة وهي في أيدي المسلمين (أي في القرن الثالث للهجرة) وفتح أحمد بن محمد ابن الأغلب منها في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله قسرياً وحسن غليانة . وقال الواقدي: سبي عبد الله بن قيس بن مخلد النرقى صقلية فأصاب أستانم ذهب وفضة مكللة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك ليشن بها . قالوا : وكان معاوية بن أبي سفيان يغزى برأ ومجراً فبعث جنادة ابن أبي امية الأزدي الى رودس . وجماعة احد من روى عنه الحديث ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ومات في سنة ٨٠ ففتح رودس عنوة وكانت غيضة في البحر وأمره معاوية فانزلها قوماً من المسلمين وكان ذلك في سنة ٥٢

قالوا: ورودس من أخصب الجزائر وهي نحو من ستين ميلاً فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة . قال البلاذري : وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا اقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة يأمره بهدم الحصن والقتل . وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقبياً بها يقرئ الناس القرآن . وفتح جنادة ابن أبي امية في سنة ٥٤ أرواد وأسكنها معاوية للمسلمين وكان ممن فتحها مجاهد وتبع ابن امرأة كعب الاحبار وبها اقرأ مجاهد تبعاً القرآن . ويقال انه اقرأه القرآن برودس . وارواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية (ان جزيرة ارواد هي قبالة طرطوس بالقرب من طرابلس الشام فاما أن يكون وقع خطأ من البلاذري في تعيين موقع أرواد واما أن يكون المقصود بارواد هذه جزيرة أخرى في

وفي سنة ٨٤٦ جاء غزاة العرب الى رومة وصعدوا في نهر الطير ونهبوا كنائس

الارخبيل الرومي كان العرب يسمونها ارواد) وغزا جنادة افریطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق وغزاها حميد ابن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأفريطشي وافتتح منها حصنا واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم انتهى. وهذه الرواية قد تقدمت بحرفها

ثم قال البلاذري : وبالمغرب أرض تعرف بالارض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً أو أقل من ذلك قليلاً أو أكثر قليلاً وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى باره وكان أهلها نصارى وليس بروم غزاها جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلفون البربري ويقال انه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصناً واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وانه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة الا بأن يعقد له الامام على ناحيته ويؤله اياها ليخرج من حد التغليب وبنى مسجداً جامعاً ، ثم ان أصحابه شغبوا عليه فقتلوه ، وقام بعده سوران فوجه رسوله الى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقداً وكتاب ولاية ، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله اليه ، وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر ، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المصم بالله فأمر عامه على المغرب ، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين ، بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين ، فقعد له وأقذه . انتهى .

قلت : إن الأرض الكبيرة هذه هي أرض ايطالية التي تقابل سقلية . ومدينة باره التي ذكرها البلاذري هي قاعدة مقاطعة اسمها باره وهي على بحر الادرياتيک والطليان يقولون لها بارى Bari . وجاء في تاريخ ابن الأثير في الجزء السابع في حوادث سنة ٢٢٨ ما ملخصه : ان الفضل بن جعفر الهمداني سار في البحر فنزل مرسى مسيني وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وسنة ٢٢٩ خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ مدينة « شره » فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، ولكنهم انهزموا وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف . وفي سنة ٢٣٢ ضيق الفضل ابن جعفر الهمداني على مدينة مسيني وأكن لهم في بعض الوقائع ، فوقعوا في الكمين ولم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وسلموا المدينة إلى المسلمين . وفي تلك السنة أقام المسلمون بمدينة طارنط من أرض انكيودة وسكنوها وسنة ٢٣٤ استولى المسلمون على مدينة راغوس وهدموها وأخذوا منها ما أمكن حمله وسنة ٢٣٥ غزا المسلمون مدينة قصر يانة .

وكان الأمير على سقلية محمد بن عبد الله بن أغلب وكان مقياً بمدينة بلارم لا يخرج منها إلا للغزو وتوفي سنة ٢٣٦ وكانت امارته تسع عشرة سنة . ثم ذكر ابن الأثير فتح قصر يانة بعد ذلك ، وقال

القديسين بطرس وبولس وغزوا أيضا جنوة وعطلو اسدود نهرها، فنفر الأهالي وقاتلوم

انه سنة ٢٤٤ فتح المسلمون قصر يانة على يد العباس بن الفضل بن يعقوب الذي تولى امانة سقلية بعد محمد بن عبد الله بن الأغلب المتوفى سنة ٢٣٦ وان العباس هذا كان غزا نواحي قصر يانة ونهب وأحرق ليخرج إليه البطريق فلم يفعل ، وأنه سنة ٢٣٨ خرج العباس في جمع عظيم وآتى قطنانية وسرقوسة ونويطس وراغوس فغم من جميع هذه البلاد وفي سنة ٢٤٢ سار العباس في جيش كثيف ففتح حصوناً عدة ، وسنة ثلاث وأربعين نزل على القصر الحديد وحصره وما زال يضيق عليه حتى تسلمه وأنه في سنة ٢٤٤ أرسل جيشاً في البحر فلقبهم أربعون شلنديا للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهمز الروم وأخذ منهم المسلمون عشرة شلنديات برجالها ثم غزا العباس قصر يانة ووقع في يده رجل من هناك دله على أماكن من سور المدينة دخل منها ووضع السيف في الروم ففتحوا الأبواب وتسلم البلدة وغنم منها ما يفوق الوصف وكان ملك القسطنطينية أرسل ثلاثمائة شلندى ملأى بالسكاكر فوصلت إلى سرقوسة (سيرا كوزا Syracusa) فخرج إليهم العباس وقاتلهم فهزمهم وغنم منهم مائة شلندى .

قال: وفي سنة ٢٤٦ نكث كثير من قلاع سقلية وهي سطر وابلية وابلطونو وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبي ثور فخرج العباس إليهم فاقتتل مع الروم فانهمز الروم ثم سار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة بلطونو فحصرها فجاءه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فزحف إليهم ، فتلاقوا بمجفودي ، وجرى بين الفريقين قتال شديد فانهمزت الروم وعادوا إلى سرقوسة . وسنة ٢٤٧ سار العباس إلى سرقوسة ، ثم إلى غيران قرقة ، فاعتل ذلك اليوم ، ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدفن هناك فنبهه الروم وأحرقوا جسده وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصبيفاً وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين انتهى .

قلت: ان مدينة طارنت التي مر ذكرها هي في الأرض الكبيرة في مقاطعة أوثرانتة وان أرض قلورية التي يشير إليها ابن الأثير وانكبردة هما الآن كالبرة Calabria وقد جاء ذكرها في معجم البلدان لياقوت قال : قلورية بكسر أوله وتشديد اللام وفتحها وسكون او او وكسر الراء والياء مفتوحة خفيفة وهي جزيرة في شرقي صقلية (العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة) وأهلها افرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس الفلورى روى عن أبي اسحاق الحضرمي وغيره وحدث عنه أبو داود في سننه . ومن مدن هذه الجزيرة قبوة ثم بيش ثم تامل ثم ملف ثم سالورى . قال ابن حوقل : وهي جزيرة داخلة في البحر مستطيلة أولها طرف جبل الجلالة وبلادها التي على الساحل قسانة وستانة وقطرونية وسبرسة واسلو حراحة وبطرقوقة وبوه . ثم بعد ذلك على الساحل جون البناديقين وفيه جزائر كثيرة مسكونة وأمم كالشاغرة والسنة مختلفة بين افرنجيين وألمانين وصقالبة وبرجان وغير ذلك . ثم أرض بلبونس واغلة في البحر شكلها شكل قرعة مستطيلة

(قلت يريد بيلبونس Pélouponése وهي شبه جزيرة المورة . وكان العرب يقولون لكلازرة قفزة أيضاً)

قال المسعودي في مروج الذهب عند ذكرامة النوبرد ويريد بهم اللومبرديين : ان المسلمين ممن جاورهم كانوا غلبوم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باره وطارينتو ثم قال : ان مدينة طارينتو ومدينة سيرين وغيرها من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ثم ان النوبرد انابوا ورجعوا على من كان في تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في أيدي النوبرد انتهى

ومن هذا كله يعرف أن المسلمين لم يقتصروا على فتح جزيرة صقلية ، بل تجاوزوها الى الأرض الكبيرة ولبثوا فيها زمناً طويلاً إلى أيام فريدريك الثاني امبراطور المانية وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر للمسيح وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين وكان يعرف العربية معرفة جيدة انتهى وقال الاستاذ الشيخ محمد الحانجي البوسنوي من مدرسى المعهد العلمي الحسروى في مدينة سراى بوسنة في مقدمة كتابه « الجواهر الأسنى في تراجم علماء بوسنة » فتحت جزيرة صقلية بتأييدها سنة ٢١٣ على يد قاضى القيروان عالم زمانه أسد بن القرات صاحب المدونة الأسدية وكان رجلاً صالحاً فقيهاً أدرك مالك بن أنس ورحل اليه . فبقيت صقلية بأيدي المسلمين مدة واهتدى أهلها فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع حتى أنه كان في مدينة واحدة من مدنها وهي « بلم » نيف وثلاثمائة مسجد ، قال ابن حوقل : رأيت في بعض الثوارع من بلم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد . ودام ملك المسلمين لصقلية الى سنة ٤٦٤ وبعد زوال ملكهم منها بقي فيها الاسلام مدة مديدة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية الى أرض قلورية من بلاد ايتاليا واستولى المسلمون على عدة بلاد منها كريبو وباره وطارنت وكانوا قرعوا أبواب رومية مقر البابارئيس النصرانية . وبنى بمدينة « ريو » أبو الفناثم الحسن بن على ابن الحسين الكلبي مسجداً كبيراً في وسطها وذلك سنة ٣٤٠ وكل هذه البلاد التي ذكرناها خلت بمرور الزمان من الاسلام والمسلمين وعفت فيها آثارهم واندرست معالمهم (وتلك الأيام نداولها بين الناس) انتهى .

وقد مر ابن جبير الأندلسى بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠ وكانت خرجت من ملك الاسلام ، ولكن كان المسلمون لا يزالون يسكنون فيها ، قال ابن جبير : خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفق مشحونة بالأرزاق على اختلافها مخلوذة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معبورة بعدة الصلبان يميشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد أحسنوا السيرة في استعمالهم واصتطاعهم ضربوا عليهم اتاوة في فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يحدونها والله عزوجل يصلح أحوالهم ويحجل العقبي الجميلة ما لهم . قال : وليس في مسينى إلا فريسير من

وحمل الرهبان والقسيسون السلاح^(١)

ولم تكن الأندلس بأسعد حالا في تلك الأيام لأن الفتن كانت تصطلحها . والآفات تبيخ عليها بكلها فانضم الى الفتن المجاعة والقحط والجراد وغزو النورمندين الذين

ذوى المهن وذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب . وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها بيلرمة وفيها سكن الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد وسائر المسلمين بضياها وجيم قرأها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفظها .

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وكلهم أو أكثرهم متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالمرية وعلاته على ما أعلننا به أحد خدمته (الحمد لله حق حمده) وكانت علامة أيه (الحمد لله شكراً لأنتمه) .

وأما جواربه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديعة المذكور وهو يحيى ابن فتیان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الأفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات، وأعلننا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجحة دعر لها هذا الشرك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانها وربما لحقهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليدكر كل أحد منكم معبوده .

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً ويتصدق تقرباً الى الله ويفتك الأسرى ويربي الأصغر منهم ويزوجهم وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة لفتيانهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم بعد تقدمه رغبة منه إلينا في ذلك فأحفل في كرامتنا وبرنا وأخرج إلينا عن سره المسكون بعد مراقبة منه في مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهد المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرنا وهو يذوب شوقاً وتحرقاً واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة وقال لنا أنهم مدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له ونحن كأتمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرأ ففتياننا التبرك ببقاء أمثالكم من الحجاج والاعتباط بما تلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لتخذها عدة للإيمان وذخيرة للاكفان فتعطرت قلوبنا له إشفاقاً ودعونا له بحسن الخاتمة .

(١) جاء ذلك في مجموعة البولنديين ، وفي تاريخ مدينة نيس للسيو لويس دورنت ، وفي مخطوط لؤلؤ اسمها أغيو فريديو محفوظ في مكتبة تورينو .

أخذوا ينزلون في أشبونة واشبيلية ويفسدون في أرضهما .

وفي سنة ٨٤٨ عاد المسلمون فغزوا مرسيية وجميع الساحل الى جنوة ، كما جاء في مجموعة الدون بوكه ، وكان الملك بين شاباً وكان في حرب مع عمه شارل الأصلع ، فطلب بين مساعدة المسلمين له وأرسل إلى قرطبة غليوم كونت طلوزة حفيد البطل غليوم الذي اشتهر في حروب المسلمين وتلقب بالقديس ، كما سبق الكلام عليه ، فنال غليوم ما أراد وأصبحه بمساكر تمكن بها بين من . اخراج عمال شارل الأصلع من برشلونة ومن مدن أخرى من كتلونية . وكان قرصان المسلمين قد نزلوا في سواحل آرل ، واضطروا لما كسة الريح أن يتأخروا في الساحل ، فحمل الأهالي السلاح من كل جهة وذبحوهم . ولكن في تلك المدة زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة وتقدم من جهة اورجل Urgel وريباغورسة Ribagorsa ولم يزل يشحن في أرض الفرنسيين ويقتل ويسبي الى ان اضطر الملك شارل الأصلع أن يطلب من المسلمين الصلح ولم ينله الا بتقديم هدايا ثمينة كما جاء في مجموعة الدون بوكه

وفي سنة ٨٥٠ وقعت نكبة على مسيحي الأندلس ، وحصلت حوادث في قرطبة وصل خبرها الى فرنسة . وتحرير الخبر أن الشرع الاسلامي يطلق لأهل الذمة الحرية الدينية ولا يجبرهم الا على اداء الجزية ، ولكن اذا تزوج مسلم بمسيحية فالأولاد يجب أن ينشأوا على دين الأب ، كذلك اذا أسلم مسيحي أو مسيحية فأولاده معدودون من المسلمين اذا كانوا قاصرين ، فاذا بلغوا سن الرشد وأرادوا الرجوع عن الاسلام فلا يحق لهم ، وكذلك اذا قذف أحد المسيحيين نبي الاسلام فليس أمامه سوى الاسلام أو الموت

وقد كان الزواج المختلط كثير الوقوع في الأندلس ، فطالما تزوج مسلمون بمسيحيات وقد كانت المرأة المسيحية المتزوجة بمسلم كثيراً ماتلقن بناتها قواعد النصرانية فيحصل بسبب ذلك نزاع شديد في العائلات . وفي ذلك الوقت كان في قرطبة قسيس متضلع في اللغة العربية اسمه بهارفكتس ، وكان قد شاع ان بهارفكتس في احدى المرات تلفظ بالشهادتين وأسلم ، فصادفه بعد ذلك أناس من المسلمين وسألوه عن رأيه في نبي الاسلام

(صلى الله عليه وسلم) فامتنع أولاً عن الجواب فألحوا عليه في تبين رأيه ، فأجاب بجواب نال فيه من الرسول . وقيل ان المسلمين ذلك اليوم لم يتعرضوا له بسوء ، ولكنه بينما كان ماراً فيما بعد في أحد الشوارع جاء أحد المسلمين واغرى العامة بالهجوم على القسيس قائلاً لهم : إن هذا هو الذى قذف بالنبي . فهجمت العامة عليه ، وذهبوا به إلى القاضى ، فسأله عما عزى اليه من القذف ، فلم ينكر كلامه ، بل أيداه امام القاضى فاضطر القاضى أن يحكم عليه بالقتل ، وكان ذلك في شهر رمضان فلم ينفذ فيه الحكم الى أن انسلخ الشهر وجاء العيد فقطعوا رأسه بمحضر من جم لا يحصى من الأهالى (١)

فكان لهذه الحادثة صدى بعيد وثار من أجلها الخواطر ، وكان المسيحيون كثيرى العدد فى الأندلس وفى نفس قرطبة مركز السلطنة وكان المسلمون تركوا لهم كثير من كنائسهم وأديارهم ، وكانت لهم أديار للرهبان وأخرى للراهبات ، وكان من المسيحيين كثير من المستخدمين فى القصر الملكى لاسيما ان القصر كان يحتوى عدداً عظيماً من الصقالبة . فكثرت من أجل ذلك المنازعات الدينية وصارت تتقدم الشكايات على بعض المسيحيين بأنهم قذفوا بالرسول فيؤتى بهم إلى القاضى فيسألهم فلا ينكرون فيحكم القاضى عليهم بالقتل ، ولأجل أن لا يأخذ المسيحيون أجسادهم ويخنطوها ذخائر كان الحكام يحرقون أجساد المحكوم عليهم بالقتل ويرمون رمادها فى النهر وقيل انهم كانوا يطرحون بعضها للكلاب

وقد كان تأثير هذه الشدة بمكس ما أمل رجال الحكم فانه وجد من المسيحيين من كان يتهافت على القذف بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتلوه ويصير شهيداً . وقتل بهذا الشكل أناس كثيرون ومن جملتهم رجل اسمه « سانشو » من فرنسة كان مستخدماً فى القصر ، واثنان من الخصيان فى القصر أيضا ، وأكثر من تهافت على القذف بالرسول لنيل الشهادة المتحمسات من النساء المسيحيات (٢)

(١) ان الكنيسة جعلت بهارفكتس هذا قديساً وله عيد كل سنة فى ١٨ ابريل .
(٢) سند كر هذه الحوادث ونستوفى هذا الموضوع فى الأجزاء التالية إذ ليس له تعلق بما نحن بصدده الآن ، وإنما ذكرنا ما قاله رينو بطريق الاستطراد لأن فيه شيئاً ما يتعلق بملك فرنسة فى علاقته مع ملك الأندلس .

وأخيراً عقد اساقفة المسيحيين مجعاً قرزوا فيه ان التحرش بهذا الموضوع أى القذف بنبي الاسلام عمداً ، جبا بالقتل ونيل الشهادة ، هو مخالف لروح الانجيل . ثم ان الملك شارل الأصلع تدخل في هذه المسألة ، بناء على التماس المسيحيين منه ، لأنه قد أصابهم في البلدان الشمالية من إسبانية ما أصابهم في قرطبة

ولما تفاقم هذا الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثانى على المسيحيين ، وطرد من قصره جميع الذين كانوا مستخدمين فيه منهم . ثم مات عبد الرحمن سنة ٨٥٨ وخلفه ابنه محمد ، وفي أول أمره شدد أيضاً في معاملة المسيحيين حتى فكر في اخراجهم جميعاً من مملكته ، ولكنه عاد فعدل عن فكره بسبب توالى الثورات وعدم مؤاتاة الوقت له . وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في كتلونية ، وكان موسى أمير سرقسطة قد ظفر بالمسيحيين في بعض الوقائع إلا أنه انكسر في آخر الأمر وتغلب عليه ملك استورية فعزله الأمير محمد من إمارة سرقسطة ، فاستشاط غضباً وانحاز الى المسيحيين ، وزوج ابنته بفرسية ملك ناباره ، وثار في أثناء ذلك مدينة طليطلة

ثم ان المسلمين غزوا أيضاً جزيرتى سردانية وكورسيكة ، واشتدت الفوضى وانتشر الجبل في بلاد فرنسة ، فكنت ترى الكنائس مهدمة والمدن خراباً واللصوص اسراباً والناس يركون ديارهم ويضربون في الأرض طلباً للامان ، ومنهم من فضل الموت على ترك أرضه ، ومن الأهالى من كان ينضم الى الغزاة طمعاً في السلب .

وبينا الحال هكذا في فرنسة لم تكن الاندلس بأسعد منها ، اذ ثار فيها رجل يقال له عمر بن حفصون - كان مسيحياً فأظهر الاسلام - واعضوبت حوله جيش من اللصوص وقطاع الطرق ، فثار على الأمير محمد وجاذبه الجبل وصارت الأندلس في أمر مريع ، واضطر الامير الى مسالة ملك فرنسة شارل الأصلع ليتفرغ لامر ابن حفصون ، وجاءت رسل شارل الى قرطبة وكان ذلك سنة ٨٦٦ وتقرر ان تبقى كتلونية بيد الفرنسيين ، وعاد رسل شارل بهدايا ثمينة من قرطبة ومعهم ايل بمجذائع مزينة . وهكذا تقضى حوادث الزمن على الملوك بمصافاة ذوى الشحنة ومهاداة الاعداء

وفي سنة ٨٦٩ جاء غزاة العرب فزلوا في بروفانس في محل يقال له كامرغ

Camargua وهو جزيرة مشكلة من نهر الرون ، وفيها أملاك للمطران رولان رئيس اساقفة آرل . فلما نزل المسلمون في هذه الجزيرة صادفوا المطران هناك يتعمد مزارعه فقبضوا عليه وقتلوا ثلاثمائة من رجاله وساقوه الى أحد مراكبهم ، فجاء المسيحيون لأجل ان يفكوه بقدية ، فطلب المسلمون به مئة وخمسين ذهباً و ١٥٠ ثوباً و ١٥٠ سيفاً و ١٥٠ عبداً ، فرضى المسيحيون بتقديم هذه القدية ، فجمعوها وقدموها لأجل انقاذ المطران ، وكان هذا في أثناء جمعها قد فارق الحياة بما أصابه من الرعب فكتم المسلمون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي اشترطوها أخرجوا جثة المطران إلى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عندما كان حياً ، وانصرفوا وكان المسيحيون قد جاءوا جمعاً عظيماً لتهنئة المطران بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة ، وتحول فرحهم مأتماً .

ومات شارل الأصغر سنة ٨٧٦ وكان ناوياً أن يذهب بجيش الى ايطالية التي كان المسلمون قد استولوا على نواحيها الجنوبية وأصبح بسبب ذلك البابا في رومة تحت الخطر . وبرغم توالى غزوات المسلمين والزرمنديين كان الشقاق بين أمراء فرنسا لا يزال قائماً قاعداً ، حتى نهكت قوى البلاد بأجمعها ، ولم يبق إلا أمل ضعيف يمسك بحشاشتها . وبلغ اختلاف الكلمة وتشظى العصا أقصى ما يتصور العقل

القسم الثالث

نزول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك

على سافواى وببيموننت وسويسرة

الى دور اجلائهم عن فرنسة

قال رينو: ان الدور الأخير الذى سنتكلم عنه يشابه الدور الذى تقدمه فى شدة المهاجمات وفى آثار السلب والغيث ، جد المشابهة . وانما الفرق هو فى كون الحوادث السابقة لم تصب الا سواحل فرنسة خاصة ، على حين أن الحوادث التى نحن بسبيلها الآن ستمتد الى بلاد دوفينى ، إلى حدود ألمانيا ، وان الحوادث السابقة كانت عبور سبيل ، على حين أن هذه كانت راجعة إلى مركز ثابت مستقر ، وكانت تُتدربان تستمر

وقد بدأ هذا الدور فى سنة ٨٨٩ إذ كان متولياً على بروفنس ودوفينى رجل يقال له بوزون Boson وقد سمي نفسه ملك أرل . ولما كان بوزون المذكور غير منتسب إلى بيت شارلمان الامبراطورى نقلت امارته على الناس ، وشملهم القنوط ، فكان السكان والزمان مساعدين على نزول غزاة العرب فى تلك الديار

واليك تحرير خبر نزولهم واستقرارهم فى بروفنس بحسب تاريخ ليوتبراند Liutprand فى مجموعة موراتورى وبحسب تاريخ دير نوفاليز Novalise وبحسب مجموعة الدون بوكه وتاريخ بروفنس تأليف بوش Bouche قالوا :

ان عشرين ملاحاً عربياً ركبوا مركباً خفيف القلع من سواحل اسبانية ، قاصدين سواحل بروفنس ، فأخذتهم الريح العاصفة وألقت بهم فى خليج غريمو Grimad الذى يقال له أيضاً خليج ساتروينز Sant-Tropes فصعدوا الى البر ، لم يصبرم أحد ، وكان حول هذا الخليج أجمة أشبه بلغ من اشتباك سرحها أن الانسان لم يكن يجبرو أن يدخل فيها . وإلى الشمال من الخليج كانت سلسلة جبال ، بعضها أعلى من

بعض ، فاذا وصل الانسان إلى قمتها أشرف على قسم كبير من بروفنس السفلى .
فأغار العرب على أقرب قرية من البحر وذبحوا أهلها ، وأخذوا يرودون في الجوار .
ولما وصلوا إلى القمم التي كانت تشرف من جهة على البحر وتناوح من جهة أخرى
جبال الألب ، فهموا حالاً ملاءمة هذا المكان لاستقرارهم فيه ، بصورة دائمة ، فإلبحر
كان لهم باباً لتلقى الامدادات التي قد يحتاجون إليها في بعض الأحيان ، والبر كان لهم
منفذاً إلى النواحي التي يرومون الغارة عليها ، والغابة المشتبكة التي ذكرناها تصلح
لهم معقلاً يلجأون إليه عند الاضطراب .

فلم يطأ هؤلاء القرصان تلك الأرض حتى أرسلوا إلى اسبانية وافريقية ، يستمدون
من إخوانهم الانضمام إليهم ، وبدأوا هم بالعمل في مكانهم . فما مضت عدة سنوات حتى
امتلات تلك الأرض بالحصون والمعقل . وكان أهم تلك الحصون المسمى فركسيناتوم^(١)

(١) اختلف المؤرخون في موقع فركسيناتوم التي شغلها المسلمون مدة طويلة ، فمؤرخو الفرنسيس
يضعون فركسيناتوم في خليج ساتروبيز Saint-Tropez وهو مكان فيه معبر بين فرنسا وإيطاليا
ويقربه جبل يقال له جبل المورو . ومؤرخو الطليان يخالفونهم في تعيين هذا الموقع ، فالؤرخ بونينو
Bonino يضع فركسيناتوم في بروفنس بقرب آرل وهناك المؤرخ آخر اسمه مونمبريزيو Monbrizio
يضع فركسيناتوم وراء جبال الألب البحرية . ومنهم من جعل هذا المكان بقرب آرل وقالوا ان
العرب نزلوا هناك وفي فريجيوس وأنطيب (التي جعلها العرب عين الطيب) وامتدوا إلى قصر نيسة
(التي يقول لها العرب نيقة والفرنسيس يسمونها نيس) إلى مدينة سانريمو التي قرأت في دليلها منذ بضع
سنوات ان العرب احتلوها . ومن هناك امتدوا إلى مدينة البنفة Albenga .
هذه كانت رحلتهم الأولى . وأما الثانية فهي أنهم ذهبوا من انبرون إلى جيوفني ديمورتانة
Novalesa ودير سأموريس في فاليزية .

والمؤرخون الطليان الذين تكلموا عن نزول العرب في تلك السواحل وهم : بينغوني Pingone
وذي بيني Debene ودلا شيزا Dellachiesa ودورندي Durandi وسيفبرتو Sigebrto
يقولون في أصل مجيء المسلمين إلى هناك انه سنة ٨٩١ جاء قرصان من اسبانية فساتتهم زوبعة إلى
سواحل بروفنس فنزلوا إلى البر ووجدوا غابة اسمها فراسينيتو وهو اسم مشتق من أسماء النبات

Fraxinetum الذى يشتق من اسم شجر الدردار الكثير فى تلك الجهات . والمظنون أن فركسيناتوم كانت فى القرية الحاضرة التى يقال لها غارد فرينه *Garde-Frainet* الواقعة

الغالب على تلك الأرض ، ثم قاموا هناك وتحصنوا فى جبل تسمى باسمهم فيقال له اليوم جبل «مورو» ثم التحق بهم آخرون وتكاثروا وصاروا قوة مذكورة وصار أمراء البلاد يستعينون بهم فى قتال بعضهم بعضاً ، وانتشر المسلمون فى الشقوى ودالفينيتيو وثاليزيا وليغورية الى جنوة . ومن حكام الطليان الذين دعوا المسلمين لمساعدتهم ووعدهم بالمغانم لمرتوديسنو ليتو وادالبرتو مركزى طوسكانة . اضلعت على ذلك فى خزانة كتب عمومية بمدينة جنوة .

ومن أغرب الأمور أن جميع المؤرخين تكلموا عن نزول العرب فى فركسينيت عدا مؤرخى العرب أنفسهم ، فتوجد عن هذه الحادثة تواريخ بالأفريقية والألمانية والاطالية ولكنه لا يوجد تقريباً شئ بالعربية وإنما جاء فى المسالك والممالك لأبى القاسم بن حوقل الذى كتب رحلته على أثر سفره من بغداد سنة ٣٣١ للهجرة وذلك قوله : وجبل الفلال جبل قديم على مر الزمان فيه مياه وأراض وعمارة وحرث يقوت من نجا إليه فوقع إليه قوم من المسلمين فعمره ، وصاروا فى وجوه الأفريقية لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره فى الطول نحو ميلين .

ذكر ابن حوقل هذا فى كلامه على بحر الروم . وذكر فى محل آخر جزيرة ميورقة وقال . وميورقة جزيرة لصاحب الأندلس وكذلك جبل الفلال يضاف إلى ذلك العمل .

وورد ذكر جبل الفلال فى معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على انكبردة قال : بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذة جبل الفلال ، وتمر على محاذة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلورية .

قلت : يعنى بها بلاد إيطاليا اليوم التى تبتدىء من محاذة جبال الألب وتنتهى بشبه جزيرة كلابرة وفى صبح الأعشى يقول : قلقرية قلا عن تقويم البلدان قال : ويقال لها قلورية بأبدال الفاء واوا قلت : وكنت أفكر أن جبل الفلال هذا بالأوصاف التى وصفه بها ابن حوقل وياقوت لا تنطبق إلا على الجبل المشرف فى سواحل فرنسة على حدود ايطالية ولكنى لم أكن أرضى بمجرد التخمين وكنت أود لو وقتت على كلام لمستشرقى الافرنج فى هذا الموضوع وكنت تحدثت فى هذه المسألة مع الشاب الأجل الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى من آل الجدالفرهين بفاس ومن جالية الأندلس ، وتهدمت إليه فى أن يبحث لى فى المكتبة الوطنية فى باريز لعله يهتدى إلى نص أو نصوص تكشف لنا الغامض وتقدر أن نعين بها ما يريد كتاب العرب بقولهم جبل الفلال فأجابنى حفظه الله بالكتاب الآتى نصه بتاريخ ٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ قال : أخذت كتاب الحزاة العربية الصقلية تأليف أمارى *Amari* وهى كما لا يخفى مجموعة نصوص تتعلق بصقلية منقولة عما يقرب من مئة كتاب عربى فوجدته ينقل كلام بن حوقل الوارد فى جبل الفلال فأخذت ترجمة الحزاة الصقلية إلى الايطالية وهى

في ذيل الجبل إلى جهة الألب . ومما لاجدال فيه أن مركز هذه القرية كان بغاية الأهمية ، لأنها الطريق الوحيد من الخليج إلى الشمال ، وإلى الآن يجد الناس في أعلى

مفيدة جدا بالتعليق التي جعلها عليها آمارى ويوجد فيها طبعتان كلتاها في سنة ١٨٨٠ واحدة في جزئين من الحجم الصغير والأخرى في جزء واحد من الحجم الكبير وجبل القلال ورد في الصفحة السابعة من الطبعة الكبيرة أما في الترجمة فان آمارى اكتفى بكتابة جبل القلال بالحروف اللاتينية وجعل بين هلاين ترجمة للفظه قلال بمعنى رؤوس الجبال جمع قلة وذكرها بالأفريقية هكذا Cimes وجعل على هذا تعليقا مضمونه تلخيص كلام المستشرق رينو الذى سأهلهك بالحرف، وأحل عليه: نشر المستشرق جوين بول كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والباقع في ثلاثة أجزاء مع أجزاء ثلاثة أخرى للتعاليق باللاتينية وقد ورد فيه جبل القلال في صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول وعلق جوين بول في صفحة ٢٥ من الجزء الخامس قائلا انه كتب إلى رينو الشهير في هذا الباب فأجابه بما يلي سأحاله بنشره . وقد نقل لى ولدنا السيد محمد الفاسى كتابة رينو بنصها الافرنسى فأثرت ترجمتها بالعربى وهى هذه :

« في تأليف نشرته سنة ألف وثمانمائة وستة وثلاثين تحت عنوان غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سفواى وبييمونت وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى قد ذكرت انه في سنة ٨٨٩ دخل بعض قرصان من الأندلس في أرض فرنسة في خليج غريمينو الذى يقال له ساترويز وأنشأوا لأنفسهم في آخر الخليج على قلة جبل مقلا هائل وهذا المعقل يسميه المعاصرون لذلك الوقت فركسيناتوم والآن تسمى القرية المبنية على سفح الجبل غاردفرينه Gadre Frainet والغابة التي تحيط بالجبل اسمها الآن غابة الموراى العرب . كلما استقر هؤلاء القرصان في ذلك الموقع المتناهي في الناعة استدعوا اليهم أفاقين آخرين جاءوهم من سواحل الأندلس وافريقية ثم انضم اليهم بعض الجياع من أهل البلاد . وساعدتهم القوضى التي كانت ضاربة أطناها فيها فتقدموا في البلاد وقطعوا جبال الالب وانتشروا في السقواى وشمالى ايطالية وسويسرة . وعندما نشرت هذا الكتاب لم تكن النسخة المخطوطة من كتاب الاصطخرى قد نشرت وكنت أظن أن وجود هذا المعقل الاسلامى في قلب النصرانية كان لم يزل مجهولا عند كتاب المسلمين في الاندلس وأفريقية وآسية فأما الآن فقد تحقق عندى ان الاصطخرى وابن حوقل قد سمعا في أثناء اسفارهما بخبر فركسيناتوم من سواحل بروفنس وان كلا منهما لم يهمل ذكر ذلك في كتابه

وأعظم من هذا ان خبر هذا المعقل الاسلامى في قلب اوربة وصل الى أقصى بلاد العجم

فلاصطخرى في صفحة ٣٩ من طبعة كتابه المخطوط يذكر بعض الجزائر مثل صقلية واقريطش وقبرص ثم يذكر جبل القلال، فقد يظن القارىء أن مراده به احدى الجزر التي

الجبل آثار خراب وبقايا عمران : جدراناً متهدمة ، وبنياً منحتواً في الصخر وبتراً
منحتوة في الصخر أيضاً

يحيط بها البحر وفي الاطلس الذي تحت نمرة ١١ مذکور هذا الجبل وموضوع في وسط البحر
الى الغرب من صيقلية يقابله المهديّة وتونس من جهة وطرطوشة من الاخرى وكذلك الحال في
الحارطة التي تحت نمرة ٥ ولا فرق بينهما سوى ان الجبل في الحارطة الثانية موضوع على مسافة
أبعد الى الغرب على علو مائة والجزائر ومن العلوم أن الحرائط الملحقة بكتاب الاصطخرى هي
ناقصة جداً وفيها خطأ كثير نظير الاطلس العربية على وجه الاجمال

ولا يجوز أن ننسى أن اسم جزيرة وشبه جزيرة هو واحد عند العرب كما عند اليونان وترى
الاصطخرى يقول عن جبل القلال ما يطابق موقع فركسيناتوم واليك كلامه : وأما جبل القلال فإنه
كان جبلاً خراباً وفيه ماء وأرض فوق اليه قوم من المسلمين فعمره وثاروا في وجوه الافرنجية
لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول يومان . ثم أتى على ترجمة هذا الفصل بالفارسية :
جبل القلال كوهى بوده است خراب ودر انجا اب وزمين بسيار قومی از مسلمانان انجا مقام
گرفتند وآبادان کردند وقر فرنگ است وفرنگ برایشان دست نایدودرازی این كوه دو روزه
راه باشد

ومن عادة ابن حوقل في رحلته أن يعلق بعض الشرح على كلام الاصطخرى الا أنه في هذا المقام
كانت عبارته مختصرة جداً والملاحظة المهمة التي يلاحظها القارئ في كلامه ان جبل القلال هذا
تابع للأندلس وذلك ان علماء العرب يطلقون لفظة الأندلس على جميع بلدان الجنوب الغربي من
اوربة التي دخلت في طاعة المسلمين (انظر الى ترجمتنا لجغرافية أبي الفداء صفحة ٢٣٤ وصفحة
٣٠٨) وهكذا كانت بلاد بروفنس في القرن الثامن وفيما بعده في القرن الذي نحن الآن بصدده
معدودة من الأندلس

وهكذا أمكنهم أن يجعلوا جبل القلال من الأندلس وفيه كان المسلمون واقفين في وجه الافرنج .
فالمكان الذي وصفوه لا ينطبق الا على فركسيناتوم اذ لو أردنا أن نقول ان ابن حوقل والاصطخرى
أرادا بجبل القلال جزيرة صغيرة غفلا من الاسم واقعة بازاء سواحل تونس أو سواحل طرابلس
لكان الوصف الذي وصفه هذان الرحلتان لهذا المكان خالياً من كل معنى (ثم ذكر رينو كلام
ابن حوقل بنصه)

بقي علينا أن نفسر كلمة قلال التي أضيف لها ذلك الجبل فهذه اللفظة تحتل تأويلات مختلفة ففي
الاطلس التي وجدناها في مخطوط الخزانة الامبراطورية الحاوي للرواية الفارسية من كتاب
الاصطخرى نجد لهذا الجبل شكلاً هرمياً وأما في الاطلس التي في المخطوط العربي فالتا نجد هذا
الجبل يرتفع تدريجياً فيكون اسم جبل القلال مطابقاً له

ولم يبق شيء من شجر الدردار إلى هذا الوقت ، ولكن المسيو جرمون Germond كاتب العدل الحالي في ساترويز الذي بحث بحثاً دقيقاً في هذه المسألة

أقول ان أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذا الجبل قد رثت في أناصى آسية فكتاب العجم سموه كولا فلان كلمة تفيد معنى جبل القلال وانا نجد تحت نمرة ٣٨٤ من المخطوطات الفارسية من الخزانة الامبراطورية هذه الكلمات :

كولا قلال جزيرة است ودر كوهى است ودر روزكار قديم خراب بوده است ونامسكون جون اسلام فوت كرفت ازن مسلمانان انجا افادند انجا مقام ساختند وساكن شدند واكون در روى فرنك باشند وميان ايشان وكافران پيوسته جنك باشند

ومعناه جبل القلال جزيرة اوشبه جزيرة واتمة في وسط سلسلة جبال كان هذا الجبل في الماضى مهمل غير مسكون فلما انتشر الاسلام جاء بعض المساهين الى هذا المحل واستوطنوه وهم الآن هناك واقفون في وجه الافرنجة الذين يحيطون بهم ولا يزالون معهم في جلال مستمر

ثم قد وجد في كتاب فارسي من قبل عجائب المخلوقات للقرظيني واسمه كاسه وموضوعه كوضوعه الجملة الآتية : قلال كوهى است ميان دريان روم خراب بودا بادان كردند ودر وجه مصالحيه افرنجه نهادند واكر اين كولا نبودى اسلام برنج امدى

أى جبل القلال جبل واقع في وسط بحر الروم وكان خراباً وقد سكن فيه اناس وأووا الى هذا الجبل في جهادهم للافرنج ولولا هذا الجبل لسكان على الاسلام خطر عظيم

هذا كلام رينو بنصه ويتخلص منه ان جبل القلال ليس بجزيرة بل شبه جزيرة واذا رجعنا الى جزيرة مقاطعة الفار Le Var على حدود ايطالية وجدنا أن المحل الذي يجعل فيه هذا العالم جبل القلال شبه جزيرة . ثم انى قد راجعت ما قاله رينو في كتابه فتوح المساهين بفرنسة من صفحة ١٥٧ الى صفحة ٢١٠ فرأيت ان وصف جبل القلال في كتاب ابن حوقل من حيث امتناعه ينطبق تماماً

على فركسيناتوم وأما قوله ان العرب يعملون هذا الجبل من ضمن الانداس لانهم يسمون بهذا الاسم كل البلاد الواقعة في جنوبى اوربة الى الغرب فأظن انه غير مصيب بل السبب في ذلك هو ان جبل القلال كان تحت حماية خفاء قرطبة وقد ذكر هذا رينو نفسه في كتابه الآنف الذكر صفحة ١٨٧ فقال :

ان أوتون كان أنشأ علاقات مع أعظم ملوك عصره لاسيا خليفة قرطبة الذى كان هو الحامى لمستعمرة العربية في فركسيناتوم ويظهر من كتاب رينو ان فركسينة كانت عاصمة الممتلكات الاسلامية في فرنسة وسويسرة وايطالية الشمالية . وهذه الأهمية التى أشار اليها ابن حوقل والاصطخري

لم تكن لجزيرة سردانة وعلى كل حال فانى أظن الآن ان جبل القلال هو فركسيناتوم ويبقى مع هذا مجال للبحث للوصول الى الانتفاع العلمى المبني على الحجج القاطعة . انتهى كتاب محمد القاسى

رئيس جمعية طلبة شمالى افريقية في باريز .

يظن أنه كان توجد غابة دردار في قعر الخليج على شاطئ البحر ، وأنه كان توجد قرية رومانية اسمها فركسينيتو احتلها العرب ثم هدموها واخاروا قمة من الجبل لانشاء معقل لهم سموه فركسينيت Fraxinet ومن رأي المسيو جرمون أن ذلك المعقل كان أشبه بمخفر يقصدون منه الاشراف على سهول بروفنس السفلى وذلك لأن المكان لايزيد محيطه على ثلاثمائة قدم ولا يتسع لأكثر من مائة رجل لاغير . ويظن المسيو جرمون أن المعقل الأصلي الذي كان العرب يعولون عليه هو على نصف فرسخ من هناك ، بقرب البحر ، فوق جبل يقال له اليوم « سيدة ميرمار » Notre Dame de Miremar حيث توجد آثار مهمة وحنادق عميقة . وأما المسيو بوش صاحب تاريخ بروفنس فيظن أن العرب قد أطلقوا اسم فركسينيت على حصون كثيرة شادوها في دوفيني وسافواي وبييمونت . واننا نرى رأي بوش هذا صواباً لكثرة وجود هذا الاسم في هذه النواحي

ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في النواحي القريبة منهم وصادف ذلك تلك المحاربات الداخلية التي كان حامياً وطيسها بين زعماء البلاد فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم الى نفسها ، ثم عند ما نمت شوكتهم عدوا أنفسهم سادة لتلك الأرض واستولى الرعب على قلوب الجميع من عاديتهم وأصبح لا يرتفع في وجههم رأس ولا ترتقى الى مصارعتهم همة . ومن جملة الأدلة على ذلك أنه وجدت في قبر القديسة مادلينه في فيزلاي Vezelay من بورغونية كتابة تفيد أن جسد القديسة نقل من مدينة اكس في بروفنس الى هناك ، خوفاً من العرب . وكان وجود هذه الكتابة قد انكشف سنة ١٢٧٩ . راجع في ذلك تاريخ هينو Hainut تأليف جاك دوغويز DeGuyse وتاريخ بروفنس تأليف بوش

وكان العرب يتقدمون يوماً فيوماً نحو جبال الألب تملقاً وتسلفاً حتى وقفوا في أعلاها . وكانت مملكة آلر خاضعة للويس بن بوزون المتقدم الذكر . وكان لويس هذا سار بجيش الى ايطالية لمقاتلة بيرانجه مالك لونباردية فترك بلاده بدون حامية تقريباً وصارت نفوره عورة وكان الزمنديون يعيشون في قلب فرنسة وكادوا احدى المرار

يستولون على باريز . وجاءت فرقة من البرابرة الوثنيين من الشرق وهم المجر فعانت
وخربت جانباً من ألمانية ثم من ايطالية وأوشكت أن تدخل إلى فرنسا

وفي سنة ٩٠٦ اجتاز العرب مضايق دوفيني Dauphiné وقطعوا جبل سنيس
Mont Cenis حتى انتهوا الى دير نوفاليز على حدود بيمونت ، في وادي سوزة . وكان
رهبان الدير قد تمكنوا من الفرار الى مدينة توزينو ومعهم ذخائر القديسين وما في الدير
من أشياء ثمينة ، ومن جملتها خزانة كتب نفيسة فلما وصل العرب لم يجدوا في الدير
الاراهيين بقيا كحراس فيه ، فهب العرب الدير والقرية ، واحرقوا الكنائس

جاء ذلك في تاريخ دير نوفاليز الوارد في مجموعة مورأثوري : وفيه أنه كانت هناك
كنيسة صغيرة باسم القديس هلدراذ Helderad من رجال اوائل القرن التاسع فأحرقوها
وفر كثير من الاهالي الى الجبال بين سوزة وبريانسون Briançon واعتصموا بدير
أولكس Oulx فاقتص العرب آثارهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً حتى سمي ذلك المكان
بساحة الشهداء (راجع مجموعة دير اولكس التي نشرها ريفاتلا في تورينو سنة ٧٥٣)
وكان الاهالي قد اجتمعوا وثاروا بالعرب ، وقبضوا على أناس منهم وساقوهم الى تورينو ،
واعقلوهم في دير القديس اندراوس . ولكن هؤلاء الاسرى حطموا الأصفاد التي
كانوا مقيدين بها واحرقوا الدير وافتلوا وكادوا يحرقون جانباً من المدينة . ثم ان العرب
قطعوا المواصلات بين فرنسا وايطالية ، واحتلوا جميع مضايق جبال الالب ، فصار
مرور الناس عائداً الى اذهم . سنة ٩١١ كان رئيس اساقفة اربونة يريد السفر الى
رومة لمهم مستعجل فلم يقدر على السفر خوفاً من العرب . وكانوا لا يسمحون لاحد
ان يمر بدون ان يأخذوا منه رسماً معلوماً . ثم شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت
ومونفerrat . وفي سنة ٩٠٨ نزل بعض قرصان العرب في سواحل
لنغدوق بقرب ايعمورط ونهبوا دير التريل الذي كانوا هدموه في زمان شارل مارتل
ثم اعيد بناؤه

وكان صمد على عرش قرطبة سنة ٩١٢ عبد الرحمن الثالث الملقب بالكبير والذي
تولى الملك خمسين سنة وجمع تحت حكمه بلاد الاندلس قاطبة وكان من ايمان ملوك الدهر

تقية اوصل الاندلس الى اعلى ذرى الهناء والسعادة والمجد ، وهو اول من تلقب من
اصراًئها بالخليفة امير المؤمنين

وكان حنشو غرسية ملك نابار واوردونة ملك ليون تحالفا مع ابن حفصون الناصر
على المسلمين ، وبالاتحاد مع مقاتلة الفرنسيس وقفوا في وجه جيوش عبد الرحمن . الا
ان عبد الرحمن سنة ٩٢٠ ارسل عمه المسمى ايضاً عبد الرحمن ، والملقب بالظفر ، فهزم
جيوش الاعداء وقطع جبال البيرانية واكتسح جانباً عظيماً من عشقونية ووصل الى
ابواب مدينة طلوزة ثم اصيب في رجوعه بفشل اذهجم عليه غرسية بن حنشو أو سانجه
كايقول العرب واسترجع منه جميع الغنائم التي غنمها (١)

(١) جاء في فتح الطيب : وأخبار الناصر طويلة جداً وقد منح الظفر على الثوار واستنزهم من
معاقلهم حتى صغاله الوقت وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء فن غزواته أن غزا سنة ثمان
وثلاثمائة الى جليقية وملكها اوردون ابن اذفونش فاستنجد بالباشكنس فهزمهم ووطىء بلادهم
ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرّب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة اثنتي عشرة ودخل دار الحرب
ودوخ البسائط وفتح المائل وخرّب الحصون وأفسد العمار وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو
يحاذيه في الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشيء ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد
بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الناصر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم
وبلغه انتقاص طوطة (ملكة الباشكنس) فغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى
قرطبة . ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهمزم وأصيب فيها المسلمون . وقعد
بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد . وبعث جيوشه الى المغرب ،
فلك سبته وفاساً وغيرها من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره

ولما هلك سانجه بن فرويلة ملك الباشكنس قامت بأمرهم بعده أمه « طوطة » وكفلت ولده ،
ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرّب نواحي بنبلونة ورد عليها
الغزوات وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين غزا الى خشتمة ثم رحل الى بنبلونة ، فجاءته طوطة
بطاعتها ، وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبة وبسائطها فدوخها وخرّب حصونها ثم
اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردهير بن اردون فتعاضى عن لقائه ودخل خشتمة فآزله الناصر فيها
وهدم برغش وكثيراً من معاقلهم وهزمهم مراراً ورجع الخ .

وجاء في كتاب أخبار مجموعة : وأما عبد الرحمن بن محمد الأمير فانه ولي الخلافة والفتنة قد طبقت
آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد ، لم يقابل به أحداً ممن خالفه

فامتد الصريح في بروفنس ودوفيني وبلاد الالب ، من اعمال غزاة العرب ، وحاول بعضهم ان يقاوموهم بالسلاح فهلكوا لعدم اجتماع كلمتهم . وكانت مرسلية أيضاً قد نالها عيْشهم ، وخرب العرب كنيستها العظيمى ، وكذلك أغاروا على اكس . وروى بوش في تاريخ بروفنس وغويز في تاريخ هيسو ان العرب سلخوا جلود بعض من وقعوا في ايديهم احياء^(١) ، وفر مطران اسمه « اودول ريكوس » الى مدينة « رنس » في الشمال . وكان العرب يسبون نساء البلاد وبينون بهن بما نشر سلاتهم فيها ، ولاشك أنه قد انضم اليهم أناس من ابناء البلاد ممن لا يزالون على اي جنبيه وقع الامر

وبلغ من شدة الذعر أن الاغنياء صاروا يجلبون الى جهة الشمال فرارا من بطش العرب وجاء في سيرة القديس ميول Mayeul في مجموعة البولنديين ان القديس الذي كان أهله اغنياء من اينيون فر من وجه العرب الى برغونية . واحرق العرب كنائس سيسترون Sisteron وغاب Gap وقتلوا في انبرون Enbrun القديس ينديكتوس رئيس الاساقفة ومطراناً آخر معه . وجاء في تاريخ خطط الالب العليا تأليف المسيو

أو خرج عليه الاغلبه ، واستولى على ما في يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حمايتها واستذل رجالها وهدم معاقها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استبق من أهلها ، وأذلم بعسف المال غاية الاذلال ، حتى دانت له البلاد واتقاه له أهل العناد ، فبات ابن حفصون في حصاره ، وقتل سليمان ابنه محارباً له ، واستنزل سائر بنيه وأهله وأمنهم ، وساروا في جنده

وملك « بيشتر » وبنائها ، وحصنها ، وهدم كل حصن غيرها . وذكر أنه انما استبقها عدة لنفسه ولولده ، ليج اليها ، لما كانوا يحدثون في الآثار من أن فتناً تهيج في الاندلس بخوارج يخرجون على أهلها يخرّبون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأولاد حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها الا من اعتصم بالمعاقل أو لجأ الى البحور ، وهو عندهم الفساد للتصل بالبلاء الأعظم الذي لاصلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم . وهو المستعان . واتصل ملك عبد الرحمن حسين سنة في عز منيع وسلطان قاهر . وافتتاح البلدان شرقاً وغرباً الخ .

قلت : وسنأتى بجزء الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى على أم وجه ان شاء الله في الأجزاء التالية التي فيها الكلام عن نفس الاندلس

(١) نحن ننقل روايات مؤرخى الاخرنج في القرون الوسطى على علانها وان كنا نعلم ما فيها من المبالغات ولاسيما ما كان منها مكتوباً بأقلام القسيسين الذين يخلطون التاريخ بالدعاية

لادوسيت Ladoucete خبر ثلاثة أبراج محصنة في انبرون كان العرب نزلوا بها وبواسطتها
ملاً وأتلك الناحية خوفاً وكان القديس لييرال قد انتخب خلفاً للقديس بندكتس فأراد
ان يدخل انبرون ولكنه لم يجرؤ على ذلك بسبب وجود العرب هناك ورجع
من حيث أتى

وكان من عادة اهالى فرنسا واسبانية وانكلترا ان يذهبوا الى رومة ، ولو مرة في
العمر ، لزيارة قبور الرسل . ولم يكن بد من علاقات الاساقفة والقسيسين برومة كما لا
يخفى ، ولكن معابر الالب صارت كلها الى ايدى العرب ، وصار هؤلاء يمتدون على
السابلين . وبرغم ان الناس كانت تجتمع قوافل وتسير بالاسلحة لم تكن تمضى سنة بدون
ان تحصل في تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء في مجموعة مؤرخى فرنسا

وفي تلك الايام وصل المجر الى فرنسا ، وملاًوا البلاد عيشاً وتدميراً ، ورأى
الاهالى فيهم تصديق نبوة حزقيال عن يا جوج وما جوج . ولما كانت سنة الالف للمسيح
ظن الناس انها قد اذفت الساعة ، وسأل مطران فردن Verdin احد القسيسين عن
حجة هذه المسألة وهل المجرهم يا جوج وما جوج أم لا ؟ فطمأن القسيس خاطر المطران
قائلاً له : إن من اشراط الساعة أن يأتي يا جوج وما جوج وممهم شعوب اخرى ،
والحال ان المجر جاءوا وحدهم ، فلا تنطبق هذه النبوة عليهم ، على انه من المحقق انهم
في العيث والتدمير بذوا الاولين والآخرين

ثم ان بلاد بيمونت ومونفرات كانت ميدانا لغارات العرب . روى مؤرخ دير
نوفاليزه أن أحد أعمامه ، وكان من قواد الجند ، ذهب من « مويين » الى « فارسل »
فداهته عصابة عربية في احدى الحراج بقرب البلدة فتقاتل الفريقان وجرح عدد منهما
ووقع بعض المسيحيين أسرى فاخلى العرب سبيل بعضهم واستبقوا القادرين منهم على
الفدية ، وبقى عم الراوى وخادمه في ايديهم . وكان والد الاسير المذكور مارا من هناك
فعمل بالخبر والتزم ان يجول في المدينة وان يقترض مبلغاً من المال ليفك به ابنه مع
خادمه . وروى هذا المؤرخ ان العرب كانوا وصلوا الى حدود ليفورية (على خليج

جنوة) وذكر المؤرخ الشهير ليوتبراند^(١) الذي عاش في الثلث الاول من القرن العاشر ان العرب اغاروا على مدينة آكي Aquis احدى مدن مونتفرات المشهورة بمحاماتها والمدنية ولكنهم انهزموا في تلك الواقعة ، ويقول المؤرخ نفسه ان بعض قرصان العرب دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرا من النساء والاولاد

وكان الاساقفة الذين فروا من وجه العرب في بروفسن والرهبان وغيرهم قد لجأوا الى بلاد فاليه Valais من سويسرة بقاء العرب ودخلوا هذا الوادى واكتسحوه وكان هناك دير على اسم الشهيد القديس موريس^(٢) كان الامبراطور شارلمان وغيره من الملوك اولوه مزيد العناية فجعله العرب دكا، على مافى تاريخ غالبية كرسنيانية Gallia Christiana. وذهب بعض المؤرخين الى ان المسلمين كانوا هدموا هذا الدير

سنة ٩٠٠

وجاء في مجموعة اللون بوكه ان العرب استولوا على ناحية تارتيس وان قافلة كانت ذاهبة من فرنسة الى ايطالية ، فوقعت في يدهم واضطرت الى الرجوع بعد ان قتل عدد منها

ولما استولى العرب على فاليه تقدموا الى أواسط كورة غريزون^(٣) وكان هناك دير شهير اسمه دير دى زانتيس Disentis بناه احد تلاميذ القديس كولومبان فنهبه

(١) ليوتبراند Liutprand مؤرخ المانى من أشهر المؤرخين، ولد سنة ٩٢٢ وهو من أسرة شريفة فى لوباردية نشأ فى معية الملك هوغ فى بانية وسنة ٩٤٥ بعد خلع الملك هوغ دخل فى خدمة خلفه برنغار وتوفى سنة ٩٧٠ وكتب كتابين باللاتينية أولهما يسمى معالى الامبراطور اوثنون الكبير

(٢) سان موريس بلدة فى وادى الفاله على السكة الحديدية المؤدية الى نفق السيلون الى ايطالية تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية نحواً من ساعتين. تنسب هذه القصة الى دير القديس موريس الذى فيها وهذا الدير قد بناه سچيسموند دوق بورغونية فى القرن السادس للمسيح حسبما روى لى القسيس القيم على مكتبة الدير وذلك عندما زرت هذا الدير مؤخراً متقباً عن آثار العرب هناك كما سيأتى الكلام عليه

(٣) Grisons من مقاطعات سويسرة مركزها كوار

العرب وجردوه من كل حلاه . وكذلك فعلوا بكينيسة « كوار » . روى ذلك المؤرخ اشبريخر Sprecher . وقيل ان المطران فالدو Wualdo شكَا سنة ٩٤٠ من غارات العرب المتواصلة وان آثار تلك الغارات كانت باقية الى سنة ٩٥٢ وان الامبراطور اوتون اقطع المطران المذكور املا كاعلى سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ في سنة ٩٥٦ . وورد ذلك في مجموعة تاريخية المانية طبعت في كوار . وكانت سويسرة يومئذ تابعة لمملكة بورغونية

وكانت الحرب في تلك الايام مشتتة بين ملوك اشتهورية وناباره من جهة ، وخليفة قرطبة من جهة اخرى ، وتوافق الفريقان عند زمورة ، فانهزم المسلمون في تلك الواقعة وقتل منهم نحو من مائة الف^(١) ولكن عبد الرحمن الناصر كان يقدر أن

(١) هذه الواقعة شهيرة ويقول ابن خلدون ان عبد الرحمن الناصر كان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الحندق سنة ٣٢٣ وأما ابن الاثير فيجعل هذه الواقعة سنة ٣٢٧ ويقول انه في تلك السنة عصى أمية بن اسحق بمدينة شنترى على عبد الرحمن الأموي لأنه قتل أخاه فالتجأ الى رودمير ملك الجلائفة وغزا عبد الرحمن بلاد الجلائفة فانهزمت الجلائفة وقتل منهم خلق كثير ثم خرج الجلائفة وظفروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأراد رودمير اتباعهم فمنعه أمية وخوفه ورغبه في الفتيمة وعاد عبد الرحمن فجهز الجيوش الى بلاد الجلائفة فألحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين . انتهى

أما في أخبار مجموعة فانه يقول : ان عبد الرحمن الناصر في آخر أمره مال الى اللهو واستولى عليه العجب واستمد بغير الكفاة وغاز الأحرار باقامة الأندال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكريه وفوض اليه جليل أموره والجا أكبر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أبيض هزيمة واتبعهم العدو أياما بأسروهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكذب ينجو منهم الا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا الى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه اه . وذكر السعدي في مروج الذهب هذه الغزاة فقال : وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين رودمير ملك الجلائفة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا واولجوا الى المدينة وقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الحندق

يجمع جميع قوى المسلمين في الاندلس فلم تكن هزيمة كهذه لتكسر من شوكته ، وكان في استطاعته وقتئذ ان يفحش النكاية بالمسيحيين لولا اشتغاله بالفتوحات في افريقية ولولا ظهور الدولة الفاطمية التي اخذت تجاذب الدولة الاموية الجبل ، فكان هذا من حسن حظ المسيحيين

وكانت مدينة فريجوس في مقاطعة الفاربلدة عامرة ومرسى عظيما للسفن ، فأغار عليها العرب واجتاحوها اجتياحاً شديداً حتى لاذأهلها بالفرار وتركوها كجوف سمار ، واخذ المسيحيون الذين في السواحل كلها ينسحبون الى الجبال ، وكان في ذلك الوقت الكنت هوغ Hugues ملكا على بروفنس فأعلن عزمه على طرد المسلمين من تلك الاطراف ، ولما كان اعم معقل لهم هناك هو حصن فراسينت الذي منه كانت تنبعث غاراتهم الى داخل البلاد ، اجمع هوغ ان يهاجم هذا الحصن . ولما كان مصاهراً لامبراطور القسطنطينية أرسل اليه يطالب منه بمجاده . باسطوله ، وكان الروم يملكون نقاطات يقال لها النار الاغريقية ، فكانت تحرق المراكب بمجرد ما تصيبها . ففي سنة ٩٤٢ زحف هوغ على حصن فركسينت بجيش جرار من البر . وجاء الاسطول الرومي من البحر فاحرق مراكب العرب التي في الخليج كما ان جيش هوغ تمكن من الحصن والتجأ العرب الى الجبال المجاورة ولكن جاء الخبر الى هوغ وهو في هذه الحرب مع العرب بان بيرانجه Berenger الذي كان ينازعه مملكة ايطالية ، وكان قد فر الى المانية ، رجع الى ايطالية يحاول ان يتنسم ربح الدولة ثانية فنسى هوغ الخطر الواقع على بلاده

.....
خمين ألفا وقيل ان الذي منع رودمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق فقد خوفه الكمين وورغه في ما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ثم ان أمية بعد ذلك استأمن الى عبد الرحمن وتخلص من رودمير فقبله عبد الرحمن أحسن قبول وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدة من قواده الى الجلائقة وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلائقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية وردمير ملك الجلائقة الى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة انتهى كلام المسعودي المعاصر لتلك الوقائم .

من العرب وأسرع الى مهادتهم بشرطان يقطعوا الطريق في معبر سان برنار وسائر معابر الالب على ييرانجة . روى ذلك المؤرخ ليوتبراند الذى بهذه المناسبة أحش الطعن في هوغ وقال انه جاء بها صلعاء لاسبيل للعدر فيها، وبلغ من حدته أنه أخذ يخاطب معبر سان برنار فيقول له شعراً معناه : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصناً واقياً للطفاة الذين يقال لهم المورو افلاتنجل ايها التمس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشرى ويعيشون من قطع الطريق ؟ وماذا أقول لك ، لعمري جذير بك أن تنقض عليك صاعقة أو أن تكسر تكسيراً أو أن تفنى فناء أدياً! الخ

ومن بعد هذه الحادثة ازدادت جرأة العرب وفتحوا عرفهم واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون أدياً في قلب أوربة فأخذوا يتزوجون من أنفس الاهالى ويحرقون ويذرعون كسائر الفلاحين وكان امرآء النواحي يكتفون بان يأخذوا منهم إتاوة خفيفة ، وربما اعتضدوا بهم في بعض الأحيان . أما الذين كانوا في أعالي الجبال فقد كانوا يتقاضون المارين الاموال الفادحة ، ويقتلون من يمتنع عن دفع ما يطلب منه ، وأما معبر سان برنار الكبير الذى كان يسمى من قبل بجبل المشتري فقد كان من قديم الدهر بموقمه بين فاله Valais ووادى أوسط Aoste هو واسطة الاتصال بين سويسرة وايطالية . ولما استولى عليه العرب وعلى غيره من المعابر تمكنوا من سائر النواحي المجاورة

وكانت مدينة نيس (أونيقه) تابعة لمملكة آرل وكانت أيضاً تحت طائلة العرب ويظهر أن جماعة من المسلمين كانوا يسكنون في نيس ، لأن دورانت يذكر في تاريخ نيس أنه كان فيها ناحية للمسلمين Canton Des Sarrazins

وقد احتل العرب أيضاً مدينة غرانوبل Grenoble مع الوادى المربع المسمى وادى غرازيفودان Graisivaudan وذهب مطران غرانوبل ومعه ذخائر القديسين وكنوز الكنيسة والتجأ الى دير دونات Donat في فلانس الى الشمال . ولا يعلم تماماً في اية سنة دخلوا

عرا نوبل وانما من المحقق أن العرب في سنة ٩٥٤ كانوا استولوا على هذه البلدة لأنه وجدت
كتابة منقوشة على حجر تاريخها سنة ٩٥٤ تدل على وجود المسلمين في غرا نوبل .
والغالب على الظن ان مسلمي بيمونت كانوا قد اتخذوا لانفسهم عدة معقل كانوا
يعتصمون بها عند الحاجة . وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليزة حصنا من هذا النمط كان
يحتله العرب باسم فراسنيدلوم Frascenedellum وهو مكان بقرب كازال على نهر
البو Po وكان هذا المحل يسمى أيضاً فر كسيناتوم ، وقيل بل هذا الحصن هو الذي
يسمى الآن فنسترا ل Fenestralle

وعلى كل حال فلينظر القارئ الى مؤرخ معاصر شاهد الحوادث بعينه وهو مؤرخ
دير نوفاليزه ، فقد قال . ان العرب كانوا يسبون النساء والاولاد والخيول وغير ذلك وكان
قد دخل معهم أفاق من أهل البلاد اسمه ايمون Aymon طمعاً في الفنايم فوقعت في أيديهم
مرة امرأة بارعة في الجمال فاستأثر بها ايمون لنفسه فجاء أحد زعماء العصابة العربية
وانزع تلك الحسناء من يد ايمون بالقوة فغلت مراجل الغضب في صدر ايمون وثار
لانتقام فذهب الى الكنت روتبلدس (١) الذي كان صاحب السيادة في بروفنس
العليا وكاله بالسر الخفي في قضية طرد العرب من البلاد . وكان للعرب سعاة وجواسيس
في كل محل فاجتهد ايمون أن يكتم مسعاه بكل ما أمكنه حتى تمكنوا من استنفار
الناس بدون أن يشعر العرب ، واجتمع الامراء والزعماء وقادوا الأهالي وهاجموا
العرب وأخذوا جرتهم ورفعوا نيرهم عن اعناق الاهلين . قال هذا المؤرخ وإن
عائلة ايمون هذا كان لا يزال منها بقايا الى زمانه

وفي سنة ٩٥٢ كان المجرار قد اكتسحوا الازراس ، وصارت جميع بلاد جبل جوراه
Jura تحت خطر احتلالهم ، ففكر كوزاد الذي كان اميرا على بورغونية وسويسرة
وفرنشكونتي ودوفيني في تدبير حيلة للتخلص من المجرار والعرب معا ، فكتب الى العرب
كتابا يقول لهم فيه ان لصوص المجرار قد سمعوا بنحصب الاراضي التي في أيديكم وهم

(١) Rotbaldus يقول رينو انه قد يكون روتبلدس الثاني كونت فور كالكية الذي كان

يعيش في نواحي سنة ٩٤٥ على ما في تاريخ بروفنس للسيو بوش .

غامدون الى انتزاعها منكم ، فتعالوا الى لزحف اليهم معا ونبيدهم . وفي الوقت نفسه كتب الى الجار قائلا لهم : لماذا يتنازع بعضنا بعضا ؟ ان المسلمين هم الذين بايديهم أخصب البقاع ، فتعالوا الى لزحف اليهم ونطردهم وحينئذ أنا اجعلكم في مكانهم . قال هذا وعين للفريقين مكانا للقاء فحضر الفريقان وألتحمت الحرب بينهما من نفسها وكان الكنت قد حشد عساكره وكن لهم جميعا فلما اشتبكوا في الملحمة انقض عليهم بجيشه فذبحهم ولم ينج منهم الا القليل فارسل بقية السيف الى آرل ويعوموا في أسواقها ارقاء

جاء هذا الخبر في مجموعة الدون بوكه ولم نعلم تماما في أى مكان حصلت هذه المعركة . وكان مركز العرب الاصلى في بروفنس وكان الجار في الازراس وفرنشكونتي فالظنون ان هذه الواقعة حصلت في نقطة متوسطة كأن تكون مثلا في السفواى . وقد ثبت ان العرب أقاموا طويلا في السفواى وكانت تسمى مورين *Maurienne* حتى ذهب بعضهم الى أن هذه اللفظة مشتقة من لفظة المورو التي تطلق على المسلمين المغاربة . ولكن هذا الزعم هو خطأ لأن هذه اللفظة معروفة منذ القرن السادس للمسيح . وكيف كان الحال فقد أقام العرب طويلا بسفواى . وقد علمنا أن الطران بيلية *Billiet* أسقف سان جان دومورين قام بمباحث دقيقة فيما يتعلق بتاريخ بلاد سفواى فمتر على أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك لا سيما في جوار مودان *Modane* اذ يوجد واد يقال له وادى السرازين وقرية اسمها فريناي *Freney* وقد ذكر بوش مؤرخ بروفنس ما يؤيد هذا القول .

وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرة بلا معارض كأنهم في دياراتهم وقد تقدموا الى أن صاروا على أبواب مدينة سانغال وعلى ضفاف بحيرة كونستنز وكانوا يعتدون على الرهبان الذين كانوا هناك فلا يخرج منهم أحدا إلا رشقوه بسهم ، وكانوا قد ألقوا سكنى الجبال والسير في الأوعار ، حتى قال أحد الكتاب المعاصرين انهم صاروا أشبه بالمعزى في خفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال . وكانوا قد بنوا أبراجا في أماكن متعددة يقال ان آثارها لا تزال موجودة . وكانوا قد ألحقوا أضرارا لا تحصى

بالمسيحيين. و ذكر مؤرخ دير سان غال Saint - Gall في كتاب داخل في مجموعة برتر أنه كان يوجد رئيس للدير المذكور اسمه «فالتون» قد جمع عصابة من الرجال الأشداء وسلحهم بالحرب والفؤوس وهاجم هؤلاء البرابرة بفتة ، فقتل أكثرهم ومن نجا منهم قبض عليه ، وساقوا الاسرى الى الدير ، فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا ، فأتوا جوعا !

وفي أثناء ذلك تغلب الألمان على المجر ، وكسروا شرتهم ، فنشقت سويسرة نسيم الفرج . ولكن البروفانس والدوفيني وجانبا من جبال الالب بقيت تحت طائلة العرب الذين كانت ترد اليهم الامدادات من البحر . وكانت هذه البلدان لاستريح ماداموا فيها . وكان الرجل العامل المدبر اذذاك ، بين ملوك أوربة ، أوتون ملك جرمانية الذي لقب فيما بعد بالامبراطور والذي استحققت له خلاله المجيدة لقب «الكبير» فدخل اوتون في علاقات مع خليفة قرطبة الذي كان أشبه بالحامي لمستعمرة فرا كسينيه العربية، فزعم اوتون لأجل الدفاع عن حقوق النصرانية أن يبعث بسفارة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان قد جاء الى اوتون كتاب من عبد الرحمن لا يخلو من عبارات فيها غض من الدين المسيحي ، بحيث اعتمد أوتون بخاصة أن يجعل في سفارته الى قرطبة عالماً لهوتياً يمكنه الاعتماد عليه في الأخذ والرد مع علماء المسلمين ، فوقع الاختيار على راهب من دير غورز Gorse بقرب متس كان يقال له جان وكان بلغ من تضلعه في علم اللاهوت أن حاول اقناع الخليفة عبد الرحمن بالتنصر .

وقد كانت هذه السفارة في سنة ٩٥٦ والمؤرخون من المسلمين ومن النصارى متفقون على ما بلغته قرطبة لذلك المههد من العظمة والمجد فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون والسياسة ، والكياسة قد أدركت الأمد الأقصى في وقتها ، وكانت أوربة المسيحية مدهوشة بمظمة قرطبة وكان عبد الرحمن مقصداً لجميع ملوك العصر ، وكان يرسله البابا وامبراطور القسطنطينية وملوك اسبانية وفرنسة والمانية وبلاد الصقالبة، وكان ملوك المسيحيين - بحسب قول مؤرخي العرب - يبسطون

أيدى الخضوع للخليفة ، ويمدون شرفاً عظيماً لهم أن يرسل الخليفة يده لسفرائهم ليقبلوها وذلك لجلالة قدره في أعينهم ولطف منزلته في أنفسهم وكان عبد الرحمن الناصر عندما تقدم عليه وفود هؤلاء الملوك لآسيا وفد ملك الروم ، يبالغ في الاحتفال ويتكلف الكلف الثقال ويأمر باستقبالهم بالعساكر والأعوان وبإظهار جميع عظمة الخلافة فكانوا يفرشون لهم الشوارع التي يمرون بها بفاخر البسط والديباج وكانت الألوف من حرس الخليفة الخاص وأمامهم الأمراء وعظماء الدولة يصطفون على الجانبين ومنهم بطانة تحيط بعرش الخليفة وبعد ذلك يقوم الأئمة ويخطبون في هذا الحفل بما يناسب المقام من وصف عز الإسلام وإظهار مناقب الامام ثم يتلوهم الشعراء بالقصائد الطنانة التي تزيد من ابتهاج الحاضرين وحماسة السامعين (١)

(١) وصف ابن خلدون كيفية استقبال عبد الرحمن لرسول صاحب القسطنطينية ، قال : ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكة وزين القصر بأنواع الزينة وأصناف الستور وحمل سرير الخلافة بين مقاعد الانباء والاخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة في مواضعهم ، ودخل الرسل فهاهم مارأوه وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ويعظموا من أمر الإسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازة وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم حول المجلس فوجوا وشرعوا في القول فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو علي القالي واند العراق كان في جملة الحكم ولي العهد ونديه لذلك استثنأراً فعبز .

فلما وجوا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي ، من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجلي في ذلك القصد ، وأنشد شعراً طويلاً ارتجله في الغرض . ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجالات المعالم . وأخباره مشهورة . وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حبان وغيره .

ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكده المودة ويحسن الاجابة . ورجع بعد سنتين ، وقد أحكم من ذلك ماشاء ، وجاءت معه رسل قسطنطين . ثم جاء رسول من ملك الصقالية ، وهو يومئذ دفوه ، ورسول آخر من ملك الالمان ورسول آخر من ملك الافرنجية وراء البرت ، وهو يومئذ أوفوه ، ورسول آخر من ملك الافرنجية بقاصية المشرق ، وهو يومئذ كلدته ، واحتفل الناصر بقدمهم وبعث مع رسول الصقالية ريباً الأسقف الى ملكهم

أما سفارة الراهب غورز من قبل ملك فرنسا ، فأنها وان لم تكن محفوفة بجميع تلك الاهمية فلم تكن خالية من الاحتفاء والاحتفال . ولقد بقى لنا عنها رحلة بقلم أحد تلاميذ الراهب المذكور يمكننا أن نلخص منها مايلي :

سافر الراهب جان ومعه راهب ثان لاغير . وكانت الهدايا التي لا بد من استصحابها هي من مال الدير الذي ينتسب اليه الراهب . فسار الراهب ماشياً على قدميه الى «فيين» Vienne على نهر الرون ، ومنها ركب في النهر الى البحر ، وركب فيه الى برشلونة التي كانت اذ ذاك تابعة لمملكة فرنسا . وانما كانت أول مدينة تخص الخليفة من الثغور هي طرطوشة ^(١) فلما وصل سفراء ملك افرنجة الى طرطوشة وأذن لهم عاملها بالسير الى قرطبة تقدموا في البلاد ، وقطعوا جانباً عظيماً من جزيرة

دوفوه ، ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة جاء رسول أوردون ، يطلب السلم ، فقصد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردالد قومن قشتالية في عهده فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ، ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومن قشتالية فردالد المذكور ومال الى أوردون بن رودمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكينس ، فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين مقلية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رودمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه . وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث الساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه ، وخلع الجلائقة طاعة أوردون ، وبعث الى الناصر شكره على فعلته وكتب الى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلد (قومن قشتالية) في نكته ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعانتته الى أن هلك . ولما وصل رسول كلداء ملك الافرنجة بالشرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب . انتهى كلام ابن خلدون بعض اختصار . وسنستوفي ان شاء الله وصف الناصر وأهله خلاته وعظمة قرطبة في ايامه في الاجزاء التالية المتعلقة بالاندلس فان محل ذلك هناك لاهنا وانما قلنا هذا الفصل عن ابن خلدون تأييداً لما ذكره المستشرق رينو من هذا الباب

(١) وهكذا ذكر المسعودي في مروج الذهب وكان المسعودي من معاصري أيام الناصر عبيد

الرحمن.

الأندلس ، وهم في ضيافة العرب بالمهود من كرمهم . فوصلوا الى قرطبة لم يتكلفوا
انفاق درهم واحد . وهناك استقبلوا براً وترحيباً وانزلوا في محل على مسافة ميلين
من قصر الخلافة

ثم ان الخليفة علم بمهمة الراهب ، وما هو مكلف بتليغه من قبل ملك فرنسا ،
فأراد أن يتجنب الباحثات الدينية . وقال انه لم يكن لائقاً بمقام اثنين مثل الخليفة
والملك أن يدخلوا في مجادلات كهذه وانه لايسع الخليفة أن يسمع كلاماً فيه نيل من
الرسول (ﷺ) ولا يجوز له ذلك بحسب الشريعة^(١) واقترح الخليفة أن يمد كتابه
الى الملك أوتون كأنه لم يكن . ولكن جميع هذه الملاحظات لم يقبلها ذلك الراهب ،
وأصر على رأيه ، وجاء مطران قرطبة ينصحه بترك هذا العناد ، فأخسن له الجواب
وأخذ يقرعه على هوداته وتساهله وتساهل جماعته في أمر الدين المسيحي ، وكيف أنهم
قد رضوا بختان أولادهم وبالامتناع عن أكل الخنزير مسaire للمسلمين . ولما علم
الخليفة بتصلب هذا الراهب وانه راكب رأسه لا يثنى عن عزمه أبى أن يقبله وأرسل
اليه قائلاً انه كان قد بعث الى الملك أوتون أحد الأساقفة سفيراً عنه فانظره ثلاث
سنوات ولذلك هو يريد أن يمسك سفير أوتون لديه لا ثلاث سنوات فقط بل تسع
سنوات لأنه يرى نفسه أكبر من أوتون بثلاث مرات . فأجاب الراهب بأنه لا يقدر
أن يخرج عن الأوامر التي في يده من أوتون وتقرر عند ذلك أن يرسل الخليفة رسولا
آخر يسأله عما كان لا يزال مصمماً على رأيه في كيفية سفارة الراهب وأخذ
الخليفة ينتدب للرسالة الى أوتون من عنده ممن يصلح لذلك ، فكان المسلمون يستعفون
من تلك السفارة لأنه من المعلوم أن على المسلمين واجبات دينية يصعب عليهم القيام
بها في بلاد النصرى ومن أجل ذلك كان أكثر سفراء ملوك الاسلام الى ملوك
النصارى مسيحيين ، وكثيراً ما كانوا أساقفة أو قسيسين ، ففي تلك النوبة انتدب
لهذه السفارة رجل مسيحي اسمه «رسيمونديس» كوفيء فيما بعد على المهمة التي قام بها

(١) قال رينو تحت هذه الجملة انه ورد في قانون الدولة العثمانية أن كل من يقذف بالله وصفاته أو
بنبيه الكريم أو بكتابه العزيز يعاقب بالقتل ولايستتاب ولا يعامل

بجملة اسقفاً وكان يحسن الاتينية والعربية معاً. ويظن بمضهم أن الأسقف رسيموندس هذا هو نفس رمنس الذي كانا مطراناً اسبانيولياً وكانت بينه وبين المؤرخ ليوتبرند علاقة ومودة وقد جعل هذا تاريخه باسمه

وفي تلك المدة كان أوتون مشغولاً باطفاء فتنة أثارها عليه ابنه وصهره فلما وصل السفير الاسبانيولي من قبل الخليفة أجاهه الملك الى كل ما اقترحه ، وقفل الرسول الى قرطبة وقد دبر الأمور كما شاء الخليفة . ورضى الخليفة من بعدها أن يستقبل الراهب ، وكان الخليفة يعلم تقشف الراهب ومذهبه في لبس الخشن وبعده عن مظاهر الأبهة ، فبعث اليه بأنه يريد أن يستقبله كسفير من قبل الملك ، وأنه لا بد له اجلالاً لقدر مرسله من قبول حالة السفارة وأنه ينبغي له أن يدخل على الخليفة بملابس لائقة فأجاهه الراهب بأنه لا يجد لبسا أهيب ولا أنخر من ثوب رهبانته ، فظن الخليفة أنه قد يكون الراهب عاجزاً عن شراء الملابس اللازمة ، فبعث اليه بمشراقات فضة ، وكانت الأقة اثنتي عشرة أوقية ، ولكن الراهب تصدق بهذه الفضة على الفقراء . فأرسل الخليفة اليه قائلاً انه يقبله ويحتفل به ولو جاءه في كيس خيش

وفي اليوم المعين للاستقبال اصطفت العساكر على الجانبين ، ووقف العبيد الصقالبة قابضين على الحراب ، ووقف آخرون بالقسي . وكانت هناك الفرسان تلعب في الميدان وفي هذه الحالة دخل الراهب السفير ، وقد فرشت أمامه مداخل القصر بالبسط والديباج ، فما زال يتقدم الى أن وصل الى البهو الذي فيه الخليفة ، فوجد الخليفة جالساً على سرير الخلافة متربعا على عادة الشرقيين . فعند وصوله اليه أعطاه باطن يده تميزا له عن غيره فقبلها الراهب ، ثم أمر له بالجلوس وبعد المراسم المعتادة في المجاملة شرع الخليفة يتكلم عن الملك اتون وما بلغه من المقام السامى بين الملوك وأثنى عليه مزيد الثناء . ثم انه لما كان عبد الرحمن قد بلغه كون ابن الملك أوتون نار على أبيه أنجى بشيء من اللائمة على الملك قائلاً : انه لا ينبغي للملوك أن تقبل أقل انتقاص من سلطتها ولا ترعى في ذلك عاطفة اشارة الى شيء كان وقع مع عبد الرحمن نفسه ، فانه عصى عليه أحد أولاده فاتتهى الأمر بأن أمر بقتله

ثم دار الكلام على موضوع الرسالة التي جاء بها الراهب سفيراً؛ فمؤرخو العرب أو بالأقل المؤرخون الذين عرفناهم، لم يكونوا يذكرون شيئاً عن قضية احتلال العرب لسواحل بروفنس وبهم الغارات الى الداخل، مما يدل على أنهم لم يكونوا يابهون لهذه الحادثة^(١) على أن المؤرخ ليوتيرند الذي عاش في ذلك العصر يؤكّد أن تلك المستعمرة العربية في جبال الألب كانت تحت حماية الخليفة نفسه، وصاحب الرسالة التي نحن بصدها عن رحلة الراهب سفيراً من قبل الملك أوتون الى الخليفة عبدالرحمن هو نفسه يقول ان موضوع تلك السفارة لم يكن سوى التوسط لدى الخليفة لوضع حد لغارات العرب في فرنسا وإيطاليا. ومن المؤسف أن الرسالة ناقصة والكلام منقطع في أهم نقطه من الموضوع ولم يعثر الى الآن على نسخة تامة لتلك الرسالة.

هذا وفي سنة ٩٦٠ تم طرد العرب من جبل سانبرنار وليس عندنا معلومات عن تفاصيل الواقعة. ويظهر أن القديس برنار دومنتون Dementhone الذي بنى ملجأ في أعلى هذا الجبل، حتى نسبت الى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها، كان هو نفسه في هذه المعركة.

ومات عيد الرحمن الثالث (أى الناصر) سنة ٩٦١ تخلفه ابنه الحكم الثانى، وكان ملكاً محباً للعلوم والعارف جانحاً الى السلم، ففي أيامه ازداد عكوف الناس في الاندلس على العلوم والصناعات وبلغوا منها شأواً مدهشاً وغلبت الكياسة والرقّة ودمائة المدينة على أولئك الأقوام الذين كانوا في مبدأ أمرهم على جانب عظيم من الخشونة والجفاء فأما في زمن الحكم فقد صارت الدولة للعلم وترقى به حتى النساء اللاتي كان منهن العالمات والفاضلات وصاحبات المكنانة في دار الخلافة. وكان الحكم في أوائل أيامه، استجلاباً لثقة المسلمين به، قد غزا جليقية واشتورية

(١) قد تقدم لنا في حواشى هذا الكتاب ترجمة رسالة من قلم رينو يقول فيها: انه لما حرر هذا التأليف لم يكن اطلع على رحلتى الاصطخرى وابن حوقل فلما اطلع عليهما علم أن العرب لم ينفلوا هذه الحادثة بل كانت عندهم ذات بال

وكتلونية ودوخها ولكن المسيحيين طلبوا منه الصلح فأجابهم اليه ، ولما أخذ وزراؤه وقواده يحثونه على نقض هذا الصلح لما عند المسلمين من حب الجهاد ، أجابهم بهذه الآية البديعة من القرآن : (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً) نعم انه اشترط على كت برشلونة وسائر أمراء الكتلان ذلك حصونهم القريبة من ثغوره وأخذ منهم موتقاً بأنهم لن يمالئوا أحداً من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب (١)

(١) قال ابن خلدون : ولاول وفاة الناصر طمع الجلائقة في الثغور فنزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردند إلى عقد السلم معه واقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلائقة ، ولقيهم فهزموهم واستباحهم ، وواطأ الساكر بلد فردند ودوخها . وكان شانجة بن رومير ملك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجبي صاحب سرقسطة في الساكر ، وجاء ملك الجلائقة لنصره فهزموهم ، وامتنعوا بقورية وعانوا في نواحيها ، وقتل . ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويعي بن محمد التجبي إلى بلاد برشلونة ، فعانت الساكر في نواحيها . وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القومس فعانوا فيها وقتلوا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية . وكان من أعظمها فتح قلوبية من بلاد البشكنس ، على يد غالب ، فعمرها الحكم واعتنى بها . ثم فتح قلوبية على يد قائد وشته وغنم فيها من الأموال والسلاح والاقوات والأمانات وفي بسطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى .

قال : وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبه ، ومعه يعي بن محمد التجبي وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن عرماج ودوخ بلادهم وانصرف . وظهرت في هذه السنة مراكب الجبوس في البحر الكبير وأفسدوا بسائط اشبونة ، وناشبهم الناس القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم . وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت الأخبار بأن الساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل . ثم كانت وفاة اردون بن اذفونش ملك الجلائقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير ، وهو ابن عمه ، وهو الملك من قبل اردون وحمل الصراية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردند قومس قشتالية توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره ابوه الناصر ، فبادر إلى الوفاة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدمه وعي الساكر ليوم وفادته وكان يوماً مشهوداً ، وصفه ابن

وكان العرب لا يزال منهم جماعات محتلة لبروفنس ودوفيني ولا تزال الناس هناك تخشى عاديتهن ، وكان الملوك في منازعاتهم يستعينون بهم فيكون الترجيح بواسطتهم .

حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل الى الحكم وأجلسه ووعد بال نصر من عدوه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه وعاقده على موالة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ، ودفعت الصلات والحملات له ولأصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير يبيعه وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثم بعث ملكا برشلونة وطوكونية وغيرها يسألان تجديد الصلح وقرارها على ما كان عليه وبعثا بهدية وهي عشرون صبياً من الحصيان الصغالة وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذرع صقلية ومائتات سيف فرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور ، وأن لا يظهروا عليه أهل ملتهم ، وأن يندروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسل غرسية ابن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقوامس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فمقد لهم الحكم . فاغتبطوا ورجعوا . ثم وفدت على الحكم أم لنريق القومس بالقرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته واحتفل لقدمها في يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسغت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها دون ماوصلت به هي وحملت على بطلا فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلوات لسفرها وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرض العدو ، من المغرب الأقصى والوسط ، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مفراوة ومكناسة فبشوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحوا بها دعوة الشيعة فيما بينهم . ووفد عليه من بني الحرز وبني ابن العافية ، فأجزل صلتهن وأكرم وفادتهن وأحسن منصرفهم واستنزل بني ادريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية . وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جامعاً للكتب في أنواعها بما لم يجتمع أحد من الملوك قبله . قال أبو محمد بن حزم أخبرني تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان ، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة واربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقاً جلبت اليه بضائمه من كل قطر

وكان أوتون ملك الألمان بعد أن قهر المجر واستصفي جميع ألمانيا اجبر البابا على تويجه بتاج الامبراطورية وتقلب على برانجة ملك لونباردية ، وخرج هذا من مملكته شريداً فقام ابنه ادالبرت للمطالبة بملك أبيه . وروى بعض المؤرخين مثل البريك المنقول تاريخه في مجموعة لاينبتر أن ادالبرت استعان بمسلمي فركسينت .

وفي سنة ٩٥٦ تم اجلاء العرب عن غرينوبل . وقد تقدم أن أساقفة هذه المدينة كانوا هجروها الى ساندوناث من جهة فالانس ، فقام أحدهم ايزاردن وجمع أكبر البلاد وقوادها واستنفرهم لقتال المسلمين . وكان هؤلاء يملكون اخصب النواحي وأجود الأراضي فتقرر أن كل انسان يكون نصيبه من هذه الأراضي بقدر بسالته واقدامه . فلما تمكن الأهالي من اجلاء العرب عن غرينوبل ووادى غرازيفودان تقاسم المقاتلون للعرب تلك البقاع التي كانت بيدهم بحسب درجة انغماسهم في الحرب . ومن ذلك جاءت ثروة بعض العائلات القديمة في مقاطعة دوفيني ومن جملتها عائلة اينارد Aynard التي يقال ان أصل ثروتها من تلك الحرب الصليبية . وبعد أن استصفي الأسقف ليزورن تلك البلاد ومحا آثار العرب فيها أعلن عن نفسه أميراً على

قال أبو محمد بن خلدون : ولما وفد على أبيه أبو علي الفالي ، صاحب كتاب الأمالي ، من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده ، واورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الأموال بشرائها حتى جلب منها الى الأندلس ما لم يهدوه . وبعث في كتاب الأغاني الى مصنفه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسه في بني أمية ، وأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرج الى العراق . وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك .

وجمع بداره الحدائق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، الا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء . ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور ابن أبي عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخوله البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوه .

انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

غرينوبل وعلى الوادى . وحفظ خلفاؤه تلك الامارة مدة طويلة وبقى جانب من امتيازاتهم الى زمن الثورة الافرنسية .

فالقارى يرى أن أمور المسلمين فى تلك الاصقاع كانت قد أخذت تراجى الى الواء ، وأن ذلك التقهقر كان يزيد طمع الأهالى فى التخلص منهم تماماً ، فى سنة ٩٦٨ نادى الامبراطور أوتون بهذه العزيمة وأجمع أن يستأصل شأفتهم من هذه النواحي ، الا انه مات قبل أن يحقق وعده . وكان فى ذلك العصر رجل لا يدكر اسمه الا مقروناً بالتجلة والاكرام سواء عند الملوك أو بين الشعوب وهو القديس مايول Mayeul الذى كان قسيساً فى بلدة كلونى Cluny فى بورغونية ، وكان قد بلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمقام البابوية ، وكان هذا القديس ذهب الى رومة لزيارة كنائسها وفى اياه من رومة جاءت طريقه على بلاد البييمونت قاصداً الرجوع الى ديره من جهة جبل جنيفر Genevre وأودية دوفينى ، وكان المسلمون اذ ذاك محتلين البلاد الواقعة بين غاب Gap وامبرون Embrun ومركزهم فى الأعلى المشرفة على وادى دراك Drac بازاء جسر أورسيير (ولا يزال هذا المكان معروفاً الى اليوم) فلما وصل القديس مايول الى ذيل الالب وجد هناك عدداً كبيراً من الزوار القافلين من رومة والمسافرين قد علموا بمجيئه فانتظروه ليسيروا معه اذ لم يكونوا يرجون أن تتدح لهم فرصة خير من هذه لاجتياز جبال الالب . فتقدمت قافلة القديس . وفيها هذا الجم الغفير . وما وصلوا الى ضفاف الوادى سائرين فى طريق منحصرة بين الجبل والنهر ، حتى انهال عليهم العرب يرشقونهم من السهام من عل . وكان العرب نحواً من الف مقاتل ولم يكن للمسيحيين مفر ، فأحيط بهم ووقع أكثرهم فى الاسر . وكان من جملة الاسرى القديس مايول ، وقد جرح فى يده وهو يذب عن أحد رفاقه ؛ فسيق الاسرى الى مكان على حدة ، وكان أكثرهم فقراء لا يطعم الانسان من ورأهم فى مغنم فدنا العرب من القديس وسألوه عن درجة يساره فأجابهم القديس بأنه من قوم أغنياء ولكنه خرج من جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة ربه وهو الآن راهب فى دير ذى أملاك وأراض واسعة فتساوتوا معه على

خدية تبلغ مايساوى ألف ليرة من الفضة أو ثمانين ألف فرنك من المايلة الحاضرة. وطلب العرب من القديس أن ينفذ رفيقه الى دير كلوني ليحمل اليهم المال وضربوا له موعداً قالوا له ان فات هذا الموعد ولم يروا المال فانهم يقتلون القديس وسأر الأسرى فكتب القديس الى الدير قائلاً : الى آباء كلوني والاخوان الذين فيه مايول المسكين أسير مكبل بالقيود الخ . فلما وصل هذا الكتاب ارتفع البكاء والعويل من كل جانب وأسرعوا بجمع الأموال واستجادوا أ كف ذوي الحمية وجردوا الكنيسة من زخرفها ، وأرسلوا كل ما وقع في أيديهم من المال لفكك القديس ومن معه من الأسرى . فوصل المال قبل انقضاء الأجل وأطلق المسلمون سراحهم وكان القديس في أثناء وقوعه في الاسر قد حاول أن يرشد المسلمين قائلاً لهم : ان الذى يعتقدون به لا يقدر أن يخلصهم من العذاب ولا ينقهم بشيء . فعند ما سمعوا منه هذا الكلام هاجت حفيظتهم وشدوا وثاقه وصاروا به الى أحد الكهوف وحبسوه فيه ثم أنهم عادوا فسكنوا ورجعوا الى معاملته بالحسنى . وكان اذا اشتهى الطعام جاء أحدهم وغسل يديه وأصاح له طعاماً شهيماً ووضع بين يديه بكل أدب . وكان مع القديس نسخة من التوراة ، فجاء أحد المسلمين ومد يده اليها بدون احترام ، فلامه رفاقه وقالوا له : ان هذا كتاب مقدس ونحن معاشر المسلمين تقدس جميع الكتب السهبوية . وبهذه المناسبة قال أحد كتاب ذلك العصر : ان المسلمين يحترمون مثلنا انبياء العهد القديم ويرون المسيح نبياً كبيراً وانما يجعلونه على كل حال أصغر من محمد بقولهم ان محمداً كان خاتم الرسل وهم يقولون ان محمداً هو من سلالة اسماعيل ابن ابراهيم . وقد وقعت حادثة القديس مايول هذه فى سنة ٩٧٢ فصار لها دوى عظيم فى الاقطار وضح لها المسيحيون الصغار والكبار وهبوا طالين الأخذ بالثأز وكان فى نواحي سيسترون Sisteron فى قرية يقال لها نويه Noyers رجل نبيل يقال له بوبون Behon . كان قد استنفر الناس مراراً لتخليص هذه البلاد من العرب فاتتهز هذه الفرصة التى كان فيها الناس غضاباً من أجل حادثة مايول فجمع كلمة الفلاحين والأعيان وسكان البوادي والحواضر ممن يفضبون للدين والوطن ثم بنى حصناً فى نواحي

سيسترون بازاء حصن كان ينزله المسلمون يريد بذلك مراقبة حركاتهم حتى ينقض عليهم في أول غرة و يتقحم أول ثلثة . و حاول المسلمون أن يعرقلوا مساعى بوبون هذا فلم يفلحوا وكان الحصن الذى فيه المسلمون على رأس جبل يقال له « بيتره انبيه » . Petra - Empia و بينا الفريقان يداور كل منهما الآخر اذ اغتصب قائد حصن العرب امرأة الحرسى الموكول اليه باب الحصن فانتقم البواب المذكور عن هذه الفعلة بان عرض على بوبون أن يفتح له الباب على حين غرة فيدخل الى الحصن و يفتك بمن فيه . وهكذا تم وجاء بوبون ومعه رجاله فوجدوا الباب مفتوحاً فدخلوا وذبجوا المسلمين . وهم غارون ومنهم من عرض على المسيحيين ان يتنصر فهؤلاء عفوا عنهم واستحيوهم ومن جلتهم القائد وقد جعلت الكنيسة بوبون هذا فى مصاف القديسين كما يستفاد من المجموعة البولندية (١)

وفى الوقت نفسه كان أهالى غاب (٢) قد ثاروا بالعرب ووثبوا عليهم واستأصلوهم . وجاء فى كتاب قديم يتعلق بهذه البلدة أن الذى جمع كلمة الالهين وثار بهم على العرب هو رجل يقال له غليوم فكبسوا العرب بيانا فى جميع المواقع التى كانوا يحتلونها ، واستأصلوا عرقاتهم وكانت مكافأة الذين قاموا بهذه الحرب أن أخذوا نصف البلدة ونصف الأراضى و تركوا النصف الآخر للمطران والكنائس . وهكذا تحجرت بلاد الدوفينى وأصبح خلاص مملكة بروفنس بعد ذلك قريبا .

وان من المؤسف أن لاتكون لدينا على هذا الحادث المهم معلومات مفصلة ، وغاية ما علمناه أن غليوم كونت بروفنس هو الذى تولى كبر تلك الحرب . ومن يدرى فقد يكون هو نفسه غليوم الذى عنى آثار العرب فى « غاب » فان غاب كانت من توابع بروفنس . وكان غليوم كونت بروفنس محبا للمعدل محافظا على الديانة برأ برعيته فأجبه رعاياه حباً جماً . ولما استنفر أهالى بروفنس ودوفينى السفلى ونيس لقتال العرب لبوا

(١) هى مجموعة حياة القديسين منسوبة الى راهب يسوعى اسمه بولاند . وقد بدأ هو بها وأكملها

غيره فصارت تسمى مجموعة البولنديين .

(٢) قصبة هى مركز مقاطعة الألب العليا كان العرب استولوا عليها طويلا .

تداءه ، فلما اجتمع اليه الجمل الغفير منهم قصد أن يهد إلى العرب في فرسينت ،
وعند ما علم العرب أن أهالي البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم
مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم صفاً وأول معركة وقعت معهم وقعت في نواحي دراغينمان
Dragengman في مكان يقال له تور تور Tourtour حيث يوجد إلى الآن برج مبني
منذ ذلك اليوم ، تذكر لتلك المعركة ، فانهزم المسلمون والتجأوا إلى حصن منيع .
ولكن المسيحيين أخذوا بمخنقهم حتى اضطروهم أن يفادروا الحصن ليلاً ويلجأوا
إلى الحراج المجاورة ، فتأثرهم أهالي البلاد وتغلبوا عليهم ، قتل أكثرهم ، وأخذ
الباقيون أسرى^(١) وجميع من وقع في الأسر أو استسلم من المسلمين عفوا عنه كما أنهم لم

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي فرنسة وقال من الجائز أن يكون بعض المسلمين فروا إلى
البحر وذهبوا إلى الأندلس أو إلى صقلية أو إلى سواحل افريقية . وقد قال دربلو D'Herbelot
في «المكتبة الشرقية» تحت اسم المعز وكذلك كاردون Cardonne في تاريخ مغاربة افريقية انه
في ذلك الوقت أي نواحي سنة ٩٧٠ كان المسلمون مالكيين لجزيرة سرديانية وأن الخليفة المعز قبل أن فتح
مصر كان أقام بسرديانية مدة سنة وقد وافق على هذه الرواية ميمو Mimaut صاحب تاريخ
سرديانية وزعم «دلين» Delbene أن المسلمين كانوا استولوا على كورسكا أيضاً وهي التي يقول
لها العرب قرسقة .

ويقول ديلين انه كان لهم أمير يقال له «موجه» Mugat جرد عليه كونت بروئنس جيشاً انضم
إليه الجنويون . ولاشك أن ديلين يريد أن يتكلم عن الأمير مجاهد الذي كان أغار على سرديانية وكان
البيزانينيون أو البيازنة (كما يقول العرب) ولكن قصة مجاهد هذا وغارته على سرديانية متأخرة عن
هذا التاريخ بنحو من ثلاثين سنة . انتهى كلام رينو .

قلت مجاهد العامري من ممالك الملك الغازي الشهير المنصور بن أبي عامر ، كان بعد ذهاب دولة المنصور قد
تقلبت به الأحوال ، فاستولى على دانية وشن الغارة على سرديانية . ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس
فقال : مجاهد بن عبدالله العامري . أبو الجيش الموفق ، مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد .
كان من أهل الأدب والشجاعة والعلوم وأهلها . نشأ بقرطبة وكانت له همة وجلادة وجرأة ، فلما
جاءت أيام الفتنة وتقلبت المساكر على النواحي بنهاب دولة ابن أبي عامر قصد هو في من تبعه
الجزائر التي في شرق الأندلس ، وهي جزائر خصب واسعة ، فغلب عليها وحامها (يريد بهذه
الجزائر ميورقة ومينورقة وبابسة) ثم قصد منها في المراكب إلى سرديانية (جزيرة من جزائر الروم
كبيرة) في سنة ست أو سبع واربعمائة فغلب على أكثرها وافتتح معاقها .

يقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين وادعين في القرى المجاورة . ومن هؤلاء من تنصر
واندمج في الأهالي ، ومنهم من بقى مسلماً ولكنه أصبح رقيقاً مستخدماً إيماناً في

ثم اختلفت عليه أهواء الجند وجاءت امداد الروم ، وقد عزم على الخروج منها طمعاً في تفرق من
يشغب عليه ، فاجلته الروم وغلبت على أكثر مراكزه ، فأخبرني أبو الحسن نجبة بن يحيى قال :
أبناً شريع بن محمد عن أبي محمد بن حزم قال ان أبا الفتح ثابت بن محمد الجرجاني قال : كنت مع
أبي الجيش مجاهد في سردانية فدخل بالمرآك في الرسي ناه عنه أبو خروب رئيس البحرين ، فلم
يسمع كلامه ، فهبت ريح فجعلت تذف مراكب المسلمين مركباً مركباً الى الريف ، والروم وقوف
لاشغل لهم الا القتل والامر للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى
صوته ، لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك ، لارتجاج البحر وزيادة الريح
الى أن يقول : قد كنت حذرت من الدخول ههنا فلم يقبل ، قال فبجريعة الذقن ماتخلصنا في
يسير من المراكب . هذا آخر خبر ثابت بن محمد .

ثم عاد مجاهد الى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته واختلفت به الأحوال حتى غلب على دانية
ومايلها ، واستقرت اقامته فيها . وكان من الكرماء على العلماء ، باذلاً للرغائب في استمالة الأدباء ،
وهو الذي بذل لأبي غالب اللغوي تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب الذي
ألفه في اللغة مما ألفه لأبي الجيش مجاهد على ما ذكرنا في باب التاء . وفيه يقول أبو العلاء صاعد
ابن الحسن اللغوي وقد استماله على البعد بخريطة مال ومركب أهدهاها اليه قصيدة أولها :

أنتني الخريطة والمركب كما اقترن السعد والكوكب
وحط بمينائه قلعة كما وضعت حملها المقرب
على ساعة قام فيها الثناء على هامة المشتري يخطب

الى أن قال

مجاهد رضت إياه الشمس فأحسب مالم يكن يصحب
فقل واحكم فسمع الزمان مصيخ اليك بما ترغب

وقد ألف في العروض كتاباً يدل على قوته فيه . ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس
أحمد بن رشيق وتحويله عليه ، وبسط يده في العدل وحسن السياسة . وكان موته بدانية في
سنة ٤٣٦ .

وجاء في معجم البلدان لياقوت ان المسلمين غزوا سردانية في سنة ٩٢ في عسكر موسى بن نصير
والذي قرأته في التواريخ أن عبد الله بن موسى بن نصير هو الذي فتح مبرقة واخواتها ولعله
غزا سردانية .

أراضى الأديار أوفى أراضى الزعماء . وقد بقيت لهذه الأمة بقايا معروفة مدة طويلة كما سيأتى الكلام عليه .

أما سقوط حصن فر كسينت فقد وقع فى سنة ٩٧٥ وكانت مدة بقاء هذا الحصن فى أيدي المسلمين أكثر من ثمانين سنة . ولما كان هو المركز الأسمى لجميع العرب المنتشرين فى داخل فرنسا وشمالى ايطالية وفى سويسرة ، فلا بد من أن ذلك الحصن كان ملائ بالأموال والنفائس ، فوزع الكونت غليوم صاحب بروفنس تلك الأموال على الذين امتازوا بقتال العرب ؛ وأشهرهم « جيلين غريما لى » الذى كان من أهل جنوة فانه كوفى على اقدمه بالاراضى التى كانت فى منتهى خليج سان ترويز . وممن يذكر بين المشاهير الذين جالدوا حق الجلاد بهذه الحرب مسيحي آلت اليه السيادة على مدينة كاستلان Castallane فى مقاطعة الالب السفلى . وربما

وجاء فى تاريخ ابن عذارى المراكشى السسمى بالبيان المغرب ، أن المسلمين غزوا سردانية فى سنة ٢٠٦ وعليهم محمد بن عبد الله التيمى فأصابوا وأصيب منهم ثم قتلوا .

وقد اطلعت فى مدينة جنوة على تاريخ الطليانى لجمهورية جنوة لمؤلف يقال له « فريديسى دونافر » De Naver جاء فيه انه فى سنة ١٠١٦ ذهب أسطول جنوى إلى سردانية وتغلب على قوة مجاهد الأمير العربى الذى كان استولى عليها ، وانه فى سنة ١٠٣٤ وصل الأسطول الجنوى الى افريقية واحتل الجنوبية عنابة . وانه فى سنة ١٠٨٧ ذهبت الأساطيل الجنوبية والبيزانية ، ومعها اسطول امالنى (بقرب نابولى) بأمر البابا فكتور الثالث ، واجتاحت سواحل تونس وطرابلس واضطر أمير افريقية أن يدفعهم عنها بقدية تبلغ نصف مليون بحسب المعاملة فى زمن صاحب التاريخ وسلم اليهم الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده .

ومما جاء فى تاريخ جنوة هذا أنه فى مدة ١٣ سنة غزا الجنوبية ثمانى غزوات فى بلاد الاسلام ، وان فتح الصليبيين لطرابلس الشام كان على أيدي الجنوبية فى ١٣ تموز سنة ١١٠٩ وان أمير ياتسى قائد الجنوبية تولى مدينة جيل ثم انه فى سنة ١١١٠ كانت له اليد الطولى فى حصار بيروت وفتح الصليبيين لها . قال : واشترك الجنويون مع غودفروا دو بويون فى فتح القدس وفتحوا صور وقيسارية .

هذا وجاء فى تاريخ الخلفاء للامام السيوطى أن الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة فى شوال سنة ست وثمانين وانه فى سنة ٨٧ فتح سردانية من جملة فتوحات عددا وانه فى سنة ٨٩ فتح جزيرتى ميورقة ومينورقة .

كانت ثروة آل كاستلان الحاضرة راشحة عن تلك الفتوحات . ولا ينبغي أن ننسى أن العرب كانوا أيضاً قد أجلوا عن مدينة ريز في (الألب السفلى) فانه في كل سنة يحتفل أهالي هذه البلدة بعيد خلاصهم منهم الذي يصادف يوم العنصرة . وقد استولت الكنيسة أيضاً على كثير من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد أصيبوا أكثر من سواهم بهذه الغارات العرية وتهدم كثير من أديارهم فلذلك كانوا هم دائماً في طليعة الحركة لاجلاء العرب ، فقال أساقفة فريجس ونيس نصيباً كبيراً من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وفي طولون وقع نزاع بين الأهالي على الأراضي التي كانت للمسلمين لأنه كان قد طال حكم العرب لتلك البلدة فذثرت آثار التملك القديم واصبحت الحدود مجهولة . فجاء الكونت غليوم من آرل وأجرى التقسيم بين الأديار والأهالي والامراء ، وأرضى الجميع . ولذلك بقى لغليوم هذا اسم كبير في التاريخ ، وأطلقوا عليه لقب أبي الوطن .

فقد تقرر إذاً أن سقوط حصن فركسنت في أيدي المسيحيين وقع في سنة ٩٧٥ وانه من ذلك الوقت لم يبق للمسلمين شيء في أرض فرنسة . نعم ان بعض المؤرخين ومنهم دالين المار المذكور يزعم بقاء المسلمين في جبال الالب مستمراً الى ما بعد سنة ٩٨٠ بل الى ما بعد سنة الألف ، ولكننا لا نثق بهذه الرواية ، ونظن أنه ان كانت قد بقيت عصابات عرية في جبال الالب من بعد تاريخ سقوط فركسنت فلا تكون عصابات محاربة بل تكون عصابات مستسلمة وقد اردت عن الاسلام الى النصرانية أو صار رجالها في حكم الرقيق . وبالاختصار فمن بعد ذلك العهد لم يبق على أتباع الانجيل خطر من أتباع القرآن الا ان كان من قبيل وقائع قرصانية كان لا بد لأجل التخلص منها من مطاردة البرابرة الى نفس بلادهم .

وفي سنة ٩٧٦ مات الخليفة الحكم الثاني في قرطبة وكان ابنه بليداً فتقلد الامور الحاجب الملقب بالنصور وكان آية باهرة في البسالة والاقدام وحسن التدبير بلى منه النصراني بياقعة لا نظير لها فاعاد للاسلام رونقه الأول وبث الغارات في أطراف بلاد

النصرانية حتى أوقع الذعر في جميعها وعادت النصرانية على شفا خطر عظيم . وكان المنصور عندما تسلم الزمام قد بدأ بترتيب أمور الولايات الافريقية ، حيث أدخل في الطاعة جميع أهلها وجند منهم الجيوش الجرارة واستنفر أيضا أهل الأندلس منتخبا منهم أشجع الشبان وأخذ يشوقهم الى القتال ويمرهم عليه . وكانت غزوات المنصور كلها في فصل الصيف ، ما عدا غزاة واحدة ، وذلك لأن رجال افريقية كانوا لا يتحملون برد الاصقاع الشمالية . وبلغ عدد غزواته في مدة سبع وعشرين سنة ستا وخمسين غزوة ، لم تهزم له فيها راية ولا ولي جيشه مدبرا (١)

وكان المسلمون في الغالب فرسانا فاذا قصدوا الى بلاد النصارى وهزموا لهم جيشا ذبحوا الرجال وسبوا النساء والأولاد وباعوهم رقيقا ، فكنت ترى بعد كل غزاة من غزوات المنصور أسواق قرطبة واشبيلية واشبونة وغرناطة مكتظة بالرقيق من ذكور واناث ، وكان تجار الرقيق يأتون بهذه الخلائق الى افريقية ومصر وسائر بلاد الاسلام فتنشر فيها . وكان المنصور يرى جهاده في بلاد النصرانية أفضل قرباته الى الله تعالى ، وكان يستصحب في جميع اسفاره التابوت الذي يريد أن يوضع فيه عند موته . وكان من عاداته أن ينفذ القبار الذي يعلق بثيابه في أثناء غزواته ويجعله في ذلك التابوت ، ليصنع منه لبنة يضعها تحت رأسه عند الموت . فجال غزاة المسلمين تحت رايته المنصورة في قشتالة وليون وناباره وآراغون وكتلونيه الى أن وصلوا الى عاشقونية وجنوبي فرنسة

وجاست خيل المنصور في أماكن لم يكن خفق فيها علم اسلامي من قبل ، وسقطت مدينة شانتياق من جليقية وهي أقدم معهد مسيحي في اسبانية في أيدي المسلمين ، واحرقت تلك المدينة . وأخذت اجراس الكنيسة الكبرى المعروفة بكنيسة

(١) لي من قصيدتي الأندلسية التي نظمتها بعد وصولي الى قرطبة :

وسائل عن المنصور نجل ابن عامر يجاوبك عنه كل قوس موتر
غزا في العدى ستا وخمسين غزوة فأب بها طرا بصر مؤزر

القديس يعقوب الى قرطبة حيث عمل منها قناديل وعلقت في الجامع الأعظم . ولأجل أن يزيد النصور من اذلال المسيحيين أجبرهم على حمل الاجراس المذكورة على ظهورهم من شاتياقب الى قرطبة وهي مسافة ثمانمائة كيلومتر ولا ينكر أن المسيحيين عادوا عند ما دخلوا قرطبة فاسترجعوا هذه الأجراس وحملوها على ظهورهم من قرطبة الى شاتياقب ، وتلك الايام نداولها بين الناس .

وفي أيام النصور (١) كاد الأمل ينقطع من بقاء النصرانية في اسبانية ، فاتحد

(١) سنأتى في الأجزاء التالية على كل ما يتصل بنا من أخبار النصور بن أبي عامر الذى يقدر أن يضعه المؤرخون في الصف الأول من رجال العالم ، لأن محل هذه الترجمة هو في تاريخ الاندلس لافي تاريخ فرنسا ، ولكن من حيث ان المنتشرق رينو أشار الى غزوات النصور الشهيرة لم نشأ أن نخلى هذا الجزء أيضاً من شيء من ترجمته ، فنقول :

جاء في فتح الطيب مايلي : ومن ذلك غزوة النصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصرارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عديم بمنزلة الكعبة عندنا « وللكعبة المثل الأعلى » فيها يحلقون واليها يجمعون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويرغمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب أحد الحوارين الاثنى عشر وكان أخصهم يعيسى على تينواو عليه الصلاة والسلام ، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً بيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ، ثم عاد الى أرض الشام فات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكائنها وبعد شقتها فخرج النصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة فوربة فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتسكين بالطاعة ، في رجالهم وعلى آتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المسلمين وركبوا في المغاورة سبيلهم ، وكان النصور تقدم في انشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي وانس من ساحل غرب الاندلس وجبهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة استظهاراً على تقوذ الزريعة ، الى أن سخرج بموضع يرتقال على شبر دويرة فدخل في النهر الى المكان الذى عمل النصور على العبور منه ، ففقد هناك من هذه الاسطول جسراً بقرب الحصن الذى هناك ، ووجه النصور

ملوك النصارى بأجمع أمحاب ليون ونابار وقشتالة وسائر المقاطعات المسيحية ، وبندوا كل ما كان بينهم من خلاف . وصاروا عصابة واحدة ، وتسلح الأساقفة والقسيسون

ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شانت ياقب فقطم أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلصان يدها البحر الاخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لاسلك فيه ولا طريق لم يبتد الادلاء الى سواء ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطم العسكر وعبروا بده وادى منية وانبتسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مقيرتهم الى دير قشان وبسيط يلبو على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبوا من فيها ممن لجأ اليها . وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هنا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء اليهما ثم نهر ابلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة المهارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها ففادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعد على مدينة شانت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلثنا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه . وكانت مصانعها بديعة محكمة ففودرت هشيما كأن لم تكن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط . وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش متقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهى غاية لم يلبها قبلهم مسلم ولا وطنها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يلبها مسلم قبله ، فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن اردون يستقره عائثاً ومفسداً حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بمجملتهم على أقدارهم ، وكسائم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية

وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه للوك الروم وثلث حسن غناؤه من المسلمين الفين ومائتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى وواحداً وعشرين كساء من صنوف البحر وكسائين عنبريين وأحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مزيقاً وسبعة أعماط ديناج وثوبى ديباج روى وفروى فنك ،

وساروا في مقدمة الجيوش بحسب رواية مؤرخي النصارى على ما في مجموعة الدون بوكه . واجتمعت جيوش جرارة من المسيحيين على حدود قشتالة القديمة ، وحشد المنصور جميع ما عنده من قوة وكانت الواقعة هي التي ستكون الفاصلة بين الفريقين ، وتلاقى الجمعان على نهر دويره فكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل ويقيت طول النهار وسالت الدماء كالأنهار ولم ترجح فئة على الأخرى ، ولكن المسيحيين كان أكثرهم في زرد الحديد فكان التلف منهم أقل . ولما خيم الظلام رجعت كل فئة الى مخيمها وانتظر المنصور مجيء قواده وأعوانه للتشاور معهم فلم يحضر منهم أحد فسأل عن سبب تأخرهم فقبل له أنهم سقطوا صرعى في المصاف ، فلم المنصور أن العاقبة وبيلة والثالث جسمه وامتنع عن أخذ أى علاج ، ومات بعد أيام قلائل ، فدفنوه في الثياب التي كانت عليه يوم المعركة وفي الثابوت الذي كان يحمله معه ليدفن فيه . ولا يزال قبره معروفاً في مدينة سالم (١)

ووافي جميع المسكر قرطبة غانماً وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجد بشتت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأله عن مقامه ، فقال : اونس يعقوب . فأمر بالكف عنه . قال : وحدث شعلة قال : قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : يا شعلة الملك لا ينام اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة . انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور

(١) جاء في فتح الطيب قلا عن ابن سعيد أن المنصور رحمه الله توفي في غزاته للفرنج سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى أن وصل الى مدينة سالم انتهى

وجاء في الفتح من جملة مناقبه أنه خط يده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ، ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من القبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالناديل في كل منزل من منازلهم حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويرها في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقفاً لجلول منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك انتهى .

قلت : وقبره معروف في مدينة سالم والاسبانيول يلفظونها مدينة سالى أو ثالى بالناء

وكان المنصور طول استيلائه على الدولة جامعاً بين مجد السيف ومجد القلم ، فازدهرت في أيامه العلوم والصنائع وتقدمت الزراعة وازداد العمران وبلغت الاندلس لعهد من السعادة مبلغاً لم تعرفه من قبل . وفي أيام المنصور انتشرت مبادئ الفروسية «Chevalerie» والمبالغة في حفظ الشرف والرفق بالمرأة وبأى ضعيف ونجدة للمهوف اياً كان . وهذا أمر لا نزاع فيه الا ان المسيو فياردو Veiredot في كتابه المسمى « مشاهد الاخلاق العربية في اسبانية في القرن العاشر » قد تجاوز الحد في زعمه . أن العرب لعهد المنصور ، هم الذين قرروا نظام الفروسية كما كان معروفاً عند فرسان المسيحيين فيما بعد ، وقد كان واجباً على المسيو فياردو أن يأتي بالبرهان على ما قاله لأن الذي بأيدينا من تواريخ الذين عاشوا في ذلك العصر ليس فيه شيء مما قرره المسيو فياردو^(١)

وكانت وفاة المنصور سنة ١٠٠٢ فقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك ولكنه مات سنة ١٠٠٨ وبموته انقضت أيام الاسلام الزاهرة في اسبانية^(٢)

ثم نشبت الحرب الداخلية في قرطبة وأخذت الحكومات تهدم بعضها بعضاً وفترت الحمية الاولى وبدأ الاسلام يتقهقر ويستسرّ بדרه منذ ذلك الوقت . وقد كان في استطاعة المسيحيين من شمالي الاندلس أن يسترجعوا بلاد آباؤهم وأجدادهم من ذلك الحين الا انهم هم أنفسهم أيضاً كانوا منقسمين وكانت العداوة بين ثابار وغاليسية كما كانت بينهم وبين المسلمين ، وكان المسيحيون يدخلون في حروب المسلمين بعضهم

(١) ذهب كثير من المؤرخين الى أن نظام الفروسية الذي كان معروفاً في اوربة في القرون الوسطى رشح الى الاوربيين من عرب الاندلس ولنجيب بك غالى من أفاضل الصريين الأقباط كتاب نفيس في هذا الموضوع معزز بالأدلة والشواهد

(٢) جاء في الفتح : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيهاً بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفراً الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في الحرم وثار الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلائفة لاسترجاع معانهم وحصونهم انتهى

مع بعض منحازين الى احدى الفئتين المتقاتلتين حسبما تقتضى مصلحتهم ، وربما كان مع كل من الفئتين فئة من المسيحيين ؛ وكان الاساقفة بأنفسهم يخوضون غمرات هذه الحروب . وفي سنة ١٠٠٩ انضم المسيحيون في الفتنة التي وقعت في قرطبة الى احدى الفئتين ونصروها على الفئة الأخرى فاستمانت الفئة التي دارت عليها الدائرة بمسيحي كتلونية الذين زحفوا الى قلب الاندلس ، ولكنهم فقدوا في أثناء الحرب ثلاثة من اساقفتهم ورجلا من أبطالهم اسمه ارمانجو كونت إيرجل (١)

(١) بعد وفاة عبد الملك المظفر بن النصور قام بأمر أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه ، في الحجر على الخليفة هشام الأموي والاستبداد والاستقلال بالملك دونه ، ثم بدا له الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام أن يوليئه عهده ، ولما لم يكن لهشام أدنى ارادة معه أجابه الى ما طلب وأحضروا لذلك الملاء من أرباب الثورى وأهل الحل والقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى عبد الرحمن بن المنصور بولي العهد

وكانت هذه هي الفلطة الكبرى التي بدأ بها اهراض دولة المنصور ودولة بني أمية ودولة الاسلام كلها في الأندلس لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين ، وبدأت به الحرب الأهلية التي شغلت المسلمين بعضهم يبض وتركت الثغور عورة ، واوجدت ملوك الطوائف يقتلون ليلاً ونهاراً بمشهد من عدو الامة .

وجاء في النسخ ان أهل الدولة قمواعلى عبدالرحمن (ولى العهد) ماقله مما كان فيه حتفه واهراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والقرشيون ، ففصوا بأمره وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضربة الى اليمنية ، فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ، في غزاة من صوائقه ببلاد الجلائفة ، ووثبوا بصاحب الشرطة بقرطبة فقتلوه بمقعد من باب قصر الخلافة ، وخطعوا هشاماً المؤيد الذى ولى عهده عبد الرحمن بن المنصور ، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدى بالله ، وطار الخبر الى عبد الرحمن بمكانه من الثغر فاهض جمعه وقل الى الحضرة وقد تسلل عنه جنده ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدى وأغروه بعبد الرحمن لسوء سيرته فاعترضه من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدى . وذهبت دولة المرينيين كان لم تكن

والحاصل أن مسلمي اسبانية كانوا قد أخذوا ينكصون وتنحصر أجنحتهم ولم يبق أدنى خطر منهم على فرنسة ، وأخذت هذه الملكة تتقوى وتتقدم الى الأمام .

قال : وكان رؤساء البربر وزناتة قد لحقوا بالمهدى الخليفة الجديد لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن ، إلا أن الامويين كانوا حاقدين عليهم لما كان من مظاهرهم للعامرين ، فلم يلبثوا أن سخطنهم القلوب وخزرتهم العيون ونهبت العامة دورهم وشكوا أمرهم الى المهدي فلم تنفع شكواهم ، فتمشت رجالاتهم وأسروا نجومهم ، وبايعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، فموجلوا عن مرامهم ذلك وثار بهم السواد الأعظم وأزعجهم عن المدينة ، وتقبضوا على هشام وأخيه أبي بكر وأحضرهما بين يدي المهدي ، وضربت أعناقهما

وفر سليمان ابن أخيهما واجتمع في البربر في ظاهر قرطبة ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى طليطلة فاستجاشوا بالنصارى ، وزحف ابن اذفونش في جيش انضم الى البربر ووصلوا الى قرطبة وهزموا المهدي ومن معه ، وقتل في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفاً . ودخل المستعين قرطبة ختام سنة أربعمائة ، ولحق المهدي بطليطلة واستجاش هو أيضاً بابن اذفونش فزحف معه الى قرطبة وهزموا المستعين والبربر أصحابهم ، ودخل المهدي قرطبة وملكها ثانية

وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يقفون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن اذفونش لقتالهم فكروا عليهم وانهزم المهدي وابن اذفونش ومن معهما من المسلمين والنصارى ، ودخل المستعين قرطبة ثانية مرة ، ولكنه لم يدخلها هذه المرة خليفة بل اخرج هشاماً الخليفة القديم وبايع له وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك يحسم الفتنة ، وقام أهل قرطبة وأغروا أهل القصر بالمهدى وقتلوه ، ظناً بأن قتله يحسم النزاع ، وصار هشام هو الخليفة ، وقام واضح العامري بحجابته . فعند ذلك بعث المستعين الى النصارى يستعديهم لمظاهرة فبعث اليهم الخليفة هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن يسلموا اليهم الحصون والقلاع التي كان النصارى قد افتتحها من بلادهم وهكذا وقف اذفونش عن مساعدة المستعين . ولكن المستعين والبربر تغلبوا على أهل قرطبة ودخلوها عنوة ونهبوها وأنزلوا المرات في أهلها ، وتولى البربر الأعمال واستقلوا بالبلاد مثل باديس بن حيوس في غرناطة ، والبرزالي في قرمونة والنرني في روندة ، وهزرون في شريش .

وافترق شمل الجماعة بالأندلس وسقطت هيئة الخلافة وبدأ دور الانحطاط بنحس دول صغيرة كبنى عباد باشبيلية ، وبنى الانطس بيطليوس . وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى هود بسرقسطة ، وابن أنى عامر بيلنسية ، ومجاهد العامري بدانية والجزائر . انتهى قلا عن فتح الطيب

وسنة ٩٨٧ انتقل الملك الى آل كابت Cabet فكانوا أجدر به من التأخرين من سلالة شارلمان ، ثم تنصر النورمنديون وصاروا عاملاً عظيماً من عوامل

وقال ابن عذاري في كتابه « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » ان عبد الملك المظفر بن المنصور عند وفاة أبيه كتب الى أقطار الملكة بالأندلس والعدوة ، فاستوتق له الأمر ولم يرد أحد طاعته ، واجتمع الناس على حبه . وكان مع غلبة النيذ عليه واستفراقه في لذاته مراقباً لربه باكياً على ذنبه . وكان من فرط الحياء مع الشجاعة في غاية بعيدة . وله في بلاد الروم آثار عظيمة ، غزا سبع غزوات في مدته وفي السابعة توفي ، قيل مات مسموماً وقيل مات من علة الذبحة . وكان موته بمنزل أم هاني بمقربة من أرملاط لاربع خلون من صفر سنة ٣٩٩ فكانت مدته في الملك ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكانت أول غزواته الى بلاد الافرنج سنة ٣٩٣ ودوخ بسائط برشلونة وفتح حصن بمقصر عنوة وأسكنه المسلمين

وقال ابن عذاري انه لما ذهب عبد الملك الى مدينة سالم وافاه هناك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومثذ اذفونش بن اردن المعروف بابن البربرية ، ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجة بن غرسية زعيم الجلائفة وصاحب قشتالة وألبه ، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك على ماتضمنه شرط سلمهم المنقذ صدر هذه الدولة ، وافرين بالعهد حافظين للحرمة ، فأحسن عبد الملك قبولهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الشفير الاعلى . قال تقياً عن حيان بن خلف انه في غزاته لأرض برشلونة افتتح ستة حصون . ولكن الحصون التي دمرها للعدو خمسة وثمانون حصناً .

قال : وفي سنة ٣٩٥ غزا جليقية ، وكان مظفراً ، وسنة ٣٩٦ غزا بنبلونة وسار الى سرقنطة ثم الى وشقة ثم الى بريشتر ، ومنها دخل أرض العدو ودمرها تدميراً ، وسنة ٣٩٧ غزا بلاد قشتالة من عمل الطاغية شانجة بن غرسية بن فرلند ، وهي غزاة قلونية الخامسة من غزواته المعروفة بغزاة النصر التي لقي فيها شانجة بجميع النصرانية على اختلافها ، فهزمه عبد الملك هزيمة عظيمة ، رزق الله المسلمين فيها النصر المين . وعلى أثرها تسمى عبد الملك بالمظفر ، وصدر له بذلك منشور من الخليفة هشام ، وأضاف الى لقب المظفر لقب سيف الدولة . وسنة ٣٩٨ غزا عبد الملك بالثانية ، وهي السادسة من غزواته ، واحتل شنت مرتين . ثم غزا غزاته السابعة سنة ٣٩٨ وقال فيها تقياً عن ابن حيان : ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الاسلام ومؤذنتها بما جرى عليه بعد من الاثلام ، علته الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه اليها سنة ثمان وتسعين ، محملاً لقصدهو الله شانجة بن غرسية بن فرلند ، فصدته عن الدخول اليه بمجموع المسلمين واشتدت به

القوة النصرانية وسكنوا وركنوا وتركوا الميث والدعارة . وكذلك تنصر البحار وأصبحت أوربة كلها مسيحية . وفي ذلك الوقت بدأت الناس تطالب الملوك بحقوقها وتنهت الجماعات وناقشت السلطة الحساب وتأسس مايسمى بالحرية البلدية مما أدى في آخر الأمر تدريجاً الى الحالة الاجتماعية التي جعلت أوربة في مقدمة العالم المتمدن ، واورق من ذلك الوقت غصنها واخضر رعيها وأفلح سعيها . على أن سواحل فرنسا لم تسلم من غارات المسلمين الى ما بعد ذلك بمدة طويلة ففي سنة ١٠٠٣ نزل مسلمون اندلسيون في أرض أنطيب أو عين الطيب Antibes وأخذوا بعض رهبان أسرى وفي سنة ١٠١٩ غزا منهم أناس مدينة أربونة فاجتمع عليهم الأهالي وكشفوهم ثم قتلوهم وأسروا منهم عشرين رجلاً كانوا في غاية الطول والعظم ، فأرسلوهم الى دير سان

مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الاسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده ونقصت من خفيل عدده ، ورام مع ذلك كله الاقتحام على أعداء الله في حل قهوه طمعاً في آتمام غزوه فكانت آخر صائفة نفذت من الحضرة ، اذ هلك عبد الملك واقت بركها الفتنة

قال : لما دفن المظفر رحمه الله تأهب أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول (اسم غلب عليه من قبل امه بنت شانجة النصراني الملك تذكر أنها لاسم أيها فكانت تدعوه في صفه بشنجول وكان أشبه الناس بجده شانجه) فنظر في الأمور نظراً غير سديد وأفقق الأموال في غير وجهها ، ثم لما مضى لوقته شهر ونصف تصنع للخليفة هشام بن الحكم ، وطلب منه أن يولية العهد من بعده ، وأن يتسمى بولي عهد المسلمين . ففعل ذلك هشام لضعفه وسوء نظره وقصان فطرتة ، ففولاه عهده ، فكان ذلك سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن ، لما تبين لهم من سخف عقله وسرعته الى قتل الملكة عن خلفائها اليه دون غزاة ولا نصرة في حرب

وقد شرح ابن عذارى فتنة قرطبة التي أدت الى انهيار الاسلام في الأندلس مع أسبابها وتفاصيلها بما لم يشرحه مؤرخ قبله ولا بعده . وسنأتى على ذلك في الأجزاء التالية . وقد ذكر في عرض كلامه على استجاشة مسلمي قرطبة بالاسبانيول بعضهم على بعض أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال قولاً نال منه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكلمه أحد بكلمة ، فقال رجل من المسلمين غيره للنبي : ألا تتكرون ماتسمعون أما أنتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة : امض لشغلك . وكان الافرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة قالوا قولاً لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء انتهى

مارسيال في ليموج ، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين وفرق الباقين على أصحابه . وجاء في مجموعة الدون بوكه خبر يفيد أن هؤلاء لم تكن لفهم عربية .
وفي سنة ١٠٤٧ نزل مسلمون أندلسيون في جزيرة لارين Lerins (١) واستاقوا عدداً من الرهبان أسرى فذهب رئيس دير سان فكتور في مرسيلية الى الأندلس لافتكاكهم . وكان بعض امراء الأندلس شرعوا يشنون الغارات البحرية على بلدان المسيحيين واشهر هؤلاء مجاهد العامري الذي استولى على دانية وجزر الباليار والافرنج يسمونه موجيت Mujet أو موزكتوس Musectus وكان اسمه يلقى الرعب في سكان كورسكة وسردانية وبيزة وجنوه . وبقيت غارات المسلمين على سواحل فرنسا تتوالى ولا تفتيح طويلا الى أن اشتدت قوة فرنسا البحرية ولم تنته تماماً الا بفتح فرنسا لجزائر الغرب (٢) وكانت مدينة ماغلون مقصداً لغزاة المسلمين حتى أطلق عليها لقب بورسارازين Port - Sarrazin ومن هذا القبيل مدينة مارتيج عند مصاب نهر الرون التي فيها ابنية يقال انها من أيام العرب ومثلها جزر هييار Hyeres التي قبالة ساحل الفار وقد جاء في احصاء لقاطعة مصاب الرون بقلم السيوتولوزان انه وجدت أوراق قديمة في مارتيج تتعلق باقامة المسلمين في تلك البلاد وكذلك وجدت أوراق قديمة في فوس يظهر منها أن المسلمين سكنوا في جزائر هييار المارة الذكر . على أن المسلمين بدأوا بالتقهقر البحري في أواسط القرن الحادى عشر ، ففي سنة ٩٦١ كان الروم استردوا جزيرة اقريطش ، وفي سنة ١٠٥٠ أجلى المسلمون عن جنوبي ايطالية وفقدوا ملكهم في صقلية ، وتجاوز المسيحيون البحر ونزلوا في بعض سواحل افريقية حيث خفقت لهم أعلام مدة طويلة ، ثم لم يلبث الاسبانيول أن استرجعوا طليطلة وقرطبة واشبيلية وغيرها . ثم زحف من أوربة الى آسيا الصليبيون بجيوش لا تحصى فوقفوا المسلمين عند حدودهم بل غزؤهم في عقر دارهم وقعد المسلمون كل أمل في

(١) أمام سواحل فرنسا الجنوبية عدة جزر بهذا الاسم أشهرها سانت مارغريت وسان اوورا

(٢) ان هذا الفتح وقع قبل نشر رينو كتابه بخمس سنوات

التجاوز على فرنسة والجنوب الغربي من أوربة . وفي سنة ٩٦٠ كان الكاتب العربي ابن حوقل يصف مسلمي الأندلس بالجنين والطيش وقعد الصلابة والحزم . وكذلك ابن سعيد الذي كان يكتب في القرن الثاني عشر قد تعجب كيف أن المسيحيين لم يطردوا مسلمي الأندلس تماماً في ذلك الوقت (١)

(١) قال ابن حوقل في المسالك والممالك : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والتمر والرخص والسعة في الاحوال من الرقيق الفاخر والحصب الظاهر ، الى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم ولما لم به من رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك أهل منهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم بقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء . يحفره وحال يخافه ، اذ لاخوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مراقبه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . وما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدنانير والدرام ضربيتها في كل سنة مائتا الف دينار ، يكون عن صرف سبعة عشر دينار ثلاثة آلاف الف درهم وأربعمائة الف درهم . هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالي والرسوم على بيوع الأسواق

ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبدم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال انتهى

وجاء في المسالك والممالك لابن حوقل عند الكلام على بحر الروم مايؤيد قول رينو من ادبار أمر المسلمين منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، وذهاب ما كان فيهم من حماسة في القرون الثلاثة الاولى ، واستيلاء الرخاوة عليهم حتى أصبحوا لا يمتعون ذمارهم ولا يقفرون أن يجموا جارم

قال ابن حوقل : وليس في البحار أمر حاشية من هذا البحر ، لأن العارات في الجانبين ممتدة غير منقطعة ولا ممتعة وسائر البحار تعترض في شطوطها المفاوز والمقاطع . وقد ألح الروم في وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحلها بالفارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غيات لهم ولا ناصر ، والمملك فيهم حقير ذليل وهو جامع مانع والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتق بالتأويل على ما يخاف ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والتاجر فاجر لا يعاف حراماً ولا مطمئناً ، والزاهد ذئب أدرع في كل بلية يشرع وبكل ربيع يقطع ، فالثغور والجزائر الى الأعداء مسلمة ، والأرض الى الله من أربابها متظلمة انتهى

ومما يدل على ما وقع في نفوس المسلمين من هذه الجهة الشاهدان الآتيان : روى مؤرخو العرب أنه لما قفل موسى بن نصير الى الشام بعد فتحه الأندلس ، سأله الخليفة عن الشعوب المختلفة التي مارسها ، فأجابته ان الافرنج فيهم العدد والشدة والاقدام والثبات . ويستغرب أن يكون موسى بن نصير وصف الافرنج بهذا الوصف وهو لم يباشر معهم حرباً . وعلى فرض أنه وصل الى جنوبي فرنسة كما يزعم مؤرخو العرب ، فإنه لم يكن قد لقي الافرنج بل لقي القوط الذين كانوا أصحاب الحكم في البلاد الجتوبية من فرنسة ولكن مسلمي الأندلس عندما تلاقوا مع رجال شارل مارتل وشارلمان علموا من هم الافرنج في صلابة العود وعلموا من هم الفرنسيين في حب المجد والاقدام على الأخطار . وقد روى المؤرخ الاسبانيولى كوندى كلام موسى ابن نصير هذا وأضاف اليه بزعمه قول موسى ان الافرنج اذا انهزموا فليسوا بشيء^(١)

قلت : كان هذا كلام ابن حوقل في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة مما يدل على ان المرض قديم . وانه لاجب اذا آلت الحال الى ما آلت اليه فيما بعد . لكن المسلمين هبت لهم ريح في القرن التاسع للهجرة وعاد بحر الروم كما بدا تحت سلطتهم وذلك في أيام السلطان سليمان العثماني وخير الدين بربروس وعمال السلطان على جزائر الغرب وبقيت لهم تلك الصولة مدة طويلة الى أن انتكح جبلها في القرون الأخيرة . وما زالت الأيام مدأً وجزراً مذ خلق الله العالم

(١) قلت : ان كلام مؤرخي العرب عن الافرنج هو أنهم مع شجاعتهم أقل صبراً في الحروب من الجلافة ، أى من الاسبانيول سكان شمالي اسبانية ، قال ابن حوقل : وتغور الجلافة ماردة وقره ووادى الحجارة وطليظة ومدينة الجلافة مما يلي تغور الأندلس يقال لها سمورة وعظيم الجلافة بمدينة يقال لها ليون فيها سلطانهم وعدتهم بعد سموره ومدينة لهم يقال لها أوبيط (Oviedo) وهى بعيدة عن بلد الاسلام وليس في أصناف الكفر الذين يولون الأندلس أكثر عدداً من الافرنج ، غير أن الذين يولون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم قليلة ، وفيهم اذا ملكوا طاعة وحسن نصيحة ومحاسن كثيرة ، واليهم يرغب أهل الأندلس عن الجلافة ، والجلافة أصدق محاسن وأقل طاعة وأشد قوة وأكثر بأساً وبسالة ، وفيهم غدر ، وهم في عرض طريق الافرنجة انتهى وجاء في صحح الأعشى عن الجلافة انهم امة يغلب عليهم الجهل والجفاء ، ومن زبهم أنهم لا يفسلون ثيابهم بل يتركونها عليهم الى أن تبلى ، ويدخل أحدهم دار غيره بغير اذن . وهم أشد من الفرنج

والشاهد الآخر هو ما يرويه العرب من وجود كتابة منقوشة على تمثال في مدينة أربونة معناها : يا أولاد اسماعيل لا تتجاوزوا هذا المكان فانكم ان تجاوزتموه ولم ترجعوا على أعقابكم هلكتم . هكذا روى المقرئ في نفع الطيب في النسخة الخطية التي في المكتبة الملوكية ^(١)

ثم ذكر القلقشندي مدينة سموره وقال انها قاعدة جليقية وقال : ان المسلمين كانوا ملكوها ثم استرجعها الجلائفة زمن الفتنة ، أي زمن فتنة شنجول العامري الذي باعتدائه على الخلافة مع عدم أهليته الشخصية جر على الاسلام من الفرقة ما انتهى أخيراً بضياع الأندلس (١) الذي وجدناه في نفع الطيب للمقرئ هو هذا : وقيل انه أوغل (يعني موسى بن نصير) في أرض الفرنجة حتى انتهى الى مغارة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالقرن كتابة عرية قرئت فاذا هي : يا بني اسماعيل اتهمتم فارجموا . فباله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعني كبير فشاور أصحابه في الاعراض عنه ، وجوازه إلى ما وراءه . فاختلفوا عليه فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية انتهى قلت : وقد تقدم هذا الخبر وهو أشبه بالاساطير

القسم الرابع

الصفة العامة لغارات العرب هذه والتأج التي ترتبت عليها

مرادنا أن ننظر الى هذه الغارات العربية من حيث المجموع وأن نشير الى بعض حقائق لم يتسن لنا حتى الآن ان نتبسط فيها .
وكذلك نريد أن نذكر الشعوب المختلفة التي ضربت بأسهم مذكورة في هذه الغارات . ولا نزاع في أن النهضة الأولى قد كانت للعرب ، وأن جميع الغزوات الكبرى كان يرأسها قواد من هذه الأمة ، وان الاسم العربي هو الذي كان غالباً فيها ، وانه كان بمنزلة القطب من الرحي ، وان المراد بلفظة « سارا زين » عند كتاب الاوربيين هو العرب لا غير .

فمن أين جاءت لفظة سارا زين هذه ؟ الجواب جاءت من اللفظة اللاتينية « ساراسنوس » التي أصلها اللفظة اليونانية « سرا كنوس » وهذه اللفظة معروفة منذ القرون الأولى من التاريخ المسيحي ، والناس تقصد بها العرب الرحل الذين في جزيرة العرب وبين دجلة والفرات وسورية وبلاد العجم . قد ذهب الناس مذاهب شتى في مأخذ هذه اللفظة ، واكثر الآراء اتفقت على انها مشتقة من « شرقي » لاسيا ان بطليموس الجغرافي الفلكي اليوناني الذي كان بمصر يتكلم في جغرافيته عن شعب يقطن في بلاد جزائر الغرب يقال له مغاربة Machurebe فمن هنا ظهر انه أريد بكلمة « شرقيين » التي جاءت منها كلمة « سارا كينو » العرب الذين بقوا في آسة ، كما ان الذين جلوا منهم الى افريقية تسموا مغاربة وذلك كما هي الحال اليوم .

وقد ذهب بعض علماء المسيحيين في القرون الوسطى الى ان « سرازين » مشتقة من « سارة » بنت ابراهيم الخليل . وهذا غير وارد ، لأن سارة هي ام اسحق لا أم اسماعيل جد العرب .

ومن الأسماء التي يطلقها المسيحيون على العرب في القرون الوسطى الاسماعيلية (١)

(١) من الغريب أن لفظة اسماعيلية لم تتناول العرب وحدهم بل صارت تطلق فيما بعد على جميع المسلمين . وقد كان في بلاد الحجاز طائفة من المسلمين في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح اقرضت الآن وكان يقال لها الاسماعيلية ، وهذه الطائفة معروفة في تاريخ الحجاز ويظهر انه لفلة عددها أخذت تذوب تدريجاً في سواد الامة المغربية ، كما ان بعض ملوك الحجاز القدماء ضيقوا على هؤلاء المسلمين مراراً ليحولهم على النصرانية وهكذا تلاشوا من هناك .

وقد ذكر ياقوت الحموي هذه الطائفة في معجم البلدان تحت لفظة باشغرت فقال : وأما أنا فاني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغوردية شقر الشعور والوجوه جداً يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه فسألت رجلاً منهم استغفله ، عن بلادهم وحلهم ، فقال : أما بلادنا فن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر ، ونحن مسلمون رعية للمكهم في طرف من بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نصي عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة وقبلينا بلاد البابا وفي غربينا الأندلس وفي شرقينا بلاد الروم قسطنطينية وأعمالها . قال : ولساتنا لسان الافرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الهندية ونغزو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاتلون الا مخالقي الاسلام . فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلفقوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدورنا للإيمان ، ونحن تقدم الى هذه البلاد وتتفقه ، فاذا رجعتنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألته لم تحفون لحاكم كما تفعل الافرنج ؟ فقال : يخلقها منا التجندون ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج أما غيرهم فلا . قلت : فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك انتهى .

قلت : ان قوله الافرنج مبني على كون الشرقيين يسمون جميع نصارى اوربة افرنجية ، والا فالجار ليسوا من الافرنج في شيء . ثم اتى قد سألت علماء التاريخ من الحجاز عن قضية هؤلاء المسلمين

الى ابناء اسماعيل ، وهذه هي نسبة موافقة للواقع ، لأن قسماً كبيراً من قبائل العرب متسلسل من اسماعيل ، ومحمد من هذه السلالة ولكن العرب لا يعترفون بأن اسماعيل كان ابن أمة وان اسحق يمتاز عليه ، وهم ينسبون الى اسماعيل كل ماورد في التوراة عن اسحق . ومما استعملوه في القرون الوسطى من الأسماء التي كانت تطلق على العرب لفظة « هجارنة » أي سلالة هاجر . وهذا الاصطلاح ، أي هجارنة ، مجهول عند العرب . ثم ان أعظم شعب اشترك مع العرب في هذه الغزوات هو الشعب

الذين وجدوا في بلادهم في القرن السابع للهجرة ، فأجابني الجنرال « تيودور كلوك » معلم التاريخ في جامعة بودابست بما خلاصته : انه كان يوجد مسلمون أصلهم من البغار في بلاد المجار عاشوا في أيام الملوك المجار من عائلة اربارد من سنة ٨٩٦ للمسيح الى سنة ١٣٠١ وكان يقال لهم الاسماعيلية . وكانوا في القرن الحادى عشر يعيشون جماعات في جنوبى بلاد المجار ، وكان منهم حراس لقلعة بست ، وكان منهم في القرن الثالث عشر لافي مدينة بست فقط بل في جميع هكاريا ، وكان أكثرهم من طبقة التجار . وفي سنة ١٠٧٧ صدر أمر الملك « لاديسلاوس » بتنصير الاسماعيلية ، ولكن بق منهم كثيرون في الباطن على دين آباؤهم . وفي سنة ١٠٩٥ صدر أمر الملك « كولومان » بأن لا يكون في القرية من الاسماعيلية أكثر من النصف ، وبأن يزوجوا بناتهم من المسيحيين . وفي أيام الملوك الذين بعده كان الاسماعيلية يؤثرون الخدمة العسكرية . وكان الملك غيزه الرابع أرسل الى الامبراطور الالماني « فردريك برروسه » سنة ١١٦١ جيشاً لموته فيه خمسمائة من الاسماعيلية المذكورين . وفي سنة ١٢٢٦ للمسيح كان اجتماع ياقوت الحموى بأناس من هؤلاء الاسماعيلية في مدينة حلب . وفي سنة ١٢٢٢ وقع اضطهاد على الاسماعيلية واليهود . وفي المدة التي بين سنة ١٢٣٥ وسنة ١٢٧٠ كان الاسماعيلية صيارف يقرضون ملك المجار أموالاً . وما زالوا الى سنة ١٢٤٢ معروفين كمسلمين . ومن ذلك الوقت أخذوا يندمجون في الشعب المجرى . وفي سنة ١٢٦٦ كان لايزال منهم قرية اسمها تمركنى Temerkeny وفي زمان لورفيك الكبير كان لايزال بعض عائلات مسلمة من بقايا الاسماعيلية

وستذكر شيئاً أوسع من هذا عن الاسماعيلية (أي مسلمى المجار) في رحلتنا الى بلاد المجر وبوسنة . وإنما كان مرادنا هنا أن نذكر كون الافرنج لا يقتصرون على العرب بلقب اسماعيلية بل قد يعنون بذلك كل المسلمين من عرب وعجم فانه مما لاشك فيه أن المسلمين الذين كانوا في بلاد المجار لم يكونوا عرباً بل كانوا من المجار أو الباشقرد وعلى كل حال من أصل تتارى

السكان في جبل الأطلس ونواحيه المنتشر من مصر الى الأوقيانوس الاطلنطيكي .
ومن البحر المتوسط الى السودان ، والذي يقال له البربر . يعرفهم الانسان بلونهم
النحاسي وانوفهم الحادة وشفاههم الرقيقة وجوههم المستديرة . والمظنون ان هذه الأقسام
التي يقال لها البرابر قد وجدت في افريقية قبل أن وجد الفينيقيون في قرطجنة . وهم
من قديم الزمان معتصمون بجبالهم لا يخضعون لسلطة أجنبية . وكان اليونان
والرومان يقولون عنهم البرابرة فبقى عليهم اسم بربر الى الآن . وقد اندمج هؤلاء
البربر مع غيرهم من الافريقيين ومع بقايا الشعب القرطجني وبقايا الرومان والفاندال ،
وتألف منهم شعب واحد يقال له الشعب المغربي Maure أو الشعب الافريقي
Afri ou Afreacia

وقد كان بين الأقسام الذين اشتركوا مع العرب في غزو فرنسة من هم من سلالة
جرمانية أو صقلية . وذلك أنه في القرنين الرابع والخامس للمسيح تقدم أسلاف الذين
كانوا ساكنين في شمالي البحر الأسود ونهر الدانوب ، زاحفين الى قلب أوربة وإلى
جنوبها ، بأسماء مختلفة ، كصقالبة وخرواطين وسربيين ومورافيين وبوهيمين وتديروا
بولونية وبوهيمية وسربية ودالماسية ، وقسماً من بلاد اليونان . وكانوا في أثناء زحفهم
يقتلون مع الأمم السكسونية والأمم الهونية التي منها المجر . وكان الفريقان في حروب
دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ، لأن ممالك هؤلاء كانت دائماً عرضة لغارات
هؤلاء البرابرة . ولم تنقطع هذه الحروب المصطلمة الا بعد أن دخل الجرمانيون
والسلاف في النصرانية . وقد كان البرابرة المذكورون يستعملون الأسرى الذين
يقعون في أيديهم كالحيوانات بلا فرق ، وكان أهالي هولندة يبيعون أسراهم كالعبيد ،
وانتشرت هذه العادة في فرنسة والبلاد المجاورة لها ، ولم تنقطع الا بعد أن دخل
هؤلاء البرابرة في النصرانية (١) وتهذبوا

(١) استشهد رينو على مسألة الرقيق وبيعه في أوربة بمجموعة الدون بوكه وبجغرافية ابن حوقل
وبالقري . وقد رأينا أن نقل عبارة ابن حوقل عن « المسالك والممالك » قال : وبالأندلس سلاع

ومن المعلوم أن تجارة الرقيق امتدت جداً بعد أن افتتح المسلمون الشام ومصر
وأفريقية والأندلس ، لأن العرب كانوا يعرفون الرق ويحملون عبيدهم على جميع
الأشغال اليدوية وعلى الحرث والزرع ، أما في الشرع الاسلامي فالرقيق لا يهان أصلاً ،
وكل عبد تظهر كفايته في شغل من الأشغال يقدر أن يرقى إلى ما يرقى إليه الحر بدون فرق
وكان التجار يذهبون الى بلاد الجرمانيين والسلاف وأحياناً الى نواحي بحر الادرياتيك
والبحر الأسود ويأتون بأصناف الرقيق . ولم يزل أهالي القوقاس يبيعون من أولادهم
الى اليوم ، فكانت هذه الشعوب تباع من أولادها الى التجار ، وكان يأتي منهم قسم
الى فرنسا لالبيع والشراء بل بواسطة السبي في الحروب .

ولما كان المسلمون غيراً في قضية الحرير صاروا ينجحون هؤلاء العبيد ليمكنهم
استخدامهم في داخل الأحاريم بدون خوف فتنة . وهكذا تولت في فرنسا مهنة

كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبي افرنجة وجليقية
والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الحصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها
يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسي الى خراسان من الصقالبة
باق على حاله ومقر على صورته ، وذلك ان بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر
الروم ممتداً على القسطنطينية وأترا بزونده يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسيه
الخراسانيون والنصف الشمالى يسيه الأندلسيون من جهة جليقية وافرناجة وانكيزدة (لونبارديه
وتوابها) وقلورية (كالابره) وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله انتهى

وأما في فتح الطيب فيقول عن الاسبايول انهم : يحاربون بالافق الشرقي امة يقال لهم الفرناجة ،
هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه ، اذ كانوا خلفا عظيماً في بلاد واسعة جليبية متصلة المهارة أهلة
تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين وأشد بأساً وأعظم امداداً يحاربون أمة
الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم ايام في الديانة ، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلم
هنالك كثرة وتخصيهم للفرناجة يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثغر المسلمين التنصل بهم ، فيحمل
خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد . وقد تعلم الحصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا ينجحون
ويستحلون الثلثة . انتهى

قلت : والحصاء ممنوع شرعاً

جديدة هي مهنة الخصى ، وتأسس لذلك معمل كبير في فاردون Verdun في بلاد اللورين .

وكان الصبيان الذين ينجون من خطر هذه العملية القاسية يباعون في أسواق الأندلس بأثمان عالية . وكانوا يهادون الخصي من الصقالبة كما يهادون الخيل أو الحلي الثمينة .

وقد روى أحد كتاب العرب أنه في سنة ٩٦٦ أراد أمراء كتلونية من الافرنج أن يتزلفوا الى خليفة قرطبة فقدموا له هدايا من جملتها عشرون خصياً صقليياً . والعرب يصفون جميع الرقيق الجرمانى والصقلبي والسلافي بلفظة صقلي Saclabi ونظن أنه من هذه اللفظة جاءت كلمة اسكلاف Esclaf بمعنى عبد . وكان أكثر حرس خلفاء قرطبة وأمراء الأندلس من الصقالبة . وكان منهم كثير في صقلية ، ولهم في مدينة بلرم حارة منسوبة اليهم . وكان منهم عدد كبير في افريقية . وقد يصل الصقالبة الى أعلى المناصب ، ولذلك لا يمكنك أن تقرأ تاريخاً لدولة عربية ليس فيه ذكر للصقالبة، اذ بدون ذلك يكون التاريخ مغلقاً لا يتحصل فهمه . (١)

ولم يكن بين العرب والبربر أناس من شمالي أوربة ومن أصل وثني فقط ، بل وجد لهم أنصار ويا للخجل قد ولدوا في حجر النصرانية ، من أهل ايطالية وأهل فرنسة . وقد كان اليهود يستثمرون بؤس الأهالي ويشترون الأولاد من ذكور واثاث وياتون بهم الى مراسي البحر حيث كانت ترد سفن اليونان والبنادقة وتحملهم الى بلاد الاسلام . وكانت هذه التجارة القبيحة قد وصلت الى قلب عاصمة النصرانية . وقد جاء في مجموعة موارد ثوري أنه في سنة ٧٥٠ اضطر البابا زخريا أن يشتري بماله من أيدي البنادقة عدداً كبيراً من الأولاد ذكورا واثاثا كانوا يريدون الخروج بهم من رومة ثم ان البابا الذي خلف زخريا اضطر أن يحرق مراكب كثيرة لليونان آتية لحمل

(١) لو اردنا التعرض لموضوع الصقالبة ومن نبغ منهم في الاسلام ومن وصلوا الى الدرجات العلى لطال الأمر جداً وقد يستحق ذلك تاريخاً مستقلاً

الرقيق . وقد جاء في تاريخ الصليبيين للمسيو ميشو أن هذه التجارة كانت جارية في أورية حتى القرن الثالث عشر ، ولكن بشيء من الاحتياط . وكان أسارى المسيحيين والسبي منهم يستخدمون في جيوش المسلمين . وكان السبي من أعظم مقاصد هؤلاء في الغزو ، فكلما حصلت معركة رأيت أسواق الأندلس وافريقية غاصة بالأسرى المسيحيين ، فأما الأطفال والاولاد فكانوا يربون في الاسلام وفي اللغة العربية ، وكانوا لا يقدرّون أن يرتدوا عن الاسلام اذا بلغوا . وأما الأرقاء الذين بلغوا سن الرشد فلم يكونوا يجبرون على الاسلام لانه جاء في القرآن « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من النقي » على أن كثيراً من المسيحيين البالغين كانوا يخدمون في جيوش المسلمين عن طيب خاطر

وأضف الى هؤلاء قسماً من أهالي البلاد التي افتتحها المسلمون ، فان العرب والبربر عندما افتتحوا الاندلس وجدوا أعواناً لا يحصى عددهم من المسيحيين واليهود ، ولما لم يكن جيش العرب كافياً لحفظ جميع هذه الفتوحات كانوا كلهم دخلوا بلدة عهدوا إلى اليهود بحراستها^(١) ولما دخل العرب الى أرض فرنسة وما جاورها من البلاد لم يخل الامر من أنهم وجدوا من أهل البلاد رجلاً ممن لا يعرفون الحمية الدينية ولا الوطنية، ومن دأبهم أن يستفيدوا من المصائب العامة ، فمشوا بين أيدي العرب في غزواتهم وفتوحهم وخطبوا في جبالهم . ولقد رأينا كيف أن « مورونت » دوق مرسيلية وغيره من سادة البلاد تمالأوا مع العرب على أبناء بلادهم . فاذا كان هذا شأن الكبار فما ظنك بالصغار؟ ولا شك أن العرب في فتوحاتهم في مقاطعات دوفيني وببيمونت وسفواى وسويسرة كانوا قد وجدوا من الاهالي أعضاداً لهم سرراً وعلناً، وكان مؤرخو

(١) جاء في فتح الطيب ان مغيثاً مولى الوليد بن عبد الملك جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استئمامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وقال : انهم لما فتحوا غرناطة ضموا اليهود الى قصبها وصار ذلك لهم شنشنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبه مع قطعة من المسلمين لحفظها ومضى معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين الخلفين لحفظ ماتح . انتهى

ذلك العصر لا يصحون بذلك حياء ، ويجتزئون بالاشارة الى خيانة بعض المسيحيين . ولكن الحقيقة أنه لولا تلك الخيانة لم يكن المسلمون ليستقروا في تلك البلاد القاصية المنقطعة عن أوطانهم الاصلية ، وهم في قلة من العدد ، في زمن كانت فيه المواصلات غير ما هي الآن .

نعم ان العرب كانوا يجدون من أهالي البلاد رداء لهم ، وقد رأينا في تاريخ دير نوفاليس كيف أن المسلمين قاتلوا الاهالي بقرب فرسل Verceil وتغلبوا عليهم وساقوا عدداً منهم أسرى ثم دخلوا المدينة وعرضوا الاسرى للبيع ، كما تعرض السلع ، وصار كل من أراد يدفع في الاسير ثمناً الى آخر القصة .

أما من جهة اليهود وسياستهم في جنوبي فرنسة ، لذلك العهد ، فقد قرأنا في سيرة القديس تيودار Theodard رئيس أساقفة اربونة انه لما دخل المسلمون بلاد اللاندوق انحاز اليهود اليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طلوزة ، وان شارلمان - تأديباً لليهود على خيانتهم - أمر بأنه كل سنة في الأعياد الكبرى الثلاثة يؤتى بيهودى ويضع على باب الكنيسة العظمى . وقد بقيت هذه العادة مدة طويلة ثم تبدلوا بها دفع مبلغ من الدرهم . ولنا اعتراض على هذه الرواية من جهة أن العرب لم يدخلوا طلوزة فعلاً فعل هذه الحادثة وقعت في فتح مدينة أخرى . واذا تركنا قضية أنساب الغزاة ورجعنا الى لغاتهم فاننا نجد أنهم لم يكونوا بأجمعهم يتكلمون بالعربية ، فقد روى ابن القوطية أن بعضهم كان يتكلم بالبربرية ، وانه سنة ١٠١٩ عندما غزا المسلمون اربونة كان الغزاة ذلك اليوم من الذين لا يعرفون العربية ، وكذلك لم يكن جميع الغزاة مسلمين ، بل كان فيهم يهود ووثنيون وأحياناً مسيحيون . وقد كان في البربر عبدة أوثان ومجوس ، ولم يدخلوا جميعاً في الاسلام الا بعد فتح افريقية بمدة طويلة (١) . ومن الغريب أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يسمون غزاة العرب بالوثنيين ، مع

(١) ومن الغريب أنه في أخريات هذه الأيام قام أناس من الفرنسيين يريدون أن يثبتوا كون البربر ليسوا جميعاً بمسلمين . تصد هذه الفئة أن تأفك البربر عن الاسلام . فاللورخ المستشرق رينو يشهد كما ترى بأن البربر أسلموا قاطبة وان كانت هذه القضية لانفتقر الى شهود

انه لا يوجد أبعد عن الوثنية من المسلمين ، ومن شدة توحيدهم للبارى تعالى يكرهون جميع شعائر الوثنية ومحرمون تصوير المخلوقات الحية ، نظير اليهود ، ولكن شدة حرمة المسلمين لمؤسس ديانتهم جعلت العوام في أوربة يعتقدون أن المسلمين يعبدونه ، كما أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يطلقون لقب وثني على كل من ليس مسيحياً وقد جاء في التاريخ المنسوب إلى المطران توربين Turbin أنه يوجد في اسبانية على شاطئ البحر تمثال من نحاس صنعه محمد نفسه وان المسلمين يسجدون له . وكذلك فيلومين Philomane في تاريخه لفتح شارلمان بلاد لانغدوق يتكلم عن تمثال لمحمد من الفضة المذهبة كان المسلمون في أربونة في أثناء استيلائهم عليها يعتقدون أنه ملجأ لهم . وكذلك جاء في رواية تمثيلية اسمها لعب القديس نقولا كان لها شهرة في القرون الوسطى أن أحد أمراء المسلمين في افريقية كان يعبد صنما اسمه ترفاغنت Tervagant وانه عند ما كان يحصل على مراده كان ينفى حدود الوثن بأوراق الذهب . ثم ان في قصيدة افرنسية تذكر وقائع رولان الشهير أن مسلمي سرقسطة كان عندهم مغارة جملوها هيكلآ لألهتهم ، وكان فيها تماثيل من ذهب كل تمثال في يده صولجان وعلى رأسه تاج ، وان المسلمين كانوا يجتمعون في تلك المغارة للعبادة (١)

وكان اسم « ترفاغنت » ينقلب أحياناً إلى ترماغنت وكان يرد معه اسم ابولين Apolin وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فتدور في أقاصيصنا القديمة ، مثل قصة

(١) يمثل هذه الحرافات خدع رجال الكنيسة أهل أوربة مدة تزيد على ألف سنة . ولم يكن العوام في القرون الوسطى وخدمهم يصدقونهم بل كان أسيراً لهذه الأوهام أو لبعضها كثير من الخواص . ولا تزال الى ساعتنا هذه في أوربة برغم ترقيتها وانتشار المعارف فيها أوهام وأفكار مخلوطة عن المسلمين تضحك التكاللي نسمع منها وتقرأ كل يوم بل كل ساعة وقد قلنا عن السيو درمنغمم الافرنسي في السيرة النبوية في الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامي هذه الأقوال المضحكة التي يهزأ بها رينو هنا . وقد شدد درمنغمم نفسه عليها الكثير ولكن رجال الكنائس لا يزالون الى يوم الناس هذا ينشثون أبناء ملهم في مثل هذه الترهات البسباس ويقبلون هم حقائق الاسلام عمداً تنفيراً لهم منه كما فعل سلقهم في القرون الوسطى

لا فيوكت (البنفسجة) التي نشرها فرنسيسك ميشال ، وزعموا أن هذه الأسماء هي أسماء آلهة اسلامية !

وقد بلغ من تعصب أجدادنا وتحاملهم على المسلمين أنه في الرواية المسماة بلعب القديس نيقولا كان يوجد تمثال لذلك القديس كانوا يسمونه محمداً باعتبار أن لمحمد تمثالا ، وأنهم كانوا يسمون هيكل الأوثان محمديّة Mohamarie فانظر الى غرابة تصاريف الأقدار ، وقابل بين هذه الخرافات وبين الحقيقة ، وتأمل كيف صنع محمود الغزنوي عند ما غزا الهند سنة ١٠٢٥ م ، واستولى على صنم أصغر على كسره ، وعرض عليه الهنود مقدار وزنه ذهباً فأبى الا أن يكسره وأن يضعه على أسكفة باب المسجد في عاصمته ، حتى تدوسه الأقدام ^(١) . وليست هذه الحادثة فذة في بابها ، فتأمل في كتابنا المسمى « خلاصة التواريخ العربية عن الحروب الصليبية » تجد من أمثالها كثيراً ماذا كان السبب ياترى في ذهاب آباءنا في الوهم والخطأ الى هذا الحد ؟ الجواب ان بعض العلماء ذهبوا الى كون أسماء ترفاغنت وابولين وما أشبه ذلك كانت آتية من بلاد النورماندين أهالي شمالي أوربة الذين كانوا يعبدون الأصنام ، فالعامة في أوربة خلطوهم بالمسلمين بزعمهم أن كل من ليسوا مسيحيين وثنيون ! وكذلك كان البربر الذين جاءوا مع العرب متمسكين ببعض شعائر وثنية كانوا يمارسونها ظنت العامة أن هذه الشعائر كان يمارسها العرب أيضاً . ولا يجوز أن ننسى انه في هذه الكتب التي تهم المسلمين بالوثنية وترغم هذا الزعم الغريب أنهم ينحتون تماثيل من حجر أو خشب أو معدن ويعبدونها وقد ورد أن المسلمين اذا وجدوا تلك التماثيل لم تنفعهم انقضوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذاً

على أن الاسم العربي والدين الاسلامي كانا هما السائدتين في هذه الفتوحات الاسلامية في أوربة ، فليس عندنا شيء من الآثار عن البربر أو الصقالبة الذين كانوا مع العرب في مغازيهم . وكل ما عندنا عن هذه الفتوحات انما هو من رشحات أقلام العرب المسلمين .

(١) الصنم المذكور هو صنم سومانات وقصته شهيرة

أما أسباب هذه الفتوحات العربية ، والعلل الأصلية في اقتحام هذه الغمرات ، فهي متعددة ، فمنها ما يرجع الى حب الغنائم وكسب الأموال ، ومنها ذوق خاص بالضرب في الآفاق ، ومنها ما هو محض تجرد لنشر الدين الاسلامي ورجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله فان القرآن يحث على الجهاد في سبيل الله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) فالسلمون الذين كانوا يقدرون على حمل السلاح كانوا يجاهدون بأنفسهم ، والذين لم يكونوا قادرين على القتال كانوا يجاهدون بأموالهم . جاء في القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وكل مسلم يموت وهو يقاتل في سبيل الله فانه يموت شهيداً (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالسلمون يسمون شهيداً كل من بذل دمه في سبيل الاسلام ، كما أن المسيحيين يسمون شهيداً كل من مات لأجل النصرانية .

ثم ان الشرع الاسلامي يفرض على المسلمين أن يدعوا غير المسلمين الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية ، وذلك قبل اعلان الجهاد ومباشرة الحرب ويجوز أن يكون قد حصل هذا الاعلان عند دخول العساكر الاسلامية الى فرنسا ولكن الأهالي لم يجيبوا دعوة الاسلام فاضطر أمراء المسلمين الى تجريد الحسام . وكان المسلمون في أوائل الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتنكبون القسي ، وكانوا كلهم متعممين ، ثم انهم بتغير الأوقات صاروا يتشبهون بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم ، ويلبسون الدروع ويفوصون في الزرد وطالما كانوا يقتنون سيوف مدينة « بوردو » لشهرتها في ذلك الوقت ، وتركت عساكرهم العائم وصاروا يلبسون على رءوسهم الكمة الهندية . وكان أمراء الفرنسيين في كتلونية أهدوا الخليفة عشر أذراع سلافية ومائة سيف افرنسي ، وأنعم الخليفة على حاجيه يوم توليته اياه الوزارة بمائة فارس افرنجي متقلدين السيوف والحراب غائصين في الحديد على رءوسهم الكم الهندية . وبالاختصار كان المسلمون قد اقتدوا في شككتهم وأعلامهم وسروج خيولهم باوربة المسيحية . ولكن بدون شك

كانوا يسترجعون في التسليح جانب الخفة ، ويتجنبون السلاح الثقيل الذي كان يعول عليه الأروبيون (١) .

أما الفئام فكانت عبارة عن الحجارة النفيسة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات والأسرى والسبي . وكان السبي أفضل جزء من الفئام . وكان الأمير يستأثر بالخمس بحسب الشريعة ، وينفقه في اعانة الفقراء وأبناء السبيل ، وكان الباقي يوزع على الجنود . وللفارس ضعفاً للراجل . وكان يوجد دائماً في ساقه الجيش تجار يشترون كل ما يقع في أيديهم من صامت وناطق

أما الأسرى فليسوا كأسرى هذه الأيام ، فكان المسيحي اذا وقع أسيراً كبلوه وإذا انتهت قسمة الفئام عرف الأسير ذلك الرجل المسلم الذي خرج هو في نصيبه فيصير

(١) جاء في الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب كاتب الأندلس الأكبر في وصف ملابس أهل الأندلس وأسلحتهم مايلي : وجندهم صنفان أندلسي وبربري والأندلسي منهم يقوده رئيس من القرابة (أي قرابة السلطان) أو حصي (الحصى الرجل العاقل) من شيوخ الممالك وزيمهم في القديم شبه زى أقيالمهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج من اسباغ الدروع وتعليق الترسه واتخاذ عراض الأسنة وقرابيس السروج واستركاب حملة الرايات كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بهائم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا الى الجواشن المختصرة والبيض المرهقة والدرق العربية والسهام اللطية والاسل المظفية . (ثم قال) : والعمائم تحمل في زى أهل هذه الحضرة الاماشد في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجنود العربي منهم . انتهى . ولا يخفى أن لسان الدين كان يصف الأزياء في حضرة غرناطة في زمانه وهو القرن الثامن للهجرة

وجاء في فتح الطيب نقلا عن ابن سعيد في المغرب : وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرق الأندلس فان أهل غربها لا تنكاد ترى فيهم قاضياً ولا قضيماً مشاراً اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمدرسة حضرة السلطان في ذلك الأوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشبيه قد غلب على سواد شعره وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمه في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيت في جميع أحواله يبلد الأندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده وكثيراً ما يتزى سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وأقيبتهم كأقيبتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم انتهى

له مملوكا يتصرف به كيف شاء ، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكاً لسيدته ، ويتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويعود أولاده أيضاً أرقاء نظير والدهم . وإذا كان سيده غيوراً على الاسلام عرض على ذلك الأسير المسيحي اتخاذ الاسلام ديناً فإذا أسلم فقد يعتقه وان لم يعتقه افتكه بعض الصالحين ومحبي الخير من المسلمين ، لأن تحرير الرقاب هو من أفضل القربات عند المسلمين . وهو بعد تحريره يصير في المجتمع الاسلامي نظير سائر الأحرار ويبلغ من درجات العلية ما يقسم له حظه ونصيبه ويطلق عليه اسم مولى وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معاً ، وهناك طبقة أخرى وهى طبقة العبيد الذين يعتقهم سادتهم ولكن على شرط أن يؤدوا الى سادتهم شيئاً معلوماً كل سنة (١) .

وان كان الأسير المستعبد أبى أن يتحول عن دينه الى الاسلام فقد كانوا يستعملونه في حرث الأرض أو في حمل الأثقال . وقد وجد مسيحيون كثيرون قبلوا الاسلام ، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم ، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة وكان يعول عليهم في الحروب وقد كان منهم كثير في الحرس الخاص للخلفاء والملوك لاسيما في قرطبة . ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيداً بدون أمل في

(١) الولاء هو حالة العبد بعد عتقه بالنسبة الى سيده ومن العبيد من يتفق مع سيده على أنه يعتقه ثم يأخذ العبد بدفع ثمنه تقسيطاً ، ويسمى هذا العبد مكاتباً ، قال ابن الاثير : الكتابة أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجماً فإذا أداء صار حراً قال وسميت كتابة بمصدر كتب لانه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب مولاه له عليه العتق . وقد كاتبه مكاتبه والعبد مكاتب . قال : وانما خص العبد بالمفعول لان أصل المكاتبه من المولى وهو الذى يكتب عبده . قال ابن سيده : كاتب العبد أعطاني ثمنه على أن أعتقه ، وفي التنزيل العزيز « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم ان علمتم فيهم خيراً » معنى الكتاب والمكاتبه أن يكتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه أنه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا فهو حر ، فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه

الحرية ، بل كان أمراء المسلمين وأغنياؤهم ممن يصير اليهم بعض هؤلاء الأسرى اذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقاً أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فحروا من عندهم من الأسرى وسنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر في واقعة كبيرة في افريقية فشكراً لله تعالى أسرع الى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور واناث^(١) . وكان المسيحيون يجمعون أموالاً ويذهبون الى

(١) قال الاستاذ السلامة حجة الاسلام السيد رشيد رضا في كتابه الذي صدر جديداً باسم « الوحي المحمدي » ان العلماء اتفقوا على شرعية عتق الكافر وأنه قرينة ولكنهم اختلفوا في عتقه في الكفارة

ولقد رأينا أن تنقل الى هذا الكتاب خلاصة ما أورده الاستاذ المشار اليه في كتاب « الوحي المحمدي » بشأن الرقيق في الاسلام فان الناشئة المصرية لاسيما للتخرجين في المدارس الاوربية لا يلبثون عن الرق في الاسلام ما يلزم أن يملوه واذا سألوا الفقهاء الجامدين عن هذا الباب زادهم خيالاً فلهدا اخترنا أن نفهم على حكم الاسلام في قضية الرقيق محرراً بقلم الاستاذ الحجة . قال لله دره: كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرقيق مشروعاً عند الافرنج الى أن حررت الولايات الاميركية للتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر وجنوحاً للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الاصيل بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما أن انكلترة تحترق الهنود وتستنلهم ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلواء الانكليز

فلما ظهر الاسلام كان مما أصلحه من فساد الامم ابطال ظلم الرقيق وارهاقه ووضع الأحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، اذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء . فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحور الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان . وكذلك جرى في السودان المصري فقد جرب الانكليز أن يجذبوا الارقاء رزقاً يعمل يعملونه مستقلين فيه ، فلم يمكن ، فاضطروا الى الاذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا يكون مسموحاً للمخدومين ببيع الأرقاء والاتجار بهم . وقد شرع الله تعالى لأبطال

اسبانية وافريقية لافتكك الأسارى ، هذا يفتكك أباه وهذا أخاه وهذا صديقه وهم جراً . ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون في أوربة لم يكن لها عمل الافتكك الأسارى من بلاد المسلمين . وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية

الرق طريقتين : عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل ، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا يضر ولا ضرار فيه

الطريقة الأولى : منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقباء للضعفاء الا استرقاق الأسرى والسبايا في الحرب التى اشترط فيها دفع المفاسد وتحرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة ، وهى شروط لم تكن قبل الاسلام مشروعة عند اللين ولا عند أهل الحضارة ، فضلا عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون . ولست أعنى بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولى الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو ابطاله ، بأن خيرهم في أسرى الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم . وهو نوعان : فداء المال ، وفداء الأتفس اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم . وذلك قوله تعالى الذى أوردناه في قواعد الحرب « فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء » ولما كنا نخيرين فيهم ، بين اطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم ، جاز أن يعد هذا أصلاً شرعياً لابطال استثناء الاسترقاق في الاسلام . فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذى هو الاسترقاق غير جائز لولم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الأمم فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل ، كما يعلم مما يأتي ، ولكن الآية ليست نصاً في الحصر ولا صريحة في النهى عن الأصل فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية ، فبقى حكمه محل اجتهاد أولى الامر ، إذا وجدوا المصلحة في ابقائه أبقوه . وإذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم أو الفداء بهم عملوا به

وانما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين - أى المن على الأسرى والفداء بهم - في حالات قليلة لا تتدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوماً قليلي العدد ، كبعض قبائل البدو ، يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لانفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال في حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكلفهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجرى عليهم أحكام الطريقة الثانية في تحريرهم . وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أو اولاد ووريات بيوت حرائر أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الأقل . وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة ترجيح المن على الأسارى والسبايا بالعتق ، قولاً وعملاً ، في غزوة بنى المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل في كتب السيرة النبوية وغيرها ، اذ لم يكونوا أسروا

ما هو فوق الوصف . ومن ذلك عمل ايزان رئيس دير القديس فيكتور في مرسيلية الذي ذهب في سنة ١٠٤٧ الى الأندلس برغم ضعف جسمه وكثرة أمراضه ، وافتك عدداً من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصداً فرنسة ، فبينما هم في البحر هاجمهم قرصان

من المسلمين أحداً ، لأن المسلمين قد أئخنوم وظهروا عليهم . فعمل منها أن روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالجزية بلا مقابل حاضر ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

الطريقة الثانية مآشره لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع :

النوع الأول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل :

١ - الحرية في الاسلام هي الأصل في الانسان ، كما كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطي) : يا عمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لا يثبت باقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه فيكاف اثباته

٢- ان الاسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشرروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى : ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجنبياً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وفي حديث الثلاثة الذى لا يقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتد محرراً » أى جعله كالعبد في استخدامه كرهاً وأنكر عتقه أو كتبه وهو في سنن أبى داود وابن ماجه

٣ - شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكة بما يذفعه ولو أقساطاً . ويسمى هذا في الشرع الكتاب والمكاتبه ، وأصله قوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » أمر بمكاتبتهم ان علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم وأمر باعانة المالك لمكاتبه على أداء ما باعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه وجعل في مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة ونذب غير المالك لذلك أيضاً

ذهب بعض العلماء الى أن الأمرين في الآية للوجوب : الأمر بالمكاتبه والأمر بالاعانة عليها . والأكثر على أن الأول للتدب والثانى للوجوب . وفي صحيح البخارى بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : واجب على اذا علمت ان له (أى لمملوكه) مالا أن أكتبه ؟ قال : ما أراه الا واجباً . وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم

فأخذوهم ووقفوا ثانية في الأسر ، ورجع ايزان يسعى من جديد سعيًا حثيثًا ويذهب ويجيء حتى افتكهم مرة ثانية وعندما جاء بهم الى مرسلية كان الضنى قد بلغ منه مبلغه فما وطىء أرض مرسلية حتى مات دفنًا .

أخبرني أن موسى بن أنس أخبره ان سيرين سأل أنسًا المكاتبه - وكان كثير المال - فأبى ، فانطلق سيرين الى عمر فدعاه عمر فقال له : كاتبه . فأبى . فضربه بالبره وتلا (فكتبوهم ان علمت فيهم خيراً) فكاتبه

٤ - اذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف

٥ - ان من اعتق حصه له في عبد عتق كله عليه من ماله ، ان كان له مال ، وان كان لغيره حصه فيه فله أحكام . وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرها ، منها حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق نصيباً أو شقيصاً في مملوك فخلاصه عليه في ماله ان كان له مال والإقوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه » وحديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً « من أعتق نصيباً له في مملوك أو شركاله في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتق » والشقيص كالنصيب وزناً ومعنى

٦ - من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عتق عليه ، فقد روى الامام أحمد أن زبناً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أفهه وجبه فشكاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعترف وذكر ذنبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الجب والحصاء حرام وموجب لعق العبد وينفذه الحاكم فكل ما كان يتخذ من الحصان المايليك فيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

وفي رواية له (الامام أحمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم صارخاً فقال له مالك ؟ قال : سيدي رآني أقبل جارية له فجب مذا كبرى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « على بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » وفي جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مثل بسببه عتق عليه »

٧ - إزاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ، ولا كفارة لذنبه الا عتقه ، فقد روي أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه . وللشيخين والترمذي عن سويد بن مقرن قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا الا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي فقال : أعتقوها . وقيل له انه ليس لبني مقرن خادم غيرها . فرخص لهم باستخدامها

وأما الرقيق من النساء فممن يشتغلن في قصور الأمراء وحرَم الأَغنياء ويساعدن زوجات الرجل الذي يملكهن ، وإذا امتازت احداهن بجمال أو قسام كانت تعلم وتهذب وتباع بثمن غال أو يتزوج بها مالِكها وكثيراً ما كن يرسلن

مادامت الحاجة واطلاقها اذا زالت . وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتاً من خلقي : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال : فلما دنا مني اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول : اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود . فألقيت السوط من يدي . وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيئته ، فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام (وفي رواية عليه) فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : اما لو لم تفعل للفتك النار أو لمستك النار

٨ - التدبير عتق لازم وينعقد بقول السيد لبعده أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أى بعد أن أدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتى اذا قصد به التدبير فان اطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذى هو من مقاصد الشرع الأساسية . ومنهم من يرجح جانب الوصية . ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية وأنه لا يجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

٩ - عتق أمهات الأولاد . وهو أن الجارية التي تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته ، فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف ، وأولهم عمر وعثمان ، ففي حديث عمر عند الامام مالك : أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهي حرة

١٠ - ان من ملك أحداً من أولى القرية عتق عليه وأعم مانيه حديث سمرة بن جندب مرفوعاً : من ملك ذا رحم محرم فهو حر

النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام أحدها واجب حتماً على القادر على العتق ككفارة قتل النفس خطأ وكفارة الظهار ، وهو تشبيه الرجل زوجته في أمه ، وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة افساد الصيام عمداً . ثانيها واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة . ثالثها مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

هدايا الى الخلفاء والكبراء . وذلك كما حصل للأميرة « لمبيجية » ابنة أودوق اkitانية التي صارت الى الخليفة في دمشق واذ تزوج المسلم بأمة صارت بذلك حرة وكان أولادها أيضاً أحراراً ، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التي هي حرة من الأصل . وان كان ولد للرجل من جاريته أولاد ، ولو لم يكن عقد نكاح ، ورضى بأن يعترف بهم فانهم يصيرون أحراراً وتصير أمهم حرة أيضاً لكن مع بقائها تحت سلطة زوجها . ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تماماً ويقال لها عندهم أم ولد . وكانت قصور خلفاء دمشق وبنغداد وقرطبة ملأى بالنساء اللاتي يقال لهن أم ولد . وكان أولاد هارون الرشيد ، ماعدا واحداً فقط ، كلهم أبناء جوار يقال للواحدة منهن أم ولد . أما اذا كان الأب ولد له أولاد من جاريته ولم يرد أن يعترف بهم فانهم يبقون هم وأمهم عبيداً

النوع الثالث من وسائل الغاء الرق الموجود . جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه . ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الألوف وألوف الالوف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لامكن تحرير الرقيق في دار الاسلام

النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى . قد ورد في الكتاب والسنة من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ومما يدل على انه من أعظم العبادات آية البر من سورة البقرة . ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله صلى الله عليه وسلم : أيما رجل اعتق امرء امسلاً استغفد الله بكل عضو منه عضواً من النار . وحدث أبي ذر قال سألت رسول الله أي العمل أفضل قال : ايمان بالله وجهاد في سبيله . قلت : فأى الرقاب أفضل قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها . ومن أشهرها حديث أبي موسى الأشعري : أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك . ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قول السيد « عبيد أو أمتي » وأمره أن يقول « فتاى وفتاى وغلامي » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون . انتهى ببعض اختصار ، ومنه تفهم معالى الشرع الاسلامي وما فيه من المبادئ الانسانية والرحمة بالضعفاء والعمل لتحرير الرقاب بكل وسيلة ممكنة ،

ولنضرب لك مثلاً على ما كان يمانية الأسرى المسيحيون ، في بلاد الاسلام ،
بالحادثة الآتية :

في أواخر القرن العاشر وقع رجل من احلاس الحرب ، من بلدة طلوزة ، أسيراً
في أثناء ذهابه لزيارة بيت المقدس فصار الى بيت رجل من الأغنياء استخدمه في
حراث الأرض ، فقال لهم انه لا يحسن هذا العمل وانه لا يحسن غير القتال ،
فجملوه جندياً ، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب في البلاد الى أن حضر حرب
قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية ، وهناك امتاز بالبسالة وبنه أمره . ولما كان
« شنجو » كونت قشتالة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ماشاهده من إقدام
هذا الرجل أمر باطلاق سبيله .

أما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون في أيدي الافرنج فلم يكن يختلف كثيراً عن
مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى في بلاد الاسلام . ولقد كان الرق معروفاً
بفرنسة ، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانيين وسلاف وغيرهم من شمالي اوربة ،
فاذا كان يستعبد فيها الأوربيون فبتنهي أن يستعبد فيها الاسرى من المسلمين . ولم
يكن فرق بين الاسرى في الاسلام والاسرى في بلاد الافرنج ، سوى أن الرقيق في
الاسلام اذا تحرر أصبحت له جميع حقوق الأحرار ، بخلاف القاعدة في اوربة فان
طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحطة عن طبقة النبلاء وتبقى بينهما فواصل . وكان
المسلمون يبدلون أيضاً الأموال في افتكاك أسراهم ، فمنهم من يفك أهله ، ومنهم
من يفك أصحابه ، ومنهم من يفك سلطانه . وقد تأسست عند المسلمين جمعيات
لفداء الاسرى كما عند المسيحيين ، وذلك أن فك العاني معدود من أفضل الأعمال في
الاسلام وقد سأل محمد (صلى الله عليه وسلم) سائل عما يجب أن يعمل لينال أفضل الثواب
وتعلم أنه ليس من ضرب تحرير الرق عند الافرنج الذي فيه من الرياء ومن تسلط الأقوياء على
الضعفاء ومن استعباد الشعوب القوية للشعوب المهضومة ومن جعل الأجناس البشرية نازلاً بعضها
عن بعض ما كل أحد يحكم به ان كان منصفاً

فأوضاه النبي بتحريم الرقاب . وقد روى النويرى ولوذريق شيميناس أنه في زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الاسلام انهم بحثوا عن أسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيراً مسلماً يفكونه

وكان يؤتى بأسرى المسلمين الى آزل ومرسيلية وأربونة ، ويباعون فيها ، ويأتى أناس من أبناء ملتهم الى هذه المدن فيفدونهم فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون الى العبودية ، فيشتغل الواحد منهم في خدمة مالكة . وأكثر ما كانوا يستعملونهم في الحرث . وكان يحق للمالك العبد أن يبيعه أو أن يضربه أو أن يعذبه ، وكثيراً ما كانوا يكبلونهم بالحديد لئلا يفرؤا . ولم يكن للعبيد من المسلمين ، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين ، حق أن يتزوجوا بالمسيحيات ولو كن من الخوادم . ومن كانت منهن متزوجة بنير مسيحي كان لا يؤذن بدفنها في مقابر النصرارى بل هناك ماهو أكثر من ذلك وهو أنه لم يكن يؤذن في زواج العبد من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ، وإنما كان للمالك أن يأذن في مساكنة العبد للأمة في مكان واحد ، ولكن على شرط أن الأولاد الذين يولدون لها يكونون ملكاً للمالك المذكور . ولقد تلاشى الرق من أوربة في نواحي القرن الثاني عشر إلا أنه بقي جائزاً بحق غير المسيحيين لاسيا المسلمين ، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثاني عشر والقرون التالية ، ومن جملتها نصوص واردة في مجموعة القوانين البحرية القديمة تأليف المسيو بارديسو ، غير أن ذوى التقوى كانوا اذا أرادوا أن يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم أعتقوا عبيدهم ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب أن يتعمد أى أن يتنصر يصير حراً . وهكذا اندمج العبيد في سائر الأمة

وكان العبيد من المسلمين يشتغلون في المزارع من أملاك التمولين أو أوقاف الأديار والكنائس . وقد مر بنا أن أسارى المسلمين الذين وقعوا في اليد سنة ١٠١٩ أمام أربونة قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الزعماء . وهكذا وقع للمسلمين الذين كانوا في فرنسا بعد سقوطهم في معركة سنة ٩٧٥ ولجميع عساكر المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيشهم في أثناء غزواتهم للبلاد الافرنسية .

وكانت هناك أسباب أخرى لزيادة عدد الرقيق المسلم في فرنسا ، منها الحروب الصليبية في الشرق ، ومنها الحروب التي كانت تقع بين الافرنج وبين مسلمي الأندلس . وقد ذكر المسيو بارديسو في كتابه المار الذكر أن منها ما كان آتيا أيضا بطريق التجارة . وما لانزاع فيه أنه قد بقي استعباد أسرى المسلمين في فرنسا عادة متبعة دهرأ طويلا ، وفي سنة ١١٤٩ أوصى ارنود مطران أربونة بمبيده المسلمين لمطران بيزيه Beziers وفي سنة ١٢٥٠ أوصى روميوفيلنوف Romeo de Villeneuve الذي كان وزيراً عند كونت بروفنس ، قبل موته ، ببيع العبيد المسلمين الذين كانوا في أراضيهم . وكانوا من الذكور والاناث . ذكر هذا المسيو بوش في تاريخ بروفنس . وبعد ذلك بمئتي سنة ورد ذكر شراء الملك رينه ^(١) René لثلاثة عبيد من المسلمين . وقد اطلعنا على قرارات لمجمع الاساقفة في طراكونية في اسبانية المنقذ سنة ١٢٣٩ من جملتها أن يجبر المسلمون الذين بفرنسا على اتخاذ لبس خاص بهم ، وكذلك اليهود ، وقد جاء مثل هذا الاقتراح في قانون لأسقف بيزيه سنة ١٨٦٣

وكان المتحمسون بالنصرانية يفضون للسماح بزواج الارقاء في فرنسا بحيث وجد في قانون رهبانية جيتو Jéteau مادة تمنع أديار هذه الرهبانية أن يجتمع فيها مسلمون ومسلمات في محل واحد ، بل كان هناك معاهد دينية ترفض استخدام العبيد المسلمين في أشغالها

لقد مر بنا أن المسلمين الذين كانوا يطلبون المعمودية يصيرون أحرارا وكان هذا حقاً لهم ، ولما كان كثير من هذا الطلب لايقع عن اخلاص أو عقيدة ، وكان بعض هؤلاء التعمدين اذا حصلوا على حريتهم يعودون الى ضلالهم ، فكان لسادة هؤلاء العبيد الحق في امتحانهم مدة من الزمن . وعند ذلك صار كثير من المسيحيين الذين لا وجدان لهم يمتحنون عبيدهم من المسلمين امتحانات يقصدون بها منهم من الدخول في النصرانية . ومنهم من كانوا وقد تنصر عبيدهم ، يرفضون الموافقة على تحريرهم ويستمرون على ارهاقهم بأشد ما يمكن . ولقد أصدر البابا كليمنفوس الرابع سنة ١٢٦٦

(١) كان يقال له الملك رينه الصالح وكان من ألقابه دوق أنجو وكان كونتا على بروفنس توفي

مشهوراً أنزل به صواعق الغضب على رئيس دير القديس بندكتس في ميرنده ،
لكونه عذب رجلاً مسلماً غنياً كان قد تنصر ، وزعم هذا الرئيس أن تنصره كان غير
حقيقي وضبط له أملاكه وحرم منها اولاده

فأنت ترى أنه كان من المسلمين المستعبدين في فرنسة أشخاص ذوو أملاك ،
وكانوا مثل اليهود يقرضون الأموال بالربا ، وكان اذا غضب الشعب على المرابين من
اليهود أدخلوا المسلمين أيضاً في دائرة غضبهم . وقد قلنا انه لم يكن للمسلمين حق في
التزوج بمسيحيات ، وان كل مسيحية كانت ترضى بأن يتزوجها مسلم كانت تحرم
من حق الدفن في المقابر المسيحية ، وكان هؤلاء المسلمون يعطلون أشغالهم في الأعياد
المسيحية قسراً

وبالاجمال فعدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسة كان كبيراً (١) وهذه نتيجة

(١) في فرنسة ولا سيما في المقاطعات الجنوبية منها ، عائلات كثيرة معروفة بأنها من سلالة
السرازين . أى المسلمين ، ومنها ماتدل سحناؤها الى اليوم على العروبة . وفي نفس سويسرة
عائلات ملقبة بالسرازين ، في جنيف وفي بازيل . ومن أشهر من انتسب الى أصل عربي في جنيف
العالم العلامة الفيلسوف « ابن أبي زيد » وكان أهل سويسرة يقولون له أبو زيت Abou Zit
وأصله عربي من سكان طولوز . وكان أهله من العرب الذين تنصروا ثم اتخذوا مذهب البروتستانت ،
فلما صدر أمر لويس الرابع عشر باخراج كل البروتستانتين من فرنسة ، خرج أبو زيد هذا مع
من خرجوا الى جنيف ، ثم نشأ فيها ونبغ في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة
والتاريخ وغيرها . وكان معاصراً لفولير وروسو ونيوطن في انكاترة ، وصديقاً لهم جميعاً ، وكانت
له عندم المكانة العليا وربما استفوته في عويص المسائل العلمية . وقد ذكرت جريدة جورنال
ده جنيف احدى المرار أن فولير استفته في مسائل غاب عنه علمها . ومر بفولير صاحب له قاصداً الى
جنيف ، فسأله فولير : ماشغلك في تلك البلدة ؟ وكان فولير ساكناً في ضواحي جنيف كلالينخي
بقرية فرناى . فقال له صاحبه : أريد الاجتماع بعالم كبير . فقال له . اذن تريد أن تجتمع بصاحبنا
العربي . وأما جان جاك روسو فينبه وبين أبي زيد مراسلات مجموعة في كتاب . وكان هذا العلامة
العربي زاهداً عظيم التواضع معرضاً عن الدنيا ، عرضوا عليه في جنيف أعلى المناصب فرفضها ،
واقصر على وظيفة قيم لخزانة الكتب العمومية . وفي جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع
أبي زيد . وكان سلف أبي زيد هذا أطباء في طولوز . وقد كتب محرر هذه السطور عن أبي زيد
العربي الجنيني منذ بضع سنوات مقالة في الجرائد العربية لخصناها عن الجرائد السويسرية وربما
نعود الى موضوعه بعد التوسع في معرفة حياته

طبيعية للحالة التي كانت يومئذ ولكن الفرنسيين الذين مع الأسف اتخذوا الاسلام ديناً كان عددهم أكبر ، فان الغزوات الاسلامية الأولى لفرنسة وسبي المسلمين للذرائع من أهلها وما كان التجار يتجرون به من الرقيق ، كل هذا قد أدخل في الاسلام عدداً لا يحصى من الافرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون المسيحيين الداخلين في دينهم بمزيد التساهل ويعتنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم وبهذا كثر عدد النصراري الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا في الاسلام .

ولنتكلم الآن عن كيفية حكم المسلمين في فرنسة أيام كانوا سائدين فيها وعن طرز معاملتهم لرعاياهم وعن سياستهم المدنية والدينية والحرجية ، فانهم قد استقروا بمد غزواتهم الاولى في بروفنس ودوفيني وبيمونت وسفواى وسويسرة ، ولكن استقرارهم الحقيقي لم يكن إلا في بعض المعاقل الحصينة وفي ضواحيها ، ولم يتفق لهم أن استولوا في فرنسة على بلاد بأمرها . نعم كانت في أيديهم معابر الجبال والأنهار ، فكانوا يأخذون من السابلة رسوماً على المرور ، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وربما أدوا الضرائب عن محصولاتهم الى أمير البلاد التي كانوا فيها . أما بلاد بروفنس التي كانت تجاور حصن فركسينت فقد كانت دائماً عرضة لعبث عصاباتهم . وفي أوائل فتحهم لجنوبي فرنسة أيام شارل مارتل وابنه بين القصير لم يطل الأمر أن وقعت بينهم الحروب التي أدت الى التنفيس من خناق المسيحيين . فكان للقوط في اللانغدوق امراؤهم وقوامسهم يلون أمورهم وأعمالهم يكن المسلمون يعطون هؤلاء الأمراء سلطة عسكرية واسعة فكانهم كانوا يحفظون حق السيطرة لأنفسهم على الحكومات المسيحية المحلية . وقد ذكرنا يزيدور الباجي المؤرخ المسيحي الذي عاش في ذلك العصر أن عقبة أمير الأندلس في سنة ٧٣٤ كان يلتزم سياسة ترك الشعوب التي تخضع لحكم المسلمين على قوانينها الأصلية ، وقد وقع في يدنا منشور من الوالي المسلم لمدينة قويمرة في البرتغال يظهر منه أنه كانت للمسيحيين ادارة خاصة بهم ، ونص هذا المنشور هو مايلي : يكون على مسيحيي قويمرة كونت يلى أمورهم ويحكم فيهم بالسداد ، وكما كانت عادة المسيحيين في الأحكام وله أن يفصل الخصومات

التي تقع بينهم ، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضي المسلمين وذلك بأن الجاني يؤتى به أمام القاضي ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية ، فإذا وافق القاضي أمكن تنفيذ الحكم بالقتل والا فلا . ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات ، وإن أهان مسيحي مسلماً عومل بشرع المسلمين ، وإن سطا مسيحي على عرض مسلمة أجبر على الاسلام وعلى الزوج بالمرأة التي اعتدى على عرضها ، والا فالقتل ، وإن كانت المرأة محصناً فإن المعتدى على عرضها يقتل بلا مراجعة^(١) وقد وجد نص هذا المنشور في دير لوربان Lorban وطبع في اشبونة سنة ١٦٠٩

أما من جهة سياسة المسلمين الدينية في فرنسا فليست عندنا عنها معلومات شافية للذليل ، وكل ما نعلم أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية ، وأن السواد الأعظم من أهل أربونة مثلاً بقوا مسيحيين ، وكان عددهم كبيراً . وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم وبيعتهم مع القسيسين والوفية الذين يخدمونها . على أنه لم يسمع أن المسلمين في أربونة وما جاورها من فرنسا مثلاً تمتعوا المسيحيين بالحقوق التي أمتعهم بها في قرطبة والمدن التي في قلب المملكة . نعم إن المسلمين في قرطبة استولوا على كنائسها الكبرى ، ولكنهم أبقوا للمسيحيين سائر كنائسهم وتركوا لهم أديارهم التي للرهبان والتي للراهبات على السواء ، وتسامحوا معهم في أمر لم يتسامح فيه المسلمون لا في افريقية ولا في آسية وهو قرع المسيحيين للأجراس^(٢) في مواعيد صلاتهم أما في أربونة وما جاورها من المدن فلم يكن للمسيحيين أساقفة كما في قرطبة ، ولا كانت لهم أديار ولم يكن السبب في ذلك كله من المسلمين بل كانت هناك فوضى كنسية كما

(١) كان يجب على الميسو رينو وهو مستشرق عايم بأمر المسلمين أن يبينه على كون المعتدى على عرض المسلمة المتزوجة يجازى بالقتل بحسب الشرع سواء كان مسيحياً أو مسلماً أي إن هذا الجزاء ليس خاصاً بالمسيحيين

(٢) ذكر رينو في حاشية هذه الجملة أن المسيحيين في جبل لبنان هم وحدهم الذين في الشرق يسمح لهم المسلمون بقرع الأجراس

يستدل عليه من كتاب بعث به القديس بونيفاس الى البابا زخريا سنة ٧٤٢ وهذه الفوضى كانت ناشئة عن الانقلابات التي أحدثتها حروب أولاد كلوفيس فيما بينهم . أما في شمال اسبانية فقد وقعت الفوضى الكنسية لدى وصول المسلمين الى البلاد . ففي أراغون مثلا ، عندما جاء المسلمون واستولوا على هذه المملكة ، فر الأسقف الى جبال البيرانة ولم تمد الأسقفية الى أراغون الا بعد ذلك بثلاثمائة سنة أي عندما أجلى المسلمون عن البلاد . ولا يظهر أنه كان في برشلونة أسقفية لمهد وجود المسلمين فيها ، بل يظهر أن أمراء المسلمين تحاشوا قبول الاسقفيات في المدن الواقعة في الثغور . وقد كان المسلمون يتركون للمسيحيين كنائسهم على شريطة أن يكتفوا بالقديم منها ، وأن لا يؤسسوا كنائس جديدة ، وان بنوا شيئا جديدا منها فلا يكون الا مكان القديم . وذهب بعض فقهاء الاسلام الى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة الجديدة الا بأحجار الكنيسة القديمة . ولم يكن للمسيحيين حق في الطواف في الأسواق بالصلبان والأعلام المسيحية ولم يكن أيضا للمسيحيين أن يعارضوا نصرانياً يريد الدخول في الاسلام . وقد تبين من الأمر التعلق بنصارى قويمرة في البرتغال أنه كان على كل كنيسة دفع ضريبة لبيت المال ، مقدارها خمس وعشرون قطعة فضية ، وكان على كل دير دفع خمسين قطعة أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة

وقد تقدم أن المسلمين في مدن الأندلس كانوا ياملون النصارى بالحسنى ، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير . ومع هذا فقد وجدت كتابات للمسيحيين من القرن التاسع تدل على أن مراحل البغضاء كانت تغلي أحيانا بين الفريقين ، وأنه كان محظورا على المسيحيين اقامة شعائر دينهم علنا بالاحتفال اللازم ، وأن المسلمين كانوا اذا سمعوا قرع النواقيس اشمازوا ونفروا وربما قذفوا وشمتموا . ولكن لا ينكر أن المسيحيين أيضا كانوا اذا سمعوا الأذان تعوذوا بالله ورسما اشارة الصليب على صدورهم . وقد أقر بذلك القديس اولوج Euloge الذي كان من المضطهدين سنة ٨٥٠

أما من جهة الخراج فقد تقدم أن السمعح (ابن مالك الخولاني) أمير الأندلس كان

هو البادئ بتنظيم الجبايات واستخراج الارتفاعات سواء في اسبانية أو في جنوبي
فرنسة ، وقبل ذلك كانت أمور الجباية فوضى والحبل منتشرأ وقد وزع السمع قسماً
من الأراضي المأخوذة من المسيحيين على غزاة المسلمين وعلى العائلات الفقيرة ، بعد
أن كان بعض ذوى السلطة قد استأثروا بها لأنفسهم من دون الفقراء، وقد ضم السمع
بقية الأراضي الى بيت المال . وكان الخراج المفروض على أراضي المسلمين هو عشر
المحصول بخلاف المسيحيين فقد كانوا يدفعون الخمس ، أى ضعف خراج المسلمين وكان
المسيحيون عدا الخمس يدفعون الجزية وهي إتاوة شخصية كان يتقاضاها المسلمون من
المسيحيين في مقابلة محافظتهم على دماهم وأموالهم وامتاعهم بحريتهم الدينية . أما من
أسلم من المسيحيين فكان مقي من الجزية . وكان ملوك الأندلس يضربون رسماً على
البضائع والسلع ، فالسلم كان يؤدي اثنين ونصفاً في المئة ، والمسيحي كان يؤدي خمسة
في المائة ، وكانوا يسمونها زكاة وكانت تنفق في اعانة الفقراء وافتكك الاسرى

وكان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية المعاهدين
أو أهل الذمة ، أى الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية والمحافظة . أما المسيحيون الذين
لم يكونوا خاضعين للاسلام فكانوا يسمونهم أعلاجاً واحداً عالج ، وكانوا يقولون
عجمي لكل من ليس بعربي ، ويسمون مشركاً كل من يقول بأن الله ثلاثة أقانيم
لأن المسلمين لا يرون في الثلاثة الأقانيم الا ثلاثة أشخاص .

ويحق للانسان أن يسأل : بأى لسان كان العرب يكالمون الأمم التي تغلبوا عليها ؟
فان من عادة العرب أن لا يحفلوا بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من
الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون في تعلم العربية . ولم يذكر التاريخ رجلاً
مسيحياً لأوائل أيام الفتح الاسلامي أتقن العربية غير هارتموت Hertmote رئيس دير
سانغال الذي كان يعرف العربية واليونانية والعبرية ، وكان من رجال أواخر القرن
التاسع . ولم يبدأ أبوانا بتعلم العربية إلا في أيام الحروب الصليبية ، إذ لم يجدوا غنى
عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم ، فكانوا يذهبون الى اسبانية
حيث كانت العربية واللاتينية تعلمان جنباً الى جنب ويقراون العربية على أهلها . وفي

سنة ١١٤٢ أكمل بطرس رئيس دير كلوني Cluny أول ترجمة لاتينية للقرآن ، وبدأ يكتب الردود على دين الاسلام ، وتبعه في ذلك مؤلفون كثيرون من النصارى .
على أننا لا نشك في أنه في أول دخول العرب الى فرنسة كانت اللغة العربية معروفة فيها ، وكان كثير من الافرنج يحسنون التكلم بها ، وذلك لأن العرب كانوا يأخذون أبناء البيوتات النبيلة رهائن على طاعة أهلهم لهم ، ويرسلون هذه الرهائن الى قلب مملكتهم ، فكان لابد لهم هنالك من أن يتعلموا العربية . وكذلك كان بديهيًا أن الأسرى والعبيد من المسيحيين يتعلمون العربية ، فاذا عادوا الى بلادهم كانوا من جملة الافرنج الذين يعرفون هذه اللغة . وأضف الى ذلك المسلمين المستعبدين الذين كانوا في أرض فرنسة فقد كانوا كلهم يتكلمون بالعربية ، ولا تنس التجار وزوار بيت المقدس الذين رغم جميع تلك الحروب الهائلة لم ينقطعوا عن التجارة ولا عن الزيارة ، وكانوا يختلفون الى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، ومن جملة هؤلاء الانكليزي القديس غيلبود Geillebaud الذي ذهب الى الشرق ووصل الى الشام سنة ٧٣٤ للمسيح ، وقيل انه عند وصوله الى دمشق قبض عليه على ظن أنه جاسوس ، فلما علموا أنه قادم لزيارة بيت المقدس خلوا سبيله ، فطاف في سورية وفلسطين بدون معارضة ؛ ولكن لم يقع في أيدينا شيء من المعلومات عما دار من الأحاديث بين الخليفة في دمشق وبين القديس المذكور

وكان المسيحيون في ذلك العصر مستسلمين للاقدار يعتقدون أن غزوات العرب لبلادهم انما هي عقاب من الله تعالى للبشر على خطاياهم فكانوا راضين بما قدره الله عليهم لا يحاولون دفع منازلهم ولم ينهضوا في أوربة لاستعمال الوسائل البشرية الكفيلة بدفع الأذى عنهم الا في أيام الحروب الصليبية

وكان المسلمون في غاراتهم يستعملون السبي فيربون الصبيان الى أن يبلغوا رشدهم ، ويجعلونهم جنوداً ، ويربون الصبيات الى أن يبلغن رشدهن فيتخذوهن حلالل . وكانوا في أي مكان شنوا فيه الغارة وضعوا ذلك نصب أعينهم . تأمل في كيفية حلولهم بمجزيرة اقریطش . فقد تقدم أن خمسة عشر ألفاً من ربض قرطبة أجلاوا عن الأندلس

على أثر فتنة الربض المشهورة، فجاءوا الى الاسكندرية ، ومن هناك عزموا على النزول في اقريطش نظراً لحسن هوائها وجودة تربتها، ولما وصلوا الى تلك الجزيرة أمرهم قائدهم بأن يبدأوا بالمهارة ، وأحرق السفن التي جاءوا بها ، فصاح رفاقه به قائلين له : كيف يمكننا بعد الآن أن نراسل نساءنا وأولادنا ؟ فأجابهم : انني أعطيتكم وطناً جديداً وهذا الوطن هو الذي يكفل لكم ايجاد نساء تتزوجون بهن ، وبعد ذلك عليكم أنتم أن تنسلوا الأولاد . ولما جاء المسلمون ودخلوا أرض فرنسة فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الاسلام واخضاع فرنسة وكل اوربة لأحكام القرآن . ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد أخرى ، كحب النهب أو الأخذ بالثأر . ومن هذا القبيل نزول العرب في أواخر القرن التاسع في أرض بروفس .

وقد ذكر المؤرخ ليو تيرند كيفية فتح العرب لصقلية فقال : ان أمير صقلية من قبل امبراطور القسطنطينية كان قد خرج من طاعته ، فأرسل يستنجد أمير العرب في القيروان ، فشاور هذا أعوانه فيما يفعل ، فأشاروا عليه باصراخه ، ولكن على شرط أن المسكر الاسلامي يأخذ ما يمكنه من الغنائم ويقفل بدون استقرار في تلك الجزيرة . وذلك لأنهم لمعرفتهم بشدة قرب صقلية من الأرض الكبيرة كانوا يعتقدون أن مقام أمة تخالف أهل تلك الديار في اللغة والعقيدة لا يمكن أن يكون هناك لاطويلا ولا وطيداً ، وأنه لا مناص من أن يكر اليونان والافرنج فيستجمعوا تلك الجزيرة ولو بعد حين . قيل ان أحدهم سأل يوم عقد تلك الشورى بشأن غزو صقلية ما مقدار المسافة التي تفصل بين الجزيرة والأرض الكبيرة؟ فأجابوه بأن الانسان يقدر أن يأتي ويرجع مرتين أو ثلاثاً في النهار . فسألوكم المسافة بين صقلية وافريقية ؟ فقيل له مسافة يوم وليلة . فقال : لو كنت طيراً ما رضيت أن أجعل مقامى بهذه الجزيرة . والحال هي هذه من جهة المسافة . ذكر ذلك النويري . والحقيقة أن المسلمين لم يعملوا على البقاء في صقلية الا بعد أن رأوا أمورها فوضى ، وبعد أن وجدوا أمراء تلك البلاد يستمعون بهم بعضهم على بعض ، لا تجمعهم جامعة قومية ولا تضمهم صارخة وطنية

أما الآثار الحجرية التي تركها المسلمون في فرنسا على أثر غزواتهم فيها فهي قليلة جداً ففي أربونة مثلاً حيث بقى العرب نحواً من أربعين سنة ، لم نجد لهم بناءً خاصاً بهم ، وغاية ما عملوا أنهم زادوا في تحكيم القلاع التي فيها حتى جعلوها من مناعتها لا تؤخذ . ولكن لم يجد المؤرخون هناك كتابات عربية ولا آثاراً يتحققون كونها عربية . وقد قيل عن بناء في مدينة سردانية التي بجوار جبل لويس انه من عمل المسلمين ، ولكن ذلك القول لم يثبت لأنه بناء لا يشابه أبنيتهم المهدودة . نعم يوجد في جنوبي فرنسا كثير من المسكوكات العربية وأكثرها ليس عليه ذكر الملوك الذين ضربت في أيامهم ، ولا ينكر أنه في أواخر القرن التاسع للميلاد كان المسلمون قد قطعوا مراحل بعيدة في المعارف والفنون وأخذوا يتقدمون يوماً فيوماً في المدينة ، وفي ذلك الوقت كان نزولهم في بلاد بروفس ودوفني وسافواي وسويسرة . ولا نزاع في أن مسلمي اسبانية وصقلية بل مسلمي افريقية نفسها كانوا في ذلك العصر أرقى من مسيحيي فرنسا والبلاد المجاورة لها التي كانت غائصة في قن كقطع الليل المظلم . ولسنا الآن في صدد المدينة الباهرة التي أثلتها العرب في الأندلس فمن ذا الذي لا يسمع بمعظمة جامع قرطبة الأعظم ، ومن لا يعلم ماشاده العرب من الجسور والمعابر وشقوه من الأنهر والجداول لرى الأراضى ، وما بنوه من القصور النيفة الشاخة ولعمري لم ينحصر فضلهم في الصناعة والفن بل كانت لهم القدم الراسخة في العلوم العقلية والفلسفة وكانوا ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وبيقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطولياووس وغيرهم ، وكشفوا من العلم أسراراً جديدة أضافوها الى ماتلقوه عن غيرهم . فكان تفوق العرب على المسيحيين في ذلك العصر حقيقة ثابتة لا مرأى فيها وكان المسيحيون يفتقرون اليهم في العلم ويردون حياضهم فيه . وقد روى المؤرخون أن شانجه ملك ليون كان في سنة ٩٦٠ جاء الى قرطبة ملتمساً الاستشفاء ، لدى أطباء العرب ، من مرض كان قد أعياه شفاؤه ، فوجد عند أطباء العرب الراحة التي كان ينشدها وبقى طول حياته يذكر الحفاوة التي استقبل بها والاعتناء الذي رآه في قرطبة بشأنه . وفي تلك الأيام كان راهب اسمه جربرت انتجع اسبانية ،

طلبوا للعلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ من العلم مبلغا خيلا لعامة فرنسا اذ ذاك أنه
ساحر (١)

أما العرب الذين جاءت عصائبهم ونزلت في أرض فرنسا وتدرجت الى جبال
الألب فلم يكونوا من النمط الأول أى من الذين يريدون أن ينشروا ثقافة أو يؤثروا
مدينة ، وانما كانت غاراتهم كلها منبعثة عن طمع في النهب وغرام بالكسب .
فالنهضة الحقيقية في أوربة لم تبدأ الا منذ القرن الثاني عشر أى منذ زحف أهل الغرب
لقتال أهل الشرق ، ووجدت النصرانية والاسلام في الصراع وجها لوجه ، فوقع
الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين ، وأفاق الفرنسيين والانكليز والالمان من رقبتهم
ونفضوا عنهم غبار الحمول ، ووجدوا ضرورة المشاطرة في المدينة الاسلامية . وكان
علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليوناني غير معروف الا عند العرب ، فأخذ

(١) في موضوع آثار العرب في فرنسا يحسن أن نذكر شهادة طبيب كبير اسمه البروفسور
دالماس هو أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب في مدينة مونييليه في جنوبي فرنسا الذي ألقى في فضل
العرب على جامعة مونييليه محاضرة قيمة حضرها جم من الشبان الشرقيين ، من مصريين وعراقيين
وسوريين ، ونشروا عن ذلك مقالة في حريدة الاهرام وقد بدأ البروفسور دالماس بذكر فتوحات
العرب لعهد الخلفاء الأولين ، وقال انهم كانوا يحملون مدينتهم حيثما ذهبوا واينما حلوا ، وقال :
ان مدينة العرب لم تنحصر في فن البناء ونشر الزخرف العربي وتشبيد الجوامع فقط بل كانت تتناول
الكثير من العلوم والمعارف التي هي أساس العلوم الحديثة ، وخص بالذكر علمي النبات والطب ،
وذكر أنه الى العرب يعود الفضل في تعريف الغرب بالمدينة اليونانية . ثم قال : ان العرب نزلوا
ببلدة ماجلون ، ضاحية مونييليه ، وأقاموا بها مدة من الزمن الى أن أجلاهم عنها شارل مارتل
وأحرقها حتى لا يعودوا اليها وكانوا في اثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية ، ثم جاء
منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطيب ، ثم ذكر من الأطباء أسماء بعض اليهود الذين تلقوا
الطب العربي مثل صموئيل بن طيبون وناثان بن زكريا وأسماءها منقوشة على لوحة الاستاذية بمدخل
كلية الطب ، وقال : ان بعض الرهبان الذين ترقوا الى درجة البابوية كانوا قد طلبوا العلم بجامعة
مونييليه على أساتيد من العرب وقال: ان ملك نابار عندما مرض بصدره التجأ الى أطباء العرب ، وقال :
انه يوجد في متحف الجامعة بعض آثار وجدت في ماجلون عليها بعض الآيات القرآنية والاشعار العربية
وكنتم سمعت من المرحوم الاخ أحمد بك شوقي أمير الشعراء الذي درس علم الحقوق في جامعة
مونييليه هذا الخبر بعينه رواه لي لأول تعارفنا في باريس سنة ١٨٩٣

المسيحيون من فرنسة وجوارها يؤمون اسبانية لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان ، وذلك الى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة الكتابة والعلم في أوربة . وقد بقيت هذه التراجم الى القرن الخامس عشر هي عمدة الجامعات والمدارس في معرفة علوم يونان

ولا مندوحة لنا عن أن نقول كلمتين عن آثار هؤلاء العرب الذين نزلوا في فركسنت ، فان الأثر الذي أثاره هناك من الآبار المحفورة والأسراب المكفورة والحجارة المنحوتة والأبنية المحكمة لا تزال بقاياها بارزة للعيان ، دالة على صبر عجيب وهمة بعيدة ، ولكن لم يوجد على شيء من ذلك الحصن كتابات عربية كما وجد في الحصون التي من بناء العرب في الأندلس .

وقد ذكروا أن حصوناً كثيرة على قنن الجبال هي من بناء العرب المذكورين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة منتظمة بلبه الساحل الافرنسي والاطالي ، اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ليلا على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذه النيران ايذاناً بوقوع الحرب وطلباً للمدد وجمعاً للقوة . وقد ذكر ذلك المسيو انفونس ده نيس Denys في كتابه الزهرة البديعة في مقاطعة الفار . وكذلك جاء في كتب العرب كلام على الأربطة والمراب التي شادها الأمير عقبة بن الحجاج السلولى ، أمير الأندلس في جنوبي فرنسة ، في نواحي سنة ٧٣٤ وقد ذكر ايزيدور الباجي أن السماح ابن مالك الخولاني الذي تولى قبل عقبة امارة الأندلس ، قد بنى هو جانباً من هذه الابراج ، ولكننا لانعلم لماذا ينسبون بناء هذه الابراج كلها الى العرب ولماذا لا يجوز أن يكون أهل البلاد أنفسهم هم الذين بنوها ، أو بنوا بعضها ، احتياطاً لانفسهم ومراقبة لاعادتهم (١) . هذا وما وجد من آثار العرب في فرنسة الاطالس الحربية والاسقاط

(١) يقول انه يجوز أن يكون الافرنج قد بنوا شيئاً من هذه الابراج في سواحلهم ولكن بما لا مشاحة فيه أن الابراج التي في جميع سواحل الاندلس مطردة متسقة على طول تلك السواحل كانت من بناء العرب وان عادة ايقاد النيران في الابراج ايذاناً بالحرب ومدد للصريح إنما هي عادة في الغالب عربية . وكان العرب في أوائل الفتح الاسلامي نشروا هذا النمط من الابراج النارية من

التيينة من العاج والفضة والكؤوس البلورية والاسلحة النفيسة ، ولا يزال منها جانب في خزائن الكنائس وفي مخادع الفواة؛ والناس تقومها بأمان غالية مما يدل على مكانة الصنعة العربية في الانفس. ولكن من المحقق أن أكثر هذه المصنوعات العربية هي من عصر متأخر عن القرن الثامن . ولم يكن مقام العرب بفرنسة خالياً من تأثير في طرق الزراعة فان هؤلاء القوم لم يحلوا في مكان الا طبقوا الأراضي بالعمل ، وجروا الاقنية ، ونسقوا من تحتها الجنان شاهدك على ذلك تلك البساتين المنقطعة النظير ، في مرسية وبلنسية وغرناطة ، ويقال ان العرب الذين نزلوا في بروفنس هم الذين بدأوا في استئثار شجر البلوط ، ولا يزال هناك غابة منه يقال لها غابة الغاربة . وكذلك العرب هم الذين كانوا يستخرجون القطران من أشجار الصنوبر والارز ، ويقلفطون به المراكب . ولهذا تجد أهالي بروفنس لا يقولون للقطران غودرون Goudron كما يقول سائر الفرنسيين ، بل يقولون قطران Quitran^(١)

وقالوا ان العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل في فرنسة . وذلك انهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياذ العرب ليتسنى لهم عليها بث الغارات في داخل البلاد ، فبقي جنسها في فرنسة من ذلك الوقت والآل يوجد صنف من الخيل في مقاطعة كامرغ Camergue متولد من ازدواج الخيل الاندلسية بخيول تلك المقاطعة ومما يظنه الناس من بقايا عادات العرب نوع الرقص الذي يطبع عليه الانسان في جنوبي فرنسة وهو يختلف باختلاف الأماكن ، فمنه زفن يقع في الليالي يرقص فيه

الاسكندرية الى طنجة ، فكانت اذا وقمت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج الى برج حتى يبلغ ذلك الاسكندرية ، في الليلة الواحدة .

ولما سرت من مائة الى الجزيرة الخضراء سنة ١٩٣٠ التي ذهبت فيها الى الاندلس اجتازت بنا السيارة هذه المسافة في ست ساعات ، فكانت كلما قطعت مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ متر حاذيت برجاً مخروطي الشكل شاهقا في الفضاء ، وعلمت أن هذه الأبراج كلها عربية

(١) القطران : عرفه العرب بأنه دهن يخرج من شجر الابهل والارز ، وهو يلفظ بالفتح وبالكسر . ونحن في سورية نلفظه بالفتح (قطران) ويظهر أن العرب الذين نزلوا سواحل بروفانس كانوا يلفظونه بالكسر (قطران) ولذلك قال الفرنسيين Quitran

الشاب بين فتاتين ، وفي أثناء رقصه يقدم فاكهة تارة الى هذه وطوراً الى تلك . ومنه ما يقف فيه الراقصون خطأ ، بازاء الراقصات خطأ ، ثم يشتبك الخطان أحدهما بالآخر والشخص الذى يكون على رأس كل من الخطين يعمل اشارات يقتدى بها الآخرون وهناك رقص عسكري يرقص فيه اثنان كل منهما متقلد سيفاً يحاول أن يصيب به الآخر أشبه بالأقران في ساحة القتال اذا أرادوا أن يهاجموا أو يدافعوا

أما وجود أناس في فرنسة تقدر أن نحكم عليهم حكماً باتا بأنهم من أصل عربي فقير محقق. قيل لنا ان قوماً يسكنون على ضفاف نهر الصاوون، بين ماصون وليون، لاسياً على الضفة الشمالية انهم من بقايا شرذمة من المسكر العربي انقطعت عن مجموع الجيش في أيام شارل مارتل وقالوا ان لهؤلاء عادات خاصة وألفاظاً خاصة قد تكون باقية من اللغة العربية ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق ، لاسياً أن تلك الألفاظ هي في الحقيقة مشتقة من اللاتينية ، أو باقية من الافرنسي القديم وأن البلاد الواقعة بقرب ماصون لم ينزل بها عرب بل كانت ملجأ لمن فروا من وجه العرب وكذلك قيل ان جماعة من سكان البلاد المجاورة لجبال البيرانه ، يقال لهم كاغوت ، هم من أصل عربي . ولكن لم يثبت شيء من هذا، بل الأرجح أن هذا الجيل من الناس هو من جملة الأجيال الغريبة المنتشرة في بريطانيا واورفنيه باسم كاكو وكابوت وما أشبه ذلك

ثم انه كما لا يخفى في زمن الملك هنرى الرابع هاجر من اسبانية الى فرنسة عدد كبير ، نحو من مائة وخمسين ألف نسمة من مسلمى الأندلس ، فراراً من تضيق فليب الثالث ملك إسبانية الذى منع أن يجتمع في جزيرة الأندلس دينان ، وأجبر بقية المسلمين فيها على التنصر بالنار والسيف . ولما وجد أن الكثيرين منهم لا يزالون مسلمين باطناً ، وأن لهم علاقات بالدولة العثمانية التى كانت في ذلك العصر ذات صولة عظيمة ، أجمع أخيراً على طردهم من بلاده، فجاءوا الى فرنسة ولكنهم لم يكونوا في فرنسة الا عابري سبيل ، لأنهم أبحروا من سواحل فرنسة الى افريقية والبلاد العثمانية ومن بقى منهم

في فرنسا تنصر واندمج في مجموع الأمة كما أشار الى ذلك شينيه Chenier في كتابه
المباحث التاريخية عن المغاربة (١)

أما تأثير الأدب العربي في آداب لغات الامم الساكنة في جنوبي أوربة ، فقد

(١) عند ما اشتد الضيق الى الدرجة انقصوى على بقايا مسلمي الأندلس، تحريقاً بالنار ، وتبليصاً
من المال ، واستعباداً للذكور والانات ، وتمديباً بمختلف الأشكال ، بحجة أنهم وان كانوا قد
تنصروا ظاهراً فلا يبرحون مسلمين باطناً أرسل هؤلاء سراً يستغيثون بالدولة العثمانية . وذهب منهم
خلسة من الأندلس وفد أدرك مدينة بغداد ، حيث كان الصدر الأعظم على رأس العساكر العثمانية
الزاحفة يومئذ الى تلك الأقطار ، فبث الوفد الى الصدر الأعظم كل ما يعانيه المسلمون من العذاب
تحت حكم الاسبانيول ، وأنهم مع ذلك لا يسمحون لهم بالخروج من البلاد ، وأن منهم مئة وخمسين
ألفاً خرجوا الى فرنسا ، وهم يلتسبون من الدولة العثمانية أن تتوسط لدى ملك فرنسا وملك اسبانية
في أمر السماح لبقايا المسلمين المذكورين بالرحيل الى بلاد الاسلام . فعرض الصدر الأعظم ماسمعه من
الوفد الأندلسي على السلطان أحمد خان الأول رحمه الله وفي الحال لي السلطان العثماني نداءهم ، وكتب
الى ملك فرنسا هنري الرابع يرغب اليه في تسفير المسلمين الذين التجأوا الى مملكته على مراكب
تبعث بها الدولة العثمانية فتحملهم الى بلاد الاسلام ، أو على مراكب افرنسية تعهد الدولة العثمانية
بدفم كرائها.

وكان هنري الرابع قد سمح بدخول هؤلاء المسلمين الى فرنسا على شريطة أن يقبلوا المذهب
الكاثوليكي ، فلما جاء هذا الكتاب من السلطان أحمد وكان يهيمه عدم اغضابه ، أحاب طلبه
وأمر بتسفير المسلمين المذكورين الى افريقية وغيرها من بلاد الاسلام ، فخرج منهم فئات لحقوا
بالمغرب ، وآخرون بالجزائر وتونس ، وآخرون وصلوا الى مصر والشام ، ومنهم من قصد الى
القسطنطينية . وقد بقيت منهم فئة قليلة في فرنسا انتهى الأمر بأن سلالتها صارت الى النصرانية واندجمت
في الفرنسيين . أما الذين كانوا لا يزالون في اسبانية ، فبقي « فليب الثالث » يمنع خروجهم منها ،
إلى أن بلغه الخبر عما فعله هنري الرابع من النزول على ارادة السلطان العثماني ، فحسب لتدخل الدولة
العثمانية حساباً كبيراً ، وأمر فجمع عظماء مملكته ، وتشاوروا في قضية بقايا المسلمين في تلك
الملكة ، فأشار بعضهم بمنع خروجهم منها وقع وعول الجمهور ومنهم الملك على اخراجهم جميعاً ،
تخلصاً من غوائل بقائهم في اسبانية ، اذ قد ثبت للدولة الاسبانية أنه مع وجود هذه العلاقات السرية
بين المسلمين الأندلسيين وبين الدولة العثمانية لم يأت أحد منهم برغم تصرّف في ظاهر الأمر ، ليخبر
الحكومة الاسبانية بشيء من تلك الحركات . فاستدلوا من هذا على أن هؤلاء لا يزالون
مسلمين ، وان أظهروا التنصر ، وأنه يعون من الحزم اجلاؤهم بأجمعهم عن اسبانية حتى لاتعرض هذه
الملكة بسببهم لحرب مع الدولة العثمانية لاتعلم عاقبتها . فأخرجهم جميعاً على مراكب الحكومة

قيل فيه انه وقع في لغة الاوك Oc التي كان يتكلم بها أهالي جنوبي فرنسة وكتلونية ، اذ هناك أقام العرب طويلا . وقد دخل في اللغة الافرنسية كلمات كثيرة من العربية لامراء فيها وهذا الاختلاط في اللغات لم يقع بخاصة أيام وجود العرب بفرنسة ، بل قد وقع أكثره بعد جلائهم عنها ، لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين العرب والفرنسيس في يوم من الايام . وبالإجمال فتأثير العرب في فرنسة كان أقل مما يتوهم الناس ، وان ما أجروه فيها من العيث والتدمير ليتضاءل في جانب ما خربه النورمانديون والمجار ، بل تقدر أن تقول أنه بقيت للعرب مكانة عظيمة في نفوس الناس ، حتى أصبحت لفظة سرازين ولفظة روماني كأنهما واحدة ، وحتى تعود العامة أن ينسبوا إلى السرازين أي العرب كل ما يروونه كبارا أو جبارا .

ومن الغريب أنه لم يبق من غارات النورمنديين والمجار الا تذكارات في بطون التواريخ ، والحال أن تذكارات غزو العرب لفرنسة لا يزال في جميع الأذهان كأنه حديث العهد . وقد وقعت غزوات العرب قبل غزوات النورمنديين والمجار ، واستمر وجودهم في البلاد الى ما بعد جلاء المجار واندماج النورمنديين في مجموع الأمة ، الا أن غزوات العرب الأولى كان فيها من العظمة والأبهة مالا يمكن أن يقرأه الانسان الا وتعروه الدهشة والحيرة . وكان العرب يمتازون عن النورمنديين والمجار بكونهم أمة بقيت

الاسبانية ، وكانوا نحواً من ستائة ألف نسمة ، فذهب أكثرهم الى المغرب ، وانبتوا في الريف ، وعمروا تطوان والرباط وسلا وجانبا من فاس . وذهب كثيرون فسكنوا تلسان والجزائر وتونس ، ووصل آخرون الى الشرق . وكان ذلك في سنة ١٦١٢ مسيحية

وقد استوفينا تاريخ هذا الجلاء الأخير لمسلمي الأندلس في الطبعة الجديدة من « حاضر العالم الاسلامي » واعتمدنا في كثير من المعلومات التي كانت مجهولة عند الجمهور على كتاب ابن عبدالرفيع الأندلسي الذي روى عنه ابن جندار صاحب تاريخ رباط الفتح فمن شاء عن هذه المسألة بحثاً شافياً للفيل فليراجع تاريخ رباط الفتح أو حاضر العالم الاسلامي الطبعة الجديدة . ولكننا سنخصص بهذا الموضوع ان شاء الله جزءاً يتامه من أجزاء هذا الكتاب ، فيه جميع تاريخ مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة . ولبتوا مسلمين في الباطن أكثر من مائة سنة ، وكان الاسبان يقولون لهم « الموريسك » وقد أجمع المنصفون على أنه لم تعذب في الدنيا أمة ما عذبه الموريسك هؤلاء ، حتى انك عقالهم وخرجوا من اسبانية .

مدة طويلة تسير على رأس المدينة العامة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسا لم تزل تحت الرعدة من احتمال غاراتهم . ثم ان الحروب العظيمة التي تولوا كبرها ، سواء في الأندلس أو في افريقية أو في آسية في وجه الصليبيين ، قد أضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق اللعان الذي كان من قبل . وكل هذا لم يكن كافياً في تفسير مكانة العرب الكينة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسا وجوارها ، خلفا عن سلف . فقد كانت هذه القصص تكاد تكون الأسمار الوحيدة للأمرء والنبلاء ، بل الأسمار الوحيدة لعامة الشعب . وانما كان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية وحساً نجيباً . وقد تضاعف كل تاريخ بجانبها وهزل كل أدب ما عداها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، يذهبون من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية ، فينشدونها الجماهير التي تترنج لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع أولئك الرواة في انشاد تلك القصائد عن سير أبطال الوطن . وكانت أكثر هذه السير تدور على حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيين في دفع غاراتهم . ولما كان في هذه القصص وتلك القصائد من المبالغة ما هو جدير بكل القصاص الذين يترنمون بوقائع الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي تجسماً لفضل أولئك الذين تولوا كبر تلك الوقائع ، حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة من فرنسا وإيطالية أمير عربي أو بطل عربي ييارزه أمير افرنسي أو بطل افرنسي وبعد أن يشتد البراز ويطول المراك وتظهر فيه خوارق الاقدار ، ينتهي بالبداهة بتغلب البطل الافرنسي على البطل العربي

وبالجملة فقد كان العرب لذلك المهدي ، هم الأمثلة العليا والاقيسة البعيدة ، في الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الاخلاق والمفو عند القدرة وقرى الضيف تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة ، منها مارواه بعض مؤرخي الاسبانول من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك اشتورية ، اذفونش الكبير ، أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة ، حرصاً على تهذيبه ، اذ لم يجد في المسيحيين إذ

ذاك كفؤا لهذه المهمة .

ومن الغريب أنه في قصة من قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان الكبير يروون أنه في صغره ذهب واقتبس من أنوار العرب ، وأنه من تأثير ذلك تمكن من إدارة تلك السلطنة العظيمة التي جدها مجد العالم الغربي . وقد بقيت هذه الأقاويص هي المول عليها في الاندية والمجامع ، وهي الفكاهة المستطرفة في المواسم والمحافل الى عهد غير بعيد . ولم يدخل التمهيص التاريخي عندنا الا منذ مائة وخمسين سنة ، اذا أخذ الناس يبنذون ما هو من عمل الخيال الى ما هو من لباب الوقائع الراهنة .

وختام القول أنه لو نشر موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، ورأوا ما هي عليه الحالة في زماننا هذا ، لوجدوا اختلافاً كثيراً في بيئتي المسيحيين والمسلمين ، عما كانتا عليه في الأعصر السالفة . ولكن مما لا شك فيه أنهم بعد الوهلة الأولى كانوا يبتهجون بالمكانة العليا التي جعلها القصاص والزجالون من آباءنا لأعمالهم الكبيرة ، وكانت نفوسهم المشغوفة بمعالى الامور تقابل بمزيد الاكبار ذلك الشمور النبيل الذي كان يخلج عند من نسميهم البرابرة من آباءنا والذي لا يزال يتلاشى يوماً فيوماً . انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف

كتاب غارة العرب على سويسرة

في أواسط القرن العاشر

تأليف

الدكتور فرديناند كالر

Der einfall der Sarazenen in die Schweiz
um die mitte des X Jahrenderts
Von dr Ferdinand Keller
mittheilungen der antiquarischen
Gesellschaft in Zurich

وهو كتاب بالالمانية ، نشرته شركة « الآثار العتيقة » في زوريخ ، في سنة ١٨٥٦ وقد أطلعنا عليه العلامة الأستاذ « البروفسور هس » مدرس التاريخ والألسن الشرقية في جامعة زوريخ من سويسرة . وذلك في سنة ١٩١٩ وهو أول كتاب اطلعنا عليه في هذا الموضوع ، فلخصناه يومئذ ، ونشرنا خلاصته في مجلة المنار لصاحبها الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا . ثم اتنا رأينا نقل هذا الكتاب برمته الى العربية في كتابنا هذا ، ولم نختصر منه الا في المظان التي ليس فيها طائل

قال فرديناند كالر في كتابه :

قال ليوبراند (Liupran) : انه بحسب ارادة الله التي لا يدرك سرها ، قد جرى في سنة ٨٩١ انه جاء عشرون عربياً في مركب صغير من سواحل اسبانية ، قذف بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس ترويز St Tropez في بروفانس Provence . فزلوا الى البر هناك ، على عادة لصوص البحر ، وكان زولهم في جوف الليل فتسللوا الى قرية « ترويز » وفتكوا بأهلها المسيحيين ، وملكوا الناحية . ثم اتخذوا معقلا الجبل المسمى موروس Maurus ليكونوا في حرز حريز من عادية

الأمم المجاورة . وكان ذلك الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحمون بأشواكها وألفافها ، ولم يجعلوا فيها سوى شعب واحد لأنفسهم يعمرون فيه . وهذا المكان يسمى فراكسينيتوم Fraxinétum ^(١) يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتسبة مشبكة الأغصان ، من نشب فيها نفذت فيه اشواك أحد من الحراب فلا يقدر أن يتقدم ولا أن يعود . فأمنوا في هذا المكان المنيع وصار لهم سريرا وصاروا يجولون في الجهات المجاورة بدون وجل ، واثقين بمكنهم هذا . ثم أنفذوا رسولا الى اسبانية لأجل أن يندب الناس من قومهم ، ليلتحقوا بهم ، فمدح الرسول المكان وأطعم الناس فيه ، وقال ان أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية فلم يلبث الا قليلا حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب ، جاءوا ليلتحقوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجمته

وقد أسعف غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس ، من الشقاق البعيد ، وقيام بعضهم ضد بعض ، فكان بعضهم لأجل أن يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المكارين فكان من اختلاف أهالي تلك البلاد ومن توالى النجدات الى العرب من اسبانية ، أن أصبح هؤلاء آمنين في سربهم ، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاءوا ، وكيفما لاح لهم الصيد ، واجتاحوا تلك البلاد الخصبية اجتياحاً تاماً وأصابوا فيها مغنم كثيرة

هذه هي الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر ^(٢) عن نزول المسلمين في سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل « فراكسيناتوم » وكيفية تحصينهم له ، بحيث بقى مدة سنين طوال مركزاً لقوتهم في هذا الجانب من أوربة وصيصية يمتنعون بها ويبعثون منها سرازم كثيرة أو قليلة ، الى الجنوب ، والى الشرق من جبال الألب البحرية . وما عتموا

(١) وفي الحاشية مذكور أنه يقال له أيضاً : Garde - Frainet في خليج سان ترويز

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية اسم هذا المؤرخ وهو Antapold وأشار الى أن هذه الرواية جاءت في صفحة ٢٧٥ من كتابه الذي ترجمه البارون فون دراوستن زا كين Von der Osten Sacken

أن صارت لهم شوكة يتحدث الناس بها ، برعب الناس منهم ، وبعتمادهم هم على أنفسهم . وكانت لهم غزوات بعيدة المغار ، لأجل الغنائم ، فإذا لم يجدوا أمامهم من يقرع النبع بالنبع نهبوا تلك الاديار الغنية والمدن المحصنة والمعقل التي كان يسكنها أشراف البلاد ، وتركوها قاعا صفصفا كأن لم تكن بالامس

والذي يظهر جلياً من روايات مؤرخي ذلك العصر أن هذه الغارة لم تكن ذات مغزى سياسى كغيرها من الغارات ، ولا كان لهاغرض راجع الى توسيع ممالك الدولة الاسلامية الاندلسية . ولم يكن مقصد هذه العصابة اخضاع أهالى هاتيك البلدان لسلطانها . وذلك لان عددها لم يكن كافيا لتحقيق دعوى كهذه . وقصارى ما كانت ترمى اليه أن تحوز الذهب والكنوز التي تعثر عليها ، وتمود بها الى معقلها في جبل فراكسيناتوم ، وأنها اذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها في السفن الراسية في خليج فراكسيناتوم وتطير بها بجناح الريح قافلة الى اسبانية . وكذلك يظهر أن خليفة اسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التي تطوحت في ذلك الفج السحيق ولا أتاها أدنى مدد من جهته (١)

وأما السؤال عن الوقت الذى اجتاز فيه المسلمون جبال الالب ، وتوغلوا في أرض ايطالية ، فانه لايجد جواباً مستندا على معلومات دقيقة ويجب أن يكون هذا الحادث قد وقع على كل حال في أوائل القرن العاشر . فقد دلنا محرر المذكرات اليومية لدير «نوفاليز» Novalese الذى على مقربة من «سوزا» Susa بجزاء جبل «سنيس» Senis على أن غارة المسلمين كانت في نواحي سنة ٩٠٦ . فنذ تلك السنة كانوا في «بروفانس» و«بورغوند» Burgund و«شيمله» Cimella حول «نيسه» Nizza

(١) على أن رينو ينقل ان اوتون امبراطور المانية كان أرسل وفداً الى الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة من جملة مطالبه كف عادية العرب الذين نزلوا في فراكسينيت وتقدموا الى جبال الالب . وقد تقدم ذلك في ترجمة تاريخ رينو

يجولون ويقتلون ويحرقون . ومن المحقق أنهم في هذه السنة كانوا يتوقلون في جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواى وسويسرة . وفي أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزه الذى كان من أعظم الأديار وأغناها . فلما سمع الرهبان ببلصوية هؤلاء القوم وبقسوتهم ، وكانوا يمصرفون جيداً ما وراءهم حزموا ما فى الدير من الأشياء الثمينة ومن جلتها خزانة الكتب النفيسة وذهبوا بها الى تورين لتكون بأمن . فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون واكتسحوا كل شئ وأحرقوا الكنيسة والبناء كله . وكان راهبان طاعنان فى السن قد بقيا فى الدير لأجل حراسته فقبضوا عليهما وأهانوهما (١)

وفى ذلك العهد أصبحت البلاد الواقعة بين نهري « بو » Po و « الزون » مجالا للغارات والعيث، فالبيمون وبروفانس وبلاد «دوفينى» Dauphiné و «مونتفرات» Montferrat وبلاد «تارنتيزة» Tarentaise كانت كل سنة عرضة للدمار والنار . وقد حدث مدونو الوقائع اليومية فى ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص، مما فعله هؤلاء العرب ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابرى السبيل، ويسلبونهم مامهم واذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يقتلونهم (٢) . وكان أكبر القوم لاسيا الرؤساء الروحيون الذين يؤمنون رومة واقعين تحت الخطر الشديد من غارات العرب ، بسبب ما يحملون

(١) هذه الرواية جاءت فى كتاب رينو كما تقدم

(٢) لانريد أن تنفي عن هذه الفئة من مفيرة العرب حب النهب والكسب ولكننا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هى من وضع أولئك المؤرخين التعصبين الذين كان جلهم أو كلهم رهباناً وقسيسين . وناهيك بعداوة الدين وحسبك دليلاً على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هى التى بقيت مدة قرون فى أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون وأنهم يعبدون محمداً وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيل من ذهب وفضة وما أشبه ذلك من الحرافات التى كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها فى كتبها فكيف تقدر بعد هذا أن تتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكسبيين عن وقائع عصائب العرب ؟

من الذخائر وما يستصحبون من الأعلاق النفيسة . وأما في القرى فلم يكونوا يقتصرون في النهب على الخيل والمواشي ، بل كانوا ينهبون كل ماله قيمة ، ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم في سوق الرقيق . وكانوا إذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم أناس في المعركة ، اتقمعوا لأنفسهم باحراق هاتيك المدن حتى يصيروها رماداً . وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات أحياناً بين البلاد بسبب غارات العرب وكان أهالي الأماكن التي يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون الى الجبال والغابات ، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم ، الا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نفيهم عام ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون . وأشنع شيء كان هو عدم الوثام بين أهالي البلاد ، بسبب عداوة الأمراء بعضهم لبعض ، واستنجادهم في حروبهم الداخلية بهؤلاء الأعداء . وكان من الطبيعي أن يوجه العرب كل همهم الى الاستيلاء على الطرق العامة ، وبنوع خاص على معابر جبال الألب ، لأنهم كانوا يرون في ذلك أحسن طريقة للكسب والسلب ، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف الثام وكان المسافرون الأغنياء يأخذون معهم في أسفارهم كل ما يلزم لهم ، فكان في ذلك مطمع عظيم للمسلمين . وكانوا في تلك الطرق الجبلية يتمكنون من استقبال السابليين بالسهم والحجارة ، ومن القائهم في الأودية والهاوى بحيث أنهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على مالا تقدر عليه الجيوش الكبيرة

وروى «فلودوارد» Flodoard في تعليقاته السنوية أن المسلمين سنة ٩٢١ أتوا على قافلة من حجاج الانكليز كانت ذاهبة الى رومة ، فلقوها في بعض أودية الألب ، واستأصلوها . وبعد ذلك بسنتين لقوا قافلة انكليزية أخرى وقتكوا بها . ثم انهم في سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج أخرى أيضاً ، فاضطر هؤلاء الى الرجوع قبل أن يقعوا في أيديهم . ولما كان غير ممكن تعيين أماكن هذه الوقائع فلا تقدر أن نحكم في أي محل حصلت ، أفي ضمن حدود ايطالية الى جهة سويسرة ، أم في حدود فرنسة ؟

وإذا فكرنا أنه كان من عادة المسافرين الانكليز الذين يقصدون رومة أن يجتازوا من معبر سان برنار^(١) لزم أن نرجح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود ايطالية . ولقد اطلمنا على تاريخ يثبت أن كنوت «Knut» ملك انكلترة والدانمرك الذى كان يلقب بالكبير كان قد طلب من رودولف «Rudolf» الثالث ملك برغوند Burgond أن يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق أو من جهة الاعفاء من الرسوم للقسوس والتجار والحجاج الذين من ممالكه يؤمون رومة^(٢)

في أي حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنار الذى كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس «Mont Jovis» وفي أية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة ؟ هذا شيء لا تقدر أن نمجده . نعم توجد كتابات ، من ذلك الوقت ، متعلقة بهذه الحوادث ، الا أنها لا تحتوى على تواريخ يمكن الاعتماد عليها . والذى يظهر من كلام رينو^(٣) أنه يميل للقول بأن هذه الحوادث جرت في سنة ٩٣٩ لكننا سنرى فيما يأتى أنها جرت قبل هذا التاريخ^(٤). ومن المحقق أن العرب زلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنار العالية الى وادى الرون الخصب ، حيث كان مبنياً دير اغاونوم «Agaunum» العظيم ، المؤسس على اسم سان «موريتيوس Mauritius» وأصحابه ، والذى كان فيه ذخائر كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، المهداة اليه من الملوك

(١) St - Bernard وهو من أشهر معابر جبال الالب

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية نص الكتابة اللاتينية التى استفاد منها أن الملك كنوت الكبير طلب اجراء هذه التسهيلات بحق قصاد رومة من رعاياه . ونقل هذا النص من الصفحة ١٦٤ من تاريخ أصل الفويلفين وممشع ألماني كان جاراً للسكسونيين

(٣) هو المستشرق الافرنسي رينو Reinaud الذى ترجمنا كتابه

(٤) يذكر المؤرخ كيلر كتاب رينو الذى لخصناه وهو « غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى والبيامون وسويسرة» المطبوع بباريز سنة ١٨٣٦ وكتاباً آخر عظيم القيمة على

مملكة البورغوند تأليف فون غينغينس Von Gingins

الكارلوفنجيين والبورغونيين ، وكانت محفوظة ضمن حيطانه . ففي السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رماداً . ولم يمض الا قليل حتى جاء القديس « أولريك » Ulrich أسقف « أوغسبورغ » Augsburg في أثناء سفرته الى برغوند ، وزار هذا المكان لأجل نقل عظام الشهداء التي أذن له كونراد ملك بورغوند في دفنها في أوغسبورغ . ولم يكن باقيا هناك سوى خادم واحد يجرس البناء الذي صار طعمة للنار (١)

وما جاء في تاريخ « فلودوارد » أنه في سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج انكليز وغالين ، كانوا قاصدين رومة ، فبعد أن فقدت بعض رجالها رجعت من حيث أتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور وقد ذكر مؤرخو الفرنسيين كتابا محفوظا موجه من راهب من دير سان « موريس » St - Maurice اسمه رودولف الى ملك فرنسا لويس الرابع المسمى « أوترمير » Outremer يقول له فيه : كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسا من « كلوفيس » و « داغوبرت » الى كارل الكبير (٢) لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه . وهو يلمس منه أن ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دفنوا فيه

وفي ذلك الوقت كانت المصابة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم في جبال

(١) نقل المؤرخ كيلر هذا عن كتاب غرهاردى Gerhardi المسمى « حياة القديس اولريك » وهذا هو اسم « اولريك » او « اولريخ » باللاتيني Vita S. Oudalrici . كذلك استشهد كيلر بتاريخ مؤرخ آخر اسمه « فلودوارد »

(٢) الفرنسيين يقولون له كلوفيس والالمان كلودفيغ وأما كارل الكبير فهو الذي يقول له

الألب المعروفة بالألب البونينية Pöninische قد بدأت تشالغارات على بحيرة جنيف وبلاد «فاد»^(١) كما ذكر المؤرخون المعاصرون. ويظهر أنها كانت استولت على معاير جبال الألب الشرقية . فاذا كان ينقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب الى جبال الألب الغربية ، وجوسهم الاودية التي تتخللها ، فان عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرقي سويسرة ، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور» Chur الاسقفية. فان فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦ : « أن العرب شنوا الغارة على سويسرة الالمانية وقتلوا كثيراً من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة »

وما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك أن جانباً من سويسرة الألمانية وهو القسم الذى من «كور» الى وادى «الرين» كان المسلمون قد اكتسحوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الالمانية Ratische العليا فان ثبت هذا الرأى فقد ترتب عليه اما أن تكون غارة العرب على مقاطعة «فالس» Wallis قبل سنة ٩٣٩ أو أن يكون احتلالهم لجبال الألب الالمانية سبق احتلالهم لجبال الألب البونينية . وليس من المحقق ماذهب اليه فلودوارد من أن احتلال العرب لمعاير الألب سنة ٩٣٦ أو سنة ٩٣٣ يعنى به احتلالهم جبال الألب الالمانية ، وانما المحقق كون «كور» ونواحيها قد اجتاحتها العرب قبل سنة ٩٤٠ وانه ليسكون ذا بال أن تتمكن من معرفة الطريق التي سلكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد . هل جاءوا من البيامون منقسمين شطرين ، شطر منهم اتبع جبال الألب الشرقية ، والشرط الآخر اتبع جبال الألب الغربية من سويسرة ؟ الجواب: ليس بمستحيل أن يكونوا قصدوا ناحية «راتين» وبلغوها رغم قلة عددهم ، معتمدين على بسالتهم والرعب الذى وقع في قلوب الناس منهم ،

(١) الألمان يقولون Waadt والفرنسيين يقولون Vaud وهى البلاد التي قاعدتها لوزان

ففتحوا طريقاً لأنفسهم على ضفاف بحيرات لانغن « Langen » وكومر « Comer » وعرفوا مسالك الألب^(١). ان تاريخ ايطالية العليا لا يذكر هذه الحوادث ولكن قد افترضنا أن العرب تقدموا من مارتيناخ « Martinach » خارجاً عن مجرى نهر الرون وتتبعوا ناحية فوركا « Furka » والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادي أورزيرن « Urseren » وساروا على الطرق القديمة المؤدية الى منابع الرين وأبواب مبر الألب الراهية . وهذا الافتراض لا يستند على رواية مكتوبة وليس فيما وجد في دير ديسنتيس « Dissentis » الواقع أمام وادي الرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك . إلا أن المؤرخين لا يزالون يعتقدون أن العرب كما عاثوا بنواحي « كور » ونهبوا دبرها قد اجتاحتها أيضاً دير « ديسنتيس »

وأما السند الذي ثبت به حضور العرب في وادي الرين فهو أن هرمان أمير سويسرة الألمانية قد التمس من أوتو الكبير في المجلس الذي عقده الامبراطور في كويد لنبورغ Quedlinburg في شهر ابريل سنة ٩٤٠ أن يهب فالتو « WaItto » أسقف كور تعويضاً عما لحقه من اجتياح العرب لديره ، وأن الامبراطور قد أجاب رجاءه فمهد إلى الاسقف المذكور بادارة كنيستين احدها كنيسة « بلودنس » Pludenz في وادي « دروس » Drusthale والثانية كنيسة سان مارتين في وادي شامزر Schamserthale على شرط أن ريع الأولى يعود الى أساقفة كور وأن ريع الثانية يعود الى دير الراهبات في « كازيس »

وظاهر أن الميث الذي عاته العرب قد كان طويل الأمد ، وأنه وقع منذ سنة ٩٣٩

(١) نقل كيلر في الحاشية عبارة عن الأب « سيراسه » من رهبان دير « جورا » ura وهي هذه: مما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحينا نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذلك الا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق التي لم يكن غيرها في البلاد منذ سقوط السلطنة الرومانية اه

وأن احتلالهم للالب الراهية كان في زمن احتلالهم للالب البونينية ، وأن هذا الحادث تقدم احراق العرب لدير سان موريس الذي يذهب رينو الى أنه وقع عند عبور العرب من سان برنار

ولكن في قولنا أنهم عاثوا واكتسحوا تلك البلاد ، لا نعني أنهم أقاموا بها مستقرين في مكان ، بل كانوا يكمنون في الجبال وينقضون من مكانهم لدى الفرصة فلم تكن لهم قدم ثابتة في محل . وكانت حياتهم حياة عصابة تنتجع في كل يوم جبلا متى لاحت أمامها بارقة أمل في الكسب أقدمت ، والا أحجمت . فكان مطمح نظرهم كله قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر . ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة ، واتخذوها لهم مركزاً ، وكانت لهم أنزال يلجأون اليها وأبراج يضعون فيها منافعهم . وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل في الأودية العميقة وفي المضائق التي لا يمكن فيها الدفاع . وكانوا متى أعوزهم القوت صالوا على الاماكن غير الحصينة وعلى الأديار المملوءة بالأعلاق الكنسية

وبقيت حالتهم على ما وصفناه مدة مديدة ، الا أنه بعد دخولهم الى البلاد باثنتي عشرة سنة طرأ حادث فجائي وافق مصلحتهم ، ومكنهم من معابر جبال الالب ، فازدادت بهم جرأتهم وتضاعف طمعهم

وهو أن « هوغو » Hugo كونت « بروفانس » كان في سنة ٩٢٦ قد أحرز تاج مملكة « لومبارديا » Lombardie ودخل في حرب عوان مع صهره « البريكوس » Albericus بطريق رومة . فاهتبل العرب من هذه الحرب الفرة ، واستفادوا من غياب الامير المذكور عن بلاده ، فتمكنوا من سلسلة جبال الألب ، سواء من الشمال أو من الغرب ، ونهبوا البلدان التي بمخذائها . ولما وصل صريخ رعايا الكونت هوغو مما لقوه من عيش العرب ، صحت عزيمته على مصالحة صهره والرجوع الى ايطالية

العليا ، ثم على مهاجمة المسلمين في معقلهم الأول « فرا كسينيتوم » . ولأجل أن يستوثق من الانتصار سعى في استمداد سلطنة القسطنطينية ، لتجده بمقدار من النار الاغريقية يحرق بها سفن العرب الراسية في ميناء فرا كسينيتوم ، ويقطع عن هؤلاء كل مدد من البحر . وكان في نيته مهاجمة العدو من جهة البر بينما يكون أسطول القسطنطينية ممسكا عليهم البحر . فبعد أن اتفق هوغو مع امبراطور القسطنطينية وقبل شروطه جاءت السفن البيزنطية الى مرسي « سان ترويز » بينما كان الجيش البري يزحف من جهة « بافيا » Pavia فلم يكد الأسطول البيزنطي يصل الى المرسي حتى أحرق سفن العرب كلها . وتقدم الملك هوغو من جانب البر فضيق عليهم الخناق حتى انهزموا معتمسين بجبل « موروس » وكاد يستأصلهم ويأخذهم جميعاً أسرى ، لولا أن حدث حادث غير منتظر وذلك أن « برنغار » Berengar كونت « ايفريا » Ivrea حفيد الامبراطور « برنغار » المتوفى سنة ٩٢٦ ووارثه كان قد أخذ يسمى سراً للحصول على تاج مملكة لومبارديا . فبلغ هوغو خبر هذه المؤامرة فعزم أن يقبض على التآمرين وأن يقتلهم أو يسمل أعينهم . ولكن برنغار كان على حذر شديد فانسلك من لومبارديا بقتة والتجأ الى هرمان أمير الشفاب Schuvaben وسار اليه عن طريق سان برنار . فتلقاه الأمير هرمان برأ وترحيباً ، وقدمه للامبراطور أوتو وهذا أكرمه وخلم عليه . فما كان أسرع هوغو عندما عرف بالقضية الى ارسال الهدايا من الذهب والفضة الى أوتو

وكان هوغو قد خلص ممالكة من العرب ، وخضد شوكتهم ، وتحول فكره الى جهة الامبراطور وأوجس خيفة أن يحشد هذا عليه وينزع منه تاج لومبارديا . فعدل هوغو مع العرب عن العداوة الى المسالمة ، وبمث اليهم في جبل مورو يعرض عليهم السلم على شرط أن يجوسوا خلال ديار برنغار ويمنعوه بجميع الوسائل من أن يجتاز جبال الالب بجيشه ^(١) فاشتراط العرب حينئذ على هوغو أن

(١) نقل كيلر عن المؤرخ ليود براند نص روايته باللاتينية ومعناها ان هوغو عقد مع المسلمين معاهدة يبيعهم فيها جميع معاير جبال الالب حتى يمنعوا برنغار من المرور بجيوشه الى ايطالية

يعترف لهم بحق احتلالهم معاير الالب الراتية والبونينية ، كما أن هوغو اشترط على العرب أن يخلوا المدن والقرى التابعة له . ولكن لم يكن هذا الشرط الاخير مصرحا به في المعاهدة . فالسلمون قاموا بأحكام المعاهدة حق القيام واحتلوا جميع معاير الالب المذكورة ، يستدل على ذلك من كون برنغار عاد الى ايطالية مع جند قليل من أصحابه عن طريق جبال التيرول Tyrol

فأما العرب فقد تلقوا هذا العقد ، مع الملك هوغو ، بفرح عظيم ، وأصبحوا يرون أنفسهم السادة الشرعيين لهذه المعاير ، وصاروا يأخذون رسوماً من السابليين . ومن لم يؤد الرسم أخذوه أسيراً ثم اضطر أن يفك رقبته بمبلغ عظيم من الذهب^(١) . وتقدم العرب من سان برنار وجاسوا في بلاد « فاتلانند^(٢) » الى « أفانسس » Avanchez ونيوشاتل Niochatel في جبال « جورا » Jura وكانوا حيث مروا يمشون وينهبون . ولقد كانت غاراتهم في شمالي الألب الراتية من « كور^(٣) » الى بحيرة « كونستانس^(٤) » في وادي الرين هائلة جدا ، فقد وجد في خزانة كتب دير « كور » كتابة تفيد أن الامبراطور أوتو الكبير عندما مر في ٢٤ فبراير سنة ٩٥٣ بقصر « ارنشتاين » Ehrenstein ترجاه الأسقف « هارتبرت » مطران « كور » في تعويضهم من الرزايا التي ألحقها بهم العرب ، فأقطعهم أوقافا في « الالزاس » وأخرى في « كونيغسكهايم » Konigsheim وكنيسة « موخنهايم » Mauchenheim وما يتبعها

- (١) نقل كيلر هنا نص رواية فلودوارد باللاتينية وهي التي يقول فيها ان العرب كانوا يأخذون الرسوم من القوافل القاصدة الى رومة فاذا أدت الرسم خلوا سبيلها
- (٢) هي مقاطعة « فو » Vaud الحاضرة التي قاعدتها لوزان
- (٣) تقدم ذكرها وهي التي فيها الدير الشهير Chur
- (٤) الالمان يقولون لبحيرة كونستانس بحيرة « بودن » Boden See

وقد وجدت كتابة نالتقى «دورنبورغ» Dornburg تاريخها ٢٨ ديسمبر سنة ٩٥٥
حآ لها أن الامبراطور «أوتو» كان منصرفاً من ايطالية فشهد بينه آثار عيث العرب
وبناء على التماس أخيه رئيس أساقفة «برونو» أنعم على دير كور بتلك التعميمات .
وقيل ان جزالة هذا العطاء الذى أعطاه الامبراطور كان من قبيل نذر نذره لأجل
عودته موفقاً من ايطالية على طريق الألب ، فانه أنعم على الأسقف بالدار التي كانت تخصه
فى «زيرس» وأمر باعفاء سفن الأساقفة فى بحيرة «فالزى» من المكوس . وقد
أتبع ذلك أعطيات أخرى ، مثل اعطائه ايام كنيسة «نتسينغن» فى وادى «دروس»
مع العقارات التابعة لها ، وانعامه بجمالية الأملاك التي كانت تخصه فى كور ، وبمكوسها
التي كان يؤديها سابلة الجبال من الالمان . وأخيراً أعطاهم فى سنة ٩٥٨ كنائس عدة
مثل «سان لورنز» و «سان هيلاريوس» و «سان مرتينوس» وكنيسة
«كاربوفوروس» ومنحهم حق ضرب السكة . وكذلك أعطى دير «ديستيس»
فى سنة ٩٦٥ الدار التي كانت له فى «فايكون» على بحيرة زوريخ ، وأقطع فيكتور
رئيس رهبان كور سنة ٩٦٧ قطائع فى «فينشواو» و «انغادين Engadin»

وفى ذلك الوقت أوصل العرب غازاتهم الى «زارغانس Sargans» و «توغنبورغ
Togenburg» و ابنسيل «Appenzell» وصلوا على أهالى تلك الجبال ، قتلوا
الرجال ونهبوا المواشى وأحرقوا المساكن . وقد روى الراهب «ايكهارد»^(١)
الذى حرر تاريخ دير «سانت غالن» ما يلى .

« كان العرب يبعدون جدا مغارهم فى جبال الألب لاسيما فى زمان «فالتو»
ويفتكون بأهلها بجمراً غربية ، حتى انهم فى ذات يوم رشقوا بالنبال من أعالى جبل
واقع شرقى الدير جماعة كانوا قائمين بطواف دينى يتقدمهم الصليب مرفوعاً . ولكن

« فالتو (١) » كان شديد البأس فأمر قومه بأن يتعقبوا العرب الى مكائهم ، وسلحهم بالحراب والناجل والفؤوس . وفي الليلة الثانية كبسهم بياتا ، فقتل منهم وأسر بعضهم (٢) وفر الباقون . ولم يقدرُوا أن يدركوهم لأنهم كانوا أقدر على التوغل ، وأبصر بالتوقل في الجبال . أما الذين وقعوا أسرى فسيقوا الى الدير في الأغلال ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يأكلوا ويشربوا ، وما زالوا حتى هلكوا جوعاً . وقال « اكهارد » ان الرزيئة التي رزىء بها الدير من غيث العرب كانت من الجسامة بحيث يستلم وصفها كتاباً (٣)

ولا يقدر أحد أن يعلم بالتام كم كانت مدة اقامة العرب بشرقي سويسرة ، فان الأوراق والوثائق التي وجدت في دير « كور » ودير « سان غالن » ودير فافرس « Pfafers » لم يوجد فيها ما يحدد هذه المدة ، ولا يظهر أن رحيلهم من هناك تأخر عن المقد السادس من القرن العاشر

وفي سنة ٩٥٤ نفسها ، وهي التي وصل فيها العرب الى سان غالن ، وقع الحادث المهم الذي هو هزيمة العرب والمجار معاً . فقد تمكن كوزراد ملك بورغوندا أو البرجان ، ببسالته الشخصية وبمغدة حرية دبرها ، من استئصال طائفة مهمة من هؤلاء العرب (٤) وتطهير أودية بلاده منهم . إلا أنه برغم هذه الهزيمة كان العرب لا يزالون مستولين على معاير الألب الغربية

وليس بمحقق وجود عرب الألب الغربية في هذه الواقعة ، فان « اكهارد » الرابع ، راهب دير سان غالن الذي روى خبر هزيمة العرب في هذه الواقعة يقول :

(١) Walto كان رئيساً للدير في سنة ٩٥٤

(٢) سبقت هذه الرواية في كتاب رينو

(٣) وقد أيد كيلر هذه الرواية في الحاشية برواية أخرى لمؤرخ اسمه فون اركس Von Arx كتب تاريخ مقاطعة « سان غالن » وقد نقلها من ٢٢٦ من الجزء الأول من كتابه

(٤) تقدمت هذه الرواية ايضاً في كتاب رينو

ان العرب كانوا متمكنين جيداً في قلب الجنوب من أوربة حتى انهم لم يكونوا يحدثون أنفسهم بإمكان خروجهم منها . وكانوا يتزوجون ، بحسب قوله ، من بنات أهل البلاد ، ويسكنون أودية خصيبة ، ويؤدون للملك ضرائب . وعلى كل حال فما لاشك فيه أن قسماً من العرب الذين كانوا يصلون هذه الحروب قد أقاموا في الآخر وأوطنوا ، ونووا أن يؤسسوا لأنفسهم مستعمرة ويتعاطوا الفلاحة والزراعة . ولكنه غير ممكن تعيين المكان الذي نووا أن يستعمروه ، هل هو في « قاله » أو في « سافواي » أم في غيرها ، فان المؤرخين لم يمينوه . وفي سنة ٩٥٤ التي اشتهرت بغارة العرب من جهة ، وغارة المجر من جهة أخرى على سويسرة وقعت حادثة فرار الملكة برتا « Bertha » مع عمها المطران « أولريك » أسقف « أوغسبورغ » والتجأتهما الى البرج الذي كانت بنته هي في « نوشاتل » والمظنون أن هذا الحادث كان مبدأ لعمران مقاطعة « (١) »

ولم ترد قصة العرب هذه في التواريخ المالية فقط بل جاءت في سيرة بعض القديسين . وبالاجمال قد كانت اشتدت وطأهم ، وعم العرب منهم ، الى أن أصبح الجميع في حنق شديد عليهم . ومما زاد حنق الناس عليهم أنهم كانوا تعرضوا لرجل من أكبر رجال عصره ، وهو القديس مايولوس « Majolus » راهب دير كلوني « Cluny » قبضوا عليه وهو عائد من « بافيا » الى بورغوند ، وذلك سنة ٩٧٢ وقد روى هذه القصة خلفه في رئاسة دير كلوني كما يأتي :

عمر القديس مايولوس ورفاقه في ٢٢ يوليو سنة ٩٧٣ قن جبال الألب ، ووصلوا الى قرية واقعة الى الشمال من معبرسان برنار على ضفة نهر درانس « Drance » كان يقال لها لذلك العهد « بونس أورزاري Pons Ursarii » وتسمى اليوم « أورزير » (٢) «

(١) لوزان وتواجها

(٢) ان المستشرق رينو يذهب الى أن القديس مايولوس سار من اليامون على طريق جبل جنيف ووادي الدوفيني وانه قد جرت معه هذه الحادثة في أعلى وادي «دراك» بقرب قرية «بون دوزيير» وان العرب الذين سطوا عليه كانوا من التوطيين بين «غاب» و «امبرون» وأما المؤرخ كيلر فانه يخطئ، رينو في هذا الرأي ويقول انه وهم في ظنه وقوع حادثة القديس مايوليوس في

وقد كان انضم اليه عدد من الحجاج من أقطار مختلفة أملاً بأن يكونوا بجميته في مأمن . فلما وصلت هذه القافلة الى هذه القرية ومرت هناك من مبر ضيق ، انقضت عليها عصابة من العرب فأوقعت بها ، ولم يكن من سبيل في ذلك المكان للدفاع ، فأركنت الى الفرار لا تلوى على شيء ، فتأثرها العرب وقبضوا على من أدركوه منها وأوثقوه بالقيود . وكان أحد العرب يحاول طعن أحد خدمة القديس بمزراقه اذ تقدم القديس واتي الطعنة بكفه ، فنفدت الطعنة منها ، وكانت جراحة شديدة بقي أثرها في يده طول حياته . وأما الخادم ففر ناجياً . ثم جردت هذه العصابة العربية الحجاج من كل ما معهم ، وساقتهم الى كهف من الصخر حبستهم فيه ، ولم تستثن من الحبس القديس مايولوس . فلحظ العرب رجلاً جالساً على حجر لا يلوح على وجهه علامة الاهتمام بالخلص ، وبينما كانوا يهينونه كان هو مهتماً بدعوتهم الى الديانة المسيحية ، فزاد بذلك غضبهم منه ، فقيدوا رجله بالحديد ، وأدخلوه الكهف مع الآخرين . وفي الليلة التالية رأى مايولوس رؤياً أنه سيخلص من أيدي العرب ، بواسطة الرسل الحواريين ، فقد رأى أسقف رومة بالأثواب الحجرية وفي يده المبخرة . ثم رأى رؤياً ثانية أيدت أمله في أنه سيحتفل هو ورفاقه بعيد صعود السيدة مريم . ولما أصبح الصباح وجاء وقت الطعام عرض العرب عليه أن يطعم من طعامهم ، وكانوا يأكلون لحمًا وخبزاً يابساً ، فأجابهم مايولوس أنه ليس يأكل من هذا الطعام الذي لم يألفه حينئذ عجنوا له بسرعة وخبزوا خبزاً نظيفاً طرياً ، وقدموه له فتناوله منهم وأكل الخبز بعد أن بارك عليه بحسب عادته وعادت اليه قوته . وكان أحد المسلمين قد أراد قطع عصا من شجرة واحتاج الى أن يتسلق عليها ، فوضع رجله على التوراة التي كان القديس يحملها دائماً معه في أسفاره ، فأخذ القديس يتنفس الصعداء . ولحظ ذلك المسلمون فوجئوا أخاهم على عمله هذا ، وقالوا له لا يليق أن تفعل هذا بكتاب يتضمن كلام الأنبياء . وذلك أن المسلمين يعظمون الأنبياء ويقولون ان ما قاله الأنبياء عن عيسى قد

الوقت الذي ذكره ، فهي متأخرة عن الوقت الذي ظنه ربهو لأنها وقعت سنة ٩٧٣ وريبنو يحسب انها وقعت في العقد الخامس من القرن العاشر

تم بشخص محمد (صلى الله عليه وسلم)
ثم ان المصابة العربية دخلت مع القديس في قضية فدائه وفداء بقية الأسرى ،
لا سيما بمد أن رأوا منه ما استوجب حرمتهم له . وقد سأله هو من ذوى اليسار ،
أم معدم ؟ فأجابهم بأنه لا يملك شيئاً ولكن للدير أصحاب يقدرون أن يفكوا
الأسرى بأموالهم . فأرسل مايولوس ، بالاتفاق مع العرب ، راهباً كان معه ، وأحجبه
بكتاب الى دير « كلوني » يقول فيه : « إلى السادة والاخوان في دير كلوني ،
من مايولوس المسكين المقيد بالحديد ، اننى محاط بالهلاك من كل ناحية فأسرعوا
بانقاذى واتقاذ رفاقى وبارسال المال اللازم للفداء » فلما قرىء هذا الكتاب في مجتمع
الرهبان ، وكانوا يجوبونه جميعاً ويحترمون احتراماً زائداً ، بلغ منهم الحزن مبلغه وسارعوا
الى جمع المال لساعتهم ، ولم يرضوا بشيء ولا ادخروا منفساً حتى أهم بذلوا الأشياء
الضرورية فضلاً عن الكمالية وعن الذخائر والاعلاق التى كانت عندهم . وفى اليوم
المعين كان أحد الرهبان البجلين في قرية « أورزير » ومعه جميع المال المطلوب .
فتخلص مايولوس هو ومن معه ، وتمتعوا بفرح الاحتفال بميد صمود مريم الى السماء
كما كان رأى القديس فى المنام

ومما بهم الاطلاع عليه هو أن العرب تقاضوا فى فداء القديس مايوليوس الف
دينار فضة ، ولم يتقاضوا على الآخرين الا ديناراً واحداً عن كل رقبة
ثم انه من هذه الحالة تتجلى القوة التى تمكن بها العرب فى ذلك الوقت
من الاستيلاء على جميع معار الألب . ومن الغريب أنهم لم يكونوا يتقاضون مكوساً
على البضائع التى تحمل على هذه الطرق كما كانوا يتقاضونها فى الأزمنة الأولى . ولم
يطلبوا فى البداية شيئاً منها من مايولوس نفسه ، وذلك حتى يطعموه فى التقدم فيقطع
أعلى الجبال ويصير فى الجهة الأخرى ، حينئذ ينقضون عليه ويسلبونه على حين يتعذر
عليه الفرار . وهكذا حصل

وكان الملك هوغو قد اشترط عليهم أن لا يتعرضوا للحجاج ولا يأخذوا منهم
شيئاً ، فرعوا ذلك العهد إلا أنه لما مات هوغو رأوا أنهم أصبحوا غير مقيدين بمهد

وقد قال « رينو » ان حادثة مايولوس كان لها صدى عظيم في كل الأقطار ،
وارتفع الصراخ من كل الجهات لأخذ الثأر ، وفي ذلك الوقت كان في جوار
سيسترون « Sisteron » رجل نبيل يقال له « بونو » أو « بوفو » (Bobo أو Beuo)
مشهور بالحمية والنجدة ، عظيم الهم في تحرير وطنه ، فاستنهض الناس المعروفين
بالحمية على دينهم ووطنهم ، وقرروا بناء قلعة مناوحة لحصن العرب ، ليتمكنوا
من استئصالهم . فبوو هذا الذي أصبح فيما بعد معدودا من القديسين هو الذي بدأ
بتخليص نواحي سيسترون من العرب وأخرجهم من جميع بلاد « دوفينه »
Dauphiné ثم انهم أخرجوا من « بروفانس » Provence لأن غيليوم أحد
أكناد^(١) بروفانس هاجمهم رجال أشداء من صناديد تلك البلاد ومن رجال دوفينه
السفلى وامارة نيقة^(٢) وذلك في قلعتهم فراكسينيتوم المشهورة ، فبعد دفاع شديد
استولى الافرنج على القلعة وفر بعض حماة العرب الى الغاب الذي بقربها وطلب
آخرون النجاة في الجبال وانتهى الأمر بأن فريقا منهم هلك وفريقا تنصر ، فاستحيام
الافرنج واختلطوا بالأهلين

ولما كانت فراكسينيتوم مستودعا لجميع كنوز العرب وذخائرهم ، سواء الذين منهم
كانوا في فرنسة أو عليا ايطالية أو سويسرة ، فقد أصابها الغالبون وتقاسموا فيما بينهم

(١) جمع كند وهو ترجمة Conte في اصطلاح العرب . وكان كتاب العرب يجمعون كند
على أكناد

(٢) nice بالفرنسية و nizza بالالمانية والايطالية

آثار كتابة

في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(١)

من أهم الآثار التي تركها العرب في بلادنا الكتابة التي في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(٢) في « فاله » Valais فقد كان هذا الوادي مجالا لغاراتهم ومركزاً لهم في أثناء مقامهم بجبال الألب . وهذه الكتابة هي دليل واضح على أن تذكاراتهم المخيف لم يكن احى من قلوب الأهالي حتى من بعد مائتي سنة من جلائهم فانها قد كتبت في العقد الثالث أو الرابع من القرن الحادي عشر ، أى زمان بناء الكنيسة التي شيدها هوغو أسقف جنيف . وهو الذي كان ولدا طبيعيا للملك البورغوني رودولف الثالث ، وتولى كرسى الاسقفية نحواً من تسع عشرة سنة^(٣) ودفن في كنيسة لوزان الكاتدرائية بجانب أبيه . ومما يؤسف له أن هذه الكتابة كانت قد ذهبت في أثناء ترميم هذه الكنيسة سنة ١٧٣٩ وجعل الحجر الذي كانت منقوشة عليه من جملة عتبات الباب . ولقد طمست الآن هذه الكتابة حتى لم يبق منها سوى حرف هاء h وحرف ف f وصليب صغير . ولقد ورد نص هذه الكتابة على روايات مختلفة في بعض الكليات لكنها متفقة في المعنى^(٤) وهي لاتينية معناها :

(١) Saint - Pierre montjoux

(٢) قد خلط رينو بين كنيسة القديس بطرس مونتجو وكنيسة القديس بطرس التي بين مارتيني وسيون

(٣) من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٣٨

(٤) اورد كيلر الروايات وعزا كل رواية الى صاحبها مما لم نجد حاجة لذكره

« ان عصابة اسماعيلية^(١) انتشرت في وادي الرن وألقت الرعب في البلاد بالنار
والحديد ورفعت الهلال في أودية الألب البنينية^(٢) »
وفي أسفل الكتابة تاريخ بناء الكنيسة حسبما تقدم

(١) الأفرنج في القرون الوسطى كانوا يسمون العرب ببناء اسماعيل وقد تقدم لنا ان الهجار
كانوا يسمون المسلمين الذين كانوا في بلادهم بالاسماعيلية
(٢) الالب سلسلة جبال تبدأ عند خليج جنوة وتنتهى جنوى الدانوب . وهى تنقسم الى ثلاثة
أقسام : الالب الغربية وهى الليغورية الممتدة من سواحل البحر المتوسط الى مضيق «تاند» والبحرية
الممتدة من تاند الى جبل «فيزو» والساحلية الممتدة من جبل فيزو الى جبل «سنيس» والغرائية
الممتدة من جبل سنيس الى الجبل الأبيض
والالب الوسطى ، وهى الجبال الهلقتية ، أى السويسرية والبنينية ، الممتدة من الجبل الأبيض الى
جبل السبلون ، واللييونتية الممتدة من السبلون الى بحيرة كوم ، والرانية الممتدة من بحيرة كوم الى بلاد
النمسة والالب الشرقية ، وهى الجبال الالفاية والباغارية والستيرية فى النمسة والكادورية والكارنية
والبولية بين النمسة وإيطالية ، والدينارية فى دالماسية
واعلى قنة فى الالب قنة الجبل الأبيض علوها ٤٨١٠ أمتار ، وهى أعلى قنة فى اوربة ، وبعدها
تأتى قنن روز وسرفين وبلفو وفيزو وجنيف وسبلون وسان غوتار الخ . ويمرون من فرسة
الى ايطالية من تاند والارجنتير وجبل سنيس وسان برنار الصغير الخ . ويمرون من سويسرة الى
ايطالية من سان برنار الكبير وسبلون وسان غوتار وسان برناردينو والبولا وبرنينا الخ . وقد
اخترقت الالب خمسة خطوط حديدية من ليون الى تورينو ، ومن لوزان الى ميلانو من طريق ثقق
السبلون ، ومن بازل الى ميلانو عن طريق ثقق سان غوتار ، ومن بازل الى اينسبورغ عن
طريق ثقق آرلبرغ ، ومن اينسبورغ الى فينا عن طريق بريكسن وبوتزن وترنت

أسماء عربية في البلاد

كان علماء الآثار قد بحثوا عن أسماء بلاد « فالة » ووجدوا ألفاظا كثيرة لم يعلموا لها أصلا في اللغات الغالبة على هذا الشطر من أوربة . ولما كانت هذه البلاد واقعة في معابر « الفاله » الى « البيامون » حيث مر العرب في القرن الحادى عشر فقد ترجح أن هذه الأسماء عربية الاصل ونحن الآن موردون عدة أسماء لا شك في كونها عربية « الماهل » في وادى زاسي^(١)

هذا المكان هو قرية صغيرة في الجنوب من أعالي وادى زاس الذى يمتد منه طريقان الى البيامون ، أحدهما يمر في وادى « فوركا » ويسمى معبر « اترونا » والآخر هو معبر « مورو » نسبة الى جبل مورو . وكلا الطريقين معروف منذ سنة ١٤٤٠ بكونه من أقدم المعابر ، فأحدهما كانت تمر منه المواشى والحيوانات الموقرة بأموال التجار ، والآخر كان يمر منه البريد الطليانى قبل تمهيد طريق السملون^(٢) . ولقد ثبت أن معاهدة الملك هوغو مع العرب لم تضمن لهؤلاء احتلال معبر سان برنار فقط بل حق الاستيلاء على جميع المعابر لمنع مرور الجيوش . فمن البديهي أن يكون العرب قد استولوا على وادى زاس ملتقى هذين الطريقين وجعلوا هناك برجاً فيه خفراء ، ومنه يأتى اسم « الماهل » بالتشديد محرفا عن « محل^(٣) »

(١) Almagell في الوادى المسمى Saasthale

(٢) Sinplon وهو الذى فيه النفق الشهير اليوم بين سويسرة واطالية

(٣) هذا خطأ من صاحب الكتاب الذى لا يعرف العربية فالماجل ليس محرفا عن محل وإنما الماهل هو الماء في أصل الجبل أو في الوادى أو مستنقع الماء ، وهو معروف كثيراً وكانوا في مكة السكرمة يستعملون هذا اللفظ لبركة الماء . ذكر ذلك أبو الوليد محمد الأزرق صاحب كتاب « أخبار مكة » . واخبر عن ماجل عند حائط خرمان وماجلين أحدهما بالمعلاة . وقال صاحب القاموس : الماهل موضع بمكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه . وفي حديث أبى واقد : كنا نتماقل في ماجل أو صهريج ، قال ابن الأثير الماهل هو الماء الكثير المجتمع وقيل هو معرب . والتماقل التفاوض في الماء

« على العين^(١) » في وادي زاس

في القسم الأعلى من وادي زاس مثلجة يقول لها أهالي تلك الجهات « مثلجة على العين » اذ منها تخرج ساقية من سواقي نهر « فيسب » Visp الذي هو وادي زاس فتسمية ذلك المكان « على العين » هي في غاية المطابقة

« العين » في وادي زاس

ان الجبل الألى الشرقي الذي هو منبع نهر « فيسب » كان يسميه العرب أيضاً « ألب العين »

« مشابل » في وادي زاس

ان أسماء القسم الغربي من وادي زاس لم تكن معروفة المعاني ، الا أن الأستاذ « هيتزغ^(٢) » يذهب إلى أن « مشابل » Mischabel جاءت من الأشبال أى الأسود ، ويشرح ذلك بقوله ان هناك عدة قن صغيرة تعلوها قنة كبيرة هي بينها أشبه بلبؤة بين أشبالها وانه لا يبعد مثل هذا التخيل عن أم الجنوب . ولأجل تأييد هذا الرأي يستشهد بكون القمم التي الى الشرق من السمبلون تسمى بجبل الأسد^(٣) وانه يوجد أسماء أخرى يظهر عليها الأصل العربي لكنها محرفة تحريفاً يصعب معه الاهتمام الى حقيقة أصلها ، فلذلك تركناها واكتفينا منها بجبل « مورو^(٤) »

(١) Alalain

(٢) Hitzig وهو من كبار المستشرقين كان يقطن زوريخ

(٣) المشابل : اما ان تكون جمع مشبل بمعنى اللبوة أم الاشبال ، او أن يكون أصلها المشابل جمع مشبول وهو المسكان الذي فيه الأسود

(٤) moro معناه مغربي وهو اسم يجده الانسان كثيراً في جنوبي اوربة حيث أقام العرب

فأول ما يعرف بجبل «مورو» الجبل الذى الى الجنوب من حصن «فرا كسينيت»
والثانى الجبل الذى فيه معبر «مورو» الذى يؤدى من حصن العرب هذا إلى
«ما كونيغا» macugna فى البيامون
ويوجد أيضا قمة يقال لها «قمة المورو»^(١) الى الجنوب من «بانيو» فى وادى
«انزه»^(٢) ثم قمة أخرى بهذا الاسم بين «اترونا» ووادى «انزه» الى الشمال
من «برينونة» Prebenone
وكذلك الى الشرق من معبرسان برنار قمة اسمها جبل مورو
فانقلهارد Engelhard المؤرخ يرى فى كثرة هذه الأسماء بالجهة الايطالية من جبال
الألب ان العرب كانوا فيها قديما

اسوار وطرق وكهوف

وغير ذلك

ان العرب كما هو معروف هم أهل اتقان لصنعة البناء ، ولا سيما بناء الأبراج ، وطالما
أثروا فى هذا الباب آثارا باهرة . فمن الغريب أن لا يكونوا تركوا عند معابر الألب
شيئا من العاقل والحصون . ولكن من المحتمل أن يكونوا أقاموا بالأبراج التى كانت
قبل مجيئهم قائمة عند مضائق الجبال باقية من القرنين الثامن والتاسع ، فلم تكن بهم
حاجة الى بناء حصون جديدة . وعلى كل حال ينبغى أن تكون الحوادث التى جاءت
بعد خروجهم من البلاد قد أنست الاهالى ذكراهم بالمره
وأما فى سويسرة فليس الأمر كذلك ، ولا سيما فى مقاطعة لوزان ، فانك تجد
« برج العرب La tour Des Sarrazins فوق «شيزاس» عند «فيفاى»^(٣) »

(١) وفى الأصل Pizzo del moro

(٢) وفى الأصل الألمانى Anzathale ومعناه «وادى انزه» ويجوز ان تكون «وادى عنزة»

(٣) Vevey وهى بلدة من انزه بلاد سويسرة على شاطئ بحيرة ليان بين لوزان

ودهليز العرب وغار الغرب بقرب « لوسنس » Lucens
وفي « فيفلسبورغ » Viflisburg يوجد حائط يقال له حائط العرب (١) جاء
ذكره في تاريخ سويسرة لمول Muller في الجزء الاول صفحة ٢٥١
وان كثيراً من الاسماء المضافة الى « ساراين » المراد بهم العرب توجد في مدينة
« بازل (٢) » ونواحيها حسبما ذكر الأب « سيراسة » Serasset في تاريخه
« المباحث التاريخية والأثرية والجغرافية عن ابرشية بازل » في الجزء الثاني صفحة
١٤٩ فهو يقول :

« ويؤكدون أن هذه المصائب الفتاكة ، بعد أن أحرقت دير سان موريس
تقدمت نحو بحيرة جنيف وزحفت الى « الجورا » Jura ولم يقل لنا التاريخ شيئاً
عن توغل العرب في بلاد « روراسيا » Rauracie ولكن ان كانت الكتب قد
سكنت فقد قامت الأخبار المنعنة المتواترة مقامها . وان كثيراً من أماكن بلادنا
بإضافتها الى أسماء عربية ، تشعر بوقوع هذه الغارة المخيفة . فعلى نصف مرحلة من
« دفلية » Develier على الجبل ، والى الشمال الغربي منه ، يوجد على مقربة من الطريق
السلطاني الروماني فسحة صغيرة بين صخرتين ، يقال لها غار « الساراين » وأهالي
هذه النواحي يروون بالتواتر ، نقلاً عن آبائهم ، أن هذا المحل كان قد احتله
« الساراين » أي العرب ، وانهم كانوا يذهبون ويوردون جملهم عند « السورن »
Sorane بقرب « كورتيتيل » Courtetelle فهذا هو الاسم الذي يطلقه الأهالي على
ذلك الطريق الروماني . وعلى أحد صخور الغار محفور عدد ٢٣ بالأرقام العربية . ولما
كان لا يعرف من نقش هذا الرقم في الصخر ، وكان قديماً جداً ، فيترجح أنه قد نقشه
العرب عند ما كان لهم محرس في ذلك المحل

(١) في الأصل Sarazins

(٢) مدينة بازل Basel والافرنسيس يقولون « بال » وهي من أشهر مدن سويسرة
واقعة على حدود ألمانيا . وفي هذه المدينة أسرة يقال لها الى اليوم أسرة « ساراين » ومنهم اناس
في جنيف ومن هؤلاء الكولونل ساراين الذي هو من أمراء الجيش السويسري

وبقرب من « روسميزون » Rossemaison بمحذاء جبل « شايوت » Cheibut
توجد آثار طريق يقال له طريق السارازين (١)

(١) ذكر كيلر في الحاشية قلا عن « ادوارد كليرك » مؤرخ بلاد « فرانش كوتته » من
فرنسة في الجزء الأول الصفحة الثالثة من كتابه ان الأسماء العربية في « فرانش كوتته » كثيرة جدا
قال فمئنا خمسة كهوف منسوبة الى السارازين وجسران منسوبان الى السارازين ، وثلاثة قصور
وطريقان وقناة ومطحنة وواد صغير وجندلان من كبار الجنادل ومسلفة حديد ، وكلها منسوبة
الى السارازين أى العرب . ويوجد أيضا حائط يقال له حائط السارازين ومحل يقال له مخيم السارازين
وقرية يقال لها « ساراز » والجملة ٢٠ اسما

وكثرة هذه الأسماء المنسوبة الى العرب مهودة في بلاد « بريس » Bresse ومقاطعة ليون ،
فن مدينة ليون الى آخر حدودنا الجنوبية تجرد مداود ومسالف منسوبة اليهم ، وتجرد اماكن مثل
ساحل السارازين ومثل سارازينه وغيرها انتهى كلام كليرك
أما بلاد فرانش كوتته فهي من مقاطعات فرنسة ، وكانت داخلة فيها بلاد « جورا » من سويسرة

المسكوكات

من قديم الزمان يوجد في سويسرة مسكوكات عربية من الفضة ، غير قليلة ، تستجلب النظر . ولقد تمكن العلماء باللغة العربية من اثبات مكان ضربها وزمانه ، ولكن لم يكن عليهم من السهل الجواب على كيفية وجود هذه المسكوكات تحت الأرض نظير ما وجد من المسكوكات الباقية من الدور الرومانى . فقبل ان ندخل في بحث تاريخ هذه المسكوكات يجب أن نذكر الأماكن التي عثر عليها فيها وكيفية العثور عليها

فأول تنقيب جرى بشكل علمى وأدى الى نتيجة كان سنة ١٨٣٠ وذلك أنه وجد على مائة خطوة من قرية «شتيكبون» Steckbon على الطريق العام ثلاثون قطعة من الفضة ، لم يعرف احد في البداية ماهى . وقد اشترى اكثرها الماجور « شينغ » Schiegg وبمضها دخل في حيازة البرنس لويس نابوليون^(١) ثم اهداه البرنس بواسطة الاستاذ « اوكن » Oken الى مجموعة الماديات في زوريخ . وبعد هذا اهدى الاستاذ « كيرن » Kern والاب « ران » Rahn من شتيكبورن جملة من هذه القطع الى المجموعة المذكورة . وقد كان أول من شرح تاريخ هذه القطع ، من علماء المسكوكات ، الاستاذ « فراين » Fraehn من أعضاء اكادمية برتسبورغ ، فقال : ان هذه الدراهم هى من ضرب عمال الخلفاء على افريقية في الربع الأخير من القرن الثامن . وكانوا يطلقون لفظة افريقية على البلاد التي تتركب اليوم من تونس وطرابلس . فاقدم هذه الدراهم مضروبة سنة ١٦٩ للهجرة وأحدثها سنة ١٨٢ أى أقدمها في زمن الخليفة الهادى وأحدثها في زمن هرون الرشيد الشهير . وكلها مضروبة

(١) اخو بوناپارت وهو الذى صار ملكا على هولاندة

في القيروان عاصمة افريقية في زمان الأمراء عمال الخلفاء نصر (١) وهرثمة (٢)
(ابن أعين) ويزيد (٣). وان قطعة واحدة هي مضروبة في زمان ادريس مؤسس
الدولة الادريسية (٤)

وهذه المسكوكات مغطاة بالكتابة ، كاسم الامير ، ومكان الضرب وتاريخه ،
وبعض آيات من القرآن

وأكثر الكتابة هي بالخط الكوفي الذي يختلف عن الخط العربي الحاضر
وأما كيفية دخول هذه المسكوكات الاسلامية إلى سويسرة فيظن الأستاذ فرين
أنه كان عن طريق فرنسة ، لأنها وجدت مع هذه الدراهم مسكوكات مضروبة باسم
كارلوس الأصلع ملك فرنسة (٨٤٣ - ٨٧٧) وان النورمانديين قد أتوا بها إلى فرنسة
في أثناء غارتهم عليها . وكان النورمانديون أتوا بها من شمالي افريقية ، في أثناء
غاراتهم على سواحل تلك البلاد . ولقد ظن ذلك بناء على أنه وجد من هذه المسكوكات

(١) نصر بن حبيب ولاء افريقية هرون الرشيد وكان في الأصل على شرطة يزيد بن حاتم في
افريقية ومصر كانت ولاية نصر في العصر الأخير من رمضان سنة ١٧٤ لحسنت سيرته وعدل في
احكامه

(٢) هرثمة بن اعين ولاء الرشيد افريقية سنة ١٧٩ في ربيع الآخر ، فسكن الناس ، وهزم
الثوار وبني سور طرابلس والقصر الكبير المعروف بالمنستير . قال الرقيق . لما رأى هرثمة بن
اعين مارأى من الخلاف في افريقية وسوء طاعة أهلها طلب الاستغفاء فكتب اليه هرون بالقدوم
عليه فرجع الى المشرق

(٣) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان يكنى أبا خالد ولاء أبو جعفر المنصور افريقية سنة
١٥٥ وكان من عظماء الرجال وفيه قال الشاعر

حلفت يمينا غير ذى مثنوية يعين امرئ آلى وليس بأثم

لشنان ماين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

واستمرت ولايته ١٥ سنة و ٣ أشهر بحسب رواية ابن عذاري

(٤) دخول ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم الى المغرب كان
سنة ١٧٥ وكان معاصروه من الامراء هشام بن عبد الرحمن الداخل في الاندلس ويزيد بن حاتم
في افريقية

في الروسية مما كان قد جاء به النورمنديون أيضاً . إلا أنه بعد أن تحقق كون العرب أقاموا زمناً طويلاً في نفس سويسرة لا يبقى محل لنسبة جلب المسكوكات الى النورماندين

وقد وجدت دفينة أخرى من المسكوكات العربية في « مودون » لكنهم لم يمرضوها على علماء المسكوكات إلا منذ سنة . ولقد اعنى بهذه المسألة المسيو « سوره » Soret من جنيف ومن أعضاء الأكاديمية الذين لهم مباحث جليلة عن مسكوكات سويسرة

فأحدي هذه القطع مضروبة في افريقية أيام العباسيين سنة ١٧٠ هجرية (٧٨٦ - ٧٨٧ للمسيح) والثانية عليها اسم اسماعيل بن أحمد في أيام الخليفة المعتضد ، ومكان ضربها الشاش ، وزمان ضربها سنة ٢٨٣ للهجرة (٨٩٦) والثالثة مضروبة في بغداد سنة ٣٦١ (٩٧٤)

وقد ترجم الأستاذ « سوره » كتابات الدراهم ، فأحدها مكتوب عليه من إحدى الجهتين لا اله الا الله وحده لا شريك له : عضد الدولة أبو علي بويه . وعلى الدائر باسم الله ضرب هذا الدرهم في مدينة السلام سنة أربع وستين وثلاثمائة . ومن الجهة الأخرى لله المجد . محمد رسول الله . الطائع لله . الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع

ورأى المسيو « سوره » يوافق رأى الأستاذ « فرين » بشأن المسكوكات العربية التي وجدت في شتكلورن ، وهو أنها دخلت سويسرة بواسطة النورماندين . أما التي وجدت في مودون فانه يراها دخلت بواسطة العرب الذين أقاموا بسويسرة . ومن جملة الاقتراضات أن تكون هذه المسكوكات قد وصلت إلى سويسرة بطريقة سلمية ، أي كثمان بضائع ، أو أن تكون وصلت الى أيدي السويسريين في أيام الحرب الصليبية من جملة ما غنمه الافرنج من المسلمين . ولا نميل الى قبول هذين الاقتراضين كما نميل الى رأى « سوره » من كون دفينة مودون هي مما تركه العرب الذين شنوا الغارة على سويسرة

الملابس العربية

ان في خزانة كنيسة « كور » من بقايا القرون الوسطى أشياء نفيسة الى الغاية ، يندر وجود مثلها في البداعة ، فمنها حلة من الحرير يلبسها القسيس في القديس ، تختلف عن بقية الملابس الكنسية وهي مطرزة بآيات قرآنية مكتوبة بالاحرف العربية . ولانعلم شيئاً عن كيفية حيازة الكنيسة لهذه الحلل ، ولكن يترجح انها كانت في أيام وجود العرب في سويسرة . وكان رينو يقول ان في كنائس فرنسة كثيراً من الحلل الدمقسية والآنية الثمينة والأقداح البلورية التي جاءت في زمان وجود العرب بفرنسة ، فلا يبعد أن يكون مافي كنيسة كور من هذه الملابس الكهنوتية قد جاء في زمان وجودهم بسويسرة

واننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا في أيام ازدهار الخلافة في اسبانية ، أعلى كعباً في الصناعات والعلوم من الأوربيين ، وأن الثياب التي كانوا ينسجونها للزينة كانت من أفخر ما يوجد . ولقد اتفقت الكلمة على كون الصنائع العربية اليدوية ، من الحللي والآنية الفضية والأسلحة ، هي من الأشياء التي يتنافس الناس بها . إلا أننا نقول ان الشيء الذي فاق العرب به الجميع هو صنعة النسيج التي كان أكثر ازدهارها في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر . وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة وملوكها ، فانهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية . وأنخر ما كانت تشتمل عليه هداياهم هو الثياب المطرزة المنسوجة بأنواع التصاوير المزركشة بالذهب والفضة مما كانت تخرجه معامل المسلمين . وكان من اصطلاح العرب في النساجة أن يجعلوا خطوطاً عرض الواحد منها سبعة سنتيمترات ، وينسجوا عليها حروف الكتابة التي يريدونها من جهة ، والتصاوير من جهة أخرى . ولم تكن هذه الكتابات وهذه التصاوير من صنع الايدي ، بل كانت من عمل المعامل والانوال . وكانت مادة النسيج من الخبز وخيوط الفضة مصنوعة بالطريق ، وكانت تدور بحيطان الفضة بنود

من الحرير الأصفر، بحيث لا تزال الفضة تلمع في أثناء النسيج، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائي تلك الفضة ذهباً.

وقد ذكر ابن خلدون الكاتب العربي المشهور أن أمراء العرب وملوكها كانت تخضع على من تريد تشريفه أو تكريمه خلعاً من هذا النوع، وكان العمل الذي يخرج هذه المنسوجات يسمى بالطراز. وقد نقل المستشرق الشهير «دسامي» عبارة ابن خلدون في المجلد الثاني صفحة ٧٨٢ من كتابه «المنتخبات العربية» Chrestomatie Arabe كما أنه في صفحة ٣٠٥ من هذا الكتاب ذكر ما يأتي:

«اننا نعرف منسوجات كثيرة من صنع العرب، هي من النوع الذي يسميه ابن خلدون بالطراز. وأول ما أذكره الطيلسان الذي كان يرتديه قياصرة المانيا عند تنويجهم، فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابة عربية منسوجة من خيطان الذهب، كان قد ترجمها وشرحها الرحوم السيو «تيخسن» Tychsen وظهر أن هذا الطيلسان صنع في بلرم^(١) سنة ٥٢٨ للهجرة (١١٣٣ للمسيح) ولا شك في أن ذلك كان في زمن رجار^(٢) لأنه لا يوجد في تلك الكتابة شيء يتعلق بالديانة الإسلامية» ثم ذكر دسامي أسماء كتب ألمانية تتكلم عن هذا الطيلسان. ثم قال:

«وأذكر قطعة ثانية من هذا النوع من الحرير والذهب محفوظة في ذخائر كنيسة نوتردام في باريز. وهي من أنفس النسيج وعليها ألقاب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١ (١٠٢٠) ثم أذكر قطعة ثالثة من هذا النوع وجدت في

(١) Palerme عاصمة جزيرة صقلية

(٢) Roger والمراد به رجار الثاني فان الكونت رجار الأول النورماندي جاء الى ايطاليا سنة ١٠٥٢ وبعد أن فتح قالايرة غزا صقلية ولم يزل يجاهد العرب الى أن استصق هذه الجزيرة سنة ١٠٩٠ بعد حروب بينه وبين العرب استمرت ٢٨ سنة وكان العرب قد ملكوا صقلية مدة ٢٠٠ سنة ثم مات رجار سنة ١١٠١ وخلفه ابنه رجار الثاني فتوج ملكاً في بلرم سنة ١١٣٠ باسم ملك الصقليتين لانه كان فتح قالايرة و نابولي وغيرها وكان ملكاً عظيماً ومات سنة ١١٥٤

أحد قبور دير « سان جرمان دي پراي » St - Germain - Des - Près وفيها كئلتان عربيتان مكررتان كثيراً . وقد ذكر هذه التحف المسيو « فيلمين » Villemin في كتابه عن الآثار المجهولة الى الآن والتي تنبئ معرفتها خدمة لتاريخ الصناعة . وتكلم أيضاً عن هذه القطعة المسيو « دمارست » Demarest في رسالة مطبوعة سنة ١٨٠٦ ومما يلحق بهذا الباب ما وجد في قبر الامبراطور فريدريك الثاني (١) المتوفى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ فقد عثروا على قميص على أكمامه كتابة عربية . وذكر ذلك في كتاب ايطاليانى مطبوع سنة ١٨١٤ في نابولي يتضمن كلاماً على قبور بلرم . ولقد نشر المسيو « دمور » Demurr في أحد تأليفه صورة سجادة ، عليها كتابة عربية ، منسوجة بمصر في زمان المستعلى بالله أى بين سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٠١ وهى محفوظة في خزانة الفاتيكان في رومة « انتهى كلام دساسى .

(١) امبراطور المانيا الشهير، حفيد الامبراطور فريدريك بربروس الذى اغتسل في نهر طرسوس، ومات وهو ذاهب لمحاربة المسلمين في الصليبية الثالثة . وكان الامبراطور فريدريك الثانى امبراطوراً على المانيا وملكاً على صقلية . وكانت ولادته سنة ١١٩٤ ومات أبوه هنرى السادس ، وهو ابن ثلاث سنوات ، فكفله البابا اينوشنسيوس الثالث الى أن بلغ رشده ولكن البابا غريغوريوس التاسع كان عدوا له لانه كان يرى فيه عدوا للبابوية ولاستقلال الأمة الايطالية . وكان يتقل على الطليان أن يكون فريدريك امبراطوراً على المانيا وملكاً على الصقليتين في وقت واحد ، فلأجل أن يستجلب اليه ميل النصرانية قام بالحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ واسترجع من المسلمين القدس صلحاً ، ورجع الى ايطالية ، وهزم « جان بريان » الذى كان شن الغارة على نابولي . ثم عاد الى المانيا بعد غيبة ١٥ سنة لقتال ابنه هنرى الذى كان قد خرج عن طاعته . ثم تألب عليه امراء ايطالية فزحف اليهم وهزمهم فأعلن البابا غريغوريوس حرمه ، ثم جدد البابا اينوشنسيوس الرابع هذا الحرم ، وأعلن اسقاطه من جميع ممالكه ، وذلك سنة ١٢٤٥ فثار به الناس من كل ناحية ، وطمع غيليوم ملك هولاندة وغيره في تاج امبراطورية المانيا ، وقائله الطليان من الجهة الاخرى وهزموه ، وانتقم عليه الامر واشتد به الغم ، الى أن مات في « فلورنتينو » سنة ١٢٥٠ وكان أرقى ملوك عصره ، متكلماً بالالمانية والايطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وله مؤلف في العربية باحث في عدة من المسائل الفلسفية . وله رسائل باللاتينى وقصائد بالايطاليانى وكانت له علاقات كثيرة مع المسلمين : وكان عنده جيش منهم كثير العدد

وعاد كيلر الى ذكر القطعة التي وجدت في دير « كور » بسويسرة ، فقال : ان
عليها كتابة بالمرية « أطل الله لنا أهله » وقال : ان الأستاذ « هيتزنج » قد ترجمها
واذا بالترجمة هي دعاء للمدعو له باطالة حياة رجال ثقتهم وقومه . وهو تفسير غريب .
والمرجح أن هذا الأستاذ تصحفت عليه كلمة « أجله » فقرأها « أهله » لا سيما أن
الكتابة هي بالأحرف الكوفية . ولا بد أن تكون العبارة « أطل الله أجله »
لأن « أطل الله أهله » ليس لها معنى . انتهى كلام كار بيمض اختصار

الخاتمة

الفصل على آثار العرب في وادي فاله من سويسرة

قد تقدم في هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها والتي يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادي واستولوا على معبر سان برنار الكبير ، وتغلغلوا في عدة من شعاب الوادي ، وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهالي ومن جملتها احراقهم دير القديس موريس . ومنذ جئنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا في أثناء الحديث مع علماء البلاد ، ولا سيما الذين يعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد في ذلك الوادي قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالي ، وانهم يعرفون من سحناتهم أنهم عرب . فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل ما تعلق بموضوع اقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية ، رأينا حريا بنا ، زيادة في التثبت ونصحاً بالبحث ، أن توجه بنفسنا الى هاتيك القرى التي يقال ان أهلها من أصل عربي ، وننقب ما استطعنا عن هذه المسألة بمشاهدة أهل الديار ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار . وكان طيبينا في لوزان الدكتور جاك رو^(١) قد أشار علينا بزيارة دير سان موريس الذي فيه خزانة كتب قيمة ومخطوطات متناهية في المتق ، وكتب كتاب توصية لرئيس الدير حتى يضع بين أيدينا من الكتب والمخطوطات ما يوافق موضوعنا ، كما أن صديقنا المحامي الدكتور فريدريش من جنيف ، وهو من المتخصصين في العلوم التاريخية والأثرية ، قد ذكر أنه من جملة تلك القرى قرية اسمها ايزيرابل Iserables وقرية أخرى اسمها فريتوريس Freytorreus وقال : ان القرية الأولى في مكان حصين ، محاط بالأوعار ، مما يستدل منه على أن العرب لجأوا الى ذلك المكان واعتصموا به .

(١) Dr Jacques Roux طبيب وجراح شهير بلوزان

ففي ٢٩ يونيو من هذه السنة قصدت الى سان موريس وهي تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية ساعتين وربع ساعة ، وذهبت الى الدير الذي تنتسب اليه القصة، وهو دير عريق في القدم بناه سيجموند أمير بورغونية في سنة ٥١٥ للمسيح ، ولا يزال معموراً من ذلك الوقت . فعند ما دخلت الى الدير ناولتهم الكتاب الذي معي من صديقهم الدكتور جاك رو ، فاستدعوا الى الراهب التولى حفظ المكتبة واسمه طونولى Tonoli فجاء وجلس الى ، وتجاوزنا أطراف البحث الذي جئت الى هناك من أجله ، فقال لي انه لا يمهّد في خزانة كتب الدير مخطوطات فيها شيء يتعلق بفارة العرب على وادي فاله ، وانه يمكن الاطلاع على هذه المسألة في الكتاب الذي يقال له Monumanta Germanica Historica أى مجموع التاريخ الجرمانى . ثم قال لي : الا أنه من المتواتر عند الجميع أن العرب مروا من هنا وأحرقوا هذا الدير . ثم أشار على بالذهاب الى بلدة مارتيني Martigni وهي على الخط الحديدى تبعد نحواً من نصف ساعة عن سان موريس الى الجنوب ، وتقع بعد سان موريس بثلاث محاط ، وأن هناك رجلاً محامياً يقال له كوكو Coquoz يقدر أن يدلني على القرى التي يقال ان من أهلها من هو منحدر من دم عربى ، ويقفني على معلومات قد يهمنى الاطلاع عليها . وكذلك في مدينة سيون Sion قاعدة مقاطعة فاله رجل يقال له الأب ليومار ، متخصص في الأمور التاريخية ، وله كتاب عن تاريخ مقاطعة فاله ، فهو أيضاً من الأشخاص الذين قد أجد ضالتي عندهم .

وعلى هذا فقد ذهبت الى مارتيني وبحثت عن السيوكوكو ، وحدثته بالقصود من زيارتي له ، فدلني على رجل يقال له فيليب فارقه Farquet يقيم بدائرة تخص دير سان برنار ، وهو معدود من العلماء ، فذهبت واجتمعت بهذا الرجل ، فقال لي انه لا يعلم شيئاً من جهة تاريخ العرب في وادي فاله غير ما هو شائع على ألسن الجميع ، ولكنه أشار الى ساحة وراء كنيسة مارتيني وقال لي ونحن ننظر من النافذة : ان هذه الساحة التي أماننا يقال لها ساحة السرازين Place des Sarrazins ومن هنا يعلم أن العرب سكنوا في مدينة مارتيني هذه ، وهو أمر معقول جداً ، لأنه قد ثبت

في التاريخ كونهم استولوا على معبر سان برنار المشهور . ومن المعلوم أن مارتيني هي البلدة التي يصعد منها الناس الى جبل سان برنار الذي فيه الدير القديم ، وكل يوم تسير السيارات بالسافرين بين سان برنار ومارتيني .

وكنت علمت من هؤلاء الأشخاص الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع أن قرية ايزرابل هي التي يرجح أن فيها من بقايا العرب ، وأنه يوجد أيضاً قرية أخرى تابعة لمدينة سيون يقال لها ايفولين Evolene هي من هذا القبيل . فسرت بالقطار الى سيون ، واجتمعت بالقسيس الذي يقال له ماير وهو قيم خزانة الكتب التي في مدرسة سيون ، فلم أجد هذا الرجل معتقداً بصحة هذه الروايات . وهو يظن أن العرب مروا ببلاد فاله غزاة ، عابري سبيل ، وما عدوا أن أحرقوا دير سان موريس ولا أعلم هل هو معتقد ذلك فعلاً ، أم يحاول انكار وجود آثار للعرب في تلك الديار فقد وجدته من القسيسين المتعصبين في الكتلكة الى الغاية ولم أجد في كلامه ما ينقض شيئاً من الروايات التي أطبق عليها المؤرخون من كون العرب أوطنوا وادى فاله وأقاموا بها حقبة وبقيت لهم فيها أعقاب . وهو نفسه أشار على بمراجعة كتاب بالألماني لمؤلف يقال له فيشر Fischer لكنه يقول انه غير واثق برواياته .

فتركت القسيس وركبت سيارة وسرت الى قرية ايفولان ، والمسافة من سيون اليها نحو من ٢٥ كيلو متراً ، وهي في الجبال ليس وراءها عمران ، ومنها الى حدود ايطالية بضع ساعات لا غير . فلما وصلت الى القرية وجدتها قرية صغيرة ليس فيها أكثر من مئة بيت ، أهلها فلاحون ، يمش أكثرهم من الحرث ومن قطع الأخشاب ، لكثرة الحراج التي حولهم . فسألت عن شيخ القرية أو عمدتها ، كما يقال في مصر ، فدلوني على بيت حقير ، دخلت اليه فوجدت الرجل ، وحادثته في الموضوع فقال لي انه يسمع بهذه الروايات كسائر الناس ، وانه ليس عندهم وثائق خطية على شيء من هذا . ثم أشار على بمقابلة القسيس مرشد أهل القرية فسألت عن القسيس فلم أجده . ثم ملت الى فندق صغير في تلك القرية ، يقصد اليه السياح الذين يحبون العزلة في الجبال ، فوجدت صاحب الفندق رجلاً على أنارة من علم ،

وهو من أهل سيون ، فقال لي : ان الجميع يسمعون أن أهالي هذه القرية أو بعضهم على الأقل هم من أصل عربي ، وانه في الوادي الآخر الذي وراء وادي ايفولن والذي يقال له انيفيه Anniviers قرى يقال أيضاً ان فيها من بقايا العرب الذين أغاروا على وادي فاليه . وسألت هذا الرجل هل يعلم في ايفولين عائلة تعلم نفسها منحدرة من أصل عربي ، فأجابني : أما هكذا فلا أعلم وغاية ما هناك أنهم يقولون بوجود الدم العربي في هذه القرية ، وأن في سحنة بمض أهلها ما يدل على كونهم ليسوا من أصل سويسري .

ففادرت قرية ايفولين ، ورجعت الى سيون ، ومنها ركبت القطار وجئت الى محطة ريد Rid التي منها يمكن الذهاب الى قرية ايزارابل ، فنزلت في ريد ، وسألت : هل يوجد طريق معبد الى ايزارابل ؟ فقالوا : لا ، ولا سبيل الى الذهاب الا على ظهر دابة أو سيراً على الأقدام . ولما كان وجود مطية يأخذ وقتاً ، وكان من عادي بحسب اشارة الطبيب أن أمشي كل يوم لا أقل من ساعتين ، لأجل الرياضة الجسدية ، اخترت أن أذهب الى ايزارابل ماشياً . ولكنها كانت مرحلة شاقة لأن الطريق الى ايزارابل انما هو تصعيد مستمر في عقبة كژود ، يأخذ اجتيازها ساعتين ونصف ساعة فيصل الانسان الى تلك القرية التي يجدها في أوعر محل من ذلك الجبل ، لولا ذلك الطريق الذي ينفذ اليها لا يكاد الماعز يجد اليها متسلقا ولا متعلقاً . ولا شك أن العرب ان كانت بقيت منهم بقايا ولاذت بالجبال ، طالبة النجاة من أيدي أهل البلاد ، لم يكونوا ليجدوا للامتناع خيراً من ذلك المحل . والقرية في سفح جبل قائم ، تشرف على واد عميق الغور ، والغابات تحف بها . فلما وصلت اليها سألت عن شيخها ، ويقال له كازيمير تافر Tavre فسألته عما يعلم من قضية انتساب هذه القرية الى العرب فقال لي : ان العرب كانوا شنوا الفارة على وادي فاليه ، وأحرقوا دير سان موريس ، وانتشروا في هذه الأرض ثم انقرضوا كما جاء في التواريخ ، وان كانت لهم أعقاب في هذه البلاد فليس ذلك خاصاً بقرية ايزارابل ، فربما كانت بقايا العرب في عدة قرى .

فسألته هل يعلم عائلات تعلم نفسها من أصل عربي ، فقال لي لا ، فسألته : هل يوجد عندهم أوراق عتيقة تدل على صحة تلك الروايات ؟ فأجابني ان عندهم في خزانة البلدية أوراقا مكتوبة باللاتينية ترجع الى سنة ١٢٠٠ مسيحية فما بعدها ، وان هذه الأوراق كلها صكوك بيع وشراء يراجمونها عند وقوع الخلاف على حدود الأراضي ، وليس فيها شيء عائد الى التاريخ . فتركته وجئت الى ساحة القرية ، فوجدت شبان القرية كلهم محتتمين في مقهى صغير يشربون فيه المرطبات ، فسألته عن سبب هذا الاجتماع فقيل لي : ان لشبان القرية جمية قد جعلت لنفسها علما خاصا ، وان ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالعلم . فكان لي اجتماعهم هذا فرصة لأجل التفرس في هياتهم وسحنهم فرأيت فيهم سحنا لا تفترق عن غيرها من خلقة أهل سويسرة ، ورأيت أشخاصا تغلب عليهم السمرة الشديدة ، ولا تشبه خلقة الآخرين . وأما من جهة لغتهم فانهم يتكلمون الافرنسية ولغة أخرى عامية مشتقة من اللاتينية ، وهذه اللهجة العامية غالبية على جميع قرى ذلك الوادى من أوله الى آخره . ولا يتكلم الأهالي فيما بينهم الا بها . وقد تختلف لهجة ناحية عن ناحية . ولم يتسع لي الوقت أن أبحث في عاميتهم هذه ، ولا سيما في لهجة أهالي ايزارابل وايفولين ، لأعلم هل هناك ألفاظ عربية أم لا فان بحثا كهذا ليأخذ وقتا طويلا لم أكن أمسكه . فتركت ايزارابل مكتفيا بما رأيته وسمعته ، وعلمت أن تاريخ العرب في ذلك الوادى لا يمكن أن يؤخذ الا من بطون الكتب ، وماعدا ذلك فهو روايات شائعة متواترة لاشك في أن لها أصلا ولكن هذا الأصل قد اختفى بمرور الأيام

ثم ان أحد أصحابي ممن يعنون بتاريخ سويسرة نبهني الى مطالعة القاموس التاريخي السويسري المسمى *Dictionnaire historique et biographique de la Suisse* اذ فيه تحت لفظة « سرازين » فصل يتعلق بمقام العرب في سويسرة وجبال الألب ، فذهبت الى خزانة كتب الجامعة في جنيف ، وطالمت الفصل المذكور ، وخلصت منه مايلي : في القرن التاسع للمسيح استغاث البابا بالسويسريين والفريزوزينين ، لوقاية

رومة من غارات العرب . وفي سنة ٨٨٨ جاء عرب من اسبانية واحتلوا فرسيناتوم .
(مقاطعة الفار في فرنسة) وأغاروا من هناك على الشمال والغرب . وسنة ٩٠٦ .
اجتازوا جبال الألب الغربية واكتسحوا دير نوفاليز بقرب سوز Suze وفي سنة
٩١٣ كانوا في آكي Acque في ييامونت . وفي سنة ٩٢١ وصلوا الى جبل سان برنار
الكبير ، حسبما روى فليودار دورتز Fléodard de Reims وهناك رموا بالحجارة
قافلة انكليزية كانت ذاهبة الى رومة . وفي سنة ٩٣٦ قطع العرب جبال الألب
الريتيية Alpes Rhétiennes واكتسحوا أسقفية كوار Coire فاضطر الملك أوتون
الأول أن يعوض أسقف كوار مما رزأه به العرب . ومن الوقائع التي لاشك فيها أن
العرب نزلوا من جبل سان برنار ، ونهبوا دير سان موريس في وادي فاليه ، وذلك
سنة ٩٤٠ كما روى ذلك أولريك مطران أوغسبورغ . ولا تمكن معرفة ما اذا كانت
ثمة علاقة بين حوادث سان برنار وحوادث كوار . وفي سنة ٩٤١ كان هوغ ملك
ايطالية في حرب الماركيز بيرانجه الايفرى Berenger D'ivree والملكة برته صاحبة
برغونية التي كانت تطلقها ، فاستمال هوغ العرب واستخدمهم وألقى اليهم
بجراحة معابر الألب . ففر بيرانجه من وجههم والتجأ الى الدوق هرمان الشوابي .
Hermann de Soiab وبلغ من قوة العرب أنهم جعلوا رسوماً على المارة الذين كانوا
يقطعون جبال الألب ، قاصدين رومة ، ويقال أنهم تقدموا من هناك حتى بلغوا
مقاطعة فو Void التي قاعدتها لوزان ومقاطعة جوره ، التابعة لنيو شاتال ، واستطالوا
على دير سان غال Saint Gall وكانت توجد كتابة في كنيسة القديس بطرس في
بورغ Bourg محفورة بين سنة ١٠١٩ و ١٠٣٨ يستدل منها على الغارات العربية
الى جهة الغرب .

وأما غاراتهم الى جهة الشمال الشرقي فالروايات عنها لم تحقق بصورة قطعية .
وكذلك لم يتحقق كونهم تديروا جبال الألب ، بصورة ثابتة ، وانما تحقق على
وجه ليس فيه مرآة أن الملك أوتون مر بكوار سنة ٩٥٢ ومعه زوجته « ادليدة »

فوجد الدير قد نهبه العرب فموض الدير مما فقده . وذلك سنة ٩٥٥ وأما في جنوبي الألب فقد طال مقام العرب ، ولكن لا نظن صحيحاً أنهم استعمروا وادي ساز Saas سنة ٩٤٠ الى سنة ٩٦٠ وكذلك ما يقال من احتلالهم بوترازينه Pontresina وأما ما يقال من كون بعض أسماء وادي ساز هي عربية مثل « على العين » Allalin والعين Ein والماجل Almagel ومشابل Mischabel وبالفرين Balfrin وموتومورو Monto Moro فلم يثبت كون هذه الألفاظ عربية . وفي ٢٣ يوليو سنة ٩٧٣ قبض العرب على الراهب ميول ورفاقه ، فثار الناس من أجل هذه الفعلة ، واجتمع غليوم كونت آرل ، وهاردين أمير تورينو وربالد كونت بروفانس ، وزحفوا الى العرب من كل جهة واستولوا على فركسينة وانقرض العرب من هناك

وهذا الفصل من قاموس سويسرة التاريخي عليه امضاء H. Dübi وهو مأخوذ من بضعة عشر تأليفاً بالانكليزية والافرنسية ، وأكثرها بالألمانية ، وفي رأس هذه التأليف كتاب كلر Keller الذي ترجمناه وأردفنا به كتاب رينو المستشرق الافرنسي بقى علينا أن نلاحظ على هذا الفصل ارتياب كاتبه في عروبة الألفاظ التي ذكرها فنحن نخالفه في هذا الرأي ، ونوافق على رأى كلر ، وهو أن هذه الألفاظ عربية لا ريب فيها وأنه يستحيل أن توجد ثلاثة ألفاظ كهذه مشابهة للألفاظ العربية تصادفاً . وذلك مثل « على العين » و « العين » و « الماجل » فان هذه كلمات عربية صريحة ، وشكل التلفظ بها بحسب رسم حروفها باللغة الافرنسية يدل على كونها عربية مغربية ، لأن اخواننا المغاربة والأندلسيين يميلون الى الكسر في تلفظ الحرف الأول من لفظ عين وما في ضربها من الألفاظ كزيت وجيش وزيد وغيرها ، بخلافنا نحن المشاركة فاننا نلفظ كل هذه الألفاظ بفتح أولها . وأما الماجل فقد تقدم أنه حوض الماء ، وأن هذه اللفظة كانت تستعمل في مكة لحياض الماء التي فيها . وأما مشابل فيجوز أن تكون من أصل عربي بمعنى مكان الأسود ، أو كما قيل من أن هناك جبلاً شبهوها بلبوة تجر أشبالها كما أنه يجوز أن يكون أصلها لفظة أوربية

تشابهت اتفاقاً مع اللفظة العربية . أما الألفاظ الثلاثة الأولى فلا يمكن أن يكون وجودها مجرد اتفاق ، لا سيما أنها أسماء لأنها كن فيها مياه . وأما بالفرين فقد تكون محرفة عن أصل عربي ويكون أصلها بالفرين تصغير فرن . ويجوز أن تكون لفظة افرنجية . وأما « موتومورو » فهو ظاهر ومعناه جبل المغاربة أو العرب . وبالاختصار فرأى كاتب هذا البحث من جهة هذه الألفاظ هو في غير محله .

فهذا ما اخترنا نقله وجمعه من أخبار غارات العرب على فرنسا وإطالية وسويسرة .
محصصاً مخصوصاً معمولاً فيه على أوثق المصادر والله تعالى من وراء العلم هو المبدىء
المعبد والأول والآخر .

فتح المسلمين مالطة

قد كان أصل المحور الذي دارت عليه مباحث هذا الكتاب هو غزوات العرب في شمالي جبال البيرانية من فرنسة وإيطالية وسويسرة . ولكن الحديث شجون والتاريخ انما هو حديث عن حوادث يثير بعضها بعضاً . ولما تجرد منها حادثة الا وهي متعلقة بسابقة لها ، ولذلك لم يمكن حصر الكتاب ضمن الحدود التي ذكرناها ، بل تمدى الى موضوع غزو العرب لجزائر البحر الرومي مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التي يقال لها كلابرة . وتناول البحث أيضاً جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريد . فأما جزر الباليار فهذه تابعة للأندلس قديماً وحديثاً . ولذلك أبقينا الكلام عليها الى الكتاب الذي ننوي وضعه على الأندلس ، وقد هيأنا كثيراً من مواد . وانما بقيت جزيرة في البحر المتوسط ، فاتنا ذكر فتح المسلمين لها ، مع كونها ذات ذكر شهير في التاريخ أكبر كثيراً من جرمها الجغرافي الا وهي جزيرة مالطة ، فأحببنا أن نذكر عنها خلاصة تاريخية في هذا الكتاب . فنقول :

يوجد أرخبيل يقال له الأرخبيل المالطي مؤلف من جزيرة مالطة وأخواتها غوزو Gozo وكومينو Comino وكومينوتو Cominotto ولففولا Filfola وصخور أخرى . تحاذيها ، جاء في الانسيكلويدية الاسلامية المحررة بالفرنسية أن هذه الجزر كانت في الأعصر القديمة مأهولة بطائفة من طوائف البحر المتوسط ، لها آثار تدل عليها ، محفوظة في مكان من مالطة يقال له « الحجر القائم » Hagiarkaim وأول ما عرف التاريخ عنها هو أن الفينيقيين استعمروها قبل القرن العاشر قبل المسيح ، واتخذوها قاعدة لسفنهم التجارية . قالت الانسيكلويدية : ولم يتحقق كون اسم مالطة مشتقاً من الفينيقية وانما تحقق كون جزيرة غوزو أو غولوز Gailos معنى اسمها « سفينة تجارية مستديرة الشكل » وقد استولى القرطاجنيون على مالطة في القرن السابع قبل

المسيح، وبقوا فيها أربعة أو خمسة قرون ، ثم استولى عليها الرومانيون سنة ٢١٨ قبل الميلاد وبقيت نحواً من عشرة قرون في أيدي الرومانيين واليونانيين . وفي القرن الأول للمسيح تنصر أهل مالطة عن يد القديس بولس . ولما سقطت السلطنة الرومانية الغربية استولى عليها البيزنطيون ، وكانت لهم مركزاً ضرورياً بعد استيلائهم على شمالي افريقية .

وقد استولى المسلمون على مالطة سنة ٢٥٦ للهجرة وفق ٨٦٩ و ٨٧٠ مسيحية . ولكن هذا الاستيلاء هو الاستيلاء الثابت ، لأن ابن الأثير يجربنا أنه في سنة ٢٢١ أرسل ابراهيم بن الأغلب أسطولا لغزو الجزائر ، والأرجح أن مراده بالجزائر هو الأرخيل الذي من جلته مالطة . وقد كانت غزوات المسلمين لمالطة وصقلية في القرن الثامن للمسيح ، وربما كانت مالطة دخلت في حوزة المسلمين قبل سنة ٨٠٠ وكان مقام المسلمين بمالطة أطول وأثبت من مقامهم بصقلية ، بدليل كون لغة مالطة عربية وقد اختلف العلماء في أصل اللهجة المالطية ، فزعم بعضهم أنها من أصل فينيقي . وذهب آخرون الى أنها لهجة عربية ، وهذا رأى الجمهور . فاللغة المالطية عربية تشابه في كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين ، وفي كثير منها العرب المغاربة وتكثر في لغة مالطة الامالة ، كما يكثر أيضاً قلب الألف ياء ، فيقولون « بينا » بدلا من أنا ، ويقبلون القاف همزة ، ويستعملون أحيانا نون الجمع التكلم قبل المفرد ، فيقولون مثلا : انا نقول له بدلا من نحن نقول له . وهذا على نسق أهل المغرب وتختلف اللهجات في نفس مالطة بين المدينة والقرى ، وبين مالطة وغوزو ، ولا توجد الخاء والغين في مدينة مالطة المسماة « فاليت » وإنما توجد في جزيرة غوزو . ولم يتم البحث حتى الآن عن اللهجات المالطية حتى يعرف ما هو راجع منها الى العربية الشرقية وما هو راجع الى العربية الغربية . وقد أثرت الثقافة اللاتينية الايطالية في اللغة المالطية ، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في لغة مالطة . ولم يكن للمالطيين حروف يكتبون بها الى أن قام في القرن الثامن عشر رجل يقال له « آجيوس سلدانيس » فاعتنى بالبحث عن لغة بلده . ومن ذلك الوقت أخذوا يكتبون لغتهم ، واستعملوا

الحروف العربية . ثم نهضت عصابة من المالطين اسمها « عقدة تالكنتية تالمطي » أى أى عصابة الكتاب المالطية ونشرت كتاباً فى نحو اللغة المالطية سمته « تعريف الكتبة المالطية » وذلك فى سنة ١٩٢٤ وجاء فى مقدمة هذا الكتاب ذكر أنواع الكتبة المالطية . ثم ان هذه العصابة نشرت مجلة اسمها المالمطي فى سنة ١٩٢٥ وكان غرضها الاصلى احياء اللغة المالطية العربية أو ما تعبر عنه بالمالمطي الصافى

ومنذ سنة ١٨٥٠ أخذت مسألة اللغة المالطية شكلاً سياسياً . وذلك لأن الانكليز أحبوا أن يميزوا اللغة المالطية العربية ، لعدم رغبتهم فى نشر اللغة الايطالية التى هى لغة الطبقة الثقفة ولغة رجال الكنيسة فى مالطة . ومن شاء الاطلاع على آداب اللهجة المالطية فليراجع كتب بونللى L , Bonelli وشتومة H. Stumme

وقد ترك المسلمون فى مالطة ، عدا أسماء البلاد واللغة العربية ، قطعاً من السكوكات وعدداً كبيراً من الآثار الكتابية لاسيا كتابات القبور . وأشهر هذه الكتابة المسماة « ميمونة » تاريخها يوافق سنة ١١٧٣ مسيحية . وقد نشرت منذ قرن تام ، وبمحت فيها المستشرقون مثل ايطالينسكى Italenski ولنسى Lance وآمارى Amari وغيرهم . وقد وجدوا كتابة أيضاً فى جزيرة غوزو ، وهى محفوظة فى متحف مالطة ثم انه وجدت كتابات نحو العشرين فى أثناء الحفريات التى وقعت بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٥ فى محل يقال له رباطو Rabato بقرب نوتابيل Notabile وهى محفوظة فى متحف مربع روماناً Romana على مقربة من مكان الحفريات

هذا وقد خرجت مالطة من أيدي السفين سنة ١٠٩٠ مسيحية ، فان النورمندين استردوها بعد استردادهم لصقلية . ولكن كان المسلمون مأذوناً لهم فى الاقامة بهذه الجزيرة الى سنة ١٢٤٩ ثم ان مالطة من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٧٩٨ صارت مركزاً لفرسان ماريوحنا أورشليم الذين طردم الترك من رودس سنة ١٥٢٣ فاتقلوا الى مالطة وأنشأوا أسطولا عظيماً ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين ، الترك أو الافريقيين ، وكان يؤتى بالوف من أسارى المسلمين الى مالطة . ولهذا قصد الأتراك

الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥ ولكنهم لم يتمكنوا منها. وحاولوا ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع . وفي المكتبة العمومية في مالطة وفي متحفها بعض كتابات عربية متعلقة بفن الملاحة . انتهى ما ذكرته الانسيكلوبيديا الاسلامية عن مالطة ، نقلناه باختصار

ولما كان العلامة الرحلة اللغوي المشهور احمد فارس الشدياق ، صاحب الجواب قد اقام بمالطة أربع عشرة سنة وكتب عليها كتاباً سماه « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » فقد أردنا أن نأخذ من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بفرضنا من جغرافية مالطة وتاريخها وذكر فتح المسلمين لها ، فنقول :

قال احمد فارس : ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة وأربع وأربعين دقيقة من الطول ، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض . أما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين أحقوه بأفريقية ، بالنظر الى السكان ، وبعضهم أحقوه بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم . فأما عرض مالطة فاثنا عشر ميلاً ، وطولها عشرون ، ودورتها ستون وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة « La Valette » فأما في العصر السالفة فكانت نوتابيلي ، ويقال لها الآن المدينة ، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها . وكانت الجزيرة منقسمة بها الى شطرين : أحدهما يمتد جهة الشرق ، والآخر جهة الغرب . والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الافرنج وسماها باسمه ، وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس . قلت : زعم بعض المالطين أن أصل هذه الكلمة « شبر الرأس » وبعضهم أنها « جبل راس » وعندى أنها شعب الراس . قال في الصحاح : شعب الراس شأنه الذي يضم قبائله اه . وهو كناية عن أصل الشيء ومجتمعه . كما أن قبائل الراس مرجعها الى الشعب ، ويحتمل أنها سميت بشيب الراس لأن أهل مالطة كانوا يناصبون المسلمين الحرب وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس اه

قلت : تأييداً لما استشهد به احمد فارس أقول : جاء في لسان العرب « والشعب

شعب الراس وهو شأنه الذي يضم قبائله . وفي الرأس أربع قبائل ، وأنشد .

فان اودى معاوية بن صخر فبشر شعب رأسك بانصداع اه

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الفرنساوى بوليه أن قاعدة مالطة سميت باسم الأمير لاقاليت رئيس طريقة الفرسان ، ولد في سنة ١٤٩٤ ومات سنة ١٥٦٨ وكان شهيراً بالبأس . وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج « سانت المو » ثم قوى عليهم وأخرجهم منها اه . قلت : ان هذه الرواية تخالف ماجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية من كون مالطة خرجت من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ اذ ينبغى من هذه الرواية أنه كان فيها مسلمون في أواسط القرن السادس عشر للمسيح ، وانه كانت في أيديهم حصون وأبراج ، ولولا ذلك ما قيل ان الأمير لاقاليت أخرجهم منها

وأما اسم مالطة فجاء في كتاب احمد فارس أن اليونانيين سموها مليته ، واشتهر ذلك سنة ٨٢٨ قبل الميلاد . ومعنى ميلته أو ميليسه في لغة اليونان النحل فحرف المسلمون ذلك وقالوا مالطة . قال : وزعم قوم أنها سميت باسم ميليته ابنة دوريس ، وهو مشتق من ميليت في السريانية ، وهو اسم إله . ولا يبعد أن يكون ذلك في اللغة الفينيقية أيضاً . قال : وعمن ذكر مالطة من الشعراء الأقدمين اوميروس واوفيدوس ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التي يقال لها « الفيا كونس » هم أول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوى قوة وبأس . ثم خلفهم الفينيقيون ، وهم من جهات صور وصيدا ، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد ، فلبثوا فيها نحو أربعمائة وخمسين سنة ، حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سلموها للقرطاجيين ، وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، ثم جاء من بعدهم الرومانيون سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور . وأعظم ما حدث في أيامهم قدوم ماربولس ، وانكسار السفينة به وعين كان معه ، وذلك سنة ٥٨ للميلاد ، في موضع يقال له الآن خليج ماربولس . ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة . ثم بعد الرومانيين استولت قبيلة « الفندلس » ثم « القوث » ثم « البليساريون » وألحقوها

بِحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فأخذوه في هضم الرعية ، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين اه . ملخصاً

قلت : يريد بالقوث أمة القوط الذين كانوا غلبوا على اسبانية ، وبالفاندالس الأمة التي كانت أيضاً غلبت على اسبانية وافريقية . وأما البليسايريون فهم قوم بليساير Belisaire وكان من قواد الامبراطور يوستينيانوس صاحب بيزنطية ، ولد سنة ٤٩٠ وفي سنة ٥٣٣ غزا الفندلس في افريقية ، واستولى على قرطاجنة . ثم غزا أيضاً القوط عند ما كانوا في ايطالية واستولى على صقلية وناپولى ورومة . ولعله في هذه الغزاة استولى على مالطة . ثم قال أحمد فارس :

ذكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فتحت في أيام أبي الفرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأعاب ، توفي سنة احدى وستين ومائتين ، وإنما لقب بالفرائق لأنه كان مشغولاً بالصيد . روى انه بنى قصرأ في السهلين ، لصيد الفرائق أنفق فيه ثلاثين ألف دينار ، فكنى بهذه الكنية . فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف (أى المؤلف الذى نقل عنه أحمد فارس) : وسلموا الجزيرة للمسلمين . اه . يريد أحمد فارس أن يقول ان المسلمين أخذوها فتحا

ثم نقل صاحب « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » عن ذلك المؤلف بقية حوادث مالطة ، فقال : ثم قام الأمير زوجر النورماندى بعدها بمائتي سنة ، واسترد الجزيرة وألقها بصقلية ، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة . ولما تزوج القيصر هنرى السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطة في حكمه وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة . وفي أثناء ذلك ولى اخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معاً ، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراغونى ، ثم آل أمرها الى الملك كرلوس ملك صقاية فولى عليها الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الأهلين واتفاق دول أوروبا . ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للاهلين في التصرف بحقوقهم ، الا أن الفرنسيين لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة ،

وانتهكوا حرمة الكنائس ، فتحزب عليهم المالطيون تحزباً لم يخل من سفك دم كثير منهم وتلف أموالهم، الى أن أتت الانكليز فسلموها لهم ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠ قلت (أى قال أحمد فارس) : لما دخلها نابليون وجد فيها ألفاومائتى مدفع ومائتى ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم . وذلك سنة ١٧٩٨ .

ثم رجع الشدياق الى النقل عن المؤلف الذى نقل عنه فقال : ان أخذ المسلمين للالطة كان من باب المصادقة أولى منه من الغالبة ، وعاملوا الأهلين أولاً بالرفق والياسرة ، وقرروا سنتهم وأحكامهم ، وامتزجوا بهم للغاية ، حتى كأن الجليلين واحد ، كما يتبين من بقاء لغتهم فيهم .

قال : أمانة مالطة فذهب بعضهم الى أنها عربية فاسدة ، وذهب آخرون الى أنها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم ، وما برحت مستقلة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وانها لم تتغير فى مدة القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضاً فينيقية . ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق بأخلاقهم والسلوك بسنتهم أيما ملكوا فلم يجزوا الرعية هنا على التكلم بلغتهم . والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربراً ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية . قال : ثم بقيت فى دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير وانما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية . ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للعربية ، نحو بير وصيد ، فانهما فى الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد فى كلتا اللغتين . والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وان كانت قريبة من هذه أيضاً . اهـ

قال أحمد فارس : قلت : دليله هذا أهوى من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سواء ما عدا موافقتهما فى تصريف الأفعال والأسماء وفى الضائر وغير ذلك من أساليب الكلام . ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف

الفينيقية ولا العربية ولا المالطية ، وان كانت لغته ، ويتعرض للحكم والاستدلال .
فكيف يحكم على الشيء وهو يجمله وكيف يقول : ان لغة المسلمين بقيت في أهل
مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الآن انها فينيقية لمجرد وجود
كلمتين فيها ؟ وانما حمله على هذا بفضه وبفض أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم أنهم
ليسوا منهم بل من الفينيقين اه

قلت : لغة مالطة عربية لا شبهة فيها . وانما ثبتت العربية في مالطة برغم انقراضها
من صقلية وسردانية والأندلس وجنوبي فرنسا وجميع البلدان التي احتلها العرب من
أوربة ، لكون أصل لغة تلك الجزائر والبلدان لاتينيا ، فلما تقلص ظل العرب عنها
رجعت اليها لغتها الأصلية وانقرض العربي منها بالكلية . فأما مالطة فلقتها الأصلية
لم تكن لاتينية بل كانت الفينيقية وهي أخت العربية ، فلما جاءهم العربية بعد فتح
الاسلام لمالطة كانت كأنها نزلت في وطنها وثبتت فيها ثبوتاً لم يزل له خروج المسلمين
من مالطة كما ذهبت العربية من البلدان الأخرى التي أهلها الأصليون لاتينيون ولغاتها
الأصلية لاتينية

ثم قال أحمد فارس : والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل
العلم والتمدن ، كالذين كانوا في صقلية وغيرها ، فاني لم أجد قط فيها قرأت من كتب
الأدب والتواريخ قال المالطي . والسيوطي رحمه الله لم ينادر في كتاب الانساب الذي
سماه « لب اللباب » أحداً من أهل العلم إلا ذكره ما خلا النسب إلى مالطة اه
قلت : أتذكر أني قرأت في بعض كتب التراجم ، من مؤلفات أهل الأندلس ،
اسماء رجال منسوين الى مالطة . وفي مجمع ياقوت يذكر نقلا عن السلفي : سميت
أبا العباس أحمد بن طالوت البنلنسي بالشقر يقول : سميت أبا القاسم بن رمضان المالطي
بها يقول : كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها
أوقات النهار الصنج ، فقلت لعبد الله بن السمطي المالطي أجز هذا المصراع :

جارية ترمي الصنج فقال : بها النفوس تبتهج

كان من أحكمها الى السماء قد عرج
فظال الأفلاك عن سر البروج والدرج

وأما قول ياقوت أنها بلدة بالأندلس فليس يمنع من كونه يريد بها هذه الجزيرة
السماة مالطة الواقعة في بحر الروم ، فقد جاء في تاج العروس : ومالطة كصاحبة ووقع
في التكملة مضبوطا بفتح اللام والمشهور على الألسنة سكنها بلدة بالأندلس كما نقله
الصاغاني وهي مدينة عظيمة في جزيرة من بحر الروم ، شديدة الضرر على المسلمين في
البحر، يمظمها النصارى تعظيماً بالغا وبها وكلاء عظامهم من كل الجهات. ولقد حكى لي
من أسرها عن زخارفها ومائة حصونها وتشييد أبراجها وما بها من عدة الحرب
ما يقضى بالعجب ، جعلها الله دار اسلام بجرمة النبي عليه الصلاة والسلام. فأنت ترى
ان كتاب العرب كانوا يجعلون مالطة من الأندلس كما كانوا يجعلون ميورقة ومينورقة
وسردانية وغيرها

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الذي اعتمد عليه كلاماً عن جزيرة « كوترو » من
أحوال مالطة فقال: ان اسمها جزيرة غورش وانها بالفرنجية كوتسو وان هذه اللفظة
يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر
ميلا في عرض ستة ، وأهلها نحو خمسة عشر ألفا ، وجملة قراها ست ، ومدينتها
تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة . وبقول الجزيرة
وفاكيتها طيبة جداً ، وكذا عسلها . وزعم بعضهم أن مالطة وغورش وكونة كانت
في الأصل جزيرة واحدة وحدث من الزلازل ما فرقتها . اه

وأردف أحمد فارس رحمه الله هذا الكلام بقوله : رأيت جزيرة غورش غير مرة .
أما اسمها فأظنه محرفاً عن لفظة الهودج ، سماها به المسلمون لشدة شبهها به ، كما سماوا
الجزيرتين الاخرين كونة ولفلة لصغرهما . الا أن أهلها ينطقون بها بالعين المعجمة
لا بالهملة كما ينطق بها أهل مالطة .

ثم ذكر أحمد فارس أن أهل مالطة رغمًا من كون لغتهم فرعاً عن العربية فليس منهم
من يحسن قراءتها والتكلم بها ، وان هناك دار كتب موقوفة فيها ثلاثة وثلاثون ألف

صفر ، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل . ثم ذكر أن في لغتهم امالة كثيرة فهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين والبطيخ بتيح بالحاء المهملة والخيار حيار بالحاء المهملة أيضاً وللأجاص لنجاص وللدلاع دليع وللخبز حبس وللخوخ حوح بالحائين المهملتين ، ويقولون بس بمعنى حسب ، ولكن يدلون سينا زايا ويكسرون أولها .

ثم قال : انه لا يتكرر أن كثيراً من الكلام العربي الذي بقي في مالطة مستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللازم واراادة الملزوم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلاً « وحلت » للوقوف في الأمر الصعب وأصله الوقوع في الوحل خاصة ، ونحو « الطلاب » للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب . ونحو « معلوب » للنجيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً ، وفتيت أى قليل وهو من فتت الشيء اذا كسرتة وصغرت جرمه . قال : وان أهل غورث ينطقون بالأحرف الحلقية على حقا الا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور ومفتوح ويضمون ما قبل الألف نحو قاعد وهلم جرا ، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهى لغة ربيعة وقوم من كلب كما في الزهر ويسمى الوكم .

وذكر من اصطلاحاتهم أنهم يعبرون عن الدخول في الفعل بلفظة « سائر » وهى نظير قول أهل الشام ومصر « رايح » فاذا قال الماطلى : أنا ساير نساير فهى كقول الشامى أو المصرى : أنا رايح أسافر .

قلت : يظهر أن ساير هذه كانت مستعملة في المغرب وقد نحتوها فبقى منها سين مفتوحة ، فيقولون عن شخص مثلاً هو في حال الأكل سياً كل . وأحياناً يقلبونها تاء فيقولون تياً كل ، ويقولون في المغرب في مثل هذه الحالة كياً كل . وأظن الكاف هنا منحوتة من « كائن » وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة « عمال » فبدلاً من أن يقول هو عمال يأكل تجده يقول « عمياكل » وفى بعض جهات من شمالى لبنان يقلبون الميم نونا فيقولون « عنياكل » .

ثم ذكر أحمد فارس اصطلاح أهل مالطة على ادخال لفظة « تا » بين المضاف

والمضاف اليه ، فيقولون مثلاً « الرجل تالبيت » وذهب أحمد فارس الى أنها منجوتة من متاع ، قال : فان أهل المغرب يدخلونها كثيراً في الاضافة ويتدون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ . ومما يؤيد هذا التوجيه أن المالطيين لا ينطقون بالعين اذا وقعت في آخر الكلمة فيقولون مثلاً تلا وقللا في طلع وقلع ، قال أحمد فارس : وقلب العين ألفاً أو همزة هو من أساليب العرب ، كما في تفصي وتفصع ، وأقنى وأقنع ، والشمى والشمع ، وتكأ تكأ وتكمع ، وزقاء الديك وزقاعه ، وزأزأ وزعزع ، وبدأ وبدع ، والخباء والخباع وغيرها ، حتى أنهم قبلوها متوسطة كما في تارض وتعرض ، ودأم الحائط ودعمه ، انتهى .

قلنا : ان الهمزة والعين من مخرج واحد فلا عجب أن تأتي الألفاظ بالهمزة وبالعين ومعناها واحد .

ثم قال أحمد فارس : انهم في مالطة يجعلون الهاء حاء ، وأنشد من شعر المالطيين :

المحبوب تا قلبي سافر ليلى ونهارى نبكيح
جعلنلو بدموعى البحر وبالتنهيديات تا قلبي الريح
أى ليلي ونهارى نبيكيه . وابدال الهاء حاء لغة من لغات العرب ، قالوا المليه والمليح ، والده والمدح ، وتاه وتاح ، الى آخره .

قال : ومما بقى عندهم من فصيح العربية قولهم دارنادية . وحققها دارندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام دارناطية . ويقولون للداية قابلة ، ويقولون للرهان مخاطرة ، وللعلية غرفة . ويقولون عن لى بمعنى بدالى ، وتجالدوا وهو أفصح من تماركوا ، وزفن أى رقص ، ويوقال وهى أفصح من قول أهل الشام شرية أو نعاة . ومن فصيح كلامهم يمارى أى لا يقنع بالحق ، ويشرق بالماء ، ويستقصى ، وفرصاد للتوت ، وسفود ، وأهل الشام يقولون سيخ وشيش . ويقولون تقرر أى تباعد من الأذناس ، وعسلوج للقضيب ، وجلوز للبندق الذى يؤكل .

قال : ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجح أن أصل المالطيين من الغاربة . ولكنه في محل آخر قال : انه لا شك في كون اللغة المالطية

عربية ولكنى لست أدري أصل هذا الفرع أشامى هو أم مغربى ، فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية ، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى فيقولون مثلاً القداس والقديس والتقرين والأسقف مما لا يفهمه أهل المغرب اه .

قلت : ان فى المالطية ألفاظا واصطلاحات شامية ، وقد ورد هذا الرأى فى الانسيكلوبيديّة الافرنسيّة ، ولكن الألفاظ المغربيّة هى بدون شك أكثر .

وذكر أحمد فارس من أوزان كلام مالطة فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة ، والمصدر على هذا الوزن معروف فى العربية قال تعالى ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أى من بقاء ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أى كذب . ثم قال : ان بقاء العربية فى مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على مالها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الأجيال ، ألا ترى أن مالطة قد تماقت عليها دول متعدّدة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهاها لهم وبقوا محافظين على ما عندهم خلفا بعد خلف ، وهؤلاء الانسكلاب يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات وما تهاها لهم أن يعمموها عند المالطين . ويقال ان الذى تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة

بحث دقيق جليل

عنه مغازى العرب فى أوربة ومهزائى البحر المتوسط

بقلم

الأستاذ الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالى رئيس الحزب الوطنى فى تونس

كان بلغنا أن لدى الأستاذ الأجل الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالى ، وثائق ومعلومات لا توجد عند غيره ، فى موضوع فتوحات العرب فى جنوبى أوربة ، فاقترحنا عليه كتابة شىء فى هذ الموضوع نجعله كالقلادة فى جيد تأليفنا هذا ، فتفضل علينا حفظه الله ونفع به الاسلام بالخلاصة التالية :

ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية فى أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه . فانه حين ندب أخاه من الرضاع ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، لفتح بلاد شمالى افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير والى سببلة من قبل البيزنطيين ، ندب القائدين البحرينىين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ، وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالمسير الى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية فى ذلك . تلك الوصية الخالصة التى يقول فيها : ان القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وانكم ان فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر . وقد اتخذ ولاه شمالى افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التى يسرون عليها . وأول أمير شرع فى اعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان

ابن النعمان ، شيخ وزراء الدولة الأموية ، بعد أن دان له شمالى افريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من قبط مصر ، وسار على منهاجه في ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب ، فجاز بجيوشه أرض العدو ، وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاهما في ذلك اسماعيل بن أبي المهاجر الذى تقلد اماره شمالى افريقية في عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبى أوربة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، ولم يعد إلا بعد أن أئخن في ايطالية ؛ وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة .

وفى ولاية عبيد الله بن المحجّاب لافريقية جهاز أسطولا كبيراً جعل امارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى ، ففزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل ، ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربى بسبب تخميس أعشارهم لتملك شطوط ايطاليا وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان ابن النعمان فى شمالى افريقية .

وفى سنة ٢٠٧ ، بعد استقرار الدولة الأغلبية جهاز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التيمى لمانازلة سردينية ، ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ ، وكانت اماره الأسطول والجيوش فى هذه المرة لقاضى القضاة الامام أسد بن الفرات ، فملك مازرة وحاصر سر كوسة ، وحول أسوارها أدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب أسطول الأندلس القائد اصبع المعروف بفرغوسن . وبعد أن استقرت الأمور فى البلاد المفتوحة قلد زيادة الله اماره ايطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، وما زال موالياً للجهاد حتى فتح بليرم و نابولى .

وفى ولاية أبى عقّال الأغلب بن ابراهيم استؤنفت حرب التحرير فى ايطالية سنة ٢٢٤ وتم فتح صقلية .

وفى ولاية الأمير محمد الأول تقدمت الفتوحات فى شطوط ايطالية واستمرت

من سنة ٢٣٣ الى سنة ٢٤٠ ففتحت باتية وقطانية وبشيرة .

وفي ولاية الأمير أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ندب والى صقلية العباس ابن الفضل لغزو قصر الحديد ومدينة شلقودة وجهاز الأسطول وأمر عليه أخاه وسره لفتح جزيرة اقريطش فكان له واقعة مهولة في البحر الرومي مع أسطول بيزنطية وفي عهد أبي الفرائق محمد الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد خفاجة الولاية على ايطاليا وأخرجه سنة ٢٥١ لفتح جنوة ففتحها وتقدم إلى جبال الألب واستمر فاتحا الى نهاية سنة ٢٥٢ وفي سنة ٢٥٣ سيرت بيزنطية أسطولا ضخما ، لمحاربة المسلمين في شطوط أوربة الجنوبية ومنع جحافلهم من التقدم في فرنسة ، فواقهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة .
وفي سنة ٢٥٥ غزا الأسطول الأعلي جزيرة مالطة واستولى عليها وألحقها بشمالى افريقية .

وفي عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد الحسن بن رباح ولاية جنوبي أوربة ونهده الى الغزو فيما يليها ؛ فتقدم الى مرسيلية وفتح البروفنص فاستنجدت فرنسة بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا ، فتلقاه الأسطول الافريقي في عرض البحر الرومي فدارت بينهما معركة مهولة كان الفوز فيها للبيزنطيين بعد أن تحطمت شوانيمهم والتجأت بقايا الأسطول الافريقي إلى بليم . لكن الجيوش الاسلامية كانت تتوغل في فرنسا واستمرت على ذلك من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٧٢ فملكتم بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا . غير أن عين البيزنطيين لم تم عن هذه الفواجع ، فأعادوا ككرة حملتهم البحرية وحاولوا في هذه المرة قطع خطوط الاتصال بين جنوبي أوربة وشمالى افريقية ، فاحتل أسطولهم مدينة سبرية فقاومهم المسلمون مقاومة عنيفة منعتهم من التقدم .

وفي سنة ٢٧٥ جهزت افريقية أسطولا عظيما لتمقب أسطول البيزنطيين وشل حركتهم عن التقدم في الشطوط ، ولم يلبث أن اشتبك بالعدو وضربه الضربة الحاسمة ومكن سيادة المسلمين في ايطاليا وجانب من فرنسا :

واستمر نجم الاسلام صاعدا في أوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة وأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تمزيق المسلمين في ولايتهم الأوربية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل سعى في الانتكاث حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بالاسلام وتذوقوا حلاوة تحريره ايام من ظلم الأمراء الاقطاعيين ، وطفنان الكنيسة الكاثوليكية واستمر ذلك الى أن ظهرت النبعة الآتمة نعمة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط ، وقدر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح في أوروبا وانقلبت جيوش افريقية مغيرة على العالم الاسلامي لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق وبسبب ذلك تحولت السياسة الاسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب الى الدفاع والتسليم .

ولم يحن أحد على الاسلام ماجناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون واليك البيان :
لما تغلب عبيد الله المهدي على افريقية وزال عنها حكم بني الأغلب كرهت الولايات الاسلامية في أوروبا أن تقدم طاعتها للمتغلبين ، فأجمع أصحاب الشأن فيها على اعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أوروبا الى افريقية ، فبايعوا بالامارة القائد أحمد ابن زيادة الله بن قره ب ؛ وبمجرد انقضاء هذه البيعة كتب الأمير الى المقتدر بالله الخليفة العباسي بالطاعة ، فأنفذ اليه المقتدر بالتقليد والخلع والالوية وطوق من الذهب . ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدي أخذ يسعى في بث الدسائس والفتن بين المسلمين في أوروبا ، وما زال بهم حتى اختلت الامور على ابن قره ب فخلع سنة ٣٠٣ وقتل بعد أن وصل إلى المهديّة ؛ وعقب ذلك اجتمع أولو الحل والمقد من المسلمين في دار الامارة بيلرم فكتبوا الى المهدي ، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهز جيشا لغزو المشرق

بقيادة الطاغية البربري القائد حباسة بن يوسف يلتمسون منه تعيين الولاية والقضاة وأن يبق لهم الجيش يدراون به الاخطار أمام الاعداء الى غير ذلك من الشروط التي تضمن لهم الاستقلال الداخلي ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق ، فأبى أن يجيبهم الى هذه الطلبات العادلة ، وأخرج اليهم الجيوش والاساطيل وعين عليهم سعيد بن المضيف فحاصرم شهورا ، وكانت البلاد ممتنة عنه فتنحى عنها وأرجل جنود كتامة في أرباض الشواطئ المفتوحة للنهب والسلب ، ففعلوا الافاعيل التي أفرزت النساء والذرية ؛ حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفزع نزعوا إلى طلب الأمان فأمנם بلا قيد ولا شرط . وعلى أثر ذلك احتل البلاد وهدم أسوار المدن وجردها حاميها من السلاح والخيول وفرض المغارم الكثيرة ، ونصب سالم بن أبي راشد أميراً عليها وعززه بجيش من كتامة فكان دأبهم الاغشاش في الظلم وسلب الأموال ، فانقبضت النفوس وخارت المهمة عن التوسع حتى طمع فيهم رعاياهم الايطاليون والفرنسيون

وفي عهد أبي القاسم بن عبيدالله المهدي عين لولاية أوربا خليل بن اسحاق الطاغية ؛ ففضى في الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله ، وجعل المسلمين يفرون أفواجاً أفواجاً إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة ٣٢٩ إلى شمالي افريقية كان يفخر بمظالمه ، فقد حضر مجلساً من وجوه الدولة البييدية في قصر الامارة وكانوا يتباحثون في شئون الدولة ، فقال : إني قتلت في إمارتي ألف ألف نسمة ، فرد عليه أبو عبد الله المؤدب ، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة مايكفيك »

وفي أيام الأمير تميم الملقب بالمعز لدين الله وجه القائد جوهر في الغزوة الثانية على مصر سنة ٣٥٧ بعد وفاة صاحبها كافور الأخشيدى فاستولى عليها وبني له مدينة

القاهرة . وفي سنة ٣٦١ رحل المعز إلى المشرق وأخذ القاهرة عاصمة للملكة واستخلف على افريقية أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية ؛ فكان همه ضبط البلاد وتكوين الشعور بالوحدة البربرية ، فشعرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين في أوروبا بسرمان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الاسلامية ، فأخذوا يواثبون المسلمين في كل مكان ، وما زالوا يجمعون ويؤلبون عليهم الى أن وافقهم سنة ٣٧٢ ، فشدوا قواهم لمناجزة المسلمين في فرنسا . ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله على جنوبي أوروبا أن ينهد لقتالها فتحرك اليهم في جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك ارتدت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون فوزاً عظيماً . فما كان من الملك روجار النرماندى قائد هذه الحملات الصليبية الأولى إلا أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الاسلام في أوروبا وافريقية

وكان النرمانديون نزلوا من شمال فرنسا إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقبونهم ويناجزونهم في إيطاليا ويفتكون منهم المدن ، مدينة إثر مدينة ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية في جنوب أوروبا . ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعز بن باديس إثر الزحفه الهلالية التي سيرها اليهم البيديون سنة ٤٥٢ من مصر لتقويض معالم شمالى افريقية

ولم تقف أطاع النرمانديين على ازالة الحكم الاسلامى من أوروبا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين في مواطنهم الآمنة بافريقية ، فهجموا في سنة ٤٧٦ على المهديّة دار الملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وكانت المدينة مفتوحة غير محصنة فتغلبوا عليها وعلى زويلة ، وأحدثوا فيها مقتلة ذريمة ، وحرقوا وخرّبوا المعالم المشهورة وأخيرا صالحهم تميم بن المعز بن باديس على مائة ألف دينار وما انتهبوه من الاموال وسبوه من النساء والذراري .

ولما انتقل الحكم الى الامير حسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥١٦

أراد غسل العار الذي لحق الدولة من فعل الزمندان ورد ماقدته من الأقطار
الواسعة في أوربا ، فندب لذلك حليفه الأمير على بن يوسف بن تاشفين اللتوني
صاحب العدوتين أن ينهد لقتال الزمندان ؛ فأغزى أسطوله شطوط أوربا الجنوبية ،
وكان بقيادة أبي عبدالله ميمون ، فأغزى فيها قتلا وسبيا ورد أمم النصرانية على أعقابها
بعد أن هلك من الطرفين عدد لا يحصى . ولم تخمد هذه الكارثة هم الزماندين وتعد
بهم عن استئناف حملتهم على المهديّة ، فأعادوا الكرة عليها في أساطيلهم أواخر
جمادى الأولى سنة ٥١٧ فتلقاهم آساد العرين في كل مكان وتخطفتهم السيوف حتى
أيدوا عن آخرهم ، وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ، فكانت وقعة
عظيمة أنعشت أرواح المسلمين بعد طول الخمود ؛ ولكن الصليبيين لم يكفوا عن
متابعة الغارة فأعادوا الكرة على المهديّة سنة ٥٤٣ فاحتلوها بعد وقائع مهولة وخرج
منها السلطان حسن بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بجملته وحاشيته الى جزائر
بنى مزغناى (الجزائر) وجعل الصليبيون المهديّة قاعدة لحركتهم الحربية في شمالي
افريقية وشن الغارة منها على ما يليها من الشطوط التي استولوا عليها ، وقد مكثوا بها
الى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على في المحرم سنة ٥٥٥ ولولا نجده
لكانت بلادنا اليوم بلاداً نصرانية من غير شبهة . انتهى

كتابات عمرية

على القبور الاسلامية في مالطة

بعد ان آعمنا كتابنا التضمن غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ومن جملتها جزيرة مالطة اطلقنا على رسالة للمستشرق الايطالى (ايطورى روسي) Ettore Rossi الذى يعد من اعلم المستشرقين باحوال مالطة ان لم يكن اعلمهم وهو الذى حرر الفصل المختص بمالطة في الانسيكلويدية الاسلامية واجتمعنا مع الاستاذ المشار اليه في رومة في هذه الايام الاخيرة وتباحثنا في تاريخ مالطة وكثير مما يتعلق بشؤونها وهو الذى قدم لنا رسالته هذه باللغة الايطالية فاجيبنا ان ننقل ما جاء فيها من الكتابات العمرية التى وجدت على القبور الاسلامية في مالطة والتى جمعها ايطورى روسي وصورها بالفوتوغرافية ونشر صورها في الرسالة المذكورة فنحن آثرنا نقلها كما وجدناها في رسالته آماما للفائدة

ومما جاء في صدر هذه الرسالة ان زول العرب في مالطة وقع بحسب الرواية المشهورة في سنة ٢٥٦ للهجرة وانه من المعلوم ان ابا الاغلب ابراهيم غزا جزيرة صقلية سنة ٢٢١ للهجرة اى ٨٣٥ - ٨٣٦ للمسيح واستولى عليها فقير معقول ان يكون استولى على صقلية وترك مالطة وهى اقرب الى افريقية من صقلية فلا بد ان يكون استيلاء المسلمين على مالطة وقع قبل سنة ٢٢٦ للهجرة وفق ٨٦٩ - ٨٧٠ للمسيح

أما تاريخ استخلاص مالطة من ايدي المسلمين فيذكر ان وقع بين سنة ٩٩٢ للمسيح وسنة ١٠٢٥ وذلك بالغارة البيزانطية . ولكن مما لا شك فيه ان المسلمين بعد ان استرجع المسحيون مالطة بقوا يسكنون الجزيرة نحو من مئتي سنة اى الى سنة ١٢٢٤ بل الى سنة ١٢٤٩ بحسب رواية العلامة آمارى Amari مؤرخ صقلية

وهذه هى نصوص الكتابات التى وجدت في المقابر الاسلامية في مالطة ونقلها كما وجدناها في الرسالة المذكورة :

بسم الله الرحمن الرحيم | وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليماً لله | العزة
والبقا وعلى خلقه كتب الفنا ولكم في رسول الله اسوة حسنة هذا قبر | ميمونة
بنت حسان بن علي الهذلي عرف ابن السوسي | توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس
السادس عشر | من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة | وهي تشهد
ان لا اله الا الله وحده لا شريك له

انظر بعينيك هل في الارض من باقى | او دافع الموت اول الموت من راقى
الموت اخرجنى قصراً فيا اسنى | لم يتجنى منه ابوابى واغلا قى
وصرت رهنا بما قدمت من عمل | محصا على وما خلفته باقى
يامن رأى القبر انى قد بليت به | والترب غبر أجفانى و | آماق
فى | مضجعى | ومقامى فى البلا | عبر | وفى | نشورى | اذا ما جئت خلاق
| اخى فجد | وتب | .

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم (. . .)
توفى . . . يوم الأربعاء ودخل قبره يوم الخميس من العشر الاو (. . .)
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعو ربكم تضرعا وخفية انه لا يجب اله (. . .)
(. . .) محمد وآله وسلم تسليماً ان ربكم الله
(. . .) ثم استوى على العرش يفتشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر
والنجوم مسخرات

بأمره الا له (؟)

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً فاز

(كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم) ثم يوم القيامة فمن زحرج عن النار
بوادخل الجنة فقد

وما الحيات الدنيا الا متاع الفرور هاذا قبر الشيخ المرحو (م . . .)

توفى رحمه الله فى العشر الأول من صفر عام ثمانية وسبعين (ن . . .)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد... توفي يوم الثلاثاء في ذي الحجة سنة
ثلاث و... .

(...) الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
(...)

(...) العلى العظيم لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر
بالتطاغوت (...)

(... لقد جاءكم رسول من أنفسكم رؤوف فان تولوا لا اله الا هو عليه ...)
(... من شعبان سنة ستة واربعين وخمسمائة رحمة الله وبرضوانه وصلى الله على
محمد (...)

(... أجد) وركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما
الحيات (...)

(...) فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر (...)

كل نفس (...)

سلام على أهل (القبور ...)

... عند |ه الا باذنه يعلم ما بين (...)

... لمطى محمد

قف بالقبور ...

بسم الله الرحمن (...)

هذا قبر (...)

(... زح) رج عن النار و (...)

(... |) لا متاع الغرور

... (الرحيم) هذا قبر أمة الله بنت أبو القاسم ابن عمرو (ة)
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد
... الله ...

وانما تو (فون أجوركم ...)
بسم الله الرحمن (الرحيم)
... (١) براهم الصمطى
بسم الله الرحمن الرحيم
... والح ...

توفى يوم الخميس الثامن من ... سنة ...
... وخمسة

بسم الله الرحمن الرحيم (...)
... لله الله (...)

بسم الله الر (حمن الرحيم ..)
... النار وادخل الجنة ...

عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

لا اله

الا الله

محمد ر

سول الله

بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو الحى القيوم (...)

أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا (...)

(...) الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الزور

(...) شربة ولم يأكلوا من كل رطب ويايس
(... صلى الله عليه وسلم وآله وسلم تسليما ان ...) (...)
(...) ... الا له ... (...)
(... أجور) كم يوم القيامة فمن زحرج عن النار و (...)
(...) و لا نوم له ما في السموات وما في الأرض (...)
سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يأكلوا ما بين رطب ويايس

هنا قبر ؟

... جد

العزير ...

ورحم الله من

دعاه بالرحمة

(تم والحمد لله في البداء والنهاية)

- ٨٥ } التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول تأليف الشيخ منصور علي ناصف
 } مجلد بالقماش في خمسة مجلدات وهذا الثمن مدة الاشتراك فقط
- ١٠ أفضية الرسول صلى الله عليه وسلم للقرطبي
- ١٥ تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد بك الحضري
- ٢٠ محاضرات الدولة العباسية » »
- ٣ غوث العباد ببيان الإرشاد تأليف الشيخ مصطفى أنى سيف الحماني
- ٥ دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك الى الامام أحمد في الرد على ابن تيمية
- ٨٠ شرح بهجة لشيخ الاسلام زكريا الانصاري في خمسة أجزاء
- ٤ مبادئ اللغة للخطيب الاسكافي
- ١٠ ألفية السيوطي في علم الحديث مع شرح واف لفضيلة الاستاذ احمد محمد شاكر
- ٢ ألفية السيوطي في النحو للامام جلال الدين السيوطي
- ٥ الحكمة البالغة ديوان خطب منبرية للخضوب
- ١٨ لطائف المعارف لابن رجب الحنبل مجلد بالقماش
- ٢٢ قاموس آيات القرآن الكريم مجلد بالقماش خير مرشد للآيات
- ٧ } بهجة الحاوي وبهامشه التيسير في نظم متن التحرير . والتدريب في نظم غاية
 } التقريب للمعري على مجزع

أحسن القصص

- ٥ مختصر قصص الأنبياء
- ٨ مختصر أولى العزم من الرسل: نوح، ابراهيم، موسى، عيسى، محمد عليهم الصلاة والسلام
- ٨ مختصر سير الخلفاء الراشدين

تحت الطبع

- مختصر سير أئمة الدين وبعض الصالحين
- مختصر سير أمهات المؤمنين وبعض شهيرات النساء المسلمات

فهرست الكتاب

الصفحة	
٤	المقدمة
٥	ملحق بالمقدمة
٧	كلمة بين يدي الرحلة لتتبع الآثار العربية في الاقطار الغربية
١١	الكلام على طلويزة وقرقشونة
١٣	طلويزة
١٤	قرقشونة
	مبدأ غارات العرب على فرنسة وما اعتمد عليه المؤلف من
١٤	الروايات عنها
٢٩	خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد
٤٧	الولاية على الأندلس بعد موسى بن نصير
٥٠	رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسة
٦٠	حرب القيسية والبيانية
٦٤	الكلام على مدينة أربونة
٧١	السمح بن مالك الخولاني وغارات العرب على فرنسة
٩٣	واقعة بلاط الشهداء

الصفحة

- غارات العرب على فرنسة ، من بعد جلائهم عن أربونة
الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ م ١١٤
- أساطيل الاسلام في الأندلس وافريقية ١٣٩
- نزول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك على سافواى
وييمونت وسويسرة الى دور اجلائهم عن فرنسة ١٦٠
- الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التي ترتبت عليها
كتاب غارات العرب على سويسرة في أواسط القرن
العاشر - تأليف الدكتور فرديناند كلر ٢٤٤
- آثار كتابة في كنيسة القديس بطرس مونتجو ٢٦٢
- أسماء عربية في البلاد ٢٦٤
- أسوار وطرق وكهوف وغير ذلك ٢٦٦
- المسكوكات ٢٦٩
- الملابس العربية ٢٧٢
- القصص على آثار العرب في وادى فاله من سويسرة ٢٧٦
- فتح المسلمين لمالطة ٢٨٤
- مغازى العرب في أوربة وجزائر البحر المتوسط ٢٩٦
- كتابات عربية على القبور الاسلامية في مالطة ٣٠٣